

طوق الحمامة في الألفة والألاف

رسالة في أوصاف الحب ،
ومعانيه ، وأسبابه ، وأعراضه

تأليف
ابن حزم الإندلسي
٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م

شكّله وعلّق حواشيه وقدم له ووضع فهرسه
نزار وجيه فلوح

راجعته
الدكتور ياسين الأيوبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

بقلم الدكتور ياسين الأيوبي

عرفته منذ ثلاث سنوات، طالباً في قسم الدراسات العليا في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، أديباً واعياً لحرفة الكتابة والبحث، متطلعاً إلى غدٍ أدبي رفيع، وحضور نقدي مشهود.

مرّت الأعوام الثلاثة، وتخرّج نزار فلّوح حائزاً أرفع درجة تمنحها الجامعة اللبنانية، لرسالة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها الموسومة: «عالم يوسف إدريس الروائي».

أثبت نزار فلّوح في إعداد رسالته ومناقشته إياها، مستوى عالياً من البحث الرصين، والأداء الجيد، وتحريّ الدقة والموضوعية، واستخلاص النتائج، وعرض الأفكار والآراء... ما جعلني أعترف أمام الجمهور أثناء مناقشته بأن دوري في الإشراف على رسالته وبحثه الأكاديمي، لم يكد يتعدى إعداد الخطة المرسومة لموضوعات الرسالة وبعض الملاحظات الشكلية والفنية، وأنه واحد من عدد قليل من الطلبة الذين شرفوني باتخاذ مشرفاً لهم، لأنهم لم يكلفوني جهداً يذكر جرّاء الإشراف، بينما بلغ الجهد في مرافقتي لبعضهم، والوصول بهم إلى مراتب التخرج، محصّلة عالية من التعب والإرهاق، لدرجة امتنعتُ فيها عن الإشراف زهاء عشر سنوات متتالية.

ولم تختلف وتيرة الإشراف والمراجعة لكتاب: «طوق الحمامة»

لابن حزم الأندلسي، عما كانت عليه في رسالة الماجستير المنوه بها أعلاه. فالكاتب هنا أنضج علماً وأوسع أفقاً، وأبعد شأواً في القراءة الجادة، والتعليق وتحرير الحواشي، وضبط النص وتقديمه إلى القارئ.

فقد انكبَّ فلُوح على كتاب ابن حزم يقرأ ويشرح، ويقارن ويراجع كل ما له علاقة بموضوع الكتاب، ولا سيما مختلف الطبعات التي توالى على نشر الكتاب، منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم، رافضاً أن يكون عمله كأى كاتب آخر يقوم بمراجعة كتاب مراجعة سريعة، يلبي فيها رغبة الناشر، ويتلقى عليها الأجر المادي المحسوب.

فما كان منه إلا أن جمع كل ما صدر عن دور النشر العربية التي تولّت نشر هذا الكتاب الشيق، ليجد أن هناك نسبة عالية من الطبعات، لم تُصَف إلى الكتاب شيئاً يستحق التنويه. . إنْ هي إلا نُسخٌ متكررة لبعضها البعض، باستثناء طبعتين أو ثلاث، بذل أصحابها قدراً ملحوظاً في التحقيق والشرح والتقديم، أشار إليها الأستاذ فلُوح بأمانة موضوعية.

ومن يقرأ تقديمه المنهجي للكتاب، يدرك كم كان حريصاً ألا يخرج كتابه كأى من الطبعات الأربع عشرة التي صدرت حتى الآن، سواء منها المحقّق المستوفي قدراً عالياً من الجودة والموضوعية، أم المتكرّر المنسوخ بعضه عن بعض؛ فرأيناه يقرأ كل ما صدر وطُبِع وُشِرِح وُحِرّر، ويتأمل مواضع النقص والتعثر والاضطراب، ويقارن ويراجع، ويسترشد بأساليب العلماء المحققين والكتاب الدارسين، ليقيل العثرات ويسدّ النقص، ويصوب الخطأ

والمنحول، ويضيفَ إلى ما قدّمه السابقون شروحاً وتعاليق، وتخریجات لآیات وأشعارٍ وأحاديث وأعلام، ومسائل لغوية وفقهية وأدبية وتاريخية، اقتضتْ منه التوقف والنظر، فنعماً شرحَ وعلّقَ وخرّجَ وقَدّمَ!

ولا أجدني محرّجاً إذا قلت - وأنا لا أغالي هنا ولا أتواضع - إنَّ مراجعتي لهذا الكتاب لا تزيد على القراءة الدقيقة المتأنية التي يمكن أن يقوم بها أي باحث مخلص أمين، لا تخلو قراءته من تصحيح عشرات القلم، وسهوات المعالجة، واقتراح وتعديل مستحسنين لا يقدمان أو يؤخران في جوهر العمل . .

إنّ هو إلّا استئناس وطمأنينة، يسكنُ إليهما الكاتبُ والقارئ، جرّاءَ تلافي حدوث خلل ما في الأدواء والمعالجة، أو شطط عابر، أو مغالاة في الطرح والرؤية، فيُضبطُ الخللُ، ويستقيم المسارُ وتخلصُ الكتابة من كل شائبة.

ومع ذلك، فأنا لا أزعّم أن ما قمت به قد حقق الغاية المرجوة، فما أحوّجني إلى من يراجعني، وينقّي كتابتي ومعالجاتي من زؤان التذوق الذاتي، وشعث التفرد في التفكير والصياغة .

وذلك شأن كل قلم يتمرّد على المسلّمات الموروثة في قواعد التفكير والكتابة، ويسعى أن يكون له نهجُه وأداؤه وحضوره الشخصي في كل ما يصور ويحرّر.

ولستُ وحدي الممسكُ بناصية التفرد والتميّز، فهذا هو نزار فلّوح ينحو هذا المنحى، ويسعى جاهداً أن لا يكون قصبةً تُطاوع الريح في سكونها وهبوبها، بل داليةً معرّشةً وصنوبرة معرّجةً في

رقيع السماء، يُطاول المدى، ويعتصر المداد، مقدماً لقارئه أنفع الزاد.

تباركت الكلمة التي تنتسب إلى قدس الحقيقة،

وتتدثر بجلباب التبصرة والاعتبار. . .

ياسين الأيوبي

طرابلس - لبنان . الرابع من شهر رمضان سنة ١٤٢١هـ

الموافق: الثلاثون من تشرين الثاني سنة ٢٠٠٠م

مقدمة

بقلم: نزار وجيه فلوح

من أمتع الأشياء أن يُقدم كاتبٌ على قراءة أثر تراثي في أجمل ما يشغل الإنسان في مختلف الأزمنة والعصور. . ألا وهو الحب، فيقف على نص أدبي بليغ، ندب نفسه له واحد من كبار صنّاع الكتابة في التاريخ العربي، وصاغه بكثير من العناية والتشويق ألا وهو: رسالة «طوق الحمامة في الألفة والألاف» لإمام الأندلس وأديبها وفقيهاها أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي. وتشير الدلائل التاريخية والأدبية إلى أنّ هذه الرسالة كانت على صورة مختلفة عن النصّ الذي وصلنا، بمعنى أن نصّ «الطوق» الذي نتداوله اليوم لا يمثل حقيقة الرسالة كما وضعها ابن حزم في عصره. وهو ما سنعود إليه بمزيد من التفصيل والإيضاح.

ولكن قبل ذلك، لا بد من إلقاء الأضواء على صاحب هذه الرسالة، في حياته وشخصيته ومؤلفاته تمهيداً للدخول إلى لبّ الرسالة ودراستها كما ينبغي. .

ابن حزم: حياته وشخصيته

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سُفيان (أو صفيان) بن يزيد الفارسي؛ وتعيد المصادر نسبه إلى أصول مشرقية، فتذكر أن يزيد هذا كان من موالي يزيد بن أبي سفيان، وأنّ جده «خلف» كان ممن نزحوا إلى

الأندلس. ولعلّ هذا ما يُفسّر النزعة الأموية الواضحة في شخصية ابن حزم وفكره وأدبه.

ولد ابن حزم سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م في قرطبة، حيث كان أباه قد انتقلوا إليها، وحققوا فيها مكانة مرموقة؛ فقد كان أبوه أحمد بن سعيد بن حزم (أبو عمر) من وزراء الدولة العامرية في عهدي المنصور محمد بن أبي عامر، وابنه المظفر، ثم ولي ابن حزم نفسه الوزارة عن أبيه في عهد عبد الرحمن بن هشام، ولكنّ القلاقل والاضطرابات التي حدثت في أيامه دفعته بعد النكبات والتشرد إلى نبذ الوزارة والمناصب، والتفرغ لقراءة العلوم، والتبحر في الفقه والآثار والأحاديث والسنن والآداب واللغات، الأمر الذي جعل صفة الفقيه والإمام تغلب على شخصيته ومؤلفاته.

عُرِفَ ابن حزم بآرائه الفقهية الخاصة ومناقشاته آراء أهل الملل والنحل الإسلامية وغير الإسلامية، مع عنايته بعلوم المنطق والكلام والشريعة، والأخلاق، والسياسة، والشعر والأدب والخطابة والنحو والبلاغة، وإن كانت شهرته قد تجلّت في مضممار الفقه والحديث والأصول؛ فقد كان واحداً من رموز المذهب الظاهري في الفقه، وهو مذهب يأخذ بظاهر النصّ القرآني في الفهم والتفسير، مخالفاً بذلك ما كان سائداً في عصره وبيئته، فأوغر ذلك عليه صدور الأعداء والخصوم الذين ألّبوا ضده العامة، فمزّقت كتبه وأحرقت، وهو يتحسر على ذلك ويقول مدافعاً:

وإن تُحْرِقُوا الْقِرْطَاسَ لَا تُحْرِقُوا الَّذِي

تَضَمَّنَهُ الْقِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي

يَسِيرُ مَعِيَ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رِكَائِبِي

وَيُنْزَلُ إِنْ أُنْزِلَ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي

دَعُونِي مِنْ إِحْرَاقِ رِقٍّ وَكَأْغِدٍ
وَقُولُوا بِعِلْمِ كِي يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
وَالْأَفْعُودُوا فِي الْمَكَاتِبِ بَدْءًا
فَكَمْ دُونَ مَا تَبْغُونَ لِلَّهِ مِنْ سِتْرٍ!

ولعلَّ حِدَّةَ رَأْيِهِ، وَجَرَاتِهِ وَسُلَاطَةَ لِسَانِهِ، كَانَتْ فِي جُمْلَةِ
الْأَسْبَابِ الَّتِي اسْتَثَارَتْ كَرَاهِيَةَ الْآخَرِينَ لَهُ، فَسَبِّبَتْ لَهُ مَا آلَتْ إِلَيْهِ
حَالُهُ مِنْ فَقْدِ الْمَنَاصِبِ وَإِحْرَاقِ آثَارِهِ، إِذْ يَنْقَلُ بَعْضُهُمْ أَنَّ «لِسَانَ
ابْنِ حَزْمٍ وَسَيْفَ الْحِجَاجِ شَقِيقَانِ». وَهَذَا الطَّبَعُ الْجَرِيءُ الْحَادُّ فِي
شَخْصِيَّتِهِ يُرَدُّهُ الْأَسَازُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْيَارِي إِلَى امْتِزَاجِ طَبِيعَةِ ابْنِ حَزْمٍ
الْفَطْرِيَّةِ الْمُوْرُوْثَةِ عَنْ أَصُولٍ غَيْرِ إِسْلَامِيَّةٍ (فَارْسِيَّةٍ) بِطَبِيعَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ
الْمَكْسُوبَةِ، «فَكَانَ مِنْ هَذَا الْمَزِيْجِ ابْنُ حَزْمٍ النَّاقدُ الْحَرِّ الْجَرِيءُ،
ذُو الْأَسْلُوبِ الْجَدِيدِ وَصَاحِبُ النِّهْجِ الْمُبْتَدِعِ»^(١).

بِذَلِكَ عُرِفَ ابْنُ حَزْمٍ فَقِيْهًا أَدِيبًا، شَاعِرًا، فِيلَسُوفًا، مُؤَرِّخًا
لْأَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ، عَالِمًا بِالسِّيَاسَةِ وَالْأَخْلَاقِ؛ وَكَثُرَتْ أَعْمَالُهُ
وَتَأَلَّفَهُ فِي مَخْتَلَفِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ حَتَّى أَرَبَتْ عَلَى الْأَرْبَعِمَائَةِ كِتَابَ
وَرِسَالَةٍ، وَفَقَ مَا ذَكَرَهُ يَاقُوتٌ فِي مَعْجَمِ الْأَدْبَاءِ. وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ
لِقَبِّ جَاحِظِ الْأَنْدَلُسِ لَغْزَارَةُ عِلْمِهِ وَتَبَحْرُهُ الْوَاسِعِ فِي مَجَالَاتِ
الثَّقَافَةِ وَالْفِكْرِ وَالْفَنُونِ.

وَلَا يَخْفَى عَلَى الْبَاحِثِ مَا حَظِي بِهِ ابْنُ حَزْمٍ - رَغْمَ كَثْرَةِ أَعْدَائِهِ -
مِنْ عُلُوِّ الْمَكَانَةِ وَتَفَرُّدِهَا فِي الْمَصَادِرِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَغَيْرِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ،
وَهُنَاكَ مَا يَشْبَهُ الْإِتْفَاقَ عَلَى أَنَّهُ «أَجْمَعُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ قَاطِبَةً لِعُلُومِ

(١) تَنْظُرُ مَقْدَمَةَ الْأَبْيَارِي لَطُوقِ الْحَمَامَةِ - تَحْقِيقُ: حَسَنُ كَامِلُ الصَّيْرَفِيِّ - الْقَاهِرَةُ
- ١٩٥٠ - الصَّفْحَةُ: وَ.

الإسلام وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار...»^(١).

قال فيه أبو عبد الله الحميدي صاحب كتاب «جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس» أنه «كان حافظاً، عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمّة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمّة، وتواليف كثيرة في كلّ ما تحقق به من العلوم...»^(٢).

ثم قال: «وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين، وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير قد جمعناه على حروف المعجم ومنه:

هل الدهر إلّا ما عرفنا وأدركنا
فجائعه تبقى ولذّاته تَفنى
إذا أمكّنت فيه مَسرّة ساعةٍ
تولت كمرّ الطّرف واستخلفتُ حُزنا
إلى تبعاتٍ في المعاد وموقفٍ
نودّ لديه أننا لم نكن كُنّا
حصلنا على هم وإثم وحسرةٍ
وفات الذي كنّا نلذّذ به عينا

(١) ينظر: «الصّلة» لابن بشكوال - تحقيق: إبراهيم الأبياري - ج ٢/ ص ٦٠٥.

(٢) ينظر: «جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس» - تحقيق الأبياري - ج ٢/ ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

حينئذ لما ولَّى وشغل بما أتى
 وغمّ لما يُرجى فعيشك لا يَهْنا
 كأن الذي كنا نُسرُّ بكونه
 إذا حَقَّقَتْهُ النفسُ، لفظُ بلا معنى^(١)

تتقطر نفسُ ابن حزم في هذه الأبيات ألماً وهمماً وتشاؤماً لما أصابه من نكبات الغربة والتشرد وتبدل الأيام والأصحاب؛ ويدل ورود مثل هذه الأشعار في المصادر الأندلسية على أنه قد ترك شعراً كثيراً، يتجاوز ما احتوته رسالة «طوق الحمامة»؛ وإشارة الحميدي السابقة واضحة الدلالة على وجود ديوان شعري له، جمعه على حروف المعجم، ولكن هذا الديوان فَقَدَ مع كثير من أعماله وتآليفه. وقد أشار د. الطاهر أحمد مكِّي في مقدمة تحقيقه لرسالة «الطوق» أنه يعكف على جمع شعر ابن حزم المتفرق في المصادر الأدبية الأندلسية، ولكن عمله لم يخرج إلى النور حتى الآن. وقد جُمِعَ شعر ابن حزم وصدر في طبعة نشير إليها في قائمة مؤلفاته.

توفي ابن حزم سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م بعد أن عاش أكثر من سبعين عاماً قضاها في رحاب العلوم والآداب والفنون. وقد يكون من المفيد أن نورد للقارئ ما كتبه القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي عن ولادة ابن حزم ووفاته، وهو ما نقله عنه ابن بشكوال في كتاب «الصِّلة» ومنه:

قال صاعد: كتب إليّ أبو محمد بن حزم يقول بِحَظِّه:

«ولدتُ بقرطبة في الجانب الشرقي، في رُبضِ مِئَةِ المِغِيرَةِ،
 قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح، آخر ليلة

(١) نفسه: ص ٤٩١.

الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان المعظم، وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة أربع وثمانين وثلثمائة بطالع العقرب»^(١).

قال صاعد: «ونقلت من خط ابنه (أبي رافع) أنّ أباه توفي - رحمه الله - عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة. فكان عمره - رحمه الله - إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوماً»^(٢).

مؤلفات ابن حزم وأثاره

ذكرت المصادر أن ابن حزم ترك أكثر من أربعمائة مصنف بين كتاب ورسالة، إلا أن أكثر هذه الكتب مفقود، ولم يصلنا من تأليفه سوى القليل، ولكن هذا القليل يدل على سعة آفاق الرجل وثقافته العلمية والفقهية والمنطقية والأدبية الموسوعية. وإليك قائمة بما عُرف من مؤلفاته المطبوعة تبعاً للتسلسل الألفبائي:

١ - الإحكام في أصول الأحكام: في ثمانية أجزاء، وصدرت منه عدة طبعات في القاهرة وبيروت.

٢ - الأخلاق والسير في مداواة النفوس: صدرت في طبعة مستقلة، ثم ضمن مجموعة رسائل ابن حزم التي ستأتي الإشارة إليها.

٣ - أسماء الصحابة (رضي الله عنهم): وما لكل واحد منهم من العدد - القاهرة - ١٩٩١.

(١) و (٢) «الصلة» لابن بشكوال - تحقيق إبراهيم الأبياري - (دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني) - (القاهرة - بيروت) - ط ١ - ١٩٨٩ - ج ٢/ ٦٠٦. ولنلاحظ هنا أن حساب العمر قد تمّ بالتقويم الميلادي؛ ويزيد في التقويم الهجري ليصبح عمره حوالي الاثنتين والسبعين سنة هجرية.

- ٤ - أسماء الصحابة: الرواة وما لكل واحد من العدد - بيروت - ١٩٩٢.
 - ٥ - أصحاب الفتيا من الصحابة والتابعين - بيروت - ١٩٩٥.
 - ٦ - الأصول والفروع: جزآن - بيروت - ١٩٨٤.
 - ٧ - الإمامة وأسماء الخلفاء والولاء - دير الزور - ١٩٩٩.
 - ٨ - أمهات الخلفاء - بيروت - ١٩٨٠.
 - ٩ - التقريب لحدّ المنطق والمدخل بالألفاظ العادية والأمثلة الفقهية - عدة طبعات.
 - ١٠ - جمهرة أنساب العرب - بيروت - ١٩٨٣.
 - ١١ - جوامع السيرة النبوية - عدة طبعات.
 - ١٢ - حجة الوداع - دار اليقظة العربية - دمشق - ١٩٥٦.
 - ١٣ - حقيقة الإيمان وألفاظ في الأصول - دير الزور - ١٩٩٩.
 - ١٤ - الخلفاء الراشدون والأئمة أمراء المؤمنين وأسماء الولاة وذكر مددهم - القاهرة - ١٩٨٥.
 - ١٥ - ديوان الإمام ابن حزم الظاهري: جمع وتحقيق - طنطا - ١٩٩٠.
 - ١٦ - رسائل ابن حزم - ج ١ - بتحقيق د. إحسان عباس - بيروت - (ط ١ / ١٩٨٠) - (ط ٢ / ١٩٨٧).
- وقد احتوى هذا الجزء على أربع رسائل هي:
- ١ - طوق الحمامة في الألفة والألاف.
 - ٢ - رسالة في مداواة النفوس.
 - ٣ - رسالة في الغناء الملهي.
 - ٤ - فصل في معرفة النفس بغيرها.
 - ١٧ - رسائل ابن حزم - ج ٢ - بيروت - (١٩٨١) - (١٩٨٧).

وقد احتوى على خمس رسائل هي :

- ١ - رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء .
 - ٢ - رسالة في أمهات الخلفاء .
 - ٣ - رسالة جمل فتوح الإسلام .
 - ٤ - رسالة في أسماء الخلفاء .
 - ٥ - رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها .
- وقد ألحق بها د . عباس ، ثلاثة ملاحق من تأليف ابن حزم هي :
- ١ - رسالة في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس .
 - ٢ - فصل في ذكر أوقات الحكام من بني إسرائيل .
 - ٣ - شذرات من روايات تاريخية .
- ١٨ - رسائل ابن حزم - ج ٣ - بيروت - (١٩٨١) - (١٩٨٧) .
- وقد احتوى هذا الجزء على ثماني رسائل هي :
- ١ - رسالة في الردّ على ابن النغيلة اليهودي .
 - ٢ - رسالتان أجاب فيهما [ابن حزم] عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف .
 - ٣ - رسالة في الردّ على الهاتف من بعد .
 - ٤ - رسالة التوقيف على شارع النجاة .
 - ٥ - رسالة التلخيص لوجوه التلخيص .
 - ٦ - رسالة البيان عن حقيقة الإيمان .
 - ٧ - رسالة في الإمامة .
 - ٨ - رسالة في حكم من قال : إنّ أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين .
- ١٩ - رسائل ابن حزم - ج ٤ - بيروت - ١٩٨٣ .
- واحتوى هذا الجزء على خمس رسائل هي :

- ١ - رسالة مراتب العلوم.
- ٢ - رسالة التقريب لحد المنطق.
- ٣ - رسالة في ألم الموت وإبطاله.
- ٤ - الردّ على الكندي الفيلسوف.
- ٥ - تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول.
- ٢٠ - الرسالة الباهرة - مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٨٩.
- ٢١ - رسالة في المفاضلة بين الصحابة - دمشق - ١٩٤٠.
- ٢٢ - علم الكلام على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة - بيروت - ١٩٩٠.
- ٢٣ - الفصل في الملل والأهواء والنحل - بيروت - عدة طبعات.
- ٢٤ - قصيدته في الردّ على قصيدة امبراطور الروم نقفور في هجاء الإسلام والمسلمين - عدة طبعات.
- ٢٥ - مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات - القاهرة - ١٩٣٨.
- ٢٦ - المحلّي (في الفقه): في ثلاثة عشر جزءاً - عدة طبعات.
- ٢٧ - المجلى (شرح المحلّي) في ثمانية مجلدات - عدة طبعات.
- ٢٨ - معجم فقه ابن حزم الظاهري: مجلدان - دمشق - ١٩٦٦.
- ٢٩ - ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل - دمشق - ١٩٦٠.
- ٣٠ - موجز تاريخ الإسلام - بيروت - ١٩٨٨.
- ٣١ - الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم - بيروت - ١٩٨٦.
- ٣٢ - النُبذ في أصول الفقه الظاهري [أو] النبذة الكافية في أصول أحكام الدين (عدة طبعات).
- ٣٣ - وأخيراً «طوق الحمامة في الألفة والألاف»: أشهر مؤلفات ابن حزم وأكثرها تداولاً في أوساط القُرّاء، وقد نَيِّفَتْ طبعاته في

اللغة العربية على العشرين، فضلاً عن الترجمات العديدة التي صدرت لهذا الكتاب باللغات العالمية المعروفة.

«طوق الحمامة» موضوعه ومضمونه :

تُعَدُّ رسالة «طوق الحمامة في الألفة والألاف» من نوادر كتب التراث العربي التي تحدثت عن الحُبِّ في القرن الهجري الرابع، وقد شرح فيها ابن حزم فلسفته في الحُبِّ وفهمه له؛ ثم توسَّع في تناول صفات الحب ومعانيه وأعراضه وأحواله وظروفه، وما يعانيه العشاق والمحبون في سبيله من ألوان الألم والهجر والعذل والفراق والحرمان، وما ينالونه في لحظات رضاهم من السعادة واللذة والنشوة والنعيم.

يبدو لنا ابن حزم وكأنه يتناول الحُبَّ من منظور نفسي، فيبرز سلطان الهوى وسيطرته على نفوس المحبين، وما يعترضهم فيه من ضروب الشوق والقلق واللهافة والترقب. فإذا ما كتب عن علاقات الحُبِّ التي تقوم بين المتحابين وجدَّته يعرض صفات الحبيب المثالي، ويعدد أخلاق النساء المحمودة والمذمومة وميولهن المختلف، مقارناً ذلك كلّه بأخلاق الرجال وميولهم واهتماماتهم، دالاً على سعة خبرته بطبائع النساء والرجال، وهو أمرٌ يعلنه صراحة فيقول: «ولقد اطلَّعتُ من سِرِّ معتقد الرجال والنساء على أمرٍ عظيم». ولكنه يقف وقفة أطول عند خبرته بالنساء وأحوالهن فيقول: «ولقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن، ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنني رُبِّيتُ في حِجورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن.. فلم أزل باحثاً عن أخبارهن، كاشفاً عن أسرارهن، وكُنَّ قد أنسنَ مني بكتمان، فكنَّ يطلعنني على غوامض أمورهن، ولولا أن أكون مُنبِّهاً على عوراتٍ يستعاذ بالله منها،

لأوردت من تَنَبَّهِنَّ في السَّرِّ، ومكرهنَّ فيه، عجائب تُذهِل الألباب»^(١).

ورغم سوء ظنه بالنِّساء عموماً، فإنه يذكر من نواذر الحبِّ وأسراره ومغامراته ما يدل على تمتع كثير من النِّساء اللواتي عرفهن بصفة الوفاء والإخلاص، وهو يتحدث في هذا المضممار عن سُمُو الحبِّ وحرارته وخلوده حتى ما بعد الموت، ويذكر في مواقف الوداع حوادث مؤثرة تعكس مدى تقديره لهذه العاطفة الإنسانية النبيلة. أما حديثه عن علامات الحبِّ وأحوال المحبين، فإنه يدل على خبرته الدقيقة بأحوال النفس البشرية وتقلباتها وشؤونها المختلفة، إذ يصف أحوال العشاق، فيذكر أوصافهم الجسدية، وشحوب وجوههم، وبريق عيونهم، كما يتعمق أكثر في تحليل دواخلهم النفسية وانفعالاتهم وأحلامهم، وقلقهم وحنينهم، وانشغالهم بمن أحبوا، مشيراً في مواضع كثيرة إلى أشياء تخصه هو، فيلمح إلى طبائعه النفسية، وميوله الجنسية، وحياته العاطفية، ويذكر غير مرة ولوعه بجاريته «نُعم» التي أحبها وتزوجها، فماتت في صباها، ليصف بعد ذلك شدة تعلقه بها وحزنه عليها، وسوء حياته بعدها، وقد ذكرها كثيراً في أشعاره.

وبهذا المعنى تبدو «طوق الحمامة» في بعض دالاتها مرآة لشخصية ابن حزم النفسية والأخلاقية، وحياته الإنسانية والسياسية والاجتماعية، فتعرض لمحا من طفولته ونشأته وشبابه، فهو قد تربى في أحضان النساء وخبرهن، وعرف عنهن الكثير من الأسرار العجيبة حسب زعمه. ويشير في مواضع عديدة من الرسالة إلى حياته وحياته أسرته في قرطبة، فيذكر أباه الوزير، وأخاه الذي تزوج

(١) راجع «باب قبح المعصية» - ص ٢٠٩ - ٢١٠.

من عاتكة بنت قُند، ثم توفي شاباً. ويتحدث عن منازل أهله القديمة بقرطبة في بلاط مغيث، والجديدة في ربض الزاهرة، والبساتين المحيطة بها. ونراه في مواضع أخرى يذكر ما حلَّ به من النكبات والمآسي التي حملته على النزوح عن قرطبة مدينته المحببة إلى نفسه، وغير ذلك من التفاصيل المعبرة عن حياته وبيئته، وكأنَّ رسالة «الطوق» تحكي شطراً من سيرته الذاتية واعترافاته، رغم تحفظه على كثير من هذه الاعترافات، وميله إلى كتم أسماء أصحاب قصصه، إلا ما كان شائعاً ومعروفاً عند الناس.

وتطالعنا في «طوق الحمامة» شخصية ابن حزم الفقيه، الورع، الفيلسوف، الذي يتحدث في الحبِّ دون وجل أو تحرُّج، ولكنه لا يغادر نزعته العقلية المنطقية، ولا يتنكر لشخصيته الفقهية؛ فكانت لنا آثارٌ واضحة من حزمه وحكمته ودقته وصراحته وعلمه. فإذا كانت قصص الحبِّ وأخباره تشيع في معظم أبواب الرسالة، فإنَّ فيها من الوقفات الأخلاقية، مثل بابي الغدر والوفاء، والدينية مثل بابي قبح المعصية، وفضل التعفف، ما لا يقل شأناً عن موضوع الرسالة الأساسي. والبابان الأخيران يُذكران القارئ صراحةً بشخصية ابن حزم الفقيه صاحب الالتزام الديني والأخلاقي الواضح.

لم يخرج ابن حزم - إذاً - في أبواب رسالته كلَّها عن حدود الالتزام الأخلاقي النابع من شخصيته الفقهية. وإذا كان قد تسامح في إيراد بعض القصص والوقائع ذات الدلالة الصريحة والمباشرة، فلعل ذلك يعكس طبيعة عصره وأجواء الحرية السائدة فيه. إلا أنه لا ينفك يحث على الفضائل النبيلة، ويمقت ما سواها، إلى حدِّ تفسيره هلاك الممالك والدول بانحدار أخلاقها وسقوط قيمها. لذلك تعرض الرسالة جانباً من آرائه الاجتماعية ونظراته الأخلاقية العامة في أحوال

المجتمع، مما يشف عن عدم ثقته بأخلاق الناس وطبائعهم، فتراه يقول في إحدى قصائد الطوق:

لَا تُصَرِّفْ ثِقَةً فِي أَحَدٍ

فَسَدَ النَّاسِ جَمِيعاً وَالزَّمَنُ

ويلح دوماً على إبداء رأيه في أحوال مجتمعه الأخلاقية، فإذا سمع خبراً عن بعض الصالحين علق بقوله: «لعمري إنَّ هذا لغريبٌ فيما خلا من الأزمان، فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره؟!».

وإنك لتجد في بعض شعره الحكيمِّي آثاراً من حكمة فيلسوف المعرفة وتأملاته، ظاهرة حتى في ألفاظه ومعانيه، وقد عاشا في عصر واحد.

أليس في حديث ابن حزم السابق عن فساد الناس والزمن ما يذكرنا بقول المعري في «لزومياته»:

وَجِبِلَةُ النَّاسِ الْفَسَادُ فَضَّلَ مَنْ

يَسْمُو بِحُكْمَتِهِ إِلَى تَهْذِيبِهَا؟

ثمَّ تجد ابن حزم يدعو نفسه إلى الجدّ: «ويا نفس جدي» مُذَكِّراً بنبرة المعري المشائمة:

فِيَا مَوْتَ زُرْ إِنِ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ

وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنَّ دَهْرَكَ هَازِلٌ

أما قوله:

فَلَوْ أَعْمَلَ النَّاسُ التَّفَكُّرَ فِي الَّذِي

لَهُ خُلِقُوا مَا كَانَ حَيِّيً بِضَاحِكٍ

فنجد مثله في لزوميات أبي العلاء :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً

وَحُقُّ لأبناء البسيطة أن يَبْكُوا

لا ينزع ابن حزم عنه ثوب الحكمة والتأمل والوقار، وإن كان حديثه يدور حول موضوع عاطفي يفسح للنفس فرصة للتروُّح والتمتع .

يتحدث ابن حزم عن علاقات الحب، بقلم إنسان خبر أحوال النفس البشرية وتعمق في تأمل طبيعة الاجتماع الإنساني عامة، وفي طبيعة علاقات مجتمعه على وجه الخصوص، فأنت رسالته صورة عن واقع الحال الإنساني والأخلاقي والسياسي والاجتماعي، فلا يكاد بابٌ من أبواب الرسالة يخلو من إشارة إلى ما كان يسود الدولة من صراعات سياسية، حيث كثر لديه ذكر أسماء الأمراء والخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم، وما وقع لهم من أحداث وفتن وثورات^(١)، طاولت آثارها ابن حزم نفسه، فألقت به بعيداً عن دياره ووطنه .

وتعبر الرسالة في أحد جوانبها عن الهرم الاجتماعي في تقاطعه الطبقي الحاد، حيث يكاد الحب في «**الطوق**» أن يكون مقصوراً على الطبقات الثرية والعلية من الأمراء والخلفاء والقادة والوزراء، ومَنْ في سَمَتِهِمْ؛ ومعظم قصص الكتاب تتحدث عن عشق هؤلاء، وما يتصل بهذا العشق من حكايات الجوّاري وأخبارهن، مما يعكس طبيعة النظام الاجتماعي القائم، وأحوال الطبقة المسيطرة

(١) نجد دليلاً على ذلك في انصراف ابن حزم إلى تأليف أكثر من رسالة حول أمراء الأندلس وخلفائها وأيامهم وحروبهم . انظر قائمة مؤلفاته الألفة الذكر .

فيه، إضافة إلى إظهار وضع المرأة في ذلك النظام، وإبراز صورتها في أذهان الناس، ونكاد لا نعثر على قصص للحب خارج إطار الفئات الاجتماعية العليا، ولعل لذلك علاقة بحياة ابن حزم، وموقعه السياسي في الدولة العامية، مما أبعد كتابه عن التطرق إلى موضوعات شعبية عامة.

يدور معظم الحب في «الطوق» - إذاً - في أبهاء القصور. وكل من يحاول أن يُمسّ هذه الدائرة المحرمة أو يخترق أسوارها، يكون مصيره فاجعاً؛ فأنت ترى ما حلّ بالجارية التي تغنت بصبح (أم المؤيد) أمام الحاجب المنصور، ومصير الشاب أحمد بن مغيث الذي تجرأ على التغزل بإحدى بنات الخلفاء^(١).

وتُظهر حكايات «الطوق» وأخبارها منطق الذكورة المتحكم بعلاقات المجتمع الذي ينظر إلى المرأة بوصفها بعض متاع الرجل؛ فنجد ابن حزم نفسه ينصح صاحبه الذي سأل: - ماذا أصنع إذا كره من أحبّ لِقائي، وتجنّب قربي؟ فيجيبه: - أرى أن تسعى في إدخال الرّوح إلى نفسك بلقائه وإن كره^(٢).

وهو موقف يندرج في إطار العلاقات القسرية التي لا تُمثّل ودّاً إنسانياً نبيلاً، ومع ذلك يدافع ابن حزم عن هذا الموقف، ويورد فيه حججاً وبراهين لا تقنع سائله، فيخاطب الإمام قائلاً: «أنت رجل جدلي ولا جدل في الحبّ يُلتَقَتْ إليه»^(٣).

ومما يمثل هذا الموقف الاجتماعي من المرأة، ما يذكره ابن

(١) راجع «باب طَيِّ السّر» من الرسالة - ص ١٣٩.

(٢) و (٣) راجع «باب الطاعة» - ص ١٥٣.

حزم عن صديقه أبي عامر الذي «كان يرى الجارية فلا يصبر عنها حتى يمتلكها، ولو حال دون ذلك شوْكُ القتاد، فإذا أيقن بتصيرها إليه، عادت المحبة نفاراً... فيبيعها بأوكس الأثمان. هذا كان دأبه حتى أتلف من عشرات ألوف الدنانير، عدداً عظيماً...»^(١).

وتؤكد هذه الصورة حكايات وأخبار كثيرة، منها حكاية طريفة عن الأندلسي الذي باع جاريةً لفاقةً أصابته، ثم كادت نفسه تخرج لشدة ندمه وتعلقه بها، فاحتكم إلى الملك بعد أن رفض المشتري ردَّ الجارية إليه، وزعم أنه أشدُّ حباً لها منه. وتدخل الملك الذي رَقَّ قلبه للأندلسي، وحاول إقناع المشتري بردَّ الجارية إليه دون جدوى. فلما يئس الأندلسي منها رمى نفسه من أعلى العلية إلى الأرض، برهاناً على شدة حبه لها، وأنه لا يطيق الحياة بعدها، مما جعل الملك يحكم له في نهاية الأمر، لتصل الحكاية إلى نهايتها السعيدة له دون غريمه^(٢)، ولكنَّ القارئ يتساءل هنا عن أمر الجارية الغائبة عن مسرح الأحداث، فما هو موقفها؟ وإلى أيِّ من الرجلين يميل قلبها؟ أم أنها مجرد مطية للشهوات يتداولها الرجال بين بائع ومشتري؟

وتحفل الرسالة بدلالات غنية أخرى تعبر عن طبيعة الواقع الاجتماعي والأخلاقي السائد في عصر ابن حزم بالأندلس، فيحدثنا صراحة عمّا يسمى اليوم بالحبِّ المثلي (الشاذ) ويعرض عدة حوادث وقصص عن حبِّ قائم بين الذكور، ومن ذلك قصة مَنْ سَمَّاهُ بابن قُزَمان مع أسلم بن أحمد بن سعيد^(٣). وهي قصة تقع

(١) راجع «باب الهجر» - ص ٢٠٧.

(٢) تنظر الحكاية في «باب الموت» - ص ٣١٢.

(٣) راجع «باب الموت» - ص ٣١٢.

في باب العلاقات المحرمة رغم طابعها الإنساني الخاص . إلا أن ابن حزم الذي يذكر في مقدمات رسالته كلاماً صريحاً عن نشأته في أحضان النساء واطلاعه على أعاجيب أسرارهن ، لا يذكر شيئاً عن مثل هذا الحب بين النساء ، وهو أمرٌ يتوقع الباحثون أنه كان موجوداً في تلك البيئة الأندلسية العامرة بالجواري ، وأجواء اللهو والطرب والغناء ^(١) .

طريقته ومنهجه

تقوم طريقة ابن حزم في تأليف الرسالة على عرض فكرته ، مع التدليل عليها بما خبره من الحوادث والوقائع والشواهد ، ثم التعبير عنها في شعرٍ من نظمه . وهو يبدأ رسالته بذكر أسباب تلاقي الأرواح وعلله ، فيكشف منذ البداية عن عقلية منطقية ، ويفسر ذلك التلاقي بالاستعداد الفطري المسبق في الطبائع ، ويمثل له باجتماع المغناطيس للحديد ؛ ثم يقول : « إِنَّ الْحَبَّ اتِّصَالَ بَيْنِ النُّفُوسِ فِي أَصْلِ عَالَمِهَا الْعُلُوي » ؛ يرّد بذلك على صاحب كتاب « الزهرة » محمد بن داود الذي نقل عن بعض أهل الفلسفة أنَّ « الأرواح أكر مقسومة » فيرفض ابن حزم ذلك ، ويلج على فكرة الفطرة ، مستشهداً بالقرآن الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ، وبالحديث الشريف القائل : « الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

ويتوسع في إبراد شواهد وبراهينه مستمداً بعض أقوال الحكماء والفلاسفة مثل بقراط وأفلاطون ، ويعرّج على بعض أخبار التوراة ، وكلام المعتزلة ، ويجعل نهاية المطاف في كل خبر أو حكاية مما

(١) تنظر مقدمة د. عباس في « رسائل ابن حزم » - ج ١ - ص ٦٦ .

يورده أشعاراً له تلخص موقفه ورأيه ممّا ورد. وتراه في هذا الشعر يُحَلِّقُ أحياناً في أجواء التخيل والإبداع، فيما تقيّده أحياناً أخرى، نزعتُه المنطقية والفقهية، فيأتي بعضُ شعره نظاماً رتيباً للفكرة، وتعبيراً تقريرياً مباشراً عنها.

وقد يلاحظ القارئ أن شعر ابن حزم في «الطوق» يحلو ويعذب كلّما أطلق فيه العنان لعواطفه وانفعالاته وأحاسيسه وخياله دونما تصنع أو تكلف ذهني، فيما يُقَصِّرُ أكثر هذا الشعر حين يتحول إلى حديث فقهي وبرهان منطقي، ويقرب عند ذلك من أن يُصبح شعراً تعليمياً وعظيماً فيه آثارٌ من الحكمة والصنعة، ولكنه لا يترك في نفس القارئ ذلك الأثر الجمالي والتذوقي المنشود.

ومن أمثلة وضوح النزعة الفقهية والمنطقية في شعره، أن ابن حزم إذا أراد أن يبرهن على فساد رأي من يزعم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين، عدّ ذلك شهوةً لا حباً، ونظم في الفكرة أبياتاً اعتمد فيها على نقد مذهب المانوية (الاثنينية) واستدل على صحة برهانه بفكرة الخالق الواحد، فقال:

كذب المدّعي هوى اثنين حثماً
 مثل ما في الأصول أكذب مانى
 ليس في القلب موضعٌ لحبيب
 ن، ولا أحدثُ الأمور اثنين
 فكما العقل واحدٌ ليس يدري
 خالقاً غير واحدٍ رحمان
 فكذا القلب واحد ليس يهوى
 غير فردٍ مباعدٍ أو مُدان

هو في شريعة المودة ذو شر
 ك بعيد من صحة الإيمان
 وكذا الدين واحد مستقيم
 وكفور من عنده دينان

وفي شعر ابن حزم الوارد في «طوق الحمامة» ميل إلى شيء من التفنن والتصنع، فنجده يحاول في إحدى قصائده أن يُشَبَّه خمسة بخمسة في بيت واحد، وهو أمر لم تسبقه إليه الشعراء في رأيه؛ أو ينظم قصيدة اقتبس أعجازها كلها من معلقة طرفة بن العبد. ويكثر في شعره من الاستشهاد بالأمثال والحكم والعبر والمواقف، ويغترف من معين ثقافته الفقهية، فيذكر الأنبياء والخلفاء والتشيع والنار والجحيم والجنّتين، والحساب والنفخ في الصور... ويرتقي ببعض شعره إلى مصاف الحكم التي تعبر عن جماع التجارب الشخصية والإنسانية.

أما نثر ابن حزم، فيبدو لنا - على العموم - أجمل من شعره، وأكثر روعة وإثارة، وربما كان ذلك لطابعه السردى القصصى المشوق، إذ يأتي في غالب الحالات موشى بالأخبار المثيرة والحكايات اللطيفة وال نوادر الطريفة. وقد لاحظ الأستاذ سعيد الأفغاني «شبه نثر ابن حزم بنثر الجاحظ، مع خلوّه من الاستطراد، ونزغته المنطقية المتماسكة»^(١).

قصة الكتاب وتاريخ تأليفه

يستدل القارئ من حديث ابن حزم في خطبة الرسالة، أنه ألّفها

(١) رسالة في المفاضلة بين الصحابة: تحقيق: سعيد الأفغاني - المطبعة الهاشمية

وهو مقيم بمدينة «شاطبة» بعد أن شرّده إليها حوادث قرطبة حين غزاها البربر عام (٤١٧هـ). وقد وضع ابن حزم هذه الرسالة نزولاً عند رغبة صديق محب، زاره في «شاطبة» وسأله أن يصنف له «رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة»^(١). فلبى ابن حزم رغبة صديقه حباً به - كما يقول - متحرّجاً بعض التحرج - وهو الفقيه الفيلسوف العالم الرصين - من كتابة رسالة في موضوع الحبّ واللّهو، إلّا أنه يتعذر في هذا السبيل ببعض ما ورد عن السلف الصالح من تسامح إزاء مطالب النفس، ودعوة إلى الترويح عنها، ليكون ذلك عوناً لها على الحق في أوقات الجدّ والشدة.

فانصرف ابن حزم إلى تأليف الرسالة، مقتصرّاً فيها على ما عرفه وخبره من الوقائع والحوادث والمواقف، مبتعداً عن شطط الخيال وأوهام القصّاص، ومتجاوزاً ما زخرت به أخبار الأعراب من قصص العشاق ومآثر المحبين وآلامهم، فهو يخاطب صديقه بالقول:

«دعني من أخبار الأعراب المتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحملي بحليّ مستعار». نستشف من ذلك رغبة ابن حزم في ابتداع كتابة جديدة عن الحبّ الحضري المدني القرطبي الأندلسي، ينطلق فيها من تجاربه الواقعية وخبراته الإنسانية المباشرة، بعيداً عن اقتفاء آثار القدماء وأخبارهم. وهذا يصب في مجرى الدلالات الإيجابية على أصالة عمله في «الطوق» وتفرد فيه، بعيداً عن النقل والإعادة والتكرار. إضافة إلى ما لاحظته د. إحسان عباس من أن انصراف

(١) راجع الباب الأول في ذكر أبواب الرسالة وماهية الحبّ - الصفحتان ٥٩ و ٦٦ على التوالي.

ابن حزم إلى تأليف الرسالة، يعبر عن رغبة أصيلة ودفينة لديه في إحياء ذكريات الصِّبا والشباب التي عاشها في مدينة قرطبة أيام المجد والنعيم، وهو يتذكر هذه الوقائع بكثير من الأسى والحنين إلى تلك الجنة المفقودة التي أبعدته نوائب الدهر عن مراتبها وذكرياتها.

«طوق الحمامة» وسرّ التسمية

لا يرد في مقدمة ابن حزم ما يشير إلى عنوان الرسالة، أو يدل على سبب تسميتها؛ إلا أنَّ القدماء أشاروا إليها بهذا العنوان: «طوق الحمامة في الألفة والألف»، فإذا كان نصّ الرسالة يخلو من أية إشارة مباشرة إلى عنوانها، فإنَّ للباحث أن يستقرئ لذلك بعض الأسباب والمسوغات نعرضها فيما يلي:

١ - يورد د. إحسان عباس مقولةً للشعالبي ذكر فيها أن «طوق الحمامة يضرب مثلاً لما يلزم ولا يبرح، ويقيم ويستديم»^(١). وبذلك تتركز دلالة العنوان هنا على فكرة الديمومة والثبات، فقد ورد في أمثال العرب قولهم «أبقى من طوق الحمام». ومن أمثالهم أيضاً: «تَقَلَّدَهَا طوق الحمامة» بعودة الضمير في «تَقَلَّدَهَا» على الرذيلة أو النعمة، وكلاهما تلازم صاحبها ولا تفارقه كطوق الحمامة لا ينحلُّ ولا ينقطع.

آية ديمومة تلك التي يشير إليها العنوان؟ أهى ديمومة الكتاب وخلوده، أم ديمومة فكرة الحبّ نفسها؟

هذا وجه محتمل من وجوه دلالات عنوان الرسالة، وإن كان

(١) تنظر مقدمة د. عباس: رسائل ابن حزم - ج ١ - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ ص ٣٧.

يبدو بعيداً عن تصورات القارئ الآنية المباشرة، إذ لا توحى قراءة الرسالة وعنوانها بمثل هذه الدلالة التي وردت في أمثال العرب وفي تفسير الثعالبي.

٢ - يحمل الطوق أيضاً دلالة على معاني الزينة والجلية، وهو ما يعني - في رأي د. عباس - «استلهام الجمال الذي هو مثار الحب، لأنَّ جمال الطوق حلية متميزة عن سائر لون الحمامة»^(١). ويتوسع د. عباس في إيراد الإيحاءات التي يثيرها العنوان، فيعرض على سبيل الحُدس والتخمين جملة تصورات حضارية عن جمال الحمامة وما ترمز إليه من معاني الحب وممارساته التي تشابه - في رأي الجاحظ - الممارسات الموجودة لدى الإنسان^(٢). وينتهي د. عباس بعد اعترافه بالحيرة في سرّ هذه التسمية إلى القول بفكرة العلاقة بين «الحب» و«الجمال» و«التميز»، فالحب والجمال موضوعان للكتاب، والتميز صفته البارزة، ويضيف إلى ذلك سمة «الطاعة» التي تمثلها الحمامة، وهو ما لم أستطع أن أجده له وجهاً واضحاً في التأويل.

٣ - هل يمكننا أن نقول بشيء من التبسيط: إن الحمامة رسول الحب والهوى، والطوق حليتها وزينتها، أو هو الأمانة المعقودة في عنقها لحملها من العاشق إلى المحبوب؟

لعلّ فيما أورده ابن حزم نفسه في «باب السفير» ما يساعدنا على تبني ما يقترب من هذا التفسير، إذ يحدثنا أنه «عرف مَنْ كانت الرسولَ بينهما حمامةٌ مؤدّبة، ويُعقدُ الكتاب في جناحها». ثم ينشد

(١) نفسه: ص ٣٧.

(٢) نفسه: ص ٣٧.

في هذا المعنى شعراً يتفاعل فيه بذكر الحمامة، ويرجع فيه كعادته إلى القصص الديني فيقول:

تَخَيَّرَهَا نُوحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّهُ
لديها وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كُتُبِي إليك فهاكها
رسائل تُهدى في قوادم طائر^(١)

ويأتي ابن حزم على ذكر الحمامة في الرسالة وأشعارها، في أكثر من موضع، تبدو فيه صورتها مثلاً للزينة والألفة والجمال والدلال.

فإذا انتقلنا إلى العنوان الفرعي الشارح «في الألفة والألف» وجدناه أكثر وضوحاً واتساعاً ودلالة على أن القصد في الرسالة ينصرف إلى شرح أحوال الحبِّ والمحبين، مع التوسع في فهم الكلمة، لأنَّ الألفة تحمل معاني العشق والمودة والمحبة والأخوة والصداقة، وهي معانٍ تطرَّق إليها ابن حزم كثيراً في رسالته^(٢).

منهج الرسالة وخطة التأليف

اعتمد ابن حزم في ترتيب أبواب رسالته منهجاً لا يخلو من صبغة منطقية، فتدرَّج في ترتيب أبوابها الثلاثين من الباب الاستهلالي الذي عرَّف فيه بمضمون الرسالة، إلى عشرة أبواب في

(١) ينظر حديث ابن حزم والأبيات في «باب السفير» - ص ١٣٥.

(٢) قد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن للإمام السيوطي رسالة موجزة بعنوان «طوق الحمامة». ذكر فيها كل ما قيل في الشعر والنثر والآثار عن الحمام وعاداته وأصواته وطبائعه وأوصافه. تنظر الرسالة بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨.

أصول الحبّ، ثم انتقل من أصول الحب إلى أعراضه، فألف في ذلك اثني عشر باباً، توقف بعدها عند الآفات الداخلة على الحبّ فعرضها في ستة أبواب، أشار فيها إلى ما يمكن أن يقع من التضاد في هذه الأبواب. ثم ختم الرسالة بعد ذلك ببابين إضافيين يبعدان عما سبقهما من موضوعات، وهما باب الكلام على قبح المعصية، وباب في فضل التعفّف، ليكون مسك الختام في الرسالة «الحضّ على طاعة الله عزّ وجلّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(١).

هذا هو الأساس المنطقي والنظري الذي بنى عليه ابن حزم أبواب رسالته في صفة الحبّ ومعانيه. إلّا أنه حين عمد إلى تنفيذ خطته وتطبيقها، خالف قليلاً، في نسق الأبواب، فعمد إلى شيء من التقديم والتأخير، ليأتي ترتيبها أقرب إلى تصوّره المنطقي، فأورد الأبواب حسب استحقاقها في التقدّم والدرجات والوجود، وجعل الضدّ إلى جانب ضده، فجاءت الأبواب الثلاثة في صورتها الأخيرة على النحو التالي:

١ - باب صدر الرسالة، وتقسيم الأبواب، والكلام في ماهية الحبّ، وهو ما يمكن أن نعدّه من الوجهة المنهجية مقدمةً للرسالة، إلى جانب بابها الأول في الكلام على ماهية الحبّ.

٢ - باب علامات الحبّ.

٣ - باب من أحبّ في النوم.

٤ - باب من أحبّ بالوصف.

٥ - باب من أحبّ من نظرة واحدة.

٦ - باب من لا يحب إلّا مع المطاولة.

(١) انظر الباب الأول - ص ٦٦.

- ٧ - بَابُ مَنْ أَحَبَّ صِفَةَ لَمْ يَحِبْ بَعْدَهَا غَيْرَهَا مِمَّا يَخَالِفُهَا.
- ٨ - بَابُ التَّعْرِيزِ بِالْقَوْلِ.
- ٩ - بَابُ الْإِشَارَةِ بِالْعَيْنِ.
- ١٠ - بَابُ الْمُرَاسَلَةِ.
- ١١ - بَابُ السَّفِيرِ.
- ١٢ - بَابُ طَيِّ السَّرِّ.
- ١٣ - بَابُ إِذَاعَةِ السَّرِّ.
- ١٤ - بَابُ الطَّاعَةِ.
- ١٥ - بَابُ الْمَخَالَفَةِ.
- ١٦ - بَابُ الْعَاذِلِ.
- ١٧ - بَابُ الْمُسَاعَدِ مِنَ الْإِخْوَانِ.
- ١٨ - بَابُ الرَّقِيبِ.
- ١٩ - بَابُ الْوَاشِيِ.
- ٢٠ - بَابُ الْوَصْلِ.
- ٢١ - بَابُ الْهَجْرِ.
- ٢٢ - بَابُ الْوَفَاءِ.
- ٢٣ - بَابُ الْغَدْرِ.
- ٢٤ - بَابُ الْبَيْنِ.
- ٢٥ - بَابُ الْقَنُوعِ.
- ٢٦ - بَابُ الضَّنَى.
- ٢٧ - بَابُ السُّلُوءِ.
- ٢٨ - بَابُ الْمَوْتِ.
- ٢٩ - بَابُ قَبْحِ الْمَعْصِيَةِ.
- ٣٠ - بَابُ فَضْلِ التَّعَفُّفِ.

ولعلّ ما يؤكد النزعة المنطقية والفقهية عند ابن حزم، ما أورده في صدر الرسالة من كلام في ماهية الحبّ، ناقش فيه بعض أهل الفلسفة في مسألة تفسير التقاء الأرواح وتمازجها واتصالها أو تباينها وانفصالها؛ فاستخدم في حديثه تعابير الجواهر والعرض والسبب والعلة، وتطرق إلى بعض مسائل العلم، فتحدّث عن المرأة والحديد والمغناطيس والنار والحجر، والأجرام العلوية، إلّا أنه لم يُطلّ في تناول ذلك وتتبّعه، وكأنه أحسّ بأن الحب لا يقبل الجدل بل هو ذلك الحديث الروحي العاطفي الذي لا تنفع فيه الحجج والأدلة والقرائن والبراهين المنطقية، لذلك نجده يذكر على لسان أحد أصدقائه أنّه «لا جدل في الحبّ يُلتفتُ إليه».

تاريخ المخطوطة وطبعات «الطوق»

إذا كان ابن حزم قد ألّف رسالته ما بين سنتي (٤١٧ - ٤١٨ هـ) وفق ما استنتجه د. إحسان عباس من إشارات ابن حزم نفسه في الرسالة، فإنّ «طوق الحمامة» لم تر النور ولم تخرج إلى قُراء العربية قبل سنة (١٩١٤م)، ومن المفارقات المثيرة أنّ هذا النصّ التراثي العربي قد نشر في عدد من اللغات الأوروبية قبل أن ينشر باللغة العربية.

ويعود الفضل الأول في تحقيق مخطوط الرسالة ونشرها، إلى المستشرق الروسي د. ك. بتروف الذي عثر على نسخة وحيدة من المخطوطة لناسخ مجهول، وجدها ببتروف في جامعة ليدن بهولندا بعد أن غمرها النسيان طويلاً^(١)، فعمل على إخراجها في

(١) ينظر العرض الشيق الذي قدّمه د. الطاهر أحمد مكي لرحلة مخطوط «طوق الحمامة» وتحقيقاته وترجماته في مقدمة تحقيقه للرسالة - دار المعارف - القاهرة - ط ٣ - ١٩٨٠. وانظر كذلك مقدمة د. عباس، لرسالة الطوق.

طبعة وصفها د. عباس بأنّها «أمانة للأصل المخطوط» رغم وجود العديد من مواضع النقص والتصحيف والتحريف والالتباس والغموض.

وتوالى بعد ذلك طبعات «طوق الحمامة» وترجماتها في اللغات العالمية، فصدرت طبعة منها في دمشق عام (١٩٣٠) لم تعد متداولة اليوم. أمّا الطبعة الثانية المعروفة فجاءت على يد المستشرق الفرنسي ليون برشيه الذي قام بنشر الرسالة، وإعادة تحقيق بعض قراءاتها، مخالفاً ما ورد في طبعة بتروف الأولى، مع ترجمة فرنسية للرسالة، نشرها في الجزائر عام (١٩٤٩م)؛ وقد حاول برشيه أن يتفادى بعض مواطن الخلل التي وجدها في عمل سابقه، فاجتهد في اقتراح قراءات جديدة لبعض عبارات الرسالة، وهو أمرٌ لا يمكن استنفاده قطعياً حتى يومنا هذا، فما يزال في «طوق الحمامة» من المشكلات والغوامض ومواضع اللبس ما هو بحاجة إلى مزيد من التدبر والتأمل، رغم الجهود التي بذلها الدارسون والمحققون.

ونستدل من حديث د. الطاهر أحمد مكي، أن ناسخ مخطوطة «الطوق» مجهول، ومكان نسخها كذلك، إلا أنه يذكر انتهاء من نسخها في مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة للهجرة (١٣٣٧م)؛ أي بعد وفاة ابن حزم بما يقرب من ثلاثة قرون، ظلت الرسالة بعدها طيَّ النسيان إلى أن اكتشفها المستشرق الهولندي دوزي، وأشار إليها في فهرس المخطوطات العربية لجامعة ليدن، ثم تلقفها ببتروف عام (١٩٠٧) ليكون الرائد الأول في إنجاز الرسالة وإخراجها إلى العربية. وقد نُشر نصّ «الطوق» في عدد من اللغات الأوروبية عام (١٩١٤). إذ نقل المستشرق دوزي جزءاً منها إلى الفرنسية عام (١٨٦١)، وترجمها فون شاك إلى الألمانية، وعنه

ترجمها الروائي الإسباني خوان فاليرا إلى الإسبانية، وأعيدت ترجمتها إلى الإسبانية ثانية على يد بونس بويجس اعتماداً على أصلها العربي.

طبغات «الطوق» العربية:

يمكننا بعد هاتين الطبعتين التأسيسيتين: (بيتروف) و(برشيه) أن نشير إلى ما عرفناه من طبغات «الطوق» العربية حتى يومنا هذا. وهذه الطبغات حسب تسلسل صدورها الزمني هي:

١ - طوق الحمامة: أخرجها محمد ياسين عرفة - مكتبة عرفة - دمشق - ١٩٣٠ - بتقديم الشاعر محمد البزم. ويبدو أنها قصّرت عن طبعة بتروف الأولى في الضبط والفهرسة والتصحيح.

٢ - طوق الحمامة: حقّقه وصوّبه وفهرس له، حسن كامل الصيرفي، وقّدم له: إبراهيم الأبياري - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٩٥٠.

وقد احتوت هذه الطبعة العربية المبكرة على مقدمة نافعة وضعها الأستاذ الأبياري، رغم ما احتوته من أخطاء علمية وتاريخية نبّه عليها د. مكّي فيما بعد. أما تحقيق الرسالة فإنه جاء مفتقراً إلى الضبط والشرح وترجمة الأعلام والمواضع.

٣ - طوق الحمامة: (درس ومنتخبات) بقلم: فؤاد أفرام البستاني - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ط ١ - ١٩٦٦.

وهي طبعة تعليمية مختصرة، احتوت على مقتطفات من أبواب الرسالة مع شيء من الضبط للمشكلات اللغوية، وبعض الشروح المفيدة في الحواشي. وهي طبعة مفيدة مدرسياً، وقد

جرى ضبط نصها وتوزيعه بعلامات تساعد الناشئة على القراءة الميسرة السهلة، ولكنها لا تفني بالغرض العلمي، ولا تمثل حقيقة نصّ «الطوق»، ذلك لأن غايتها مدرسية تعليمية، فإذا أخذت في حدود هذه الغاية فإنها لا تخلو من فائدة محققة.

٤ - طوق الحمامة: قدّم له وحققه: فاروق سعد - دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٦٨. تكرر صدور هذه الطبعة عدة مرات، كان آخرها عام (١٩٩٦) وقد كتب محققها في المقدمة دراسة أدبية مطولة تنم عن إعجابه الغامر بالرسالة وصاحبها، إلا أنّ نصّ «الطوق» لم تُبذل فيه العناية اللازمة، فليس هناك ضبط ولا شرح ولا ترجمة ولا تعليق أو تخريج... إلّا في النادر من الحالات.

٥ - طوق الحمامة: ضبط نصّه وحرّر هوامشه: د. الطاهر أحمد مكي - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٧. وقد عمل د. مكي على إخراج نص «طوق الحمامة» في ثلاث طبعات متوالية كان آخرها في العام (١٩٨٠). وهي طبعة من أجود الطبعات التي حققت للطوق، ويتضح فيها الجهد في ضبط النصّ، وتحرير هوامشه، مع محاولة تقويم الفقرات المضطربة في أصل المخطوط، وتصويب الأسماء المحرفة، والتعريف بالأعلام، مع الحرص على الأمانة، والمحافظة على روح النص، دون تصرف أو اعتداء على أفكار صاحب الرسالة. ويتحدّث د. مكي عن الإضافات التي قدّمها في كل طبعة من طبعاته الثلاث، مما يجعل عمله من أخلص الجهود وأنضجها من الوجهة العلمية.

٦ - طوق الحمامة: حققه وقدّم له: د. صلاح الدين القاسمي - دار

أبو سلامة - تونس - ط ١ - ١٩٨٠. وأعاد المحقق إصدارها في طبعة ثانية منقحة عام ١٩٨٧.

وهي من الطبعات القليلة التي تتحقق فيها الشروط العلمية لإخراج النص التراثي، ويمكن أن نعدّها إلى جانب طبعتي د. مكّي ود. عباس، من أجود الطبعات وأرصنها، رغم أنّ التأمل العلمي يكشف فيها عن عدد من مواضع الخلل والالتباس، وهو ما سنشير إليه في موضعه من الرسالة.

٧ - طوق الحمامة: تحقيق د. إحسان عباس (ضمن المجموعة الأولى/ج ١/ من رسائل ابن حزم) - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط ١ - ١٩٨٠ - ط ٢ - ١٩٨٧.

ويمكننا أن نقول دون تردد إنّ هذه الطبعة تبدو حتى يومنا هذا أكمل ما صدر من طبعات «طوق الحمامة» من حيث دراستها المعمقة المستفيضة، ونصّها المحكم الذي بُذل في ضبطه وتصويبه جهدٌ كبير، مع غنى الإشارات والتعليقات في الحواشي التي ذيل بها د. عباس كتابه، في محاولة للإحاطة بالظروف التاريخية والسياسية والحضارية المتصلة بالأخبار والحوادث التي وردت في الرسالة، الأمر الذي يمكن القارئ من معايشة ظروف تلك الحوادث، ومقاربة أحوالها، وهو ما يحقق له فهمًا أفضل لأجواء الرسالة ومضامينها.

أمّا ما تلا ذلك من طبعات «طوق الحمامة»، فلا يمكن - في رأينا - إلّا أن نُعدّه عالية على ما سبقه، وتكراراً لا أهمية كبيرة له في مجال التحقيق. وإن كانت هذه الطبعات المتوالية تعكس مدى أهمية الرسالة، وشعبيتها لدى القراء والدارسين، إذ لا نجد قطراً عربياً لم تصدر فيه طبعة أو أكثر من طبعات هذه الرسالة. ونذكر من هذه الطبعات المتأخرة:

٨ - طوق الحمامة: تحقيق أبو المنذر سعد كريم الفقي - دار ابن خلدون - الإسكندرية - دون تاريخ.

وقد احتوت هذه الطبعة على مقدمة شديدة الإيجاز، فعرف المحقق في صفتين بالكتاب ومؤلفه إلا أنه بذل جهداً في التعليق، وشرح الجوانب اللغوية والمعاني، دون أن يتوقف عند ترجمة الأعلام والتعريف بالأماكن والبلدان، كما خلا نص الرسالة من الضبط والشكل.

٩ - طوق الحمامة: حققه وقدم له وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم - مكتبة ابن سينا - القاهرة - ١٩٩٣.

كتب للرسالة مقدمة مدرسية عادية، إلا أنه أولى عناية للشرح وإغناء الحواشي لغةً وترجمةً وتعليقاً، ولكنه كان يتدخل في تعليقاته داخل النص، فيعطي بعض الفقرات عناوات جديدة من عنده، قد تكون مفيدة للقارئ المبتدئ ولكنها تبعد عن شروط التحقيق العلمي.

١٠ - طوق الحمامة: اعتنى بطبعه د. محمد أمين فرشوخ - دار الفكر العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٩٥. بذلت في هذه الطبعة جهود طيبة في التحقيق والشرح والتراجم، ولكن الشارح لم يُشر إلى مصادر تحقيقه وشروحه وتراجمه.

١١ - طوق الحمامة: قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهرسه: د. صلاح الدين الهواري - منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٠.

احتوت هذه الطبعة على شرح وضبط يسيرين، دون أن تترجم للأعلام، أو تذكر أوزان الشعر، فضلاً عن إخراجها الفني غير

الموفق. وقد اقتصر شارح هذه الطبعة على متابعة إحدى الطبعات السابقة (القاهرية بتحقيق الصيرفي - ١٩٥٠) دون أن يجتهد في الاطلاع على سواها من الطبعات لاختيار الأنسب والأجود، لذلك يبقى في نفس القارئ بعد قراءتها تساؤلات عديدة معلقة لا تُجيب عنها.

وقد راجت بعد ذلك طبعات شعبية متواضعة لطوق الحمامة، لا قيمة علمية لها، وربما لبّت هذه الطبعات حاجات تجارية أو مدرسية أخرى، ولكنها حملت من علائم النقص والتشويه ما يجعلنا نخرجها من باب الطبعات الرصينة، فمعظمها يخلو من أي شرح أو دراسة، فضلاً عن احتوائها على الكثير من الأخطاء العلمية واللغوية والمطبعة:

(فشىء) تكتب: شىء.

و(أحمد بن محمد) تصبح: أحمد بن محمد.

و(برىء) تكتب: برى.

و(ابن حدير) يصبح: ابن حدير..

ومثل هذا كثير في هذه الطبعات، وكأنّ بعضها يقدم نصاً آخر لمخطوط لا يخلو بدوره من التشويه والنقص والتصحيف.

وهذه هي بقية طبعات «طوق الحمامة» نوردها للباحث المهتم بتتبع ما صدر لهذه الرسالة من طبعات، على ما فيها من تباين من حيث قيمتها العلمية:

١٢ - طوق الحمامة: مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - دون تاريخ - طبعة شعبية مختصرة.

١٣ - طوق الحمامة: ضبطه ووضع حواشيه وفهرس له: أحمد

- شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٢.
- ١٤ - طوق الحمامة: تحقيق وتقديم: سعيد كامل الكوسا - دار التقدم - دمشق - دون تاريخ.
- ١٥ - طوق الحمامة: تحقيق أحمد شوحان، مكتبة التراث - دير الزور - ط ١ - ١٩٩٩.
- وهي - كما أشرنا - طبعات يكتنفها الكثير من المآخذ والنواقص والعيوب.

فإذا عدنا إلى ما بدأنا الإشارة إليه في مستهل هذه المقدمة حول النقص والاختصار الذي طاول نصّ الرسالة، تبين لنا أنّ ناسخ المخطوطة المجهول قد حذف أكثر أشعارها - كما صرّح - «تحسيناً لها، وإظهاراً لمحاسنها، وتصغيراً لحجمها، وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها»^(١). ولذلك نجده يستشهد على الخبر والحادثة بالبيت أو البيتين، مما لا يتطابق - دوماً - مع نصّ الخبر وموضوعه ومضمونه. وهو ما يوحي بأنّ ابن حزم كان قد أنشد في الأصل أبياتاً أكثر تحاكي مضمون الخبر، لكنّ الناسخ حذفها!

ولم يتوقف الأمر عند حدّ اختصار الأشعار وحذف الكثير منها، إذ نجد في بعض المصادر الأندلسية أخباراً متفرقة، ونصوصاً نثرية، ومقطوعات شعرية منسوبة إلى «طوق الحمامة» ولكننا لا نقع لها على أثر في رسالة الطوق التي بين أيدينا، مما يدل على أنّ الحذف والاختصار قد طاول أجزاء أخرى من متن الرسالة النثري، ومن أخبارها وحكاياتها. وحسبنا أن نشير في هذا المجال إلى ما كتبه ابن حزم في رثاء قرطبة نشرّاً

(١) ينظر حديث ناسخ المخطوطة في خاتمة الرسالة - ص ٣٩٨.

وشعراً، وهو نصّ ثري بليغ تلته قصيدة معبرة، وقد أورد هذا الرثاء بتمامه، لسان الدين بن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام» فيما ورد في «رسالة الطوق» مجتزأً وناقصاً في النثر والشعر على السواء^(١).

ويورد د. مكي قصةً ذكرها المقرئ في «نفح الطيب» ونصّها:
 «قال ابن حزم في «طوق الحمامة»: إنه مرّ يوماً هو وأبو عمر بن عبد البرّ، صاحب كتاب «الاستيعاب» بسكة الخطابين من مدينة إشبيلية، فلقيهما شاب حسن الوجه، فقال أبو محمد [ابن حزم]: هذه صورة حسنة، فقال له أبو عمر: لم نر إلا الوجه، فلعلّ ما سترته الثياب ليس كذلك، فقال ابن حزم ارتجالاً:

وذي عَدَلٍ فيمن سباني حُسْنُهُ
 يُطِيل ملامي في الهوى ويقول:
 أَمِنْ أَجَلِ وَجهِ لَاحٍ لَمْ تَرَ غَيْرَهُ
 ولم تذر كيف الجسم، أنتَ عليل؟
 فقلتُ له: أسرفت في اللوم فاتئدُ
 فعندي ردُّ لو أشاء طویلُ
 أَلَمْ تَرَ أَنِي ظَاهِرِي وَأُنْثَى
 على ما أرى حتى يقومَ دليلُ»^(٢)

وهذه القصة - صحيحةٌ كانت أم مختلفةً - ساقطة من نسخة

(١) أوردنا نصّ رثاء قرطبة الذي كتبه ابن حزم. نقلاً عن كتاب «أعمال الأعلام» في موضعه المناسب من الرسالة - ص ٢٦٧.

(٢) انظر الخبر وتعليق د. مكي عليه في مقدمة تحقيقه لطوق الحمامة - ص ٦.

«الطوق» المتداولة في أيامنا، رغم إشارة صاحب «نفع الطيب» إلى ورودها في «طوق الحمامة».

وبذلك يستنتج د. مكّي وغيره من الباحثين أنّ يد الناسخ قد امتدت إلى ما هو أكثر من ذلك، من حكايات وقصص وأشعار، ربما لم يرض عنها أو لم يفهم كنهها؛ على أنّ النقص البادي في الرسالة يمكن تفسيره بأسباب إضافية أخرى، لا تقف عند تصرف الناسخ وحده؛ فقد تحدثت المصادر عمّا تعرضت له كتبُ ابن حزم من تمزيق وإتلاف وإحراق عقب إخراجها من منصب الوزارة، وتأليب العامة ضده، إذ يذكر ابن حزم في خاتمة رسالته ما يدل على أنّه ألّفها في إبان نكبتها وتشرده، وانقلاب الزمان عليه، وتنكر الأصحاب له، مما يعزز احتمال أن تكون الرسالة قد تعرضت - كغيرها من كتبه - إلى شيء من التشويه والتمزيق، وهو ما دفع بالأستاذ الأبياري إلى الحكم «بأن الكتاب منقوص وأنه لا يزال منه في بطون الغيب أوراق، لم يسعها مخطوط، ولم تتصل بتدوين مُدَوَّن»^(١).

يؤكد لدينا هذا الاحتمال، ذلك التباين في منهج تأليف الرسالة وحجم أبوابها، فهل يصح أن يعقد ابن حزم - صاحب النزعة المنطقية - باباً في عشرات الصفحات، فيما يقتصر باب آخر (مثل باب المخالفة) على أسطر أربعة وثلاثة أبيات شعرية؟

ترجمات «طوق الحمامة»

حظيت «طوق الحمامة» بعد ترجماتها القديمة الأولى التي سبقت الإشارة إليها، بعدة ترجمات إلى اللغات العالمية المختلفة،

(١) تنظر مقدمة الأبياري لطبعة «طوق الحمامة» بتحقيق الصيرفي - الصفحة: ح.

مما يدلّ على قيمتها الأدبية والإنسانية، لدى الباحثين والمستشرقين والقراء، وقد كانت أولى هذه الترجمات المنقولة عن نصّها العربي إلى الإنجليزية على يد (ا. ر. نيكل) عام (١٩٣١)، ثم إلى الروسية (ا. سالي: لينينغراد - ١٩٣٣)، فالألمانية (١٩٤٤)، فالإيطالية (١٩٤٩)، والفرنسية (ترجمة المستشرق برشييه - الجزائر - ١٩٤٩)، ثم الإسبانية (١٩٥٢) و(١٩٦٧)، وهذا يعني ضمناً وجود ترجمات أخرى حديثة بعد هذا التاريخ^(١).

دراسات حول ابن حزم ورسالته

استأثرت شخصية ابن حزم ومؤلفاته، باهتمام الباحثين والدارسين، فتنوعت مجالات اهتماماتهم، فكانت دراسات تناولت موضوع الحبّ في أدبه وفكره منها: دراسة راشال آريي بعنوان «ابن حزم والحبّ العذري»، وعلي أدهم بعنوان «الإمام ابن حزم والحب»، وسعيد الأفغاني الذي كتب عن «ابن حزم الإمام المحب»، وناجي التكريتي الذي درس «الحب الأفلاطوني عند ابن حزم»، مع تركيز معظم هؤلاء الباحثين على صورة الحب السائدة في البيئة الأندلسية التي عاش فيها ابن حزم، مما يمكن أن يجعل من «طوق الحمامة» مرآة حضارية للواقع الاجتماعي والفني والثقافي والأخلاقي السائد في عصره.

وركزت دراسات أخرى حول آثاره في الملل والنحل غير الإسلامية، إذ تذكر المصادر الكثير عن مناظراته ومناقشاتة لليهود، ودراساته حول التوراة، وحججه في الردّ على أهل الكتاب، ومنهجه في دراسة الأديان عموماً، فضلاً عن دراسة آرائه الفقهية

(١) نشر د. عباس ثبتاً بترجمات «طوق الحمامة» - ينظر الجزء الأول من «رسائل ابن حزم» بتحقيقه - ص ٢٠.

عامة ودراسة مذهبه الظاهري في الفقه خاصة. إذ عمد بعض الدارسين ممن خالفوه في بعض فتاواه وآرائه الفقهية إلى الردّ عليه، ومناقشته ونقد أحكامه.

وتوقف آخرون عند دراسة دوره في ازدهار الأدب الأندلسي، وموقعه فيه أدبياً وشاعراً وناقداً، إلى جانب تناول سمات منهجه النقدي بالقياس إلى معاصريه من أدباء الأندلس ونقادها. وانصرفت دراسات أخرى إلى تحري الوجهة الفلسفية والمنطقية في فكره وأدبه، فكتب بعضهم عن جهوده في «الفكر المنطقي الإسلامي»، وكتب د. عمر فروخ عن «المكان والزمان عنده» وتناول في بحث آخر «نظرية المعرفة عند ابن حزم». فيما استرعت اهتمام بعض المستشرقين ظواهر أدبية وفنية خاصة، فكتب خواكين لومبا بحثاً حول «جمال الطبيعة عند ابن حزم».

واعتنت دراسات أخرى به بوصفه مؤرخاً، وتناول غيرها فكره التربوي وغاياته التربوية، وتحدث آخرون عن الأخلاق والسياسة في فكره، هذا فضلاً عن عديد الدراسات التي تحدثت عن مواهبه الأدبية والبلاغية حتى عُدّ في رأي القدماء: «جاحظ الأندلس» وأبلغ أدبائها وعلمائها قاطبة.

لا يسع القارئ في هذه التآليف الغزيرة حول شخصية ابن حزم وأدبه وفكره وعلمه، إلا أن يلحظ من خلالها ذلك التنوع والغنى في ملكاته الأدبية والعلمية والفقهية، فكأنه مجموعة من المواهب والملكات والقدرات امتزجت في كيان رجل واحد.

أما «طوق الحمامة»، كتاب ابن حزم الأشهر، فقد انصبّت عليه جهود الباحثين المستشرقين والمترجمين، وجرى التركيز على موضوع الحبّ في الرسالة، فتناوله يوسف الشاروني في كتابه

«دراسات في الحب» وتوسع فيه د. الطاهر أحمد مكي في كتاب «ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» وتطرق د. مكي في إحدى مقالات كتابه إلى تأثير «طوق الحمامة» في الأدب العالمي، وهو باب طريف، أخذ بعض الدارسين يتوسعون فيه، فتحدث بعضهم عن أثر ابن حزم في الفكر المسيحي من الوجهة الفقهية واللاهوتية، فيما توقفت دراسات أخرى عند ملامح التشابه بين «طوق الحمامة» لابن حزم وكتاب «فن الهوى» لأوفيد، وهذا الحقل المقارن جدير بوقفة منهجية خاصة ليس هذا مكانها، إذ وجدنا د. عباس على مستوى المقارنات العربية، يقارن بين رسالة «الطوق» وكتاب «الزهرة» لابن داود، مناقشاً الفرضيات الممكنة حول احتمالات التشابه بين الكتابين، فيما يقارن د. محمد بن سعد الشويعر بين «طوق الحمامة» وكتاب «المصون في سرّ الهوى المكنون» لأبي إسحاق الحصري.

ولم يقتصر الاهتمام برسالة «طوق الحب» وموضوع الحب فيها على جهود الباحثين العرب، بل أدلى عدد من المستشرقين بدلائهم في هذا المضمار، فكتبوا عدة دراسات حول (الحب والطبيعة والجمال) في «الطوق»، إضافة إلى ما وضعه مترجمو الرسالة من مقدمات ودراسات تعريفية لهذا الأثر الفريد^(١).

(١) يجد المهتم ثبناً بالدراسات الغربية حول «طوق الحمامة» في المجلد الأول من «رسائل ابن حزم» بتحقيق د. إحسان عباس - ص ٢١. أما أشمل دراستين حول ابن حزم في المصادر الأدبية والنقدية والتاريخية فهما:

- ابن حزم خلال ألف عام: جمع وتحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ - (أربعة أجزاء).
- ابن حزم الأندلسي في آثار الدارسين: أمين سليمان سيدو - بلبوغرافيا شاملة منشورة في مجلة «عالم الكتب» - الرياض - مج ٢١ - ع ٢ - ٣ (يناير - ابريل) - ٢٠٠٠ - ص ١٥٢ - ١٥٩.

عملنا في الكتاب

وبعد، فقد يسأل سائل: ما الذي يمكن أن يضيفه المرء في إخراج طبعة جديدة من «طوق الحمامة» بعد أن صدر منها هذا القدر الكبير من الطبعات والترجمات؟

أقول مع د. عباس إنه «من المستحسن ألا يُكرَّر اللاحقُ عمل السابق، دون إضافات أو تعليقات جوهرية»^(١). وقد لاحظتُ بعد مراجعة جميع طبعات «الطوق» والتدقيق فيها ومقارنتها، أن ذلك الكمَّ الكبير منها لا يتبقى منه بعد الغرلة والتصفية سوى ثلاثٍ من الطبعات العلمية الرصينة، وهي كما أشرت:

- الطبعة التونسية التي حققها د. صلاح الدين القاسمي.

- الطبعة المصرية التي حققها د. الطاهر أحمد مكي.

- الطبعة البيروتية التي حققها د. إحسان عباس، وهي الأكمل.

إلا أن هذه الطبعات الثلاث - على جلالها - تترك في نفس القارى تساؤلات عديدة دون أن تجيب عنها على نحو واضح؛ فهي تكاد تخلو عموماً من الشكل اللغوي الدقيق للنص، وهو أمر يتوقف عليه فهم مضمون الرسالة ومقاصدها، فضلاً عن أن أياً من هذه الطبعات الثلاث، لم يتوسع في الشروح اللغوية للمفردات الغريبة والمعاني المشككة، وما يحيط بأخبار الرسالة وحكاياتها من تفاصيل تاريخية وجغرافية وسياسية، ينتظر القارئ جلاءها والإحاطة بها، كي يتحقق له فهم أفضل لمضمون الخبر الذي يرويه صاحب «الطوق». وقد استرعى انتباهنا ما زخرت به طبعة د. عباس من أمثال هذه التعليقات القيّمة، ولكنها اتخذت سمناً شديداً

(١) تنظر مقدمته في الجزء الأول من «رسائل ابن حزم» - ص: ب.

التخصص والعمق، إلى حد جعلها أشبه ما تكون بتعليقات نقدية أكاديمية ينتفع بها الباحثون المختصون في الدراسات الأندلسية، على حساب عامة القراء وشدة الباحثين.

وعلى خلفية ما قدّمه الأساتذة المحققون الثلاثة، بنيت عملي في هذه الرسالة، متوخياً الحرص على تقديم نصّ مضبوط بالشكل الدقيق، يُيسّر للقارئ قراءته وفهمه، دون عنت أو صعوبة، ويحقق له الفهم والاستيعاب والتمثل؛ لذلك لم أكتف بضبط أواخر الكلم فقط، بل عمدت في كثير من الأحيان إلى ضبط بنية الكلمة كلّها، مؤملاً أن أفتح بذلك جميع النوافذ أمام القارئ الباحث والمستمتع على السواء.

ثم عمدت بعد ذلك، إلى شرح المشكلات والغوامض، والتعليق عليها، بما يساعد على فهمها وتدبرها على الوجه الأفضل، متوقفاً عند معانيها الحقيقية والمجازية، بما يتوافق مع معانيها الواردة في نصّ الرسالة.

وبذلت جهداً إضافياً في ضبط النصّ بعلامات التنقيط والترقيم، بما يتناسب مع المعاني المقصودة.

وخصصت الفقرات المنقولة، والشواهد النثرية بعلامات التنصيص المناسبة - وهو ما افتقر إليه أكثر الطبعات السابقة - وذلك للتمييز الدقيق بين مواضع كلام ابن حزم، ومواضع نقله عن سواه من الأدباء والمحدثين واستشهادهم بهم.

وحاولت بعد ذلك التوسّع في التعريف بأعلام الرسالة، وربط ما ذكره ابن حزم عنهم بترجماتهم الواردة في المصادر، فلم أهمل من الترجمة والتعريف إلا من كان مغموراً جداً، أو سكّنت المصادر عن ذكره، واستثنيت من الترجمة في الحواشي معظم أصحاب

الأسانيد المطولة من رواة الأحاديث، لأنني وجدت أنَّ التعريف بهم جميعاً سيثقل حواشي الرسالة بنصّ إضافي يفوق في حجمه النصّ الأصلي للرسالة، مما يكاد يحيلها إلى معجم لتراجم المُحدّثين، فنبتعد كثيراً عن الغاية المرجوة.

وفعلت مثل ذلك في التعريف بالمواضع والأماكن والبلدان والأقاليم والوقائع الحربية التي مرّ ذكرها في الرسالة، وذلك على قدر ما أسعفتني المصادر في تبيانها، إذ ما يزال في الرسالة حتى اليوم مواضع وجوانب لم يتمّ اعتمادها والقطع بها، لعدم إسعاف المصادر بما يُفيدُ عنها، أو لتصحيف وقع في ذكرها من قبل ناسخ المخطوطة، أو لقصور مني في الوصول إلى حقيقتها.

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن أعمد إلى تخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأبيات الشعرية، والأمثال وبعض الأخبار والحكايات المأثورة، وأن أعلق على ذلك كلّ بما يقابله في النصّ، وبما يضيء للقارئ سبل الفهم والاستيعاب.

وقد حرصت من خلال إغناء الحواشي بالشروح والتعليقات - ما أمكنني - أن أضع القارئ في أجواء تلك الحياة الأندلسية العامرة، وما تخللها من ألوان المجد والقوة والهوان والضعف، وما ساد فيها من اضطرابات ونكبات، بدا لي ابن حزم من خلالها وكأنه يكتب عن الحبّ في أزمنة الفتنة والشدة، ملتمساً لنفسه في ذلك بعض العزاء، مُنحياً - قليلاً - قلم الإمام الفقيه الحازم، ليعبر بلسان الأدب والوجدان، وكان «طوق الحمامة» بهذا المعنى «استراحة المحارب» الذي قضى الشطر الأكبر من حياته منشغلاً بأمور الوزارة وشؤون الإمامة وعلوم الفقه. ولا أحسب أن ابن حزم كان يتوقع أن تنال رسالته هذه الشهرة كلها عبر العصور والأزمان، فلم يسجل

لأَيٍّ من مجلداته الفقهية ما سجلته «رسالة الطوق» من عدد الطبعات والنسخ والترجمات.

وتوقفت ملياً عند اختلاف القراءات بين محققي «طوق الحمامة» في طبعاتهم المختلفة، فقارنت بين هذه القراءات، وأثبت في المتن ما وجدته أقرب إلى الصواب، وأشرت في الحواشي إلى ما ورد في أصل المخطوط، وفي بقية القراءات مع مناقشة ما ينبغي مناقشته والتعليق عليه، أما المواضع المشكلة التي لم أتمكن من البت بها فقد أحلتها إلى أستاذي الدكتور ياسين الأيوبي المشرف على هذه الطبعة والمراجع العلمي لها، ففضل مشكوراً بإبداء رأيه بها.

- وأتبعُ الرسالة أخيراً بعدد من الفهارس الفنية التي تغني العمل، وتعمق الفائدة منه عند الباحث والقارئ، بما يتجاوز ما ورد في الطبعات السابقة من فهارس لم تخلُ من بعض النقص والقصور.

وإذ انطلقت في إعداد هذه الطبعة من اعتراف صريح بجميل ما قدّمه الأساتذة المحققون الأوائل لهذه الرسالة من عرب ومستشرقين، فإنّ جُلَّ ما سعت إليه في هذه الطبعة أن أقدم لقراء العربية نصّاً ثرائياً وإنسانياً مهماً يتناولونه بيسر ومتعة، ويجيب عن معظم ما يجول في أذهانهم من تساؤلات.

وإذا كان هناك من نقص أو تقصير في هذه الطبعة، فلعل في ذلك «دليلاً على استيلاء النقص على جملة البشر» كما يقول العماد الأصفهاني، وهذا النقص يبقى دافعاً إلى معاودة النظر في عديد من القضايا والمواضع التي ما تزال بحاجة إلى مزيد من التفكير والتأمل والبحث، من أجل الوصول إلى الوجه الأصوب والأحسن.

وأخيراً أجد لزاماً عليّ أن أذكرَ بمشاعر الاعتراف بالفضل

والعرفان من منحني ثقته الغالية للعمل على إخراج هذا الأثر القيم، الأستاذ الدكتور ياسين الأيوبي الذي أحاطني برعايته وتشجيعه، وصبرَ على تباطئي وتأخري في الإنجاز، وقوم ما وجده من العثرات، راجياً أن أكون قد حققتُ بهذا العمل بعضَ آماليه فيّ. كما أسجل شكري للصديق الأستاذ سليمان حسين الذين لم يخل بمؤازرته الطيبة في مراجعة بعض النصوص والتجارب خلال العمل.

وبعد: فليست «طوق الحمامة» مما يُدرك بالنظرة العجلى، وبالقراءة المتصفحة السريعة، إنما هي أثر يحتاج فيه القارئ إلى كثير من التروي والتأمل والتدبر، في عالم الحضارة العربية الأندلسية؛ فالحكايات والأخبار - على بساطتها وسذاجة بعضها - تكشف للقارئ المتبصر أنه في حضرة موكب من التاريخ يعبر أمامه، ويُعرض له وثيقة نادرة من وثائق الحبّ الإنساني في شتى ضروبه وأحواله وأنواعه، حتى لتجد في مقابل أتباع الملذات والشهوات ممّن ذكرهم ابن حزم، ممّن تُميّته النظرة أو تحييه، فلا يبارحه الحبُّ مع اليأس من اللقاء، حتى يفارقه عقله أو يوردَ الثرى.

والله الموفق لحسن ما نصبو إليه في دروب الكتابة والتحليل.

دمشق ٢٠٠٠/١١/١٩

نزار وجيه فلوح

[صَدْرُ الرِّسَالَةِ وَأَبْوَابُهَا وَالكَلَامُ فِي مَا هِيَ الْحُبُّ (*)]

[صَدْرُ الرِّسَالَةِ]

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ^(١) عَفَا اللَّهُ عَنْهُ :

أَفْضَلُ مَا أَبْتَدِئُ بِهِ حَمْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ خَاصَّةً، وَعَلَى جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ عَامَّةً، وَبَعْدُ :

عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَلَا حَمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَقِيَّضَ لَنَا مِنْ جَمِيلِ عَوْنِهِ دَلِيلًا هَادِيًا إِلَى طَاعَتِهِ، وَوَهَبَنَا مِنْ تَوْفِيقِهِ أَدْبًا صَارِفًا عَنْ مَعَاصِيهِ، وَلَا وَكَلْنَا ^(٢) إِلَى ضَعْفِ عَزَائِمِنَا، وَخَوَرِ قُورَانَا، وَوَهَاءِ ^(٣) بُنَيْتِنَا، وَتَلَدُّدِ آرَائِنَا ^(٤)، وَسُوءِ اخْتِيَارِنَا، وَقِلَّةِ تَمَيِّزِنَا، وَفَسَادِ أَهْوَائِنَا.

فَإِنَّ كِتَابَكَ وَرَدَّنِي مِنْ مَدِينَةِ الْمَرْيَةِ ^(٥) إِلَى مَسْكَنِي بِحَضْرَةِ

(*) كَلَّ مَا وَرَدَ بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ، مَضَافٌ مِنْ بَعْضِ الشَّرَاحِ السَّابِقِينَ وَلَيْسَ مِنْ أَصْلِ الرِّسَالَةِ.

(١) أَبُو مُحَمَّدٍ: ابْنُ حَزْمٍ صَاحِبُ «طُوقِ الْحَمَامَةِ».

(٢) وَكَلَّنَا إِلَى ضَعْفِ عَزَائِمِنَا: سَلَّمْنَا إِلَيْهَا وَتَرَكْنَا لَهَا.

(٣) الْوَهَاءُ: الضَّعْفُ، وَهِيَ: وَهِيًا.

(٤) التَّلَدُّدُ: التَّحْيِيرُ، وَتَلَدَّدَ: تَلَفَّتْ يَمِينًا وَشِمَالًا تَحْيِيرًا. وَوَرَدَ فِي بَعْضِ النُّسخِ

«آرَائِنَا» بِمَعْنَى حَاجَاتِنَا وَبَغْيَاتِنَا بَدَلًا مِنْ «آرَائِنَا».

(٥) الْمَرْيَةُ: Almeria وتُعَرِّبُهَا الْمَرْيَةُ بفتح الميم وكسر الراء، ثم تشديد الياء =

شاطبة^(١)، تَذَكَّرُ مِنْ حُسْنِ حَالِكَ مَا يَسْرُنِي، وَحَمَدْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، وَاسْتَدَمَّتُهُ^(٢) لَكَ، وَاسْتَزَدَّتُهُ فَيْكَ؛ ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَطَّلَعَ^(٣) عَلَيَّ شَخْصُكَ وَقَصَّدَتْنِي بِنَفْسِكَ، عَلَى بُعْدِ الشَّقَّةِ، وَتَنَائِي الدِّيَارِ، وَشَحَطِ^(٤) الْمَزَارِ، وَطُولِ الْمَسَافَةِ، وَغَوْلِ^(٥) الطَّرِيقِ؛ وَفِي دُونِ هَذَا مَا سَلَّى الْمُشْتَقَّ، وَنَسَى الذَّاكِرَ، إِلَّا مَنْ تَمَسَّكَ بِحَبْلِ الْوَفَاءِ مِثْلَكَ، وَرَعَى سَالِفَ الْأَذِمَّةِ^(٦) وَوَكِيدَ الْمَوَدَّاتِ وَحَقَّ النِّشَاءِ وَمَحَبَّةَ الصَّبَا، وَكَانَتْ مَوَدَّتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى.

= هكذا ترد في المصادر العربية، وذكر ياقوت أنها مدينة كبيرة من أعمال الأندلس. وهي اليوم مدينة في الجنوب الشرقي من إسبانيا، تقع على البحر الأبيض المتوسط، وكانت قد ازدهرت في ظل العرب بالأندلس، وكان فيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب. واشتهرت بصناعة الوشي والديباج. ينظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي: تحقيق فريد عبد العزيز الجندي - دار الكتب العلمية - بيروت - ج ٥/ ص ١٤٠. وكذلك تنظر: «موسوعة المورد» منير البعلبكي: إعداد د. رمزي البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١ - ١٩٩٠ - المجلد الأول/ ص ١٢٢.

(١) شاطبة: مدينة كبيرة قديمة في شرقي الأندلس، عرفت بصناعة الورق، وذكرت المصادر القديمة أهلها بالشرّ والظلم والتّعدي. (معجم البلدان: ج ٣/ ٣٥١). وينظر أيضاً: «آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني - دار صادر ودار بيروت - بيروت - ١٩٦٠ - ص ٥٣٩.

(٢) أي طلبت دوام حسن الحال عليك!

(٣) اطَّلَعَ عَلَيَّ: بمعنى طَلَعَ، أي: أقبل.

(٤) الشَّحَطُ: البُغْدُ، وَشَحَطَ الْمَكَانَ شُحُوطًا: بَعُدَ.

(٥) غَوْلُ الطَّرِيقِ: بَعْدُهَا وَمَشَقَّتُهَا، وَالْغَوْلُ: بُعْدُ الْمَفَازَةِ، لِأَنَّهَا تَغْتَالُ مِنْ يَمُرُّ بِهَا.

(٦) الْأَذِمَّةُ: الْعُهُودُ، وَمَفْرَدُهَا: الذِّمَامُ: الْعَهْدُ وَالْأَمَانَةُ وَالْحَقُّ وَالْحَرَمَةُ. وَكِيدَ: بِمَعْنَى أَكِيدَ (على الإبدال).

ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون .

وكانت معانيك^(١) في كتابك زائدة على ما عهدتُهُ من سائر كُتُبِكَ، ثُمَّ كَشَفْتَ إِلَيَّ - بِإِقْبَالِكَ - غَرَضَكَ، وَأَطْلَعْتَنِي عَلَى مَذْهَبِكَ، سَجِيَّةً لَمْ تَزَلْ عَلَيْهَا مِنْ مِشَارِكَتِكَ لِي فِي حُلُوكَ وَمُرَّكَ، وَسِرِّكَ وَجَهْرِكَ، يَحْدُوكَ الْوُدُّ الصَّحِيحُ الَّذِي أَنَا لَكَ عَلَى أَضْعَافِهِ، لَا أَبْتَغِي جِزَاءً غَيْرَ مُقَابَلَتِهِ بِمِثْلِهِ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ مُخَاطَباً لِعُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كَلِمَةٍ لِي طَوِيلَةٍ، وَكَانَ لِي صَدِيقاً:

[من الطويل]

أَوْدُكَ وَدّاً لَيْسَ فِيهِ غَضَاضَةٌ^(٣)
وَبَعْضُ مَوَدَّاتِ الرَّجَالِ سَرَابٌ
وَأَمَحْضُكَ^(٤) النَّصْحُ الصَّرِيحُ وَفِي الْحَشَا
لِوَدُكَ نَقْشٌ ظَاهِرٌ وَكِتَابٌ
فَلَوْ كَانَ فِي رُوحِي سِوَاكَ أَقْتَلَعْتُهُ
وَمُرَّقٌ بِالْكَفَّيْنِ عَنْهُ إِهَابٌ

(١) وفي بعض النسخ مغازيك، جمع مغزى.

(٢) عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة ابن أمير المؤمنين الناصر: أمير المؤمنين (الناصر) هو الخليفة الأندلسي الناصر الأموي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٢٧٧ - ٣٥٠هـ)، أبو المطرّف المرواني، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس. وعُبيد الله هذا هو أحد أحفاده. «الأعلام» للزركلي - دار العلم للملايين - بيروت - ١٢ ط - ١٩٩٧ - ج ٣/ ص ٣٢٤.

(٣) الغضاضة هنا بمعنى العيب والنقص.

(٤) أمحضك: أخلصك لك..

وما لي غير الود منك إرادة
ولا في سواه لي إليك خطاب
إذا حُزته فالأرض جمعاء والورى
هباء وسكان البلاد ذباب^(١)

وكلفتنى - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة
الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل
الحقيقة، لا مُتزيّداً ولا مُفْتِئاً^(٢)، لكن مُورداً لما يحضرني
على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى جفطي وسعة باعي
فيما أذكره، فبدّرتُ إلى مرغوبك. ولولا الإيجاب لك لما
تكلّفته، فهذا من العفو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا
نصرفها إلا فيما نرجو به رَحْبَ المُنْقَلَبِ وحُسن المآب غداً،
وإن كان القاضي حُمام بن أحمد^(٣) حدّثني عن يحيى بن

(١) في الأبيات معارضة لبائتي المتنبي وأبي فراس الحُمْداني، ومطلع بائية
المتنبي في مديح كافور:

مُنَى كَرَّ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ فَيَخْفَى بِتَبْيِيضِ الْقُرُونِ شَبَابُ
(ديوانه: شرح البرقوقى - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٨٦ - ج ١ -
ص ٣١٣).

أما بائية أبي فراس فهي في مناشدة سيف الدولة من الأسر ومطلعها:
أما لِحْمِيلٍ عِنْدَكُنْ ثَوَابُ وَلَا لِمُسِيٍّ عِنْدَكُنْ مَتَابُ
ديوانه: بتحقيق د. سامي الدّهان - المعهد الفرنسي للدراسات العربية
بدمشق - طبع بيروت - ١٩٤٤ - ج ٢/ص ٢٢.

(٢) مُفْتِئاً: جاعله فنوناً وأنواعاً.

(٣) حُمام بن أحمد بن عبد الله (أبو بكر): (٣٥٧ - ٤٢١هـ) مُحدّث قرطبي،
عرف ببلاغته وسعة روايته، مع ذكائه وحزمه وحسن أخلاقه. ولي القضاء في
عدة مدن في غربي الأندلس. ينظر: «الصّلة»: لابن بشكوال - تحقيق: =

مالك بن عائذ^(١) بإسنادٍ يرفعه إلى أبي الدرداء^(٢) أنه قال: «أجمُوا^(٣) النفوسَ بشيءٍ من الباطلِ ليكونَ عوناً لها على

= إبراهيم الأبياري - دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني - (القاهرة - بيروت) - ط ١ - ١٩٨٩ - ج ١/ ص ٢٥٠. وورد ذكره أيضاً في: «جذوة المقتبس» للحميدي: (ج ١/ ص ٣١٢). وفي: «بغية الملمس» للضبّي: (ج ١/ ص ٣٤٢).

(١) يحيى بن مالك بن عائذ بن كيسان (أبو زكريا): (٣٠٠ - ٣٧٥هـ): مولى هشام بن عبد الملك بن مروان، راوية مُحدّث، أخذ العلم بالأندلس، ثم ارتحل إلى المشرق، وسمع ببغداد والبصرة وغيرهما، وحُدّث بالمشرق، وبالأندلس، وروى عنه عدد من أهل مصر والأندلس، وحين عاد أخذ يملّي ويحدث بجامع قرطبة، فأخذ عنه طلاب العلم وأبناء الملوك. تنظر ترجمته في: «جذوة المقتبس» للحميدي: تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٣ - القسم الثاني/ ص ٦٠٥. وكذلك ينظر: «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي: تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني - (القاهرة - بيروت) - ط ٢ - ١٩٨٩ - ج ٢/ ص ٩٢١.

(٢) أبو الدرداء: عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، اشتهر بكنيته (أبو الدرداء)، واختلفت المصادر في ذكر اسمه فقليل: «عويمر بن زيد» و«عويمر بن عبد الله أو ابن ثعلبة أو ابن عامر...» وغير ذلك: صحابي جليل، وعالم مقرئ مُحدّث، من الحكماء الفرسان الفضاة، وهو معدود فيمن تلا على النبي ﷺ، وممن جمع القرآن في حياته، شهد يوم «أحد» و«الخنندق» و«اليرموك»، ولي قضاء دمشق أيام ولاية معاوية على الشام، وروى عنه أهل الحديث. تنظر ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر: تحقيق: علي محمد البجاوي - دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٩٩٢ - مج ٣/ ص ١٢٢٧. ووردت ترجمته في مصادر أخرى مثل: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير - تحقيق الشيخ علي محمد معوض ورفاقه - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٤ - ج ٤/ ص ٣٠٦.

(٣) أجمُوا النفوس: أريحوها، وأجَمَّ فلان نفسه: أراحها.

الحق»^(١)؛ ومن أقوال الصالحين من السلف المرضي: «من لم يُحسِّن يتَقَتَّى»^(٢) لم يُحسِّن يتَقَرَّأ»^(٣). وفي بعض الأثر: «أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد».

والذي كَلَفْتَنِي فلا بدَّ فيه من ذِكْرِ ما شاهدتهُ حضرتي، وأدرَكتهُ عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زمامي، فاغتنر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً، وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره، وإما لاشتغال لا يُغني عنه الطي وتترك التبسين، وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره وقلة إنكار منه لنقله.

وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلْتُها فيما شاهدتهُ، فلا تُنكر أنت - ومن رآها - عليَّ أني سألك فيها مسلك حاكمي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحليين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فإن إخواني يُجشِّمونني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أني ذاكر لك ما عرض لي ممَّا يشاكل ما نَحَوْتُ نَحْوَهُ وناسبهُ إليَّ.

(١) نقل ابن حزم قول أبي الدرداء بشيء من التقريب والتصرف، وهو وارد في «بهجة المجالس» لأبي عمر القرطبي - تحقيق محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية - بيروت - مج ١/ق - ص ١١٥.

(٢) يتَقَتَّى: يتخذ سبيل الفتوة، والمراد هنا: لهو الشباب وهزله. ينظر المعجم الوسيط (فتو - فتي).

(٣) يتَقَرَّأ: مخففة من «يتقرأ» بمعنى يَتَنَسَّك ويتَفَقَّه. وفي بعض النسخ: يتقوى (بالواو والألف المقصورة) على اعتبار المعنى: يأخذ مأخذ الجد. ويرجع د. إحسان عباس القراءة الأولى بالألف الممدودة، ولعله مُحَقَّق في ذلك (ينظر تحقيقه لرسائل ابن حزم - ج ١ - ص ٨٧).

والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقتصار على ما رأيت أو صحَّ عندي بنقل الثقَاتِ، ودَعْنِي من أخبار الأعرابِ المُتَقَدِّمين، فسيْلُهُمْ غيرُ سبيلنا، وقد كَثُرَتِ الأخبارُ عَنْهُمْ، وما مذهبي أن أنْضِي^(١) مَطِيَّةَ سِوَايَ، ولا أَتَحَلَّى بِحَلِي مُسْتَعَارٍ، واللَّهُ المُسْتَغْفَرُ والمُسْتَعَانُ لا رَبَّ غَيْرُهُ.

(١) أنْضِي الدَابَّةَ: أتعبها وأهزلها، ومعنى قوله: «أنْضِي مَطِيَّةَ سِوَايَ» أي لا أركب مركب غيري ولا آخذ منهم، دلالة على تفردّه وعدم اتباعه الآخرين.

[أبواب الرسالة]

وَقَسَمْتُ رسالتي هذه على ثلاثين باباً:

منها في أصول الحب عشرة:

فأولها هذا الباب؛

ثُمَّ بابٌ في علاماتِ الحبِّ،

ثُمَّ بابٌ فيه ذِكْرُ مَنْ أَحَبَّ في النَّوْمِ،

ثُمَّ بابٌ فيه ذِكْرُ مَنْ أَحَبَّ بالوصفِ،

ثُمَّ بابٌ فيه ذِكْرُ مَنْ أَحَبَّ من نظرةٍ واحدةٍ،

ثُمَّ بابٌ فيه ذِكْرُ مَنْ لَا تَصِحُّ مَحَبَّتُهُ إِلَّا مَعَ الْمُطَاوَلَةِ،

ثُمَّ بابٌ التَّعْرِيزِ بالقولِ،

ثُمَّ بابٌ الإشارةِ بالعينِ،

ثُمَّ بابٌ المُرَاسَلَةِ،

ثُمَّ بابٌ السَّفِيرِ.

ومنها في أعراضِ الحبِّ وصفاتِهِ المَحْمُودَةِ والمَذْمُومَةُ اثْنَا عَشَرَ

باباً - وإنْ كَانَ الحبُّ عَرَضاً، والعَرَضُ لَا يَحْتَمِلُ الْأَعْرَاضَ^(١)،

وَصِفَةً، وَالصِّفَةُ لَا تُوصَفُ، فهذا على مَجَازِ اللَّغَةِ في إِقَامَةِ الصِّفَةِ

(١) العَرَضُ: لغةً: ما يطرأ ويزول من مرضٍ أو نحوه، فهو عارض. وفي لغة

المناطق: ما قام بغيره وهو ضد الجواهر، كالبياض والطول والقصر.

(الوسيط/عرض).

مَقَامَ المَوْصُوفِ، وعلى معنى قولنا: وجودنا عَرَضاً أَقْلُ في الحقيقة من عَرَضٍ غيرِه وأكثر وأَحْسَنُ وأَقْبَحُ، في إدراكنا لها [و] عَلِمْنَا أَنَّهَا مُتَبَايِنَةٌ في الزِّيَادَةِ والنُّقْصَانِ من ذاتِها المَرُئِيَّةِ والمَعْلُومَةِ^(١)، إذ لا تَقَعُ فيها الكَمِّيَّةُ ولا التَّجْزِي^(٢)، لأنَّها لا تَشْغُلُ مكاناً - وهي:

بَابُ الصَّدِيقِ المُسَاعِدِ،

ثُمَّ بَابُ الوَصْلِ،

ثُمَّ بَابُ طَيِّ السَّرِّ،

ثُمَّ بَابُ الكَشْفِ والإِذَاعَةِ،

ثُمَّ بَابُ الطَّاعَةِ،

ثُمَّ بَابُ المُخَالَفَةِ،

ثُمَّ بَابُ مَنْ أَحَبَّ صِفَةً لَمْ يُحِبَّ بَعْدَهَا غَيْرَهَا مِمَّا يَخَالِفُهَا،

ثُمَّ بَابُ القُنُوعِ،

ثُمَّ بَابُ الوَفَاءِ،

ثُمَّ بَابُ العَدْرِ،

ثُمَّ بَابُ الضَّنَى،

ثُمَّ بَابُ المَوْتِ.

ومنها في الآفَاتِ الدَّاخِلَةِ على الحُبِّ سِتَّةُ أَبْوَابٍ وهي:

بَابُ العَادِلِ،

ثُمَّ بَابُ الرَّقِيبِ،

(١) في هذه الفقرة: «وعلى معنى قولنا... الخ» غموض وتداخل فكري، ولعلَّه من أثر النزعة الكلامية والمنطقية عند ابن حزم.

(٢) التَّجْزِي: الأرجح أنها التَّجْزِيءُ بمعنى التجزؤ أو التجزئة، وقد حذفت الهمزة تخفيفاً.

ثُمَّ بَابُ الْوَاشِي،
ثُمَّ بَابُ الْهَجْرِ،
ثُمَّ بَابُ الْبَيْنِ،
ثُمَّ بَابُ السُّلُو.

ومن هذه الأبوابِ السَّتَّةِ بابانِ لِكُلِّ واحدٍ منهما ضِدٌّ من الأبوابِ
الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ، وهما:

بابُ الْعَاذِلِ، وَضِدُّهُ بَابُ الصَّدِيقِ الْمُسَاعِدِ؛
وبَابُ الْهَجْرِ، وَضِدُّهُ بَابُ الْوَصْلِ.

ومِنْهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ لَا ضِدَّ لَهَا مِنْ مَعَانِي الْحُبِّ وَهِيَ:

بابُ الرَّقِيبِ، وبَابُ الْوَاشِي، وَلَا ضِدَّ لَهُمَا إِلَّا ارْتِفَاعُهُمَا.

وحَقِيقَةُ الضِّدِّ مَا إِذَا وَقَعَ ارْتِفَاعُ الْأَوَّلِ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُونَ قَدْ
اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ، وَلَوْ لَا خَوْفُنَا إِطَالََةَ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِ
الْكِتَابِ لَتَقَصَّيْنَاهُ،

وبَابُ الْبَيْنِ وَضِدُّهُ تَصَاقُبُ الدِّيارِ^(١)؛ وَلَيْسَ التَّصَاقُبُ مِنْ مَعَانِي
الْحُبِّ الَّتِي نَتَكَلَّمُ فِيهَا.

وبَابُ السُّلُو، وَضِدُّهُ الْحُبُّ بَعِينُهُ، إِذْ مَعْنَى السُّلُو ارْتِفَاعُ الْحُبِّ
وَعَدَمُهُ.

ومِنْهَا بابانِ خَتَمْنَا بِهِمَا الرِّسَالَةَ، وهما:

بابُ الْكَلَامِ فِي قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ،

(١) تصاقب الديار، من المصاقبة، وهي المقاربة والمواجهة لجهة الموافقة
والمطابقة.

وبابٍ في فضلِ التَّعَفُّفِ، ليكونَ خاتمةَ إيرادنا وآخرَ كلامنا
الحضُّ على طاعةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيِ عن
المُنكَرِ، فذلك مُفْتَرَضٌ على كلِّ مؤمنٍ.

لكنْ خالفنا في نَسَقِ بعضِ هذه الأبوابِ، هذه الرُّتَبَةُ الْمُقَسَّمَةُ
في دَرَجِ هذا البابِ الَّذِي هو أَوَّلُ أبوابِ الرُّسَالَةِ، فجعلناها على
مبادئها إلى منتهاها واستحقاقها في التَّقدُّمِ والدَّرَجَاتِ والوجودِ،
ومنْ أَوَّلِ مراتبها إلى آخرها، وجعلنا الضَّدَّ إلى جَنْبِ ضِدِّه،
فاختلفَ المَسَاقُ في أبوابِ يسيرةٍ.
واللَّهُ المُسْتَعَانُ.

أبواب الكتاب وفقاً لتسلسلها الآتي

وهيئتها في الإيراد:

- ١ - أولها هذا الباب الذي نحن فيه، وفيه صدرُ الرسالة، وتقسيم الأبواب، والكلام في باب ماهية الحب،
- ٢ - ثم باب علامات الحب،
- ٣ - ثم باب من أحب في النوم،
- ٤ - ثم باب من أحب بالوصف،
- ٥ - ثم باب من أحب من نظرة واحدة،
- ٦ - ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة،
- ٧ - ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها،
- ٨ - ثم باب التعريض بالقول،
- ٩ - ثم باب الإشارة بالعين،
- ١٠ - ثم باب المراسلة،
- ١١ - ثم باب السفير،
- ١٢ - ثم باب طي السر،
- ١٣ - ثم باب إذاعته،

- ١٤ - ثُمَّ بَابُ الطَّاعَةِ،
- ١٥ - ثُمَّ بَابُ الْمُخَالَفَةِ،
- ١٦ - ثُمَّ بَابُ الْعَاذِلِ،
- ١٧ - ثُمَّ بَابُ الْمُسَاعِدِ مِنَ الْإِخْوَانِ،
- ١٨ - ثُمَّ بَابُ الرَّقِيبِ،
- ١٩ - ثُمَّ بَابُ الْوَاشِي،
- ٢٠ - ثُمَّ بَابُ الْوَصْلِ،
- ٢١ - ثُمَّ بَابُ الْهَجْرِ،
- ٢٢ - ثُمَّ بَابُ الْوَفَاءِ،
- ٢٣ - ثُمَّ بَابُ الْعَدْرِ،
- ٢٤ - ثُمَّ بَابُ الْبَيْنِ،
- ٢٥ - ثُمَّ بَابُ الْقُنُوعِ،
- ٢٦ - ثُمَّ بَابُ الضَّنَى،
- ٢٧ - ثُمَّ بَابُ السُّلُوءِ،
- ٢٨ - ثُمَّ بَابُ الْمَوْتِ،
- ٢٩ - ثُمَّ بَابُ قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ،
- ٣٠ - ثُمَّ بَابُ فَضْلِ التَّعَفُّفِ.

١

[الكلام في ماهية الحب]

الحُبُّ - أعزَّكَ اللهُ - أولُهُ هَزْلٌ وآخرُهُ جِدٌّ، دَقَّتْ معانيه لجلالِتها عَنْ أَنْ تَوْصَفَ، فَلَا تُدْرِكُ حَقِيقَتُهَا إِلَّا بِالْمُعَانَةِ. وليس بِمُنْكَرٍ فِي الدِّيَانَةِ وَلَا بِمَحْظُورٍ فِي الشَّرِيعَةِ، إِذِ الْقُلُوبُ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ أَحَبَّ مِنْ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ وَالْأَثَمَةِ الرَّاشِدِينَ كَثِيرٌ، مِنْهُمْ بَأَنْدَلُسِنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ^(١) - «دعجاء»، وَالْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ^(٢)، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَكَمِ^(٣) وَشَغَفُهُ بِ«طُروب» أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ

(١) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف بعبد الرحمن (الداخل) الأموي، والملقب بصقر قریش: مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. ولد في دمشق سنة (١١٣هـ)، ونشأ يتيمًا. استطاع أن يفلت من تعقب العباسيين له عند سقوط الدولة الأموية، ودخل الأندلس وأعلن إمارته فيها. عرف بحزمه وشجاعته وكان شاعراً. توفي بقرطبة عام (١٧٢هـ). ينظر «الأعلام» للزركلي: ج ٣/ص ٣٣٨. ودعجاء هذه لم نجد ترجمة لها فيما بين يدينا من مصادر.

(٢) الحَكَمُ بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، الأموي، (أبو العاص)، من أشهر ملوك الأندلس وأفحلهم، وهو أول من جند الأجناد وجمع الأسلحة والعتاد، عرف بالشدة والحزم، ولد بقرطبة عام ١٥٤هـ، وولي الأمر فيها بعد أبيه، فقمع الفتن في قسوة بالغة، واستقر له الأمر إلى أن توفي بقرطبة سنة ٢٠٦هـ. ينظر: «الأعلام» للزركلي: مج ٢/ص ٢٦٧، و«موسوعة المورد» للبلعبي: مج ١/٤٤٤.

(٣) عبد الرحمن بن الحَكَمِ بن هشام بن عبد الرحمن الأموي، (أبو المطرف): رابع ملوك بني أمية في الأندلس، ولد في طليطلة عام ١٧٦هـ، وبويع بقرطبة =

ابنُه أَشْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(١) وَأَمْرُهُ مَعَ «غَزَلَانَ» أُمُّ بَنِيهِ: عُثْمَانُ وَالْقَاسِمُ وَالْمَطْرَفُ مَعْلُومٌ، وَالْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ^(٢) وَافْتَتَانُهُ بِ«صُبْحِ» أُمِّ هِشَامِ الْمُؤَيَّدِ بِاللَّهِ^(٣) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ جَمِيعِهِمْ) وَامْتَنَاعُهُ عَنِ التَّعَرُّضِ لِلْوَلَدِ مِنْ غَيْرِهَا. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ؛ وَلَوْلَا أَنَّ حَقُوقَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَاجِبَةٌ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ

= سنة ٢٠٦هـ بعد وفاة أبيه بيوم واحد، تميز عهده بالازدهار والاستقرار والعمران، وعرف برعايته للشعر والفنون. توفي بقرطبة سنة ٢٣٨هـ. الأعلام: مج ٣/٣٠٥، وموسوعة المورد: مج ٢/٧٥٣. وطروب (أم عبد الله) جاريته التي أُولع بها ولعاً عظيماً، وتدل أخباره معها على شدة كلفه بها، وأنها كانت ذات نفوذ وسلطان. ينظر: «أعلام النساء» لعمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٢ - مج ٢/ص ١٥٦.

(١) محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي، (أبو عبد الله): من ملوك الدولة الأموية في الأندلس، ولد بقرطبة عام ٢٠٧هـ، وولي الملك بعد وفاة أبيه. عرف بإحسانه وعدله وبلاغته، وخلف كثيراً من الأولاد. توفي بقرطبة سنة ٢٧٣هـ. الأعلام: مج ٦/ص ١٨٩. والجارية غزلان ورد ذكرها في نفع الطيب للمقري على أنها مغنية بديعة محسنة أدبية. ينظر أعلام النساء لكحالة: ج ٤/٩.

(٢) الحَكَمُ المستنصر بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، (المُسْتَنْصِرُ): خليفة أموي أندلسي، ولد بقرطبة عام ٣٠٢هـ، وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠هـ، غزا الإسبان وقوي عليهم، وكثرت فتوحاته. كان عالماً بالدين، ملماً بالأدب والتاريخ، محباً للعلماء، جَماعاً للكتب. توفي بقرطبة بعد مرض سنة ٣٦٦هـ. الأعلام: مج ٢/ص ٢٦٧. وصبح البشكنسية جاريته المحظية وأم ولده هشام.

(٣) هشام بن الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر، أبو الوليد، (المُؤَيَّدُ الأموي): من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس. ولد بقرطبة (عام ٣٥٥هـ)، وبويع يوم وفاة أبيه (سنة ٣٦٦هـ)، وكان صغيراً فاستأثر بتدبير مملكته عدد من وزراء أبيه، إلى أن دَبَّتْ الفتن وعمت الفوضى، كان ضعيفاً مهملًا، ومات دون أن يعقب (سنة ٤٠٣هـ). الأعلام للزركلي: مج ٨/ص ٨٥.

نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغي الإخبار به عنهم، لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل.

وأما كبار رجالهم ودعائهم دولتهم فأكثر من أن يخصصوا؛ وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر عبد الملك بن أبي عامر^(١) بواجده، بنت رجل من الجنان^(٢) حتى حملها حُبها أن يتزوجها، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامريين^(٣) الوزير عبد الله بن مسلمة^(٤)، ثم تزوجها بعد قتله، رجل من رؤساء البربر.

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني

(١) عبد الملك بن محمد المنصور بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، أبو مروان، (المظفر): ثاني أمراء الأندلس من الأسرة العامرية، وكان في أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه في الحجابة (رئاسة الوزراء) للمؤيد الأموي (هشام بن الحكم) بقرطبة، وعند موت أبيه خلع عليه المؤيد وكتب له بولاية الحجابة، فقام بأمور الدولة كلها. كان شجاعاً حازماً، وتوفي في إحدى غزواته مريضاً وقيل مسموماً (سنة ٣٩٩هـ).

(٢) الجنان، المشتغل في الجنينات، البستاني.

(٣) العامريون: بنو عامر الذين أقاموا دولتهم في الأندلس في ظل خلافة هشام بن الحكم (المؤيد)، الذي بويع بالخلافة صغيراً، فاستبد بها طوال حكمه محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور الذي أنشأ الدولة العامرية، فقصت على ما كان بقي من قوة للبيت الأموي الأندلسي وحكمت باسمه، وخلف المنصور في السلطان ابنه الأول أبو مروان عبد الملك الملقب بالمظفر، ثم ابنه الثاني عبد الرحمن، وبمقتل هذا الأخير سنة (٤٠٠هـ) زالت الدولة العامرية ومعها خلافة الأمويين في الأندلس.

(٤) عبد الله بن مسلمة: كان وزيراً في عهد خلافة هشام بن الحكم، ووردت بعض أخباره في «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذاري - تحقيق كولان وبروفنسال - دار الثقافة - بيروت - ط ٥ - ١٩٩٨ - ج ٣/ ص ٥٨.

أخبرني أن نزار بن معد^(١) صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار^(٢) الذي ولي الملك بعده، وادّعى الإلهية إلا بعد مدة من مولده، مُسَاعِدَةً لَجارية كان يحبها حباً شديداً، هذا ولم يكن له ذكر ولا من يرث ملكه ويحيي ذكره سواه.

ومن الصّالحين والفُقهاء، في الدّهور الماضي والأزمان القديمة، من قد استعني بأشعارهم عن ذكرهم؛ وقد ورد من خبر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود^(٣) وشعره ما فيه الكفاية، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة^(٤)، وقد جاء من فُتيا

(١) نزار بن معد بن المنصور العبدي الفاطمي، أبو منصور، (العزير بالله): صاحب مصر والمغرب ولد في المهديّة (عام ٣٦٥هـ)، وكانت في أيامه فتن وقلاقل. كان كريماً حكيماً، وأدركته المنية في مدينة بلبس (سنة ٣٨٦هـ). الأعلام: مج ٨/ص ١٦.

(٢) منصور بن نزار بن معد، أبو علي، (الحاكم بأمر الله): سادس الخلفاء الفاطميين ولد في القاهرة (عام ٣٧٥هـ)، وبويع بالخلافة وعمره إحدى عشرة سنة، كان مثالهاً غريب الأطوار، وفي سيرته غموض وتداخل كبيرين، اختفى في ظروف غامضة (سنة ٤١١هـ)، وتذكر بعض المصادر أنه اغتيل سراً فيما يعتقد أتباعه باحتجابه، وأنه سيظهر لنشر الإيمان بعد غيبة... الأعلام: مج ٧/ص ٣٠٥. وموسوعة المورد: مج ١/ص ٤١٦.

(٣) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، (أبو عبد الله)، المعروف بابن عُتْبَةَ الهذلي، مفتي المدينة وأحد فقهاء السبعة، كان من أعلام التابعين، وله أشعار ورد بعضها في حماسة أبي تمام وأغاني الأصفهاني، كان ثقة عالم كثر الحديث. توفي بالمدينة (سنة ٩٨هـ). الأعلام: مج ٤/ص ١٩٥.

(٤) فقهاء المدينة السبعة: وهم عروة بن الزبير بن العوام القرشي (٢٢ - ٩٣هـ)، وأبو بكر بن عبد الرحمن المخزومي (... - ٩٤هـ)، وسعيد بن المسيب المخزومي القرشي (١٣ - ٩٤هـ)، وعبيد الله بن عتبة (صاحب الترجمة =

ابن عباس^(١) (رضي الله عنه) ما لا يحتاج إلى غيره حين يقول: «هذا قتل الهوى لا عقل ولا قود»^(٢).

وقد اختلف الناس في ماهيته^(٣)، وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود^(٤) (رحمه الله) عن بعض أهل الفلسفة: «الأرواح أكر»^(٥) مقسومة، لكن على

= السابقة)، وخارجه بن زيد بن ثابت الأنصاري (٢٩ - ٩٩هـ)، وسليمان بن يسار (٣٤ - ١٠٧هـ)، (ورد في ط. د. عباس والتونسية: سليمان بن ياسر: خطأ). والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (٣٧ - ١٠٧هـ). وترجماتهم مبذولة في كثير من المصادر.

(١) ابن عباس: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي: صحابي جليل، ولد بمكة في السنة الثالثة قبل الهجرة، ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة. تعمق بالفقه والتفسير والشعر، وشهد مع علي الجمل وصفين، وتوفي بالطائف بعد كفاف بصره (سنة ٦٨هـ). الأعلام للزركلي: مج ٤/ ٩٥.

(٢) ويقرأ: «لا عقل ولا قود». والعقل: الدية. والقود: القصاص. والمعنى: لا دية ولا قصاص. وفي القول سمة شعرية تفترض سياقها كما يلي: «هذا قتل الهوى لا عقل ولا قود». وقول ابن عباس ورد مع تفصيل قصة شاب قتله الهوى في كتاب «الموشى» لأبي الطيب الوشاء - تحقيق: كمال مصطفى - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٢ - ١٩٥٣ - ص ٩٣. وورد القول دون تفصيل في: «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني - دار مكتبة الحياة - بيروت - دون تاريخ - ج ٣/ ص ٤٥.

(٣) أي في ماهية الحب.

(٤) محمد بن داود بن علي بن خلف الظاهري، (أبو بكر): أديب، مناظر، شاعر، أصله من أصبهان وولد ببغداد عام (٢٥٥هـ) وعاش فيها، وهو ابن الإمام داود الذي ينسب إليه المذهب الظاهري، وقد ترك كتباً أشهرها «الزهرة». توفي ببغداد (سنة ٢٩٧هـ).

(٥) أكر: مفردا أكرة وهي الكرة.

سبيل مناسبة قواها في مقرِّ عالمها العلويِّ، ومُجاورتها في هيئَةِ تركيبها»^(١).

وقد علمنا أنَّ سرَّ التمازج والتباين في المخلوقات، إنَّما هو الاتِّصال والانفصال، والشكل دأباً^(٢) يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكنٌ^(٣)، وللمُجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مُشاهدٌ. والتنافُر في الأضدادِ والموافقة في الأندادِ^(٤) والنزاع فيما تشابه موجودٌ فيما بيننا؛ فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهر الصَّعَادُ الْمُعْتَدِلُ، وسنُّها^(٥) المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والثَّغَارِ^(٦)؛ كلُّ ذلك معلومٌ بالفطرة في أحوالِ تصرُّف الإنسان فيسكنُ إليها^(٧)، واللَّه عزَّ وجلَّ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] فجعلَ علَّةً^(٨) السُّكونِ أنَّها منه.

(١) يشير ابن حزم هنا إلى ما أورده ابن داود في كتاب «الزهرة»، ولمراجعته ينظر «الزهرة». بتحقيق: د. إبراهيم السامرائي - مكتبة المنار - (الأردن - الزرقاء) ط ٢ - ١٩٨٥ - ج ١/ ص ٥٣، ٥٤.

(٢) الدَّأْبُ، والدَّأَبُ: العادة والشأن. ويقال: ما زال هذا دأبه. (الوسيط/ دأب).

(٣) سَكَنَ إليه: استأنس به واستراح إليه.

(٤) الأنداد: جمع ند، وهو المثل والنظير.

(٥) السُّنْحُ: الأصل من كل شيء.

(٦) الثَّغَار: الجِرَان. ونفَر من الشيء نفوراً، ونفاراً، فَرَعَ وانقبض وأعرض غير راض به.

(٧) يسكنُ إليها أي: إلى النفس، كما يُفهم من السياق، وفي تحقيق الصيرفي وعباس أنَّ في العبارة نقصاً... ؟.

(٨) العِلَّة من كل شيء: سببه، وفي لغة الفلاسفة: «كلُّ ما يصدر عنه أمرٌ آخر...».

ولو كَانَ عِلَّةُ الْحُبِّ حُسْنُ الصُّورَةِ الْجَسَدِيَّةِ، لَوَجَبَ أَلَّا يُسْتَحْسَنَ
الْأَنْقَاصُ فِي الصُّورَةِ، وَنَحْنُ نَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُؤْثِرُ الْأَدْنَى، وَيَعْلَمُ
فَضْلَ غَيْرِهِ وَلَا يَجِدُ مَحِيدًا لِقَلْبِهِ عَنْهُ. وَلَوْ كَانَ لِلْمُوَافَقَةِ فِي
الْأَخْلَاقِ، لَمَّا أَحَبَّ الْمَرْءُ مَنْ لَا يُسَاعِدُهُ وَلَا يُوَافِقُهُ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ
شَيْءٌ فِي ذَاتِ النَّفْسِ.

وَرَبَّمَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَتِلْكَ تَفْنَى بِفَنَاءِ
سَبَبِهَا، فَمَنْ وَدَّكَ لِأَمْرِ وَلَّى مَعَ انْقِضَائِهِ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الطويل]

وِدَادِي لَكَ الْبَاقِي عَلَى حَسَبِ كَوْنِهِ
تَنَاهَى فَلَمْ يَنْقُصْ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَزِدْ
وَلَيْسَتْ لَهُ غَيْرَ الْإِرَادَةِ عِلَّةٌ
وَلَا سَبَبٌ حَاشَاهُ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ
إِذَا مَا وَجَدْنَا الشَّيْءَ عِلَّةَ نَفْسِهِ
فَذَلِكَ وَجُودٌ لَيْسَ يَفْنَى عَلَى الْأَبَدِ
وَإِذَا مَا وَجَدْنَاهُ لِشَيْءٍ خِلَافَهُ
فِيْإِعْدَامُهُ فِي عَدَمِنَا مَا لَهُ وَجِدْ

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا الْقَوْلَ، أَنَّنَا عَلِمْنَا أَنَّ الْمَحَبَّةَ ضَرْبٌ، فَأَفْضَلُهَا:
مَحَبَّةُ الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِمَّا لِاجْتِهَادٍ فِي الْعَمَلِ، وَإِمَّا
لِاتِّفَاقٍ فِي أَصْلِ النَّحْلَةِ^(١) وَالْمَذْهَبِ، وَإِمَّا لِفَضْلِ عِلْمٍ يُمْنَحُهُ
الْإِنْسَانُ؛ وَمَحَبَّةُ الْقَرَابَةِ، وَمَحَبَّةُ الْأُلْفَةِ فِي الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَطَالِبِ،
وَمَحَبَّةُ التَّصَاحِبِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَمَحَبَّةُ الْبِرِّ يَضَعُهُ الْمَرْءُ عِنْدَ أَخِيهِ، وَمَحَبَّةُ

(١) النَّحْلَةُ (بالكسر) العقيدة الدينية، ثم ضاق معناها لتعني فرقة من الفرق
الدينية.

الطَّمَع في جاه المَحْبُوب، وَمَحَبَّةُ الْمُتَحَابِّينِ لِسِرٍّ يَجْتَمَعَانِ عَلَيْهِ يَلْزِمُهُمَا سِتْرُهُ^(١)، وَمَحَبَّةُ بُلُوغِ اللَّذَّةِ وَقَضَاءِ الْوَطْرِ، وَمَحَبَّةُ الْعِشْقِ الَّتِي لَا عِلَّةَ لَهَا إِلَّا مَا ذَكَّرْنَا مِنْ اتِّصَالِ النُّفُوسِ.

فَكُلُّ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ مُنْقِضِيَّةٌ مَعَ انْقِضَاءِ عِلَلِهَا، وَزَائِدَةٌ بِزِيَادَتِهَا، وَنَاقِصَةٌ بِنُقْصَانِهَا، مُتَأَكِّدَةٌ بِدُنُوعِهَا، فَاتِرَةٌ بِبُعْدِهَا، حَاشَا مَحَبَّةَ الْعِشْقِ الصَّحِيحِ الْمُتَمَكِّنِ مِنَ النَّفْسِ فَهِيَ الَّتِي لَا فَنَاءَ لَهَا إِلَّا بِالْمَوْتِ. وَإِنَّكَ لَتَجِدُ الْإِنْسَانَ السَّالِيَّ بِزَعْمِهِ^(٢)، وَذَا السَّنِّ الْمُتَنَاهِيَّةِ، إِذَا ذَكَرْتَهُ تَذَكَّرَ وَارْتَحَ وَصَبَا، وَاعْتَادَهُ الطَّرْبُ وَاهْتَجَّ لَهُ الْحَنِينُ.

وَلَا يَعْزِضُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْمَذْكُورَةِ، مِنْ شُغْلِ الْبَالِ وَالْحَبْلِ وَالْوَسْوَاسِ، وَتَبَدُّلِ الْغَرَائِزِ الْمُرَكَّبَةِ، وَاسْتِحَالَةِ السَّجَايَا الْمَطْبُوعَةِ، وَالنُّحُولِ وَالزَّفِيرِ وَسَائِرِ دَلَائِلِ الشَّجَا، مَا يَعْزِضُ فِي الْعِشْقِ، فَصَحَّ بِذَلِكَ أَنَّهُ اسْتِحْسَانٌ رُوحَانِيٌّ وَامْتِزَاجٌ نَفْسَانِيٌّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ كَانَ هَذَا كَذَلِكَ، لَكَانَتْ الْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مُسْتَوِيَّةً، إِذِ الْجُزْءَانِ مُشْتَرِكَانِ فِي الْإِتِّصَالِ وَحِظْهُمَا وَاحِدٌ، فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: هَذِهِ لَعَمْرِي مَعَارِضَةٌ صَحِيحَةٌ، وَلَكِنَّ نَفْسَ الَّذِي لَا يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ مُكْتَنَفَةٌ الْجِهَاتِ بِبَعْضِ الْأَعْرَاضِ السَّاتِرَةِ، وَالْحُبُّبِ الْمُحِيطَةِ بِهَا مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْضِيَّةِ، فَلَمْ تُحَسَّ بِالْجُزْءِ الَّذِي كَانَ مُتَّصِلًا بِهَا قَبْلَ حُلُولِهَا حَيْثُ هِيَ؛ وَلَوْ تَخَلَّصَتْ لَا سْتَوِيَا فِي الْإِتِّصَالِ وَالْمَحَبَّةِ. وَنَفْسُ الْمُحِبِّ مُتَخَلِّصَةٌ عَالِمَةٌ بِمَكَانِ مَا كَانَ يُشْرِكُهَا فِي الْمَجَاوِرَةِ، طَالِبَةٌ لَهُ، قَاصِدَةٌ إِلَيْهِ، بَاحِثَةٌ عَنْهُ،

(١) وَيُمْكِنُ أَنْ تُقْرَأَ: يُلْزِمُهُمَا سِتْرُهُ.

(٢) السَّالِيَّ بِزَعْمِهِ: مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَلَا مَحْبُوبَهُ وَنَسِيَهُ.

مُشْتَهِيَةً لِمُلَاقَاتِهِ، جاذِبَةٌ لَهُ لَوْ أَمَكْنَهَا كَالْمَغْنِطِيسِ ^(١) والحديد.

فَقُوَّةُ جَوْهَرِ الْمَغْنِطِيسِ الْمُتَّصِلَةُ بِقُوَّةِ جَوْهَرِ الْحَدِيدِ، لَمْ تَبْلُغْ مِنْ تَحْكُمِهَا وَلَا مِنْ تَصْنِيفِهَا أَنْ تَقْصِدَ إِلَى الْحَدِيدِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ شَكْلِهَا وَعَنْصُرِهَا؛ كَمَا أَنَّ قُوَّةَ الْحَدِيدِ لِشِدَّتِهَا قَصَدَتْ إِلَى شَكْلِهَا وَانْجَذَبَتْ نَحْوَهُ؛ إِذِ الْحَرَكَةُ أَبَدًا إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْأَقْوَى، وَقُوَّةُ الْحَدِيدِ مَتْرُوكَةُ الذَّاتِ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ بِحَاسِبٍ، تَطْلُبُ مَا يُشَبِّهُهَا وَتَنْقَطِعُ إِلَيْهِ، وَتَنْهَضُ نَحْوَهُ بِالطَّبْعِ وَالضَّرُورَةِ، وَلَيْسَ بِالِاخْتِيَارِ وَالتَّعَمُّدِ. وَأَنْتَ مَتَى أَمَسَكْتَ الْحَدِيدَ بِيَدِكَ لَمْ يَنْجَذِبْ، إِذْ لَمْ يَبْلُغْ مِنْ قُوَّتِهِ أَيْضًا مَغَالِبَةَ الْمُسْكِ لَهُ مِمَّا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ. وَمَتَى كَثُرَتْ أَجْزَاءُ الْحَدِيدِ اشْتَغَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَاكْتَفَتْ بِأَشْكَالِهَا عَنْ طَلَبِ الْيَسِيرِ مِنْ قُوَاهَا النَّازِحَةِ عَنْهَا؛ فَمَتَى عَظُمَ جِزْمُ ^(٢) الْمَغْنِطِيسِ وَوَارَتْ قُوَاهُ جَمِيعَ قُوى جِزْمِ الْحَدِيدِ عَادَتْ إِلَى طَبْعِهَا الْمَعْهُودِ.

وَكَالنَّارِ فِي الْحَجَرِ، لَا تَبْرُزُ عَلَى قُوَّةِ النَّارِ فِي الْإِتِّصَالِ وَالِاسْتِدْعَاءِ لِأَجْزَائِهَا حَيْثُ كَانَتْ، إِلَّا بَعْدَ الْقَدْحِ وَمُجَاوَرَةِ الْجَرِّمِينَ بِضَغْطِهِمَا وَاضْطِكَاحِهِمَا، وَإِلَّا فَهِيَ كَامِنَةٌ فِي حَجَرِهَا لَا تَبْدُو وَلَا تَظْهَرُ.

وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى هَذَا أَيْضًا، أَنَّكَ لَا تَجِدُ اثْنَيْنِ يَتَحَابَّانِ إِلَّا وَبَيْنَهُمَا مُشَاكَلَةٌ وَاتِّفَاقٌ [فِي] الصِّفَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، لَا بَدَّ فِي هَذَا وَإِنْ قَلَّ. وَكَلَّمَا كَثُرَتْ الْأَشْبَاهُ، زَادَتْ الْمُجَانَسَةُ وَتَأَكَّدَتِ الْمَوَدَّةُ؛ فَانْظُرْ

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: الْمَغْنِطِيسُ. وَهُوَ مَعْرَبٌ. (لِسَانُ الْعَرَبِ/ غَطَسُ) وَ(الْوَسِيطُ/ الْوِغْنَاطِيسُ).

(٢) جِزْمٌ (بِالْكَسْرِ): جَسَدٌ، جَمْعٌ: أَجْرَامٌ وَجُرُومٌ، وَالْجُزْمُ (بِالضَّمِّ) الذَّنْبُ. وَالْجَمْعُ نَفْسُهُ..

هذا تَرَهُ عَيْنَانَا. وقولُ رسولِ الله ﷺ يُؤكِّدُهُ: «الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ ما تعارَفَ منها ائْتَلَفَ وما تناكَرَ منها اُخْتَلَفَ»^(١)، وقولُ مَرْوِيِّ عن أَحَدِ الصَّالِحِينَ: «أرواحُ المؤمنِينَ تَتعارَفُ». ولذلك ما اغْتَمَّ بُقْرَاطُ^(٢) حِينَ وُصِفَ لَهُ رَجُلٌ من أَهْلِ النُّقْصَانِ يُحِبُّهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «ما أَحَبَّنِي إِلَّا وقد وافَقْتُهُ في بعضِ أخلاقِهِ».

وذكرَ أَفلاطونُ^(٣) أَنَّ بعضَ المُلُوكِ سَجَنُهُ ظُلُمًا، فَلَمْ يَزَلْ يَحْتَجُّ عن نَفْسِهِ حتَّى أَظْهَرَ بَرَاءَتَهُ، وَعَلِمَ المَلِكُ أَنَّهُ لَهُ ظُلْمٌ؛ فَقَالَ لَهُ وزيرُهُ الذي كَانَ يَتَوَلَّى إيصالَ كلامِهِ إِلَيْهِ: «أَيُّهَا المَلِكُ، قَدْ اسْتَبَانَ لَكَ أَنَّهُ بريءٌ فما لَكَ وَلَهُ؟»، فَقَالَ المَلِكُ: «لَعَمْرِي ما لي إِلَيْهِ سَبِيلٌ غَيْرَ أَتَيْ أَجْدُ لِنَفْسِي اسْتِثْقَالًا لَا أدري ما هُوَ». فَأَدَّى^(٤) ذَلِكَ إلى أَفلاطونَ. قَالَ: «فاحتجْتُ أَنْ أَفتشَ في نَفْسِي وأَخْلَقي شيئًا أَقابِلُ بِهِ نَفْسَهُ وأَخْلَاقَهُ مِمَّا يُشَبِّهُهَا، فنظَرْتُ في أَخْلَاقِهِ فإذا هُوَ

(١) ورد الحديث في الجزء الرابع من «صحيح مسلم» بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩ - كتاب البر والصلة والآداب - الحديث رقم ١٥٩ - ١٦٠ / ص ٢٠٣١.

(٢) بقراط = أبقراط: Hippocrate طبيب يوناني قديم، عاش ما بين (٤٦٠ - ٣٧٧ ق.م). يعتبر أبا الطب، عمل على تحرير الطب من الخرافة، وحاول إقامته على أساس علمي. موسوعة المورد: مج ١/ ص ٢٥.

(٣) أفلاطون Platon: فيلسوف اليونان، عاش ما بين سنتي (٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م) على وجه التقريب. ويُعدُّ مع سقراط وأرسطو واضعي الأسس الفلسفية للثقافة الغربية. معظم مؤلفاته محاورات، وأشهرها كتاب «الجمهورية». موسوعة المورد: مج ١/ ص ١٠٧.

(٤) وتقرأ: «فَأَدَّى ذَلِكَ إلى أفلاطون» على سبيل الأمر. أو: فَأَدَّى [الوزير] ذَلِكَ، بصيغة الماضي. وقد أثبتنا في المتن القراءة بالماضي المبني للمجهول: أَدَّى ذَلِكَ إلى أفلاطون أي: أُنْبِغَ إِلَيْهِ.

مُجِبٌّ للعدلِ كارهٌ للظلم، فميّزتُ هذا الطبعَ فيّ، فما هو إلا أن حركتُ هذه الموافقةَ وقابلتُ نفسهُ بهذا الطبعِ الذي بنفسي، فأمر بإطلاقي وقالَ لوزيرِهِ: قد انحَلَّ كلُّ ما أجدُ^(١) في نفسي له.

وأما العِلَّةُ التي تُوقِعُ الحُبَّ أبداً في أكثرِ الأمرِ، على الصُّورةِ الحسنةِ، فالظَّاهرُ أنَّ النَّفسَ تُولَعُ بكلِّ شيءٍ حسنٍ، وتميلُ إلى التَّساوِيرِ الْمُتَقَنَّةِ: فهي إذا رأتَ بعضها تثبَّتَ فيه، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالِها اتَّصلَتْ وصَحَّتِ المحبةُ الحقيقِيَّةُ، وإن لم تُميّز وراءها شيئاً من أشكالِها لم يَتَجَاوَزْ حُبُّها الصُّورةَ، وذلك هو الشَّهوةُ؛ وإنَّ لِلصُّورِ لِتَوْصِيلٍ عَجيباً بينَ أجزاءِ النفوسِ النَّائِيَةِ.

وقرأتُ في السِّفَرِ الأوَّلِ مِنَ التَّوْرَةِ^(٢) أَنَّ النَّبِيَّ يَعْقُوبَ (عليه السلام)، أَيَّامَ رَعِيهِ غَنَمًا لِلآبَانِ^(٣) خَالِهِ مَهراً لابنَتِهِ، شارَطَهُ على المُشَارَكَةِ فِي أَنْسَالِهَا^(٤)؛ فكلُّ بهيمٍ^(٥) ليعقوبَ وكلُّ أَعْرَ^(٦) لِلآبَانِ، فَكَانَ يَعْقُوبُ (عليه السلام) يعمدُ إلى فُضْبَانِ الشَّجَرِ، يسلُخُ نِصْفاً ويتركُ نِصْفاً بِحَالِهِ، ثُمَّ يُلْقِي الجَمِيعَ فِي المَاءِ الذي تَرُدُّهُ الغَنَمُ،

(١) أَجَدُ: وَجَدَ مَوْجِدَةً: غَضِبَ.

(٢) تنظر القصة في الكتاب المقدس (العهد القديم) - طبعة دار المشرق - بيروت - ١٩٨٩ - سفر التكوين - الإصحاح ٣٩ - اغتناء يعقوب (٢٥ - ٤٣) -

ص ١٤٤.

(٣) آبان: هذا هو أبو ليّا وراحيل زوجتي يعقوب، وخاله. «الكامل» لابن الأثير - ج ١/ ص ٩٠.

(٤) أي: في ذريتها وأولادها، ووردت في طبعة د. عباس: «إنسالتها».

(٥) البهيم: الأسود.

(٦) الأعر: الأبيض.

وَيَتَعَمَّدُ إِرْسَالَ الطَّرُوقَةِ^(١) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَلَا تَلِدُ إِلَّا نَصْفَيْنِ،
نِصْفًا بَهُمَا وَنِصْفًا غُرًّا.

وَذَكَرَ عَنْ بَعْضِ الْقَافَةِ^(٢) أَنَّهُ أُتِيَ بِابْنِ أَسْوَدَ لِأَبِيضَيْنِ، فَنَظَرَ إِلَى
أَعْلَامِهِ^(٣) فَرَأَاهُ لُهُمَا غَيْرَ شَكٍّ، فَرَغِبَ أَنْ يُوقِفَ عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي
اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، فَأَدْخَلَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ فِيهِ مَضْجَعُهُمَا، فَرَأَى فِيهَا
يُوزَايَ نَظَرَ الْمَرْأَةِ صُورَةَ أَسْوَدَ فِي الْحَائِطِ، فَقَالَ لِأَبِيهِ: مِنْ قَبْلِ هَذِهِ
الصُّورَةِ أُتَيْتَ فِي ابْنِكَ.

وَكثِيرًا مَا يُصَرِّفُ شُعْرَاءُ أَهْلِ الْكَلَامِ هَذَا الْمَعْنَى فِي أَشْعَارِهِمْ،
فِيخَاطَبُونَ الْمَرْتِيَّ فِي الظَّاهِرِ خِطَابَ الْمَعْقُولِ الْبَاطِنِ، وَهُوَ
الْمُسْتَفِيزُ فِي شِعْرِ النَّظَّامِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَيَّارٍ^(٤) وَغَيْرِهِ مِنْ
الْمُتَكَلِّمِينَ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا مِنْهُ:

[من البسيط]

مَا عَلَّةُ النَّصْرِ فِي الْأَعْدَاءِ نَعْرِفُهَا
وَعِلَّةُ الْفَرِّ مِنْهُمْ إِذْ يَفِرُّونَا

(١) الطَّرُوقَةُ: الْأَثْنَى، وَالْحَامِلُ وَقَدْ نَشِبَ جَنِيئُهَا فِي بَطْنِهَا. (اللسان/ طرق)
و(الوسيط/ طرق).

(٢) الْقَافَةُ: جَمْعُ قَائِفٍ، وَهُوَ الْخَبِيرُ فِي حِرْفَةِ الْقِيَافَةِ وَتَتَبُعِ الْأَثَرِ.

(٣) أَعْلَامُهُ: أَيُّ عِلَامَاتِهِ وَمَلَامِحِهِ.

(٤) النَّظَّامُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارِ بْنِ هَانِئِ الْبَصْرِيِّ، أَبُو إِسْحَاقَ (النَّظَّامُ): مُتَكَلِّمٌ
مُسْلِمٌ، مِنْ أَثَمَةِ الْمَعْتَزَلَةِ وَلِدَ عَامَ (١٦١هـ) عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ، نَشَأَ فِي
الْبَصْرَةِ ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى بَغْدَادٍ حَيْثُ تَتَلَمَذَ لِلْإِمَامِ الْمَعْتَزَلَةِ أَبِي الْهَذِيلِ الْعَلَّافِ ثُمَّ
انْفَصَلَ عَنْهُ وَأَنْشَأَ مَذْهَبًا خَاصًّا بِهِ، كَانَ شَاعِرًا أَدِيبًا بَلِغًا، وَلَهُ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ فِي
الْفَلَسَفَةِ وَالْإِعْتِزَالِ. تَوَفِيَ حَوْلِي (٢٣١هـ). أَعْلَامُ الزَّرْكَلِيِّ: مَج ١/ ص ٤٣،
وَمَوْسُوعَةُ الْمَوْرِدِ: مَج ٢/ ص ١٢١٣.

إِلَّا نِزَاعُ نَفُوسِ النَّاسِ قَاطِبَةً
إِلَيْكَ يَا لَوْلَوْأَ فِي النَّاسِ مَكُنُونَا
مَنْ كُنْتَ قُدَّامَهُ لَا يَنْتَنِي أَبَدًا
فَهُمْ إِلَى نوركِ الصَّعَادِ يَعْشُونَا^(١)
وَمَنْ تَكُنْ خَلْفَهُ فَالْنَّفْسُ تَصْرِفُهُ
إِلَيْكَ طَوْعًا فَهُمْ دَابَّاءُ يَكْرُونَا
وَمَنْ ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الطويل]

أَمِنْ عَالَمِ الْأَفْلَاكِ^(٢) أَنْتَ أَمْ أَنْسِي
أَبْنُ لِي فَقَدْ أَرَى بِتَمْيِيزِي الْعِي
أَرَى هَيْئَةً إِنْسِيَّةً غَيْرَ أَنَّهُ
إِذَا أُعْمِلَ التَّفَكِيرُ^(٣) فَالْجِرْمُ عُلوِي
تَبَارَكَ مَنْ سَوَّى مَذَاهِبَ خَلْقِهِ
عَلَى أَنَّكَ النُّورُ الْأَنِيقُ الطَّبِيعِي
وَلَا شَكَّ عِنْدِي أَنَّكَ الرُّوحُ سَاقَهُ
إِلَيْنَا مِثَالُ فِي النُّفُوسِ اتِّصَالِي
عَدِمْنَا دَلِيلًا فِي حُدُوثِكَ شَاهِدًا
نَقِيسُ عَلَيْهِ غَيْرَ أَنَّكَ مَرْتَبِي

(١) مَنْ عَشَا فَلَانٌ إِلَى الشَّيْءِ، قَصَدَهُ. وَعَشَا إِلَى النَّارِ عَشُوءًا وَعُشُوءًا: رَأَاهَا لَيْلًا

فَقَصَدَهَا مُسْتَضِيئًا بِهَا (المعجم الوسيط: عشا).

(٢) الْأَفْلَاكُ: جَمْعُ فَلَكٍ، وَهُوَ الْمَدَارُ يَسْبُحُ فِيهِ الْجِرْمُ السَّمَائِيُّ (الوسيط/ فَلَكٌ).

وَوُرِدَ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: الْأَمْلاكُ، وَلَعَلَّ مَا أُثْبِتْنَاهُ أَقْرَبُ إِلَى مَعْنَى الْبَيْتِ،
مَعَ جَوَازِ ذَلِكَ إِذَا قُصِدَ (بِالْأَمْلاكِ): الْمَلَائِكَةُ.

(٣) أُعْمِلَ التَّفَكِيرُ: عَلَى صِبْغَةِ الْمَاضِي الْمَبْنِي لِلْمَجْهُولِ، أَوْ: أُعْمِلُ التَّفَكِيرَ
بِصِبْغَةِ الْمَضَارِعِ (الْمُتَكَلِّمِ) الْمَبْنِي لِلْمَعْلُومِ.

ولولا وقوع العَيْنِ في الكَوْنِ لم نَقُلْ
سوى أَنَّكَ العَقْلُ الرفيعُ الحَقِيقِي
وكانَ بعضُ أصحابنا يُسمِّي قصيدَةَ لي «الإدراكُ المُتَوَهَّمُ» منها:
[من المتقارب]

تَرَى كُلَّ ضِدِّهِ قَائِمًا
فَكَيْفَ تَحُدُّ اخْتِلَافَ المَعَانِي
فيا أَيُّهَا الجِسْمُ لا ذا جِهَاتٍ
ويا عَرَضًا ثابِتًا غَيْرَ فَانٍ
نَقَضْتَ عَلَيْنَا وَجُوهَ الكَلَامِ
فما هو مُذْلُحَتٌ بِالمُسْتَبَانَ

وهذا بعينه موجودٌ في البِغْضَةِ، ترى الشخصين يتباغضان لا
لمعنى ولا عِلَّةٍ، وَيَسْتَقْبِلُ بعضُهُما بعضًا بلا سببٍ.

والْحُبُّ - أعزَّكَ اللَّهُ - داءٌ عَيَاءٌ، وفيهِ الدَّواءُ مِنْهُ على قَدْرِ
المُعَانَةِ، وَسَقَامٌ مُسْتَلَدٌّ، وَعِلَّةٌ مُشْتَهَاءَةٌ لا يَوَدُّ سَلِيمُهَا البُرءَ، ولا
يَتَمَنَّى عَلَيْهَا الإِفَاقَةَ؛ يُزَيِّنُ للمَرءِ ما كانَ يَأْتِفُ مِنْهُ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ ما
كانَ يَصْعَبُ عِنْدَهُ، حَتَّى يُحِيلَ الطَّبَائِعَ المُرَكَّبَةَ والجَبِلَةَ^(١)
المخلوقة؛ وسيأتي كُلُّ ذَلِكَ مُلَخَّصًا في بابِهِ إِنْ شاءَ اللَّهُ.

خبر

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَتَى مِنْ بعضِ معارفي قد وَحَلَ في الحُبِّ^(٢)

(١) الجِبِلَّةُ: الخَلْقَةُ والغريزة، وورد في بعض الطبقات: و«الحيلة»، ولا أرى لها
وجهًا.

(٢) وَحَلَ في الحُبِّ: وقع فيه، وتمرَّغ في وحوله. وقوله من قبل: «علمتُ»
معناه: عرُفْتُ.

وتورط في حبايله، وأضرَّ به الوجدُ، وأنَّصَبَهُ الدَّنْفُ^(١)، وما كانت نفسه تطيب بالدُّعاءِ إلى الله عزَّ وجلَّ، في كَشَفِ ما به، ولا ينطقُ به لسانُه؛ وما كان دعاؤه إلا بالوَصْلِ والتَّمَكُّنِ مِمَّنْ يُحِبُّ، على عظيمِ بلائه وطويلِ همِّه، فما الظَّنُّ بِسَقِيمٍ لا يريدُ فَقْدَ سَقَمِهِ؟! ولقد جالستُه يوماً فرأيتُ من اكتئابِه وسوءِ حالِه وإطراقِه ما ساءني، فقلتُ له في بعضِ قولي: «فَرَجَ اللَّهُ عَنْكَ» فلقد رأيتُ أثرَ الكراهية في وجهه؛ وفي مثله أقولُ من كَلِمَةٍ^(٢) طويلة:

[من البسيط]

وَأَسْتَلِذُّ بِلَائِي فَيْكَ يَا أَمَلِي
وَلَسْتُ عَنْكَ مَدَى الْأَيَّامِ أَنْصَرِفُ
إِنْ قِيلَ لِي تَتَسَالَى عَنْ مَوَدَّتِهِ
فَمَا جَوَابِي إِلَّا اللَّامُ وَالْأَلْفُ^(٣)

خبر

وهذه الصِّفَاتُ مَخَالِفَةٌ لما أَخْبَرَنِي به عن نفسه أبو بكرٍ مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَرَشِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالشَّبَانِسِيِّ^(٤)، مِنْ وَلَدِ الإمامِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ^(٥)، أَنَّهُ لَمْ يُحِبَّ أَحَدًا قَطُّ،

(١) أَنْصَبَهُ: أَتَعَبَهُ وَأَعْيَاه، والدَّنْفُ: المَرَضُ الشديد. وهو من أَشَدِّ درجاتِ الحبِّ عند العرب.

(٢) كَلِمَةٌ: هنا بمعنى قصيدة.

(٣) اللام والألف: كناية عن حرف النفي: لا!

(٤) أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشي: (الشَّبَانِسِيُّ): يبدو أنه من معاصري ابن حزم، وقد ورد ذكره عَرَضاً في بعض المصادر الأندلسية، ووردت ترجمة أبيه قاسم في «جذوة المقتبس» للحُمَيْدي.

(٥) هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، (أبو الوليد): ثاني ملوك الدولة الأموية =

وَلَا أَسِفَ عَلَى إِلْفٍ بَانَ مِنْهُ، وَلَا تَجَاوَزَ حَدَّ الصُّحْبَةِ وَالْأُلْفَةِ إِلَى
حَدِّ الْحُبِّ وَالْعِشْقِ مِنْذُ خُلِقَ.

= بالأندلس . ولد بقرطبة عام (١٣٩هـ)، وبويع بعد وفاة أبيه سنة (١٧٢هـ)،
فَحَسُنَتْ سياسته، وأحبه الناس لعدله، إذ شبهه أهل الأندلس بعمر بن عبد
العزیز، واستمر في حكمه إلى أن توفي بقرطبة سنة (١٨٠هـ). أعلام
الزركلي: مج ٨/ ص ٨٦.

٢

باب علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي. فأولها إدمان النظر؛ والعين باب النفس السارِع، وهي المُتنبِّه عن سرائرها، والمُعبرة لضمائرها^(١)، والمُعربة عن بواطنها. فترى الناظر لا يطرف^(٢)، يتنقل بتنقل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال، كالجرباء مع الشمس. وفي ذلك أقول شعراً منه:

[من الطويل]

فليس لعيني عند غيرك موقفٌ

كأنك ما يحكون من حجر البهت^(٣)

أصرفها حيث انصرفت وكيفما

تقلبت كالمنعوت^(٤) في النحو والنعت

ومنها الإقبال بالحديث، فما يكاد يُقبل على سوى محبوبه ولو تعمّد ذلك، وإنّ التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه؛ والإنصات لحديثه إذا حدث، واستغراب كل ما يأتي به، ولو أنّه عين المحال وخرق

(١) المُعبرة، من العبور، لا التعبير.

(٢) لا يطرف: لا يحرك جفنيه لشدة انتباهه وتحديقه.

(٣) البهت لغة: الكذب والباطل، والدهشة والحيرة. وفي اللسان: البهت: حجرٌ معروف. وحجر البهت: معروف عند أهل المغرب بجلبه الحظ وقضاء الحاجات. ينظر: (لسان العرب: بهت).

(٤) قصد: التابع والمتبوع، في الأسماء والصفات المعربة في علم النحو، من نعت وبذل وتوكيد.

العادات؛ وتصدقُّهُ وإن كَذَبَ؛ وموافقته وإن ظَلَمَ؛ والشَّهادةُ له وإن جَارَ، واتباعُهُ كيف سَلَكَ، وأَيَّ وجهٍ من وجوه القولِ تناولَ.

ومنها الإسراعُ بالسَّير نحوَ المكانِ الذي يكونُ فيه؛ والتَّعمُّدُ للقُعودِ بقُربِهِ والدُّنُو منه؛ واطِّراحُ الأشغالِ الموجبةِ للزَّوالِ عنه، والاستهانةُ بكلِّ خَطبٍ جليلٍ داعٍ إلى مفارقتِهِ؛ والتَّباطؤُ في المَشي عندَ القيامِ عنه. وفي ذلك أقولُ شعراً:

[من الخفيف]

وَإِذَا قُمْتُ عَنْكَ لَمْ أَمْشِ إِلَّا
مَشْيَ عَانٍ ^(١) يُقَادُ نَحْوَ الْفَنَاءِ
فِي مَجِيئِي إِلَيْكَ أَحْتَتُّ ^(٢) كَالْبَدِ
رَ إِذَا كَانَ قَاطِعاً لِلْسَّمَاءِ
وَقِيَامِي إِنْ قُمْتُ ^(٣) كَالْأَنْجَمِ الْعَا
لِيَةِ الثَّابِتَاتِ فِي الْإِبْطَاءِ
وَمِنْهَا بَهْتُ ^(٤) يَقَعُ وَرَوْعَةً تَبْدُو عَلَى الْمُحِبِّ عِنْدَ رُؤْيَاهُ مِنْ يُحِبُّ
فَجَاءَهُ وَطُلُوعِهِ بَعْتَةً.

ومنها اضطرابٌ يبدو على المُحبِّ عندَ رُؤْيَاهُ مَنْ يُشْبِهُ مَحْبُوبَهُ أَوْ
عِنْدَ سَمَاعِ اسْمِهِ فَجَاءَهُ. وفي ذلك أقولُ قطعةً منها:

[من الطويل]

إِذَا مَا رَأَتْ عَيْنَايَ لِابْسَ حُمْرَةٍ
تَقَطَّعَ قَلْبِي حَسْرَةً وَتَفْطَرَا

(١) عَانٍ: ذليل خاضع مُكْرَه.

(٢) أَحْتَتُّ: أَحْتُ نفسي على الإسراع.

(٣) وَتُقَرَأُ: «إِنْ قُمْتُ...» على سبيل مخاطبة المحبوب.

(٤) بَهْتُ: دهشةٌ وحيرة.

غدا لدماء الناس باللحظ سافكا

وضرّج منها ثوبه فتعصّفرا^(١)

ومنها أن يحدّ المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه ممّا كان يشحّ به قبل ذلك، كأنّه هو الموهوب له والمسعّي في حظّه؛ كل ذلك ليبيدي محاسنّه ويُرغّب في نفسه؛ فكّم بخيل جاد، وقطوب تطلّق^(٢)، وجبان تشجّع، وجليظ الطبع تطرّف، وجاهل تأدّب، وتفلّ^(٣) تزين، وفقير تجمل، وذو سنّ تفتى، وناسك تفتك، ومضون تهتك!

وهذه العلامات تكون قبل استيعار نار الحبّ وتأجج حريقه، وتوقّد شعله واستطارة لهبه. فأما إذا تمكّن وأخذ مأخذه، فحينئذ ترى الحديث سراراً، والإعراض عن كل من حضر إلا عن المحبوب جهاراً. ولي أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات، منها:

[من البسيط]

أهوى الحديث إذا ما كان يُذكر لي

فيه ويعبق لي عن عنبر أرج

إن قال لم أستمع ممّن يُجالسني

إلى سوى لفظه المُستظرف الغنج

ولو يكون أمير المؤمنين معي

ما كنت من أجله عنه بمُنْعرج

(١) وفي بعض الطبعات: «وضرّج منها ثوبه فتعصّفرا»، وكلا الوجهين جائز.

(٢) تطلّق: انطلق وانفرجت أساريه، وقطوب: عابس.

(٣) تفلّ: لم يتطيّب فتغيرت رائحته.

فإن أقم عنه مضطراً فإنني لا
 أزال ملتفتاً والمشي مشي وجي^(١)
 عينا في وجسمي عنه مرتحل
 مثل ارتقاب الغريق البر في اللجج
 أغص بالماء إن أذكر تباعده
 كمن تشاء وسط النقع والرهج^(٢)
 وأن تقل ممكن قضد السماء أقل
 نعم، وإنني لأدري موضع الدرج

ومن علاماته وشواهد الظاهرة لكل بصير: الانبساط الكثير
 الزائد [في المكان الضيق]^(٣)، والتضايق في المكان الواسع،
 والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل
 بالاتكاء، والتعمد لمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من
 الأعضاء الظاهرة، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء،
 وتحري المكان الذي يقابله فمه^(٤).

ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض
 الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة. والأضداد أنداد،
 والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها، ووقفت في انتهاء حدود

(١) وجي المشي: حفت قدماه ورقنا من كثرة المشي.

(٢) النقع: الغبار. والرهج والغبار أيضاً.

(٣) هذه العبارة أضافها المستشرق الفرنسي برشيه، لإحداث شيء من المطابقة

في العبارتين: «الانبساط في المكان الضيق، والتضايق في المكان الواسع».

تنظر رسائل ابن حزم بتحقيق إحسان عباس - ج ١/ ص ١٠٦.

(٤) يمكن أن نقرأ: «والتعمد لمس... ولمس... وشرب... وتحري...»

بالعطف على المجرور.

اختلافها تشابهت، فُدرةً من الله عزَّ وجلَّ تَصِلُ فيها الأوهامُ. فهذا التَّلَجُّ إذا أُدْمِنَ حَبْسُهُ في اليدِ فَعَلَ فِعْلَ النَّارِ، وَنَجِدُ الْفَرْحَ إذا أَفْرَطَ قَتْلَ، وَالْعَمَ إذا أَفْرَطَ قَتْلَ، وَالضَّحِكَ إذا كَثُرَ واشْتَدَّ، أَسَالَ الدَّمْعَ مِنَ الْعَيْنَيْنِ. وهذا في العالمِ كثيرٌ، فَنَجِدُ الْمُحِبِّينَ إذا تَكَافَا في الْمَحَبَّةِ وتَأَكَّدَتْ بَيْنَهُمَا تَأَكُّدًا شديداً، كَثُرَ تَهَاجُرُهُمَا^(١) بغيرِ مَعْنَى، وتضادُّهُمَا في القولِ تَعَمُّدًا، وخروجُ بعضِهما على بعضٍ في كلِّ يسيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَتَّبِعُ كُلٌّ مِنْهُمَا لَفْظَةً تَقَعُ مِنْ صَاحِبِهِ، وتأوُلُّها على غيرِ معناها؛ كُلُّ هَذِهِ تَجَرِبَةٌ لِيَبْدُوَ مَا يَعْتَقِدُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا في صَاحِبِهِ.

والفرقُ بَيْنَ هذا وَبَيْنَ حَقِيقَةِ الْهَجْرَةِ، وَالْمُضَادَّةِ الْمُتَوَلِّدَةِ عَنِ الشَّخْنَاءِ وَمُحَارَجَةِ^(٢) الشَّاجِرِ، سُرْعَةُ الرِّضَى؛ فَإِنَّكَ، بَيْنَمَا تَرَى الْمُحِبِّينَ قَدْ بَلَغَا الْغَايَةَ مِنَ الْاِخْتِلَافِ الَّذِي لَا تُقَدِّرُهُ، يَصْلُحُ عِنْدَ السَّاكِنِ النَّفْسِ، السَّالِمِ مِنَ الْأَحْقَادِ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ، وَلَا يَنْجَبِرُ عِنْدَ الْحَقُودِ أَبَدًا، فَلَا تَلَبُّثُ أَنْ تَرَاهُمَا قَدْ عَادَا إِلَى أَجْمَلِ الصُّحْبَةِ، وَأُهْدِرَتِ الْمُعَاتَبَةُ، وَسَقَطَ الْخِلَافُ، وَانصَرَفَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ بَعِينِهِ إِلَى الْمُضَاحَكَةِ وَالْمُدَاعَبَةِ، هَكَذَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ مِرَارًا. وَإِذَا رَأَيْتَ هَذَا مِنْ اثْنَيْنِ فَلَا يَخَالِجُكَ شَكٌّ، وَلَا يَدْخُلُكَ رَيْبٌ الْبَتَّةَ، وَلَا تَتَّمَارُ^(٣) فِي أَنْ بَيْنَهُمَا سِرًّا مِنَ الْحُبِّ دَفِينًا، وَاقْطَعْ فِيهِ قُطْعَ مَنْ

(١) في بعض الطبقات (التونسية): «أكثر بهما جدُّهما بغير معنى» وهو وجه ضعيف.

(٢) المحارجة: المضايقة يتبادلها المحبان عند الخصومة، والخرج: ما يدل على الضيق والحق والغيط. والشحنة: البغض الشديد.

(٣) لا تتمار: لا تشك، وتمارى في الشيء: شك فيه. (الوسيط/مرى).

لا يصرفه عنه صارفٌ. ودونكها^(١) تجربةٌ صحيحةٌ وخبرةٌ صادقةٌ. هذا لا يكون إلا عن تكافٍ^(٢) في المودةِ وائتلافٍ صحيحٍ، وقد رأيتُه كثيراً.

ومن أعلامه أنك تجدُ المُحبَّ يستدعي^(٣) سماعَ اسمِ مَنْ يُحبُّ، ويستلذُّ الكلامَ في أخباره ويجعلها هجيراهُ^(٤)، ولا يرتاحُ لشيءٍ ارتياحهَ لها، ولا يُنهنهُ^(٥) عن ذلك تخوُّفٌ أن يَفْطَنَ السامعُ ويفهمَ الحاضرُ، و«حبك الشيءَ يُعمي ويصمُّ»^(٦). فلو أمكن المُحبَّ، ألا يكونَ حديثٌ في مكانٍ يكونُ فيه، إلا ذكُرُ مَنْ يُحِبُّه، لما تعدَّاهُ.

ويعرضُ للصادقِ المودةُ أن يبتدئَ في الطَّعامِ وهو له مُشتَهٍ، فما هو إلا وقتٌ ما يَحتاجُ له ذكُرُ مَنْ يُحبُّ، صارَ الطَّعامُ غُصَّةً في

(١) دونكها: هنا اسم فعل أمر بمعنى: خذها.

(٢) التكافي هنا بمعنى: التكافؤ أي: التماثل والتساوي. وفي بعض الطبقات:

«تَكْلُفٌ» بدلاً من «تَكَافٍ» ولا نرى ذلك!

(٣) في بعض الطبقات: «يستحلي».

(٤) هجيراه: دأبه وعادته، وما يولع بذكره، ومفرده: هَجِيرَى. (اللسان/هجر).

(٥) يُنْهِنُهُ: يكفُّه عنه وبزجره. (الوسيط/نهنه).

(٦) أي يخفي عليك مساويه ويصمك عن سماع العذل فيه. ورد هذا القول في

أمثال العرب، وهو حديث شريف تجده في «سنن أبي داود» - إعداد وتعليق:

عزت عبيد الدَّعاس وعادل السيد - دار ابن حزم - بيروت - ط ١ - ١٩٩٧ -

ج ٥ - كتاب الأدب - حديث رقم ١١٦/٥١٣٠ - ص ٢١٨. وهو وارد في

كتب الأمثال أيضاً: «جمهرة الأمثال» للعسكري - تحقيق أبي الفضل إبراهيم

وقطامش - دار الجيل - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٨ - ج ١/ص ٣٥٦. وانظر لمزيد

من مصادره: «موسوعة أمثال العرب» - د. إميل بديع يعقوب - دار الجيل -

بيروت - ط ١ - ١٩٩٥ - ج ٣/ص ٥٢٨، وفيها تخريجه.

الحَلَق، وشَجَى^(١) في المَرِيء؛ وهكذا في الماء، وفي الحديث، فإنه يَفَاتِحُكُهُ مُبْتَهِجاً، فتعرض له خَطَرَةٌ^(٢) من خَطَرَاتِ الْفِكْرِ فَيَمُنُّ يُحِبُّ، فتَسْتَبِينُ الْحَوَالَةَ^(٣) في مَنْطِقِهِ، والتَّقْصِيرُ في حديثه، وآيَةُ ذَلِكَ الْوُجُومُ وَالْإِطْرَاقُ وَشِدَّةُ الْانْغِلَاقِ. فَيَسَمَّا هُوَ طَلَقُ الْوَجْهِ، خَفِيفُ الْحَرَكَاتِ، صَارَ مُنْطَبِقاً مُتَشَابِهاً، حَائِرَ النَّفْسِ جَامِداً الْحَرَكَاتِ، يَبْرُمُ^(٤) من الْكَلِمَةِ وَيَضْجَرُ مِنَ السُّؤَالِ.

ومن علاماته حُبُّ الْوَحْدَةِ، والأُنْسُ بِالْأَنْفِرَادِ، وَنُحُولُ الْجِسْمِ دُونَ حَرٍّ^(٥) يَكُونُ فِيهِ، وَلَا وَجَعَ مَانِعٍ مِنَ التَّقَلُّبِ وَالْحَرَكَةِ وَالْمَشْيِ؛ دَلِيلٌ لَا يَكْذِبُ، وَمُخْبِرٌ لَا يَخُونُ عَنْ عِلَّةٍ^(٦) فِي النَّفْسِ كَامِنَةٌ.

وَالسَّهَرُ مِنْ أَعْرَاضِ الْمُحِبِّينَ، وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِهِ

(١) الشَّجَى وَالشَّجَا: مَا اعْتَرَضَ وَنَشَبَ فِي الْحَلَقِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ نَحْوِهِ (اللسان/ شجأ). وورد في بعض الطبقات: «المرء» بدل «المريء». والأصل في «الشجأ» الشَّجْوُ (بالواو). وقد ورد (شَجَى) بالياء أيضاً.

(٢) الْخَطَرَةُ: مَا يَخْطُرُ فِي الْقَلْبِ.

(٣) الْحَوَالَةُ: أَحَالُ الرَّجُلِ الْغَرِيمِ: حَوْلُهُ وَدَفَعُهُ عَنْهُ إِلَى غَرِيمٍ آخَرَ. (الوسيط/ حال). ولعل المراد هنا: مَا يَعْتَرِي حَدِيثَ الْمُحِبِّ مِنْ تَغْيِيرٍ وَتَبَدُّلٍ عِنْدَ تَذَكُّرِ مَحْبُوبِهِ. ووردت في بعض الطبقات: «الحِوَالَةُ» بكسر الحاء، على أنها تعني الْحَاجِزَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَقَطُّعِ نَبْرَاتِ الْحَدِيثِ وَتَفْكَكِ أَجْزَائِهِ. (تنظر الطبعة التونسية بتحقيق د. صلاح الدين القاسمي - ص ٣٩).

(٤) بَرِمَ بِالْشَّيْءِ، يَبْرِمُ بَرَمًا: سَمَّهُ وَضَجَرَ بِهِ.

(٥) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «دُونَ حَدٍّ». وَيُرْجَّحُ د. عَبَّاسُ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ عَلَى اقْتِرَانِ الْحَرِّ بِالنُّحُولِ، وَكَثْرَةِ الشَّحْمِ بِالْبَرْدِ، عِنْدَ عُلَمَاءِ الطَّبِّ. (تنظر: طبعة عباس: ص ١٠٨، والتونسية: ٤٠).

(٦) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «كَلِمَةٌ» وَ«كَلَّةٌ»، وَكِلَاهُمَا لَا تُؤَدِي الْمَعْنَى الْمَطْلُوبَ.

وَحَكَّوْا أَنَّهُمْ رُعَاءُ الْكَوَاكِبِ وَوَاصِفُو طَوْلَ اللَّيْلِ ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ
وَأَذْكُرُ كَيْتَمَانَ السَّرِّ وَأَنَّهُ يُتَوَسَّمُ بِالْعَلَامَاتِ :

[من الوافر]

تَعَلَّمَتِ السَّحَائِبُ مِنْ شُؤُونِي
فَعَمَّتْ بِالْحَيَا السَّكْبَ الْهَتُونِ ^(١)
وهذا اللَّيْلُ فِيكَ غَدَا رَفِيقِي
بِذَلِكَ أُمُّ عَلَى سَهْرِي مُعِينِي
فَإِنْ لَمْ يَنْقُضِ الْإِظْلَامُ إِلَّا
[إِذَا] مَا أَطْبَقَتْ نَوْمًا جُفُونِي ^(٢)
فَلَيْسَ إِلَى النَّهَارِ لَنَا سَبِيلٌ
وَسُھْدٌ زَائِدٌ فِي كُلِّ حِينٍ
كَأَنَّ نَجْوَمَهُ وَالْغَيْمُ يُخْفِي
سَنَاها عَنْ مُلَاحَظَةِ الْعُيُونِ
ضَمِيرِي فِي وَدَادِكَ يَا مُنَايَا
فَلَيْسَ يَبِينُ إِلَّا بِالظُّنُونِ
وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ قِطْعَةٌ مِنْهَا :

[من الكامل]

أَرَعَى النُّجُومَ كَأَنَّنِي كُلفْتُ أَنْ
أَرَعَى جَمِيعَ ثُبُوتِهَا وَالْخُنُسِ ^(٣)

(١) الْحَيَا: المطر، يحيي الأرض. وَالْهَتُونُ: المَطَرُ الكثير. والشؤون: الدموع.

(٢) يورد د. القاسمي البيت على هذا النحو:

فَإِنْ لَمْ يَنْقُضِ الْإِظْلَامُ [عَنِّي] أَلَا مَا أَطْبَقَتْ نَوْمًا جُفُونِي
والقراءة الواردة في المتن أعلاه أفضل لتربط المعنى (تنظر الطبعة التونسية: ص ٤٠).

(٣) ثُبُوتُهَا: الثابتة منها. وَالْخُنُسُ: الكواكب السَّيَّارة دون الثابتة. مفردُها: خائِس.

فكأنَّها واللَّيلَ نيرانُ الجَوَى
 قد أضرمْتُ في فِكرتي من حِنْدِسٍ ^(١)
 وكأَنني أَمسيْتُ حارسَ روضةٍ
 خُضراءُ وُشَّحَ نَبْتُها بالنَّرجِسِ
 لو عاشَ بَطْلَيْمُوسُ ^(٢) أيقنَ أَنني
 أقوى الوَرَى في رَصْدِ جَرِي الكُنَّسِ ^(٣)

والشيءُ قد يُذكرُ لما يوجبُه: وقعَ لي في هذه الأبياتِ تشبيهُ
 شيئين بشيئين في بيتٍ واحدٍ، وهو البيتُ الذي أوَّلُه: «فكأنَّها
 والليلُ» وهذا مستغربٌ في الشعرِ. ولي ما هو أكملُ منه، وهو
 تشبيهُ ثلاثة أشياء في بيتٍ واحدٍ، وتشبيهُ أربعة أشياء في بيتٍ
 واحدٍ، وكلاهما في هذه القطعةِ أوردُها وهي:

[من الطويل]

مَشُوقٌ مُعَنَّى ما يَنامُ مُسَهَّدٌ
 بِخَمَرِ التَّجَنِّي ما يَزالُ يُعَرَّبُدُ
 ففي ساعةٍ يُبدي إِلَيكَ عَجائِباً
 يُمرُّ وَيَسْتَحلي ^(٤) وَيُدني وَيُبْعِدُ

(١) الجندس: الظُّلْمَة. والليل الشديد السواد.

(٢) بَطْلَيْمُوسُ = بَطْلَمُوس: Ptolémée: رياضي وجغرافي وعالم فلك يوناني من
 أهل القرن الثاني للميلاد. نشأ وعاش في الإسكندرية. ينسب إليه النظام
 البَطْلَمُوسي وأشهر مؤلفاته كتاب «المَجَسْطِي». تنظر موسوعة المورد مج ١/
 ص ٢٣٢.

(٣) الكُنَّس: الظباء. وكذلك: النجوم الجارية والكواكب، وهي المرادة هنا.
 (اللسان/ كنس) ومفردها: كانس.

(٤) يُمرُّ ويستحلي: من المِرَّة والمرورة أو المرارة. ويستحلي: يتذوق الحُلُو.
 وهنا: يصير حُلُوًّا.

كَأَنَّ النَّوَى وَالْعَثْبَ وَالْهَجَرَ وَالرُّضَى
 قِرَانٌ وَأَفْذَاذٌ وَنَحْسٌ وَأَسْعُدٌ^(١)
 رَثَى لِعِرَامِي بَعْدَ طُولِ تَمَنُّعٍ
 وَأَصْبَحْتُ مَحْسُوداً وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَدُ
 نَعِمْنَا عَلَى نَوْرِ مِنَ الرُّوْضِ زَاهِرٍ
 سَقَتُهُ الْغَوَادِي فَهُوَ يُثْنِي وَيَحْمَدُ^(٢)
 كَأَنَّ الْحَيَا وَالْمُرْنَ وَالرُّوْضَ عَاطِراً
 دَمَوْعٌ وَأَجْفَانٌ وَخَدٌّ مُورَدٌ
 وَلَا يُنْكِرُ عَلَيَّ مُنْكَرٌ قَوْلِي «قِرَانٌ» فَاهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْكَوَاكِبِ
 يُسَمُّونَ التَّقَاءَ كَوَكَبِينَ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ قِرَاناً.
 وَلِي أَيْضاً مَا هُوَ أَتَمُّ مِنْ هَذَا، وَهُوَ تَشْبِيهُ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ فِي بَيْتٍ
 وَاحِدٍ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَهِيَ:

[من الطويل]

خَلَوْتُ بِهَا وَالرَّاحُ ثَالِثَةٌ لَنَا
 وَجُنْحُ ظِلَامِ اللَّيْلِ مُدٌّ مَا انْبَلَجَ^(٣)

(١) الْقِرَانُ: الْجَمْعُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَوْ شَيْئَيْنِ. وَقَدْ شَرَحَ ابْنُ حَزَمٍ مَرَادَهُ مِنْهَا فِي
 الْمَتْنِ. أَمَّا قَوْلُهُ: «أَفْذَاذٌ» بِمَعْنَى: فُرَادَى مُتَفَرِّقِينَ (الْوَسِيطُ/فَدٌّ)، فَقَدْ وَرَدَ فِي
 الطَّبَعَةِ التُّونِسِيَّةِ: «أَنْدَادٌ» أَيْ الْأَمْثَالُ وَالنُّظَائِرُ، ص ٤١. وَفِي الْكَلِمَتَيْنِ مَا يَدُلُّ
 عَلَى التَّضَادِّ وَالتَّقَابُلِ. وَ«أَسْعُدٌ»: جَمْعُ سَعْدٍ وَهُوَ الْيُمْنُ وَالسَّعَادَةُ، عَكْسُ
 النَّحْسِ. وَ«أَسْعُدٌ» وَ«سُعُودٌ» نَجْمٌ يُتِمَّنُّ بِهَا. (اللسان/سعد).
 (٢) النَّوْرُ: الزَّهْرُ الْأَبْيَضُ، وَاحِدَتُهُ: نَوْرَةٌ.

(٣) قَوْلُهُ: «مُدٌّ مَا انْبَلَجَ» اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْقِرَاءَاتُ، وَهَذَا مَا اخْتَارَهُ د. عَبَّاسٌ.
 فِيمَا وَرَدَ فِي الطَّبَعَةِ التُّونِسِيَّةِ: «قَدْ مُدَّ مَا انْبَلَجَ» ص ٤١. وَفِي سِوَاهَا: «قَدْ مُدَّ
 وَانْبَلَجَ» وَ«قَدْ مُدَّ وَاتَّلَجَ». وَكُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الْمُرَادِ.

فتاة عِدْمَتْ الْعَيْشَ إِلَّا بِقُرْبِهَا
 فَهَلْ فِي ابْتِغَاءِ الْعَيْشِ وَيَحْكُ مِنْ حَرَجٍ؟!
 كَأَنِّي وَهِيَ وَالْكَاسُ وَالْخَمْرُ وَالْدُّجَى
 نَرَى وَحَيًّا وَالْدُّرَّ وَالْتَّبْرَ وَالسَّبَجَ^(١)
 فهذا أَمْرٌ لَا مَزِيدَ فِيهِ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى أَكْثَرِ مِنْهُ، إِذْ لَا يَحْتَمِلُ
 الْعَرُوضُ وَلَا بُنْيَةُ الْأَسْمَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.
 وَيَعْرِضُ لِلْمُحِبِّ الْقَلْقُ عِنْدَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:
 أَحَدُهُمَا: عِنْدَ رَجَائِهِ لِقَاءَ مَنْ يُحِبُّ فَيَعْرِضُ عِنْدَ ذَلِكَ
 حَائِلٌ.

خبر

وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ بَعْضَ مَنْ كَانَ مَحْبُوبُهُ يَعِدُّهُ الزَّيَّارَةَ، فَمَا كُنْتُ
 أَرَاهُ إِلَّا جَائِيًّا وَذَاهِبًا، لَا يَقَرُّ بِهِ الْقَرَارُ وَلَا يَثْبُتُ فِي مَكَانٍ
 وَاحِدٍ، مُقْبِلًا مُدْبِرًا قَدْ اسْتَخَفَّهُ السُّرُورُ بَعْدَ رَكَانَةٍ^(٢)،

(١) فِي الْبَيْتِ مِنَ الْإِلْتِبَاسِ مَا جَعَلَ مَعْظَمَ الطَّبَعَاتِ تَوْرَدُهُ عَلَى نَحْوِ خَاطِئٍ
 مِنَ الْوَجْهَتَيْنِ النَّحْوِيَّةِ وَالْعَرُوضِيَّةِ، فَفِي طَبْعَةِ د. عَبَّاسٍ (ص ١١٠) يَرَدُ:
 «كَأَنِّي وَهِيَ وَالْكَاسُ وَالْخَمْرُ وَالْدُّجَى» بِعَطْفِ «الْكَاسِ» وَمَا بَعْدَهَا عَلَى
 «هِيَ» بِالرَّفْعِ، وَلَا نَرَاهُ دَقِيقًا، فَالْأَصُوبُ عَطْفُهَا عَلَى مَحَلِّ الْيَاءِ فِي
 «كَأَنِّي». وَالْبَيْتُ غَيْرُ مُضْبُوطٍ عَرُوضِيًّا. وَكَذَلِكَ فِي الطَّبْعَةِ التُّونِسِيَّةِ
 حَيْثُ وَرَدَ: «كَأَنِّي وَهِيَ وَالْكَاسُ...» وَهُوَ مَكْسُورٌ، رَغْمَ اخْتِيَارِهِ الْوَجْهَ
 الْأَصُوبَ نَحْوِيًّا. أَمَّا قَوْلُهُ «السَّبَجُ» وَهُوَ الْخَرْزُ الْأَسْوَدُ (شَبَّهَ بِهِ الدُّجَى)،
 فَقَدْ وَرَدَ فِي التُّونِسِيَّةِ: «السَّنَجُ» وَهُوَ اللَّوْنُ الْمُزَقَّقُ أَوْ مَا لُطِّخَ بِغَيْرِ لَوْنِهِ.
 وَ«السَّنَاجُ» أَثَرُ دَخَانِ السَّرَاجِ فِي الْحَائِطِ وَغَيْرِهِ (اللسان/ سَبَجَ)، وَلَعَلَّ
 «السَّبَجَ» أَصُوبٌ لِأَنَّهُ يَشْبَهُ بِهِ الدُّجَى.
 (٢) الرُّكَانَةُ، مِنْ [رُكْنٍ]: رَزَزَ وَوَقَّرَ.

واستشأطه بعدَ رَزَانَةٍ؛ ولي في مَعْنَى انتظارِ الزَّيَارَةِ: [من الطويل]

أَقَمْتُ إِلَى أَنْ جَاءَنِي اللَّيْلُ رَاجِياً
لِقَاءَكَ يَا سَوْلى وَيَا غَايَةَ الأَمَلِ
فَأَيَّاسَنِي الإِظْلَامَ عَنْكَ وَلَمْ أَكُنْ
لَأَيَّاسَ يَوْماً إِنْ بَدَا اللَّيْلُ يَتَّصِلُ
وعندي دَلِيلٌ لَيْسَ يَكْذِبُ خُبْرُهُ
بأَمْثَالِهِ فِي مُشْكِالِ الأَمْرِ يُسْتَدَلُّ
لأنَّكَ لو رُئِمَتِ الزَّيَارَةُ لَمْ يَكُنْ
ظَلامٌ ودامَ النُّورُ فِينَا وَلَمْ يَزَلْ

والثاني: عند حادثٍ يَحْدُثُ بَيْنَهُمَا مِنْ عِتَابٍ لَا تُدْرِي حَقِيقَتُهُ
إِلَّا بِالوصفِ. فعندَ ذلكَ يَشْتَدُّ القَلْقُ حَتَّى يُوقَفَ عَلَى الجَلِيَّةِ^(١)،
فإِذَا أَنْ يَذْهَبَ تَحَامُلُهُ إِنْ رَجَا العَفْوَ، وَإِذَا أَنْ يَصِيرَ القَلْقُ حُزْناً
وَأَسْفاً إِنْ تَخَوَّفَ الهَجْرَ.

ويعرِضُ للمُحِبِّ الاستِكانَةَ لجفاءِ المَحْبُوبِ عَلَيْهِ، وسيأتي
مُفَسِّراً فِي بابِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ومن أَعْرَاضِهِ الجَرْعُ الشَّدِيدُ والحَسْرَةُ الْمُقْطَعَةُ^(٢)، تَغْلِبُ عِنْدَمَا
يَرى مِنْ إِعْرَاضٍ مَحْبُوبِهِ عَنْهُ وَنِفَارِهِ مِنْهُ، وَإِيَهُ ذَلِكَ الزَّفِيرُ وَقِلَّةُ
الحَرَكََةِ والتَّؤَهُ وَتَنَفُّسُ الصُّعْدَاءِ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْراً مِنْهُ:
جَمِيلُ الصَّبْرِ مَسْجُونٌ

.....

(١) جَلِيَّةُ الأَمْرِ: حَقِيقَتُهُ. وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ «تُوقَفَ» بِدَلِ يُوقَفُ،
و«الجليلة» بِدَلِ «الجليَّة»، وَلَا نَرى ذَلِكَ!

(٢) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «وَالْحُسْرَةُ الْمُقْطَعَةُ» وَ«الْحَيْرَةُ الْمُقْطَعَةُ».

دُمُوعِ الْعَيْنِ سَارِحَةٌ^(١)

وَمِنْ عَلامَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْمُحِبَّ يُحِبُّ أَهْلَ مَحَبُّوبِهِ وَقَرَابَتَهُ
وَخَاصَّتَهُ حَتَّى يَكُونُوا أَحْظَى لَدَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَنَفْسِهِ وَمِنْ جَمِيعِ
خَاصَّتِهِ.

وَالْبُكَاءُ مِنْ عَلامَاتِ الْمُحِبِّينَ^(٢) وَلَكِنْ يَتَفَاوَسُونَ فِيهِ، فَمِنْهُمْ
غَزِيرُ الدَّمْعِ، هَامِلُ الشُّوْنِ، تُجِيبُهُ عَيْنُهُ وَتَحْضُرُهُ عَبْرَتُهُ إِذَا شَاءَ،
وَمِنْهُمْ جَمُودُ الْعَيْنِ عَدِيمُ الدَّمْعِ، وَأَنَا مِنْهُمْ. وَكَانَ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ
إِدْمَانِي أَكْلَ الْكُنْدُرِ لِخَفَقَانِ الْقَلْبِ، وَكَانَ عَرَضٌ لِي فِي الصَّبَا، فَإِنِّي
لَأُصَابُ بِالْمُصِيبَةِ الْفَادِحَةِ، فَأَجِدُ قَلْبِي يَتَفَطَّرُ وَيَتَقَطَّعُ، وَأُحْسُ فِي
قَلْبِي غُصَّةً أَمَرَّ مِنَ الْعَلَقَمِ، تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ تَوْفِيَةِ الْكَلَامِ حَقَّ
مَخَارِجِهِ، وَتَكَادُ تُشْرِفُنِي^(٣) بِالنَّفْسِ^(٤) أَحْيَانًا، وَلَا تُجِيبُ عَيْنِي الْبَتَّةَ
إِلَّا فِي الثُّدْرَةِ بِالشَّيْءِ الْيَسِيرِ مِنَ الدَّمْعِ.

خبر

وَلَقَدْ أَذَكَّرَنِي هَذَا الْفَصْلُ يَوْمًا وَدَّعْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدٌ بَنُ

(١) هذان الصدران سقط عَجْزُهُمَا مِنَ الْمَخْطُوطَةِ. وَقَدْ قَامَ الْأَسْتَاذُ الصَّيرِفِيُّ
بِإِكْمَالِهِمَا بِنَظْمٍ مِنْ عِنْدِهِ. يَنْظُرُ تَحْقِيقَهُ لَطُوقِ الْحَمَامَةِ - ص ٤١. أَمَّا وَزْنُهُمَا
فَيُتَرَجَّحُ بَيْنَ الْهَزَجِ وَمَجْزُوءِ الْوَافِرِ.

(٢) الْمُحِبِّينَ وَرَدَتْ فِي جَمِيعِ الطَّبَعَاتِ: «الْمُحِبَّ»، وَأُورِدْنَاهَا بِالْجَمْعِ لِمُنَاسَبَةِ
السِّيَاقِ.

(٣) شَرِّقٌ بِالرِّيقِ: غُصَّةٌ بِهِ. وَالْكُنْدُرُ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ اللَّبَانُ، ضَرْبٌ مِنَ الْعَلِّكِ.

(٤) هَذِهِ قِرَاءَةُ د. عَبَّاسٍ، وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «تَشَوَّقُنِي النَّفْسُ» (تَنْظُرُ ط.
التُّونِسِيَّةُ: ٤٣). وَلَعَلَّ مَا أُورِدْنَاهُ فِي الْمَتْنِ أَوَّلَى.

إسحاق^(١) صاحبي أبا عامر مُحَمَّدَ بْنَ [أبي] عامر^(٢) صديقنا (رحمَه الله)، في سَفَرَتِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ^(٣) الَّتِي لَمْ نَرُهُ بَعْدَهَا، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَبْكِي عِنْدَ وَدَاعِهِ وَيُنْشِدُ مِثْلًا بِهَذَا الْبَيْتِ:

[من الطويل]

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجُذْ يَوْمَ وَاسِطٍ
عَلَيْكَ بَاقِي دَمْعِهَا لَجَمُودٍ^(٤)

(١) مُحَمَّد بن إسحاق المهلبی، (أبو بكر) الإسحاقی الوزير: أحد معاصري ابن حزم، وهو الذي خاطبه برسالته في فضل الأندلس، كان من أهل الأدب والفضل، وله ترجمة مقتضبة في «جذوة المقتبس» للحميدي: القسم الأول/ ص ٨٣.

(٢) مُحَمَّد بن [أبي] عامر: ورد اسمه في ط. التونسية: «أبا عامر محمد بن عامر»، وترجم له د. القاسمي في (ص ٤٣) على أنه أبو عامر محمد بن عامر حفيد المنصور ابن أبي عامر، والابن الوحيد للحاجب الثاني المتلقب بالمظفر من زوجته «خيال». ورأى أن ما يذكره ابن حزم هنا عن سفرة صاحبه «إلى المشرق» هو تحوال بشرق الأندلس فراراً من متعقبي أثره بسبب طموحه السياسي لإرجاع سلطة الأمويين. وأنه مات فاراً (سنة ٤٢١هـ). هذا رأي القاسمي. أما د. عباس فيرد ذلك اعتماداً على ما أورده ابن حزم في كتابه «الجمهرة» من أن عبد الملك المظفر لم يعقب، ويرى د. عباس أن محمداً المذكور هنا ليس ابناً للمظفر، بل هو صديق لابن حزم، اسمه محمد بن عبد الله بن المنصور العامري، ووالده عبد الله كان قد قُتِلَ على يد أبيه المنصور سنة (٣٨٠هـ) في قصة معروفة. ويستبعد د. عباس أن يطلق ابن حزم صفة الصديق على ابن الحاجب المظفر الذي كان بمنزلة الملك ورأس السلطان في الدولة الأموية الأندلسية، وسيرد ذكر أبي عامر هذا في نهاية الباب الرابع من هذه الرسالة في حديث ينفي مضمونه أن يكون المذكور ابناً للمظفر.

(٣) في رأي د. إحسان عباس رحلة حجٍّ إلى «المشرق» (الرسائل: ١/ ١١٢).
إلا أن معظم الطباعات أوردت «الشرق» دلالة على شرق الأندلس. (اقرأ مدافعة د. قاسمي محقق ط. التونسية عن هذه القراءة: ص ٤٣).

(٤) البيت من شعر أبي العطاء السندي، أنشده في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة. =

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) (رحمه الله)، ونحن
 وقوف على ساحل البحر بمالقة^(٢)، وجعلت أنا أكثر التفجع
 والأسف ولا تساعدني عيني، فقلت مجيباً لأبي بكر:

[من الطويل]

وإنَّ امرأ لم يُفْنِ حُسْنَ اضْطِبَارِهِ
 عَلَيْكَ وَقَدْ فَارَقْتَهُ لَجَلِيدُ
 وفي المذهب الذي عليه الناس، أقول من قصيدة فلتها قبل
 بلوغ الحلم، أولها:

[من الطويل]

دليل الأسى نارٌ على القلب تَلْفَحُ
 ودَمَعٌ على الخدين يَهْمِي^(٣) وَيَسْفَحُ

= والأبيات (أربعة) وردت في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٤ - ج ٢/ص ٦٥٣. ووردت الأبيات مع تفصيل حادثة مقتل يزيد في «تاريخ الأمم والملوك» للطبري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار سويدان - بيروت - دون تاريخ - ج ٧/ص ٤٥٦.

(١) يزيد بن عمر بن هبيرة (أبو خالد)، من بني فزارة: أمير قائد من ولاية الدولة الأموية ولد (سنة ٨٧هـ)، جمعت له ولاية العراقين (البصرة والكوفة) في أيام مروان بن محمد. قاتل أشياع العباسيين مدة، إلى أن اغتيل في قصر واسط (سنة ١٣٢هـ). أعلام الزركلي: مج ٨/١٨٥.

(٢) مالقة: Malacca بفتح اللام والقاف: (اسمها أعجمي)، مدينة بالاندلس عامرة من أعمال رية، وأصل وضعها قديم على ما ذكر ياقوت في معجم البلدان: ج ٥/ص ٥٢. وهي اليوم عاصمة مقاطعة مالقة في الجزء الجنوبي من إسبانيا. تقع على البحر الأبيض المتوسط. أسسها الفينيقيون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وفتحها العرب عام (٩٣هـ = ٧١١م)، ولم يستردها الإسبان إلا سنة (٨٩٣هـ = ١٤٨٧م). موسوعة المورد للبلعكي: مج ٢/ص ١٠٧٦.

(٣) يَهْمِي: يَضْبُ ويسيل (الوسيط/همي).

إِذَا كَتَمَ الْمَشْغُوفُ سِرَّ ضُلُوعِهِ
فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ تُبْدِي وَتَفْضَحُ
إِذَا مَا جُفُونُ الْعَيْنِ سَالَتْ شُؤُونُهَا
فَفِي الْقَلْبِ دَاءٌ لِلْغَرَامِ مُبْرَحُ

ويعرض في الحب سوء الظن، واتهام كل كلمة من أحدهما، وتوجيهها إلى غير وجهها، وهذا أصل العتاب بين المحبين. وإني لأعلم من كان أحسن الناس ظناً، وأوسعهم نفساً، وأكثرهم صبراً، وأشدّهم احتمالاً، وأزحبه صدرأ، ثم لا يحتمل ممن يحب شيئاً، ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يبدي من التعرّب فئونا، ومن سوء الظن وجوهاً. وفي ذلك أقول شعراً منه:

[من المنسرح]

أُسَيِّئُ ظَنِّي بِكُلِّ مُحْتَقِرٍ
تَأْتِي بِهِ، وَالْحَقِيرُ مَنْ حَقَرَهُ
كِي لَا يُرَى أَصْلُ هَجْرَةٍ وَقَلَى
فَالنَّارُ فِي بَدْءِ أَمْرِهَا شَرَرَةٌ
وَأَصْلُ عُظْمٍ ^(١) الْأُمُورِ أَهْوَنُهَا
وَمِنْ صَغِيرِ النَّوَى تَرَى شَجَرَةً ^(٢)

(١) عَظُمُ الشَّيْءِ: أَكْثَرُهُ. هذا هو المعنى اللغوي للكلمة. ولكن السياق المعنوي يفترض أن تكون «عظم الأمور» جمع (عظيم) خلافاً للقاعدة.

(٢) الأبيات موضع اختلاف كبير في قراءتها وورودها بين الطبقات المختلفة «للطوق». هكذا قرأها د. عباس، لكنه أورد «أصل» في البيت الثاني بدلاً من «أصل» وهو ما أثبتناه. أما الطبعة التونسية فوردت فيها الأبيات على النحو التالي:

أُسَيِّئُ ظَنِّي بِكُلِّ مُحْتَقِرٍ تَأْتِي بِهِ، وَالْحَقِيرُ مَنْ حَقَرُ =

وترى المُحِبَّ، إذا لَمْ يَثِقْ بِنَقَاءِ طَوِيَّةٍ^(١) مَحْبُوبِهِ لَهُ، كَثِيرَ التَّحَفُّظِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَتَحَفَّظُ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ، مُتَّقِئاً لِكَلَامِهِ، مُزِيناً لِحَرَكَاتِهِ، ومرامي طَرْفِهِ، ولا سِيَّما إِنْ دَهِيَ بِمُتَجَنِّ وَبُلَيٍّ بِمَعْرِيدٍ. ومن آيَاتِهِ مُرَاعَاةُ الْمُحِبِّ لِمَحْبُوبِهِ، وَحِفْظُهُ لِكُلِّ مَا يَقَعُ مِنْهُ، وَبَحْثُهُ عَنْ أَخْبَارِهِ حَتَّى لَا يَسْقُطَ عَنْهُ دَقِيقُهُ وَلَا جَلِيلُهُ، وَتَتَبُّعُهُ لِحَرَكَاتِهِ. وَلَعَمْرِي لَقَدْ تَرَى الْبَلِيدَ يَصِيرُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ذَكِيًّا، وَالْغَافِلَ قَظِنًا.

خبر

ولقد كُنْتُ يَوْمًا بِالْمَرْيَةِ قَاعِدًا فِي دُكَانِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ يُونُسَ الطَّبِيبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ^(٢)، وَكَانَ بَصِيرًا بِالْفِرَاسَةِ^(٣) مُحْسِنًا لَهَا، وَكَثًّا فِي

= كَي لَا يُرَى أَصْلُ هَجْرَةٍ وَقَلْبِي فَالنَّارُ فِي بَدْءِ أَمْرِهَا شَرُّ وَأَصْلُ عَظَمِ الْأُمُورِ أَهْوَنُهَا وَمِنْ صَغِيرِ النَّوَى تُرَى الشَّجَرُ وَالْفَرْقُ وَاضِحٌ فِي قَافِيَةِ الْآيَاتِ وَضَبُطُ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ.
(١) الطَّوِيَّةُ: الضَّمِيرُ.

(٢) إِسْمَاعِيلُ بْنُ يُونُسَ: مِنْ مَعَاصِرِي ابْنِ حَزْمَ. ذَكَرَهُ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ كِتَابِهِ «الْفَصْلُ فِي الْمَلَلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالنَّحْلِ» بِاسْمِ «إِسْمَاعِيلِ بْنِ يُونُسِ الْأَعُورِ الطَّبِيبِ الْيَهُودِيِّ» - يَنْظُرُ كِتَابُ «الْفَصْلُ...» بِتَحْقِيقِ نَصْرِ وَعُمَيْرَةِ - دَارُ الْجِيلِ - بَيْرُوتَ - ١٩٨٥ - ج ٥/ص ٢٥٣. وَلَمْ أَجِدْ لَهُ تَرْجُمَةً وَافِيَةً فِي الْمَصَادِرِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ.

(٣) الْفِرَاسَةُ: لُغَةٌ: الْمَهَارَةُ فِي تَعَرُّفِ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ مِنْ ظَوَاهِرِهَا. (الْوَسِيطُ/ فَرَسٌ). وَفِي الْأَصْطِلَاحِ: هِيَ فَنُ تَحْدِيدِ الْخُلُقِ أَوْ الطَّبَائِعِ عَلَى ضَوْءِ مَلَاحِجِ الْوَجْهِ أَوْ شَكْلِ الْجَسَدِ. عَدَّهَا الْعُلَمَاءُ عِلْمًا زَانِفًا، رَغْمَ وَجُودِ أَدَلَّةٍ كَثِيرَةٍ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ عِلَاقَةٍ مُتَبَادِلَةٍ بَيْنَ بَعْضِ السَّمَاتِ الْجَسَدِيَّةِ وَبَعْضِ الظَّوَاهِرِ النَّفْسِيَّةِ. وَمَا أَوْرَدَهُ ابْنُ حَزْمَ أَعْلَاهُ يَقَعُ فِي هَذَا الْبَابِ. تَنْظُرُ مُوسَّوْعَةُ الْمَوْرَدِ: مَج ٢/ص ٨٣٥.

لَمَّةٍ، فقال له مُجَاهِدُ بْنُ الْحُصَيْنِ الْقَيْسِيُّ: «ما تقول في هذا؟» وأشار إلى رَجُلٍ مُتَبَدِّعًا نَاحِيَةَ اسْمِهِ حَاتِمٌ، وَيُكَنَّى أبا البَقَاءِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سَاعَةً يَسِيرَةً ثُمَّ قَالَ: «هُوَ رَجُلٌ عَاشِقٌ»، فقال له: «صَدَقْتَ، فَمِنْ أَيْنَ قُلْتَ هَذَا؟»، قال: لِبُھْتٍ^(١) مُفْرِطٍ ظَاهِرٍ عَلَى وَجْهِهِ فَقَطْ، دُونَ سَائِرِ حَرَكَاتِهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ عَاشِقٌ وَلَيْسَ بِمَرِيضٍ^(٢).

(١) البُھْت: هنا الضَّعْفُ والشَّحَابُ.

(٢) هذه قراءة المستشرق برشيه، وقد أخذنا بها لاتساقها مع المعنى العام، خلافاً لما أورده د. عباس (ص ١١٤) ود. القاسمي (ص ٤٥) في طبعتيهما: «وليس بِمَرِيضٍ».

٣

باب مَنْ أَحَبَّ فِي النَّوْمِ

ولا بُدَّ لِكُلِّ حُبٍّ مِنْ سَبَبٍ يَكُونُ لَهُ أَصْلًا، وَأَنَا مُبْتَدِئٌ بِأَبْعَدِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَسْبَابِهِ، لِيَجْرِيَ الْكَلَامُ عَلَى نَسَقٍ، أَوْ أَنْ يُبْتَدَأَ أَبْدَأُ بِالسَّهْلِ وَالْأَهْوَنِ. فَمِنْ أَسْبَابِهِ شَيْءٌ لَوْ لَا أَنِّي شَاهَدْتُهُ لَمْ أَذْكُرْهُ لِعَرَابَتِهِ.

خبر

وذلك أَنِّي دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى أَبِي السَّرِيِّ عَمَّارِ بْنِ زِيَادٍ صَاحِبِنَا مَوْلَى الْمُؤَيَّدِ^(١) فَوَجَدْتُهُ مُفَكِّرًا مُهْتَمًّا، فَسَأَلْتُهُ عَمَّا بِهِ، فَتَمَنَّعَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ لِي: «أَعْجُوبَةٌ مَا سُمِعْتُ قَطُّ»^(٢)، قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ فِي نَوْمِي اللَّيْلَةَ جَارِيَةً فَاسْتَيْقَظْتُ، وَقَدْ ذَهَبَ قَلْبِي فِيهَا وَهَمْتُ بِهَا، وَإِنِّي لَفِي أَصْعَبِ حَالٍ مِنْ حُبِّهَا». وَلَقَدْ بَقِيَ أَيَّامًا كَثِيرَةً تَزِيدُ عَلَى الشَّهْرِ مَغْمُومًا لَا يُهْنِيهِ شَيْءٌ وَجَدًا، إِلَى أَنْ عَذَلْتُهُ، وَقُلْتُ لَهُ: مِنَ الْخَطَأِ الْعَظِيمِ أَنْ تَشْغَلَ نَفْسُكَ بِغَيْرِ حَقِيقَةٍ، وَتُعَلِّقَ وَهْمَكَ بِمَعْدُومٍ لَا يَوْجَدُ، هَلْ تَعْلَمُ مَنْ هِيَ؟ قَالَ: «لَا وَاللَّهِ»، قُلْتُ: إِنَّكَ لَفِيلٌ^(٣) الرَّأْيِ، مُصَابُ الْبَصِيرَةِ، إِذْ تُحِبُّ مَنْ لَمْ تَرَهُ

(١) عمار بن زياد (أبو السري): لم أهتمد إلى ترجمته.

(٢) في ط. التونسية: (قال: «لي أعجوبة ما سُمِعْتُ قَطُّ»)، (ص ٤٦).

(٣) فال رأيهُ، فَيَلًا، وفِيْلًا: أَخْطَأَ وَضَعَفَ. وورد في الطبعة التونسية: «إنك لفيل الرأي...» وهو جائز.

قَطُّ، وَلَا خُلِقَ، وَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا، وَلَوْ عَشِقْتَ صُورَةً مِنْ صُورِ
 الْحَمَامِ^(١) لَكُنْتُ عِنْدِي أَعْذَرُ؛ فَمَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى سَلَا وَمَا كَادَ.
 وَهَذَا عِنْدِي مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَأَضْغَاثِهَا^(٢)، وَدَاخِلٌ فِي بَابِ
 التَّمَنِّي وَتَخْيِيلِ الْفِكْرِ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْراً مِنْهُ:

[من البسيط]

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ كَانَتْ وَكَيْفَ سَرَتْ
 أَطْلَعَةَ الشَّمْسِ كَانَتْ أَمْ هِيَ الْقَمَرُ؟
 أَظَنَّه الْعَقْلُ أَبْدَاهُ تَدَبُّرُهُ
 أَوْ صُورَةَ الرُّوحِ أَبْدَتْهَا لِي الْفِكْرُ
 أَوْ صُورَةً مَثَلَتْ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمْلِي
 فَقَدْ تَحَيَّرَ^(٣) فِي إِدْرَاكِهَا الْبَصَرُ
 أَوْ لَمْ تَكُنْ كُلُّ هَذَا فَهِيَ حَادِثَةٌ
 أَتَى بِهَا سَبَباً فِي حَتْفِي الْقَدَرُ^{(٤)؟}!

-
- (١) أي صورة من الصور التي تُزَيَّنُ بها جدران الحمامات ويبدو أنه كان شائعاً.
 (٢) الأضغاث: جمع ضغث، وأضغاث الأحلام: ما كان منها ملتبساً مضطرباً
 يصعب تأويله لاختلاط ضروبه.. (الوسيط/ ضَغَثَ).
 (٣) ورد في ط. د. عباس «تَخَيَّلَ» بدل «تَحَيَّرَ»، رغم إشارته في الحاشية إلى
 ورود الأبيات في «ديوان الصبابة: ص ٥٢» برواية «تَحَيَّرَ» وهي أَوْجَهُ.
 (٤) ضبَطَتِ الأبيات في الطبعة التونسية برفع «العقل» و«صورة الروح» في البيت
 الثاني و«صورة» في الثالث، وورد في البيت الرابع: «أَوْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ
 هَذَا...».

وقوله: «أَوْ» في مطلع البيت لا يتفق مع جواب الشرط: «فهي حادثة»، ولا
 بد أن تكون «إِنَّ» الشرطية بدل «أَوْ» العاطفة ليستقيم الشرط.

٤

باب من أحب بالوصف

مِنْ غَرِيبِ أَصُولِ الْعَشَقِ أَنْ تَقَعَ الْمَحَبَّةُ بِالْوَصْفِ دُونَ
الْمُعَايَنَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ يُتَرَقَّى مِنْهُ إِلَى جَمِيعِ الْحُبِّ، فَتَكُونُ
الْمُرَاسَلَةُ وَالْمُكَاتَبَةُ وَالْهَمُّ وَالْوَجْدُ وَالسَّهَرُ عَلَى غَيْرِ الْإِبْصَارِ .
فَإِنَّ لِلْحِكَايَاتِ وَنَعْتَ الْمَحَاسِنِ وَوَصْفِ ^(١) الْأَخْبَارِ تَأْثِيرًا فِي
النَّفْسِ ظَاهِرًا؛ وَأَنْ تَسْمَعَ نَعْمَتَهَا ^(٢) مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ، فَيَكُونُ
سَبَبًا لِلْحُبِّ وَاشْتِغَالِ الْبَالِ .

وَهَذَا كُلُّهُ قَدْ وَقَعَ لَغَيْرِ مَا وَاحِدٍ، وَلَكِنَّهُ عِنْدِي بُنْيَانٌ هَارٍ عَلَى
غَيْرِ أَسْ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي أَفْرَغَ ذَهْنَهُ فِي هَوَى مَنْ لَمْ يَرِ، لَا بُدَّ لَهُ
إِذْ يَخْلُو بِفِكْرِهِ أَنْ يُمَثِّلَ لِنَفْسِهِ صُورَةً يَتَوَهَّمُهَا، وَعَيْنًا يُقِيمُهَا نُصَبَ
ضَمِيرِهِ، لَا يَتِمَثَّلُ فِي هَاجِسِهِ غَيْرَهَا، قَدْ مَالَ بَوْهَمِهِ نَحْوَهَا؛ فَإِنْ
وَقَعَتِ الْمُعَايَنَةُ يَوْمًا فَحِينَئِذٍ يَتَأَكَّدُ الْأَمْرُ أَوْ يَبْطُلُ بِالْكُلِّيَّةِ؛ وَكَلَا
الْوَجْهَيْنِ قَدْ عَرَضَ وَعُرِفَ، وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ هَذَا فِي رَبَّاتِ الْخُدُورِ ^(٣)
الْمَحْجُوبَاتِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ مَعَ أَقَارِبِهِنَّ مِنَ الرِّجَالِ . وَحُبُّ
النِّسَاءِ فِي هَذَا أَثْبَتُ مِنْ حُبِّ الرِّجَالِ، لِضَعْفِهِنَّ وَسُرْعَةِ إِجَابَةِ

(١) فِي طَبْعَةِ د. عَبَّاسٍ: «وَرَضَفٍ» .

(٢) يُمْكِنُ أَنْ تُقْرَأَ: «وَأَنْ تُسْمَعَ نَعْمَتُهَا» بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ .

(٣) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ وَسُوَاهَا: «رَبَّاتِ الْقُصُورِ» . وَالْخُدْرُ: (جَمْعُهُ خُدُورٌ): سِتْرٌ
يُمَدُّ لِلْمَرْأَةِ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ . (الْوَسِيطُ/ خَذَرٌ) .

طبائعهنَّ إلى هذا الشأن، وتمكُّنِه منهنَّ؛ وفي ذلك أقولُ شعراً منه:

[من الهَرَج]

وَيَا مَنْ لَا مَنِي فِي حُـ
بِّ مَنْ لَمْ يَرَهُ طَرْفِي
لَقَدْ أَفْرَطْتُ فِي وَصْفِـ
كَ لِي فِي الْحُبِّ بِالضَّعْفِ
فَقُلْ هَلْ تُعْرِفُ الْجَنَّةَ
هَؤُومًا بِسِوَى الْوَصْفِ؟!

وأقولُ شعراً في اسْتِحْسَانِ النِّعْمَةِ دُونَ وَقُوعِ الْعَيْنِ عَلَى الْعِيَانِ

منه:

[من مُخْلَعِ البسيط]

قَدْ حَلَّ جَيْشُ الْغَرَامِ سَمْعِي
وَهُوَ عَلَى مُقْلَتَيَّ يَبْدُو
وَأَقُولُ أَيْضاً فِي مُخَالَفَةِ الْحَقِيقَةِ لِظَنِّ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ وَقُوعِ
الرَّؤْيَةِ:

[من الكامل]

وَصَفُّوكَ لِي حَتَّى إِذَا أَبْصَرْتُ مَا
وَصَفُّوا عَلِمْتُ بِأَنَّهُ هَذَا
فَالطَّبْلُ جِلْدٌ فَارِغٌ وَطَنِيْنُهُ
يَرْتَاعُ مِنْهُ وَيَفْرَقُ الْإِنْسَانُ
وفي ضِدِّ هذا أقولُ:

[من الوافر]

لَقَدْ وَصَفُّوكَ لِي حَتَّى التَّقِينَا
فَصَارَ الظَّنُّ حَقًّا فِي الْعِيَانِ

فأوصاف الجنان مُقَصَّرَات

على التَّحْقِيقِ عَنِ قَدْرِ الْجِنَانِ

وإنَّ هذه الأحوالَ لَتَحْدُثُ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ وَالْإِخْوَانِ، وَعَنِّي أُحَدِّثُ:

خبر

... أَنَّهُ ^(١) كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْأَشْرَافِ وَدٌّ وَكَيْدٌ وَخِطَابٌ كَثِيرٌ وَمَا تَرَاءَيْنَا قَطُّ، ثُمَّ مَنَحَ اللَّهُ لِي لِقَاءَهُ، فَمَا مَرَّتْ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلٌ حَتَّى وَقَعْتُ لَنَا مَنَافَرَةً عَظِيمَةً، وَوَحْشَةً شَدِيدَةً مُتَّصِلَةً إِلَى الْآنِ، فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من البسيط]

أَبَدَلْتُ أَشْخَاصَنَا كُرْهًا وَفَرَضْتُ قِلَى ^(٢)

كَمَا الصَّحَائِفُ قَدْ يُبَدَّلْنَ بِالنَّسَخِ

وَوَقَعَ لِي ضِدُّ هَذَا مَعَ أَبِي عَامِرٍ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ^(٣) (رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ)، فَإِنِّي كُنْتُ لَهُ عَلَى كِرَاهَةٍ صَحِيحَةٍ وَهُوَ لِي كَذَلِكَ، وَلَمْ يَرْنِي وَلَا رَأْيَتُهُ، وَكَانَ أَصْلُ ذَلِكَ تَنْقِيلًا يُحْمَلُ إِلَيْهِ عَنِّي وَإِلَيَّ عَنْهُ، وَيُؤَكِّدُهُ انْحِرَافُ بَيْنِ

(١) حديث ابن حزم في هذا الخبر إتمام لما سبق وهو قوله: «وعني أُحَدِّثُ...»، فالكلام متصل دون انقطاع، وعلى هذا جاءت همزة «أَنَّهُ» مفتوحة (ط. عباس/ص ١١٨)، فيما ورد في ط. التونسية: «إنه كان بيني...». بالكسْرِ (ص ٤٩) على اعتبار الخبر مفتتحاً لحديث جديد لا اتصال له بما سبق.

(٢) القلى: البغض.

(٣) أبو عامر بن أبي عامر: هذا صديق ابن حزم الذي تحدَّث عنه في الباب الثاني (علامات الحب). وحديث ابن حزم هنا عمّا كان بينهما من الكراهة والتنافس تأكيد على أنَّ هذا الصديق ليس ابناً للحاجب المظفر.

أبوينا لَتَنَافُسِهِمَا فيما كانا فيه من صُحْبَةِ السُّلْطَانِ ووجاهة الدنيا، ثُمَّ
وَفَقَّ اللَّهُ الاجْتِمَاعَ به، فصَارَ لي أَوَدَّ النَّاسِ، وصِرْتُ له كذلك، إلى أنْ
حَالَ الموتُ بَيْنَنَا؛ وفي ذلك أقولُ قِطْعَةً منها:

[من المتقارب]

أَخْ لِي كَسَبَنِِيهِ اللَّقَاءُ
وَأَوْجَدَنِي فِيهِ عِلْقاً^(١) شَرِيفاً
وَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ مِنْهُ الْجَوَارَ
وَمَا كُنْتُ أَرْغِبُهُ لِي أَلِيفاً
وَكَانَ الْبَغِيضَ فَصَارَ الْحَبِيبَ
وَكَانَ الثَّقِيلَ فَصَارَ الْخَفِيفاً
وَقَدْ كُنْتُ أَدْمُنُّ عَنْهُ الْوَجِيفَ
فَصِرْتُ أَدِيمٌ إِلَيْهِ الْوَجِيفاً^(٢)
وَأَمَّا أَبُو شَاكِرٍ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَبْرِيُّ^(٣) فَكَانَ لي صديقاً مُدَّةً
على غيرِ رُؤْيَةٍ، ثُمَّ التَّقِينَا فَتَأَكَّدَتِ الْمَوَدَّةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَمَادَتْ إِلَى الْآنِ.

(١) العِلْقُ: النفيس من كل شيء، واللفظة تدل على ما يتعلق به الإنسان ويحبُّه ويتبعه. (الوسيط/ علق).

(٢) الوجيف: من الفعل (وَجَفَ - يَجِفُّ) يدل على عدة معانٍ منها: الاضطراب، وخفقان القلب، وسرعته عذو الفرس (الوسيط/ وجف) ولعلَّ ابن حزم أراد باستخدام الكلمة مرتين ضرباً من الجناس والصنعة البديعة.

(٣) عبد الواحد بن محمد القبري (أبو شاكِر): ورد اسمه في معظم الطبقات: «عبد الرحمن بن محمد القَبْرِيُّ» وأشار د. عباس إلى أنَّه خطأ في أصل المخطوط، وهو على وجه الصحة «عبد الواحد...»، ونسبَه د. عباس إلى مدينة قَبْرَة Cabra الأندلسية. وعُرفَ بابن القبري، وترجم له صاحب «الجدوة» على أنه فقيه مُحَدِّث، أديب خطيب شاعر، ولد بقرطبة، وولي الأحكام في أكثر من بلدة أندلسية. «جدوة المقتبس»: القسم الثاني/ ص ٤٦٠.

٥

بَابُ مَنْ أَحَبَّ مِنْ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ

وكثيراً ما يكونُ لُصُوقُ الْحُبِّ بِالْقَلْبِ مِنْ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ:

فَالْقِسْمُ الْوَاحِدُ مُخَالَفُ لِلَّذِي قَبْلَ هَذَا، وَهُوَ أَنْ يَعْشَقَ الْمَرْءُ صُورَةً لَا يَعْلَمُ مَنْ هِيَ، وَلَا يَدْرِي لَهَا اسْماً وَلَا مُسْتَقَرّاً، وَقَدْ عَرَّضَ هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ.

خبر

حَدَّثَنِي صَاحِبُنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِسْحَاقَ^(١) عَنْ ثِقَةٍ أَخْبَرَهُ، سَقَطَ عَنِّي اسْمُهُ، وَأَظْنُهُ الْقَاضِي ابْنَ الْحَدَّاءِ^(٢)، أَنَّ يَوْسُفَ ابْنَ هَارُونَ الشَّاعِرَ الْمَعْرُوفَ بِالرَّمَادِيِّ^(٣) كَانَ مُجْتَازاً عِنْدَ بَابِ

(١) هذا - كما يبدو - أحد معاصري ابن حزم وأصحابه، ولا ندري ما إذا كان اسمه قد ورد صحيحاً، فالمصادر تتحدث عن أكثر من محدث كل منهم يكنى بأبي بكر، ويحمل اسم محمد بن إسحاق. وسبق لنا أن ترجمنا في الباب الثاني لصديق ابن حزم محمد بن إسحاق المهلبى. ولعله المقصود هنا.

(٢) القاضي ابن الحداء: محمد بن يحيى بن أحمد التميمي، أبو عبد الله، المعروف بابن الحداء، باحث أندلسي، عالم بفقهِ الحديث والتاريخ والأدب. ولد بقرطبة (سنة ٣٤٧هـ) ونشأ فيها، وولي عدة مناصب قضائية وسلطانية في عدة أفضية أندلسية، وذُكر له عدد من الكتب. توفي بسرقسطة (سنة ٤١٦هـ). الأعلام للزركلي: مج ٧/ص ١٣٦.

(٣) يوسف بن هارون الكندي (الرَّمَادِيُّ)، أبو عمر: شاعر أندلسي معروف، ولد =

الْعَطَّارِينَ بِقَرْطُبَةٍ^(١)، وهذا الموضع كَانَ مُجْتَمَعَ النِّسَاءِ، فرأى جاريةً
أَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ، وَتَخَلَّلَ حُبُّهَا جَمِيعَ أَعْضَائِهِ، فانصرفَ عن
طريقِ الجَامِعِ وَجَعَلَ يَتَّبِعُهَا وَهِيَ نَاهِضَةٌ نَحْوَ الْقَنْطَرَةِ^(٢)، فجازَها
إِلَى الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِالرَّبْضِ^(٣). فَلَمَّا صَارَتْ بَيْنَ رِيَاضِ بَنِي
مَرْوَانَ^(٤) (رَحِمَهُمُ اللَّهُ) الْمَبْنِيَّةَ عَلَى قُبُورِهِمْ فِي مَقْبَرَةِ الرَّبْضِ خَلْفَ
النَّهْرِ نَظَرَتْ مِنْهُ مُنْفَرِدًا عَنِ النَّاسِ لَا هِمَّةَ لَهُ غَيْرُهَا، فَأَنْصَرَفَتْ إِلَيْهِ
فَقَالَتْ لَهُ: «مَالِكَ تَمْشِي وَرَائِي؟» فَأَخْبَرَهَا بِعَظِيمِ بَلِيَّتَيْهَا. فَقَالَتْ
لَهُ: «دَعْ عَنْكَ هَذَا وَلَا تَطْلُبْ فَضِيحَتِي، فَلَا مَطْمَعَ لَكَ فِيَّ الْبَتَّةَ،
وَلَا إِلَى مَا تَرْغَبُهُ سَبِيلٌ». فَقَالَ: «إِنِّي أَقْنَعُ بِالنَّظَرِ»، فَقَالَتْ: «ذَلِكَ
مُبَاحٌ لَكَ»، فَقَالَ لَهَا: «يَا سَيِّدَتِي، أَحْرَةً أَمْ مَمْلُوكَةً؟» قَالَتْ:
«مَمْلُوكَةً»، فَقَالَ لَهَا: «مَا اسْمُكَ؟» قَالَتْ: «خُلُوءٌ»، قَالَ: «وَلِمَنْ

= بقرطبة ولُقِّبَ بالرَّمَادِي نسبة إلى رَمَادَة (من قرى شلب)، وكان أصله منها.
مَدَحَ المنصور بن أبي عامر، وألف كتاب «الطير» في سجنه، وكانت وفاته
بقرطبة سنة (٤٠٣هـ). أعلام الزركلي: مج ٨/ص ٢٥٥.

(١) باب العطارين: هو أحد أبواب قرطبة السبعة، في الجنوب الغربي منها،
وَيُعْرَفُ بِبَابِ إِشْبِيلِيَّةٍ. وللتوسع في معرفة أبواب قرطبة ينظر ما أورده صاحب
«نفح الطيب» نقلاً عن ابن بَشْكَوَال: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»
للمقري التلمساني - شرحه وضبطه: د. مريم قاسم طويل ود. يوسف علي
طويل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٥ - ج ٢/ص ١١.

(٢) القنطرة: قنطرة قرطبة تقع شمالي باب القنطرة (باب قرطبة الجنوبي)، على
نهر قرطبة، وتعدُّ من أعظم آثار الأندلس وأعجبها. انظر وصفاً لها في «نفح
الطيب» - ج ٢/ص ٢٥ - ٢٦.

(٣) الرِّبْضُ: الرِّبْضُ والرِّبْضُ، لغة: ما يُؤْوَى إِلَيْهِ وَيُسْتَرَّاحُ لَدَيْهِ مِنْ أُمٍّ أَوْ زَوْجٍ أَوْ أَهْلِ
أَوْ بَيْتٍ (الوسيط/ربض). وهي هنا اسم موضع من مواضع قرطبة المعروفة.

(٤) بنو مروان: قصد أمراء بني أمية بالأندلس، وبنو مروان ينتسبون إلى
مروان بن الحكم أول خليفة أموي من بني الحكم بن أبي العاص.

أَنْتِ؟». فَقَالَتْ لَهُ: «عِلْمُكَ وَاللَّهِ بِمَا فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِمَّا سَأَلْتَ عَنْهُ، فَدَعِ الْمُحَالَ»، فَقَالَ لَهَا: «يَا سَيِّدَتِي، وَأَيْنَ أَرَاكَ بَعْدَ هَذَا؟» قَالَتْ: «حَيْثُ رَأَيْتَنِي الْيَوْمَ فِي مِثْلِ تِلْكَ السَّاعَةِ مِنْ كُلِّ جُمُعَةٍ». فَقَالَتْ لَهُ: «إِمَّا تَنْهَضُ أَنْتَ أَوْ أَنْهَضُ أَنَا»^(١)، فَقَالَ لَهَا: «انْهَضِي فِي حِفْظِ اللَّهِ». فَتَهَضَّتْ نَحْوَ الْقَنْطَرَةِ، وَلَمْ يُمَكِّنْهُ اتِّبَاعُهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ تَلْتَفِتُ نَحْوَهُ لِتَرَى أَيْسَائِرَهَا أَمْ لَا. فَلَمَّا تَجَاوَزَتْ بَابَ الْقَنْطَرَةِ أَتَى يَقْفُوهَا^(٢) فَلَمْ يَقَعْ لَهَا عَلَى مَسْأَلَةٍ.

قال أبو عمر، وهو يوسف بن هارون: «فَوَاللَّهِ لَقَدْ لَازِمْتُ بَابَ الْعِطَّارِينَ وَالرَّبْضِ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى الْآنِ فَمَا وَقَعْتُ لَهَا عَلَى خَبَرٍ، وَلَا أَدْرِي أَسْمَاءَ لَحَسَّتْهَا أَمْ أَرْضُ بَلَعَتْهَا، وَإِنَّ فِي قَلْبِي مِنْهَا لِأَحَرَ مِنَ الْجَمْرِ». وهي «خُلُوةٌ»^(٣) الَّتِي يَتَغَزَّلُ بِهَا فِي أَشْعَارِهِ. ثُمَّ وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى خَبَرِهَا بَعْدَ رَحِيلِهِ فِي سَبَبِهَا إِلَى سَرْقُسْطَةِ^(٤)، فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ^(٥).

(١) في ط. التونسية: «إِمَّا أَنْ تَنْهَضَ أَنْتَ وَإِمَّا أَنْهَضُ أَنَا»، وَلَعَلَّ فِي الْعِبَارَةِ نَقْصًا. إِذْ وَرَدَتِ الْحِكَايَةُ فِي بَعْضِ الْمَصَادِرِ بِتَفْصِيلِ أَكْبَرِ.

(٢) يَقْفُوهَا: يَتَّبِعُ أَثَرَهَا.

(٣) خُلُوةٌ: وَرَدَ اسْمُهَا فِي «بَغِيَةِ الْمَلْتَمَسِ» لِلضَّبِّي: «حُلُوةٌ»: بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، ج ٢/ص ٦٦٥. وَالصَّحِيحُ مَا وَرَدَ فِي نَصِّ «الطُّوقِ».

(٤) سَرْقُسْطَةُ: Saragossa ذكر ياقوت في معجمه أنها بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تطيلة، ذات فواكه عذبة، مبنية على نهر [لم يُسمَّه ياقوت]. اشتهرت بصناعة الثياب الرقيقة المعروفة بالسَرْقُسْطِيَّة. معجم البلدان: ج ٣/ص ٢٣٠. وورد في موسوعة المورد للبعلبكي أنها الآن عاصمة مقاطعة سرقسطة في الشمال الشرقي من إسبانيا، وتقع على نهر إيبرو. فتحها العرب حوالي عام ٩٦هـ = ٧١٤م، وازدهرت في عهد بني هود أيام ملوك الطوائف. موسوعة المورد: مج ١/ص ٦١٨.

(٥) كلمة «طويلة» مضافة في الطبعة التونسية، وورد في ط. عباس: «في قصة».

ومثل ذلك كثير، وفي ذلك أقول قطعة منها:

[من البسيط]

عَيْنِي جَنَتْ فِي فُؤَادِي لَوَعَةَ الْفِكْرِ
فَأَرْسَلَ الدَّمْعَ مُقْتَضَاً مِنَ الْبَصَرِ
فَكَيْفَ تُبْصِرُ فِعْلَ الدَّمْعِ مُنْتَصِفاً^(١)
مِنْهَا بِإِغْرَاقِهَا فِي دَمْعِهَا الدَّرَرِ^(٢)
لَمْ أَلْقَها قَبْلَ إِبْصَارِي فَأَعْرِفُهَا
وَأَخِرُ الْعَهْدِ مِنْهَا سَاعَةَ النَّظَرِ

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: مُخَالَفٌ لِلْبَابِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ هَذَا الْبَابِ، إِنْ شَاءَ
اللَّهُ، وَهُوَ أَنْ يَعْلَقَ الْمَرْءُ مِنْ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ جَارِيَةً مَعْرُوفَةَ الْأَسْمِ وَالْمَكَانِ
وَالْمَنْشَأِ، وَلَكِنْ التَّفَاضُلُ يَقَعُ فِي هَذَا: فِي سُرْعَةِ الْفَنَاءِ^(٣) وَإِبْطَائِهِ؛
فَمَنْ أَحَبَّ مِنْ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَسْرَعَ الْعَلَاقَةَ مِنْ لَمَحَةٍ خَاطِرَةٍ، فَهُوَ
دَلِيلٌ عَلَى قِلَّةِ الصَّبْرِ، وَمُخْبِرٌ بِسُرْعَةِ السُّلُوءِ، وَشَاهِدُ الطَّرَافَةِ^(٤)

= وحكاية يوسف بن هارون مع خلوة، مذكورة على نحو أكثر تفصيلاً في
«جذوة المقتبس» للحميدي: القسم الثاني/ ص ٥٩٠.

(١) مُنْتَصِفاً: منتقماً ومستوفياً حَقَّهُ، ومثله: «مُقْتَضَاً» في البيت السابق.

(٢) الدَّرَرُ: دمع دَرَرَ: منصب. مُتَدَفِّقٌ ويقال: سماء دَرَرَتْ: أي ذات مطر غزير
(تاج العروس/ درر).

(٣) الْفَنَاءُ: يقال فَنِيَ فِي الشَّيْءِ: اندَمَجَ فِيهِ وَبَذَلَ غَايَةَ جَهْدِهِ. والمعنى فِي النِّصِّ
دليل على قوة الانشغال والاستغراق فِي الْحُبِّ، والشَّيْءِ إِذَا وَصَلَ إِلَى ذُرْوَتِهِ
بلغ منتهاه.

(٤) الطَّرَافَةُ، الطَّرْفُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: منتهاه، ولعلَّ المعنى المراد هنا سرعة انتهاء
الْحُبِّ، لِأَنَّهُ يَفْرِنُ الطَّرَافَةَ بِالْمَلَلِ. وقد جاء فِي تاج العروس: «رَجُلٌ طَرُفٌ
وَطَرَفٌ: لَا يَثْبُتُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَا صَاحِبٍ». (تاج العروس/ طرف). وجاءت
الكلمة فِي ط. التونسية: «الطَّرَافَةُ» (ص ٥٥). ولا نرى ذلك.

والمَلَل . وهكذا في جميع الأشياء : أَسْرَعُهَا نُمُوًّا أَسْرَعُهَا فَنَاءٌ ،
وَأَبْطُؤُهَا حُدُوثًا أَبْطُؤُهَا نَفَادًا .

خبر

إِنِّي لَأَعْلَمُ فَتًى مِنْ أَبْنَاءِ الْكُتَّابِ ، وَرَأَتْهُ امْرَأَةٌ سَرِيَّةَ النَّشْأَةِ^(١) ،
عَالِيَةَ الْمَنْصِبِ ، غَلِيظَةَ الْحِجَابِ ، وَهُوَ مُجْتَازٌ ، وَرَأَتْهُ فِي مَوْضِعٍ
تَطَّلُعُ مِنْهُ كَانَ فِي مَنْزِلِهَا ، فَعَلَقَتْهُ وَعَلَقَهَا ، وَتَهَادِيَا الْمُرَاسَلَةَ زَمَانًا
عَلَى أَدَقِّ مِنْ حَدِّ السَّيْفِ . وَلَوْلا أَنِّي لَمْ أَقْصِدْ فِي رِسَالَتِي هَذِهِ
كَشَفَ الْحَيْلِ وَذَكَرَ الْمَكَايِدِ ، لَأُورِدْتُ مِمَّا صَحَّ عِنْدِي أَشْيَاءٌ تُحَيِّرُ
اللَّبِيبَ ، وَتُدْهِشُ الْعَاقِلَ ، أَسْبَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا سِتْرَهُ وَعَلَى جَمِيعِ
الْمُسْلِمِينَ بِمَنِّهِ^(٢) ، وَكَفَانَا .

(١) سَرِيَّةُ النَّشْأَةِ : ذات مكانة رفيعة ؛ والسَّرِيَّةُ : الشَّرِيفُ . (الوسيط/سر) .

(٢) ضَبَطَهَا د . عَبَّاسُ : «بِمَنِّهِ» (ص ١٢٣) بِمَعْنَى : نَعِمَهُ وَخَيْرَاتِهِ . وَوَرَدَتْ فِي
الطَبْعَةِ التُّونِسِيَّةِ «بِمَنِّهِ» لَكِنَّ د . الْقَاسِمِي اقْتَرَحَ قِرَاءَتَهَا «يُمْنُهُ» أَي بَرَكَتَهُ
(ص ٥٥) .

٦

باب مَنْ لَا يُحِبُّ إِلَّا مَعَ الْمُطَاوَلَةِ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا تَصِحُّ مَحَبَّتُهُ إِلَّا بَعْدَ طَوِيلِ الْمُحَافَةِ^(١) وَكَثِيرِ
الْمُشَاهَدَةِ وَتَمَادِي الْأُنْسِ^(٢)، وَهَذَا الَّذِي يَوْشِكُ أَنْ يَدُومَ وَيَثْبُتَ وَلَا
يَحِيكُ^(٣) فِيهِ مَرُّ اللَّيَالِي. فَمَا دَخَلَ عَسِيرًا لَمْ يَخْرُجْ يَسِيرًا، وَهَذَا
مَذْهَبِي. وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِلرُّوحِ حِينَ أَمَرَهُ
أَنْ يَدْخُلَ جَسَدَ آدَمَ، وَهُوَ فَخَّارٌ، فَهَابَ وَجَزَعُ: «أَدْخُلْ كَرَهًا
وَاخْرُجْ كَرَهًا». حُدِّثْنَاهُ عَنْ شَيْوِخِنَا.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ مَنْ إِنْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِابْتِدَاءِ
هَوًى، أَوْ تَوَجَّسَ^(٤) مِنْ اسْتِحْسَانِهِ مَيْلًا إِلَى بَعْضِ الصُّوَرِ، اسْتَعْمَلَ
الْهَجَرَ وَتَرَكَ الْإِلِمَامَ^(٥)، لِئَلَّا يَزِيدَ مَا يَجِدُ فَيَخْرُجَ الْأَمْرُ عَنْ يَدِهِ،
وَيُحَالَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالتَّزْوَانِ^(٦). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى لُصُوقِ الْحُبِّ بِأَكْبَادِ

(١) وردت في قراءة المستشرق برشييه «المحاذنة». والمحافنة هنا: بعكس
المجاهرة، تدل على الحيطة والحذر والاحتراش.

(٢) ورد في ط. التونسية: «ومتماذي الأنس» (ص ٥٦).

(٣) لا يحيك فيه: لا يؤثر. وحاك فيه: أثر: (الوسيط/حاك).

(٤) تَوَجَّسَ: أَحَسَّ بِشَيْءٍ خَفِيٍّ وَتَخَوَّفَ مِنْهُ.

(٥) الإلمام: أَلَمَ بِالشَّيْءِ أَتَاهُ، وَبِالْقَوْمِ: زَارَهُمْ وَنَزَلَ عَلَيْهِمْ. والإمام هنا ضِدُّ
الْهَجَرِ. (الوسيط/لَمْ).

(٦) يحال بين العير والتزوان: العير: الحمار. والتزوان: السِّفَادُ. وأصل القول
من أمثال العرب، يضرب للرجل يعوقه عن مطلبه عائق، ويحال بينه وبين =

أهل هذه الصِّفة، وأنه إذا تمكَّن منهم لم يحُلْ أبداً. وفي ذلك أقولُ
قطعةً منها:

[من الوافر]

سأبْعُدُ عن دواعي الحُبِّ إنِّي
رَأَيْتُ الحَزْمَ مِنْ صِفَةِ الرِّشِيدِ
رَأَيْتُ الحُبَّ أَوَّلَهُ التَّصَدِّي
بِعَيْنِكَ فِي أَزَاهِيرِ الحُدُودِ
فَبَيْنَا أَنْتَ مُغْتَبِطٌ مُخْلَى
إِذَا قَدْ صِرْتَ فِي حَلَقِ القُيُودِ
كَمُغْتَرٍّ بِضَخْضَاحٍ قَرِيبٍ
فَرَزَلْ فَعَابَ فِي غَمْرِ المُدُودِ^(١)

وإنِّي لَأَطِيلُ العَجَبَ مِنْ كُلِّ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ يُحِبُّ مِنْ نَظَرَةٍ
وَاحِدَةٍ، وَلَا أَكَادُ أَصَدِّقُهُ، وَلَا أَجْعَلُ حُبَّهُ إِلَّا صَرْباً مِنَ الشَّهْوَةِ.
وَأَمَّا^(٢) أَنْ يَكُونَ فِي ظَنِّي مُتَمَكِّناً مِنْ صَمِيمِ الفُؤَادِ، نَافِذاً فِي
حِجَابِ القَلْبِ، فَمَا أَقْدِرُ ذَلِكَ؛ وَمَا لَصِقَ بِأَحْشَائِي حُبٌّ قَطُّ إِلَّا مَعَ

= مراده. وأول ما ورد في شعر لصخر بن عمرو الجاهلي (أخي الخنساء) هو:
أَهْمُ بِأَمْرِ الحَزْمِ لَوْ أُسْتَطِيعَ وَقد حِيلَ بَيْنَ العَيْرِ والنَّرْوَانِ
ينظر المثل في «جمهرة الأمثال» للعسكري - تحقيق إبراهيم وقطامش -
ج ١/ ص ٣٧٢. وانظر لمعرفة بقية مصادره: «موسوعة أمثال العرب»
ليعقوب: ج ٣/ ص ٦٠٠.

(١) الضحضاح: الماء القليل لا عُمُقَ فيه. والمدود: جمع المد، وهو ارتفاع ماء
البحر بعكس الجَزَر.

(٢) قرأها د. القاسمي في ط. التونسية: «وإما أن يكون... فما أقدر ذلك»
(ص ٥٧).

الزَّمن الطويل، وبعد مُلازمة الشَّخص لي دَهراً، وأخذي معه في كلِّ جِدٍّ وهَزَلٍ. وكذلك أنا في السُّلُوِّ والتَّوَقِّي، فما نسيْتُ وُدّاً لي قَطُّ، وإنَّ حَنيني إلى كُلِّ عَهْدٍ تَقَدَّمَ لي لِيُغْصِنِي بِالطَّعامِ وَيُشْرِفُنِي بِالماءِ، وقد استراحَ مَنْ لَمْ تَكُنْ هذه صِفَتُهُ. وما مَلَلْتُ شيئاً قَطُّ بعدَ معرفتي به، ولا أَسْرَعْتُ إلى الأُنسِ بشيءٍ قَطُّ أوَّلَ لقائي له، وما رَغِبْتُ الاستبدال^(١) إلى سَبَبٍ مِنْ أَسبابي مُذْ كُنْتُ، لا أَقولُ الأَلَفَ والإخوانَ وحدَهُم، لكن في كلِّ ما يَسْتَعْمِلُ الإنسانُ من مَلْبوسٍ ومَرْكوبٍ ومَطْعومٍ وغير ذلك، وما انْتَفَعْتُ بِعَيْشٍ ولا فارقني الإطراقُ والانغلاقُ^(٢) مُذْ ذُقْتُ طَعَمَ فراقِ الأَحَبَّةِ، وإنَّه لشَجِيٌّ يعتادني، وولوعُ هَمٍّ ما يَنفَكُ يَطْرُقني. ولقد نَعَصَ تَذَكُّري ما مَضَى، كُلَّ عَيْشٍ أَسْتَأْنِفُهُ؛ وإني لَقَتِيلُ الهُمومِ في عِدَادِ الأَحْيَاءِ، ودفينُ الأَسَى بينَ أهلِ الدُّنيا. واللَّهُ المَحْمودُ على كُلِّ حالٍ لا إِلَهَ إلَّا هُوَ؛ وفي ذلك أَقولُ شِعراً منه:

[من الطويل]

مَحَبَّةٌ صِدْقٍ لَمْ تَكُنْ بِنْتَ سَاعَةٍ
ولا وَرَيْتُ حِينَ ارْتِفَادٍ زِنَادُهَا^(٣)
ولَكِنْ عَلَى مَهْلٍ سَرَتْ وَتَوَلَّدَتْ
بَطُولِ امْتِزَاجٍ فَاسْتَقَرَّ عِمَادُهَا

(١) في ط. التونسية: «في الاستبدال...» (ص ٥٧).

(٢) ورد في معظم الطبعات: «الانغلاق» «بالفاء»، وفي ط. عباس، والتونسية: «الانغلاق»، وهو ما أثبتناه.

(٣) وَرَى الزند، يَرِي، وَوَرِي، يورِي: خرجت ناره. والمعنى هنا على انتقاد نار الحبِّ. والارتفاد: الاكتساب. وجاء في ط. التونسية (ص ٥٨) وسواها: «ارتباد».

فَلَمْ يَذَنْ مِنْهَا عِزُّهَا وَانْتِقَاضُهَا^(١)
 وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا مَكْنُهَا وَازْدِيَادُهَا
 يُؤَكِّدُ ذَا أَنَّا نَرَى كُلَّ نَشَاةٍ
 تَتِمُّ سَرِيعاً عَنْ قَرِيبٍ نَفَادُهَا^(٢)
 وَلَكِنِّي أَرْضُ عَزَازٍ^(٣) صَلِيبَةٍ
 مَنِيعٍ إِلَى كُلِّ الْغُرُوسِ انْقِيَادُهَا
 فَمَا نَفَذَتْ^(٤) مِنْهَا لَدِيهَا عِرْوَقُهَا
 فَلَيْسَتْ تُبَالِي أَنْ تَجُودَ عَهَادُهَا^(٥)

وَلَا يَظُنُّ ظَانٌّ وَلَا يَتَوَهَّمُ مُتَوَهَّمٌ أَنَّ كُلَّ هَذَا مُخَالَفٌ لِقَوْلِي
 الْمُسَطَّرِ [فِي]، صَدَرَ الرِّسَالَةِ: «إِنَّ الْحُبَّ اتِّصَالٌ بَيْنَ النَّفُوسِ فِي
 أَصْلِ عَالَمِهَا الْعُلُويِّ»^(٦)، بَلْ هُوَ مُؤَكِّدٌ لَهُ. فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ النَّفْسَ فِي
 هَذَا الْعَالَمِ الْأَدْنَى قَدْ غَمَرَتْهَا الْحُجُبُ، وَلَحِقَتْهَا الْأَعْرَاضُ،
 وَأَحَاطَتْ بِهَا الطَّبَائِعُ الْأَرْضِيَّةُ الْكُونِيَّةُ^(٧)، فَسَتَرَتْ كَثِيراً مِنْ صِفَاتِهَا،
 وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تُحِلَّهُ^(٨)، لَكِنْ حَالَتْ دُونَهُ، فَلَا يُرْجَى الْإِتِّصَالُ عَلَى
 الْحَقِيقَةِ إِلَّا بَعْدَ التَّهَيُّؤِ مِنَ النَّفْسِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، وَبَعْدَ إِيْصَالِ

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «وَانْتِقَاضُهَا».

(٢) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «مَعَادُهَا»، (التُّونِسِيَّة، ص ٥٨).

(٣) الْعَزَازُ: الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ السَّرِيعَةُ السَّيْلِ.

(٤) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ «نَفَذَتْ». وَهُوَ يَنْقَاضُ الْمَعْنَى.

(٥) الْعَهَادُ: مَطَرٌ أَوَّلِ السَّنَةِ.

(٦) هَذَا قَوْلُ ابْنِ حَزْمٍ فِي مَوْضِعٍ سَابِقٍ مِنَ الرِّسَالَةِ: الْبَابُ الْأَوَّلُ: فِي مَاهِيَةِ
 الْحُبِّ - ص ٦٦.

(٧) يَقْرَأُ الْمُسْتَشْرِقُ بِرَشِيهِ: «الْكُورِيَّة» نَسْبَةً إِلَى كُرُويَةِ الْأَرْضِ!

(٨) مَا أَثْبَتْنَاهُ هُنَا قِرَاءَةُ د. عَبَّاسٍ، وَوَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ (ص ٥٨): «لَمْ تَحُلَّهُ».

المَعْرِفَةُ إِلَيْهَا بِمَا يَشَاكُلُهَا وَيُؤَافِقُهَا، وَمُقَابَلَةُ الطَّبَائِعِ الَّتِي خَفِيَتْ بِمَا يُشَابِهُهَا مِنْ طَبَائِعِ الْمَحْبُوبِ، فَحِينَئِذٍ يَتَّصِلُ اتِّصَالاً صَاحِحاً بِمَا مَانِعٍ.

وَأَمَّا مَا يَقَعُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ بِبَعْضِ أَعْرَاضِ الاسْتِحْسَانِ الْجَسَدِيِّ، وَاسْتَطْرَافِ الْبَصَرِ الَّذِي لَا يُجَاوِزُ الْأَلْوَانَ، فَهَذَا سِرُّ الشَّهْوَةِ وَمَعْنَاهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَإِذَا فَضَلَتْ ^(١) الشَّهْوَةُ، وَتَجَاوَزَتْ هَذَا الْحَدَّ، وَوَافَقَ الْفَضْلَ ^(٢) اتِّصَالُ نَفْسَانِيٍّ تَشْتَرِكُ فِيهِ الطَّبَائِعُ مَعَ النَّفْسِ، تُسَمَّى ^(٣) عِشْقاً.

وَمِنْ هَذَا دَخَلَ الْعَلَطُ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُحِبُّ اثْنَيْنِ، وَيَعِشَقُ شَخْصَيْنِ مُتَغَايِرَيْنِ، فَإِنَّمَا هَذَا مِنْ جِهَةِ الشَّهْوَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آنفاً، وَهِيَ عَلَى الْمَجَازِ تُسَمَّى مَحَبَّةً لَا عَلَى التَّحْقِيقِ. وَأَمَّا نَفْسُ الْحُبِّ ^(٤) فَمَا فِي الْمُبْتَلَى بِهِ فَضْلٌ يَصْرِفُهُ فِي أَسْبَابِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَكَيْفَ بِالِاشْتِغَالِ بِحُبِّ ثَانٍ؟! وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الخفيف]

كَذَبَ الْمُدَّعِي هَوَى اثْنَيْنِ حَتْمًا
مِثْلَ مَا فِي الْأُصُولِ أَكْذَبَ مَانِي ^(٥)

(١) وفي معظم الطبقات: «عَلَبَتْ».

(٢) في ط. التونسية: (الْفَضْلُ) (ص ٥٨).

(٣) في ط. التونسية: «يُسَمَّى» (ص ٥٨).

(٤) في ط. التونسية: «المُحِبِّ» (ص ٥٩).

(٥) ماني: Mani (٢١٦ - ٢٧٣م): متنبئ فارسي، مؤسس مذهب المانوية، دعا

إلى الإيمان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور (أو الخير) والظلام (أو الشر). أسره كهان فارس الزرادشتيون فمات في أسرهم. ينظر: موسوعة المورد للبلعبيكي: مج ٢/ ص ١٠٧٩.

لَيْسَ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعٌ لِحَبِيبٍ
 مِنْ وَلَا أَحَدٌ الْأُمُورَ اثْنَانِ^(١)
 فَكَمَا الْعَقْلُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَدْرِي
 خَالِقًا غَيْرَ وَاحِدٍ رَحْمَانٍ
 فَكَذَا الْقَلْبُ وَاحِدٌ. لَيْسَ يَهْوَى
 غَيْرَ فَرْدٍ مُبَاعِدٍ أَوْ مُدَانٍ
 هُوَ فِي شِرْعَةِ الْمَوَدَّةِ ذُو شَرٍّ
 لِكَيْ بَعِيدٌ^(٢) مِنْ صِحَّةِ الْإِيمَانِ
 وَكَذَا الدِّينُ وَاحِدٌ مُسْتَقِيمٌ
 وَكَفُورٌ مِنْ عِنْدِهِ^(٣) دِينَانِ

وَإِنِّي لَأَعْرِفُ فَتًى مِنْ أَهْلِ الْجِدَّةِ^(٤) وَالْحَسَبِ وَالْأَدَبِ، كَانَ
 يَتَبَاعُ الْجَارِيَّةَ وَهِيَ سَالِمَةُ الصَّدْرِ مِنْ حُبِّهِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ كَارَهُةٌ
 لَهُ، لِقِلَّةِ حَلَاوَةِ شَمَائِلَ كَانَتْ فِيهِ، وَقُطُوبِ دَائِمٍ كَانَ لَا يُفَارِقُهُ، وَلَا
 سِيِّمًا مَعَ النِّسَاءِ؛ فَكَانَ لَا يَلْبَثُ إِلَّا يَسِيرًا رِثْمًا يَصِلُ إِلَيْهَا بِالْجَمَاعِ،
 فَيَعُودُ ذَلِكَ الْكُرْهُ حُبًّا مُفْرِطًا، وَكَلَفًا زَائِدًا، وَاسْتِهْتَارًا مَكْشُوفًا،
 وَيَتَحَوَّلُ الصَّبْرُ لِصُحْبَتِهِ صَجْرًا لِفِرَاقِهِ. صَحِبَهُ هَذَا الْأَمْرُ فِي عِدَّةٍ
 مِنْهُمْ، فَقَالَ بَعْضُ إِخْوَانِي^(٥)، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَتَبَسَّمَ نَحْوِي وَقَالَ:

(١) ورد في ط التونسية: «وَلَا أَحَدُ الْأُمُورِ بَثَانٍ».

(٢) ضبطها د. عباس «بعيد» على أنها نعت لـ «شريك».

(٣) «مَنْ عِنْدَهُ دِينَانِ» هَكَذَا وَرَدَ فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ، وَفِي النُّصُوصِ الْمُنْقُولَةِ عَنْ
 ابْنِ حَزْمٍ فِي مَوْأَلَفَاتٍ مُعَاَصِرِيهِ. إِلَّا أَنَّ د. عَبَّاسَ قَرَأَهَا: «مَنْ عَقْدُهُ» وَدَافِعُ
 عَنْهَا. (ص ١٢٧).

(٤) الْجِدَّةُ: الْغَنَى وَالْيُسْرُ. وَوَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «الْجِدَّةُ» (ص ٥٩).

(٥) يَوْجَهُ د. الْقَاسِمِيُّ مُحَقِّقُ الطَّبَعَةِ التُّونِسِيَّةِ النَّصَّ تَوْجِيهًا آخَرَ، فَيَقْرَأُ: فَقَالَ =

«إِذَا وَاللَّهِ أَخْبِرْكَ، أَنَا أَبْطَأُ النَّاسِ إِنْزَالاً، تَقْضِي الْمَرْأَةُ شَهْوَتَهَا وَرَبِّمَا ثَنَّتْ وَإِنْزَالِي وَشَهْوَتِي لَمْ يَنْقَضِيا بَعْدُ، وَمَا فَتَرْتُ بَعْدَهَا قَطُّ، وَإِنِّي لَأَبْقَى بِمُنَّتِي^(١) بَعْدَ انْقِضَائِهَا الْحَيْنَ الصَّالِحَ، وَمَا لَأَقَى صَدْرِي صَدْرَ امْرَأَةٍ قَطُّ عِنْدَ الْخُلُوةِ إِلَّا عِنْدَ تَعَمُّدِي الْمُعَانَقَةَ، وَبِحَسْبِ ارْتِفَاعِ صَدْرِي نَزُولُ مُؤَخَّرِي».

فَمِثْلُ هَذَا وَشَبِّهُهُ إِذَا وَقَعَ وَافَقَ أَخْلَاقَ النَّفْسِ وَوَلَدَ الْمَحَبَّةَ^(٢)،
إِذِ الْأَعْضَاءُ الْحَسَّاسَةُ مَسَالِكُ إِلَى النَّفُوسِ وَمُؤَدِّيَاتُ نَحْوِهَا.

= بعض إخواني: «فسألته عن ذلك... الخ» (ص ٥٩) على اعتبار تنمة القصة مروية بلسان بعض إخوان ابن حزم، وإن كانت المحصلة واحدة في القراءتين.

(١) المُنَّة: القوة. وقد يوحي السياق بأن المراد هو المَنَى: ماء الرجل؟

(٢) في ط. التونسية (ص ٥٩) وسائر الطبعات: «فَمِثْلُ هَذَا وَشَبِّهُهُ إِذَا وَافَقَ أَخْلَاقَ النَّفْسِ وَلَدَ الْمَحَبَّةَ» وهي قراءة مقبولة.

٧

بَابُ مَنْ أَحَبَّ صِفَةً لَمْ يَسْتَحْسِنْ بَعْدَهَا غَيْرَهَا مِمَّا يُخَالِفُهَا

وَأَعْلَمَ، أَعَزَّكَ اللَّهُ، أَنَّ لِلْحُبِّ حُكْمًا عَلَى النُّفُوسِ مَاضِيًا،
وَسُلْطَانًا قَاضِيًا، وَأَمْرًا لَا يُخَالَفُ، وَحَدًّا لَا يُعْصَى، وَمُلْكًا لَا
يُتَعَدَّى، وَطَاعَةً لَا تُصَرَفُ، وَنَفَازًا لَا يُرَدُّ، وَأَنَّهُ يَنْقُضُ الْمَرَرَ^(١)،
وَيَحُلُّ الْمُبْرَمَ، وَيَحُلِّلُ الْجَامِدَ، وَيُحِلُّ الثَّابِتَ، وَيَحِلُّ الشَّغَافَ،
وَيَحِلُّ^(٢) الْمَمْنُوعَ. وَلَقَدْ شَاهَدْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَتَّهِمُونَ فِي
تَمْيِيزِهِمْ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِمْ سَقُوطٌ فِي مَعْرِفَتِهِمْ، وَلَا اخْتِلَالٌ
بِحُسْنِ اخْتِيَارِهِمْ، وَلَا تَقْصِيرٌ فِي حَدْسِهِمْ، قَدْ وَصَفُوا أَحِبَّابًا لَهُمْ
فِي بَعْضِ صِفَاتِهِمْ بِمَا لَيْسَ بِمُسْتَحْسِنٍ عِنْدَ النَّاسِ وَلَا يُرْضَى فِي
الْجَمَالِ، فَصَارَتْ هَجِيرَاهُمْ^(٣)، وَعُرْضَةٌ لَأَهْوَائِهِمْ، وَمُنْتَهَى
اسْتِحْسَانِهِمْ، ثُمَّ مَضَى أَوْلَيْكَ إِمَّا بِسُلُوءٍ، أَوْ بَيْنٍ، أَوْ هَجَرٍ، أَوْ
بَعْضِ عَوَارِضِ الْحُبِّ، وَمَا فَارَقَهُمْ اسْتِحْسَانٌ تِلْكَ الصِّفَاتِ، وَلَا

(١) الْمَرَرُ، وَاحْدَتُهَا مَرَّةٌ، وَهِيَ أَصَالَةُ الرَّأْيِ وَشِدَّةُ إِحْكَامِهِ.. وَ(نَقْضُ الْمَرَرِ)

بِمَعْنَى إِضْعَافِ الْعَقْلِ وَقُوَّةِ بَصِيرَتِهِ.

(٢) اسْتَعْدَمَ الْمُؤَلَّفَ مَعْظَمَ مَعَانِي [حُلِّ] وَمَشْتَقَاتِهَا: «يَحُلُّ الْمُبْرَمَ»: يَجْعَلُهُ

رَخْوًا لَا ثَبَاتَ فِيهِ. وَ«يَحُلِّلُ الْجَامِدَ»: بِمَعْنَى يُسِيلُهُ وَيَجْعَلُهُ رَطْبًا لَيْنًا..

وَ«يَحِلُّ الشَّغَافَ»: يَسْتَقِرُّ فِي الشَّغَافِ الَّذِي هُوَ غِلَافُ الْقَلْبِ أَوْ سَوِيدَاؤُهُ.

وَ«يَحِلُّ الْمَمْنُوعَ»: يَجْعَلُهُ مَشْرُوعًا.

(٣) شَرَحْتُ الْكَلِمَةَ فِي الْحَاشِيَةِ ٤ مِنْ الصَّفْحَةِ ٨٧.

بَانَ عَنْهُمْ تَفْضِيلُهَا، عَلَى مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي الْخَلِيقَةِ^(١)، وَلَا مَالُوا إِلَى سِوَاهَا؛ بَلْ صَارَتْ تِلْكَ الصِّفَاتُ الْمُسْتَجَادَةُ عِنْدَ النَّاسِ مَهْجُورَةٌ عِنْدَهُمْ، وَسَاقِطَةٌ لَدَيْهِمْ، إِلَى أَنْ فَارَقُوا الدُّنْيَا وَانْقَضَتْ أَعْمَارُهُمْ، حَنِينًا مِنْهُمْ إِلَى مَنْ فَقَدُوهُ، وَأَلْفَةً لِمَنْ صَحِبُوهُ. وَمَا أَقُولُ إِلَّا ذَلِكَ كَانَ تَصْنَعًا، لَكِنْ طَبْعًا حَقِيقِيًّا، وَاخْتِيَارًا لَا دَخَلَ^(٢) فِيهِ، وَلَا يَرَوْنَ سِوَاهُ، وَلَا يَقُولُونَ فِي طَيِّ عَقْدِهِمْ بغيره.

وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ فِي جَيِّدِ حَبِيبِهِ بَعْضُ الْوَقْصِ^(٣)، فَمَا اسْتَحْسَنَ أَغْيَدَ^(٤) وَلَا غَيْدَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ وَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ أَوَّلَ عِلَاقَتِهِ بِجَارِيَةٍ مَائِلَةً إِلَى الْقَصْرِ، فَمَا أَحَبَّ طَوِيلَةً بَعْدَ هَذَا؛ وَأَعْرِفُ أَيْضًا مَنْ هَوِيَ جَارِيَةً فِي فَمِهَا قُوَّةٌ^(٥) لَطِيفٌ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَقَدَّرُ كُلُّ فَمٍ صَغِيرٍ، وَيَذُمَّهُ وَيَكْرَهُهُ الْكَرَاهِيَّةُ الصَّحِيحَةُ. وَمَا أَصِفُ عَنْ مَقْصُوبِي الْحُطُوظِ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، لَكِنْ عَنْ أَوْفَرِ النَّاسِ قِسْطًا فِي الْإِدْرَاكِ، وَأَحْقَهُمْ بِاسْمِ الْفَهْمِ وَالِدَّرَايَةِ.

وَعَنِّي أَخْبَرُكَ أَنِّي أَحْبَبْتُ فِي صِبَايَ جَارِيَةً لِي شَقْرَاءَ الشَّعْرِ، فَمَا اسْتَحْسَنْتُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ سُودَاءَ الشَّعْرِ، وَلَوْ أَنَّهُ^(٦) عَلَى

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «الْحَقِيقَةُ». وَاقْتَرَحَ الْأُسْتَاذُ شَاكِرُ قِرَاءَتِهَا «الْخِلْقَةُ».

(٢) لَا دَخَلَ فِيهِ: لَا عَيْبَ وَلَا رِيْبَةَ. وَجَاءَ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «لَا دَاخِلَةً فِيهِ».

(٣) الْوَقْصُ وَالْوَقْصُ: عَيْبٌ وَقَصْرٌ فِي الْعُنُقِ.

(٤) الْأَغْيَدُ: اللَّبَنُ النَّاعِمُ، وَمَوْثَنُهُ غَيْدَاءٌ.

(٥) الْقُوَّةُ: اتِّسَاعُ الْفَمِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ هَذِهِ الصِّفَةُ دُعِيَ أَفْوَهُ، وَمَوْثَنُهُ: فَوْهَاءٌ.

(الْوَسِيطُ/فَوْه).

(٦) وَلَوْ أَنَّهُ: هَكَذَا وَرَدَ فِي جَمِيعِ الطَّبَعَاتِ، بِعَوْدَةِ الضَّمِيرِ (الْهَاءِ) عَلَى الشَّعْرِ،

وَإِنْ كُنَّا نَفْضِلُ أَنْ نَقْرَأَ: «لَوْ أَنَّهَا» بِعَوْدَةِ الضَّمِيرِ عَلَى الْجَارِيَةِ سُودَاءَ

الشَّعْرِ...؟.

الشَّمْسِ أو على صورة الحُسْنِ نفسه، وإِنِّي لأَجِدُ هذا في أَصْل تركيبي من ذلك الوَقْتِ، لا تواتيني ^(١) نَفْسِي على سِوَاهُ، ولا تُحِبُّ غَيْرَهُ البَتَّةَ، وهذا العَارِضُ بَعِينُهُ عَرَضُ أَبِي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى، إِلَى أَنْ وَاثَاهُ أَجَلُهُ.

وَأَمَّا جَمَاعَةُ خُلَفَاءِ بَنِي مَرْوَانَ ^(٢) (رَحِمَهُمُ اللَّهُ) وَلَا سِيَّمَا وَلَدُ النَّاصِرِ ^(٣) مِنْهُمْ، فَكُلُّهُمْ مَجْبُولُونَ عَلَى تَفْضِيلِ الشُّقْرَةِ، لَا يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ مِنْهُمْ مُخْتَلِفٌ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ وَرَأَيْنَا مَنْ رَأَاهُمْ مِنْ لَدُنْ ^(٤) دَوْلَةِ النَّاصِرِ إِلَى الْآنِ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا أَشَقَرُ، نَزَاعًا إِلَى أُمَمَاتِهِمْ، حَتَّى قَدْ صَارَ ذَلِكَ فِيهِمْ خِلْقَةً، حَاشَا سَلِيمَانَ الظَّافِرَ ^(٥) (رَحِمَهُ اللَّهُ)، فَإِنِّي رَأَيْتُهُ أَسْوَدَ اللَّمَّةِ وَاللَّحْيَةِ. وَأَمَّا النَّاصِرُ وَالْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ ^(٦) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)، فَحَدَّثَنِي الْوَزِيرُ أَبِي (رَحِمَهُ اللَّهُ) ^(٧) وَغَيْرُهُ،

(١) المؤاتاة: الموافقة والتلبية.

(٢) خلفاء بني مروان: الفرع المرواني من بني أمية، وهم الذين انتقلت خلافتهم إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وقد سبق التعريف بهم في إحدى حواشي الباب الخامس - ص ١٠٧ الحاشية (٤).

(٣) الناصر: سبقت ترجمته - ص ٦٧ الحاشية (٣).

(٤) قرأها المستشرق برشيه: «من أول». وَلَدُنْ: ظرف زمني ومكاني بمعنى (عِنْدَ).

(٥) سليمان الظافر، سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، الأموي، أبو أيوب، من ملوك الدولة الأموية في الأندلس، بويع بعد مقتل عمه هشام بن سليمان (سنة ٣٩٩هـ)، وتلقب بالمستعين بالله، ودخل قرطبة (سنة ٤٠٠هـ)، فتلقب فيها بالظافر بحول الله، وقوي ملكه. قُتِلَ بِيَدِ أَحَدٍ وَلَاتِهِ (سنة ٤٠٧هـ). وكان أديباً شاعراً. الأعلام: مج ٨/ ص ١٢٣.

(٦) الحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ: سبقت ترجمته في الباب الأول - ص ٦٧ الحاشية (٢).

(٧) أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب، أبو عمر الوزير، والد الفقيه أبي محمد =

أَنَّهُمَا كَانَا أَشَقَرَيْنِ أَشْهَلَيْنِ^(١)، وكذلك هشامُ المؤيَّد^(٢) ومُحمَّدُ المَهْدِي^(٣) وعبدُ الرَّحْمَنِ المُرْتَضَى^(٤) (رَحِمَهُمُ اللَّهُ)، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُمْ مَرَارًا، وَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ، فَرَأَيْتُهُمْ شَفْرًا شُهْلًا. وَهَكَذَا أَوْلَادُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ وَجَمِيعُ أَقَارِبِهِمْ؛ فَلَا أَدْرِي أَذَلِكَ اسْتِحْسَانٌ مُرَكَّبٌ فِي جَمِيعِهِمْ، أَمْ لِرَوَايَةِ كَانَتْ عِنْدَ أَسْلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ، فَجَرَوْا عَلَيْهَا؟ وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي شِعْرِ أَبِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِالطَّلِيقِ^(٥)، وَكَانَ أَشْعَرَ أَهْلِ

= صاحب «طوق الحمامة»، كان وزيراً في الدولة العامرية، ومن أهل العلم والأدب والخير والبلاغة. توفي حوالي (سنة ٤٠٠هـ). «جذوة المقتبس» للحميدي: القسم الأول/ص ١٩٩.

(١) الأشهل: ما اختلط أحد لونه بالآخر، على أن تغلب الحمرة على الهيئة.

(٢) هشام (المؤيد): سبقت ترجمته في الباب الأول - ص ٦٧ الحاشية (٣).

(٣) محمد المَهْدِي: محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي، أبو الوليد، أمير من بيت الملك بالأندلس. ولد (عام ٣٦٦هـ). خرج على «المؤيد بالله» الأموي بقرطبة سنة ٣٩٩هـ، وبايعه الناس فتلقب بالمهدي بالله، واستقر له الأمر إلى أن انتفض عليه سليمان بن الحكم، لكنّه قاتله وجدد البيعة لنفسه، ثم سقط ملكه مع تجديد البيعة للمؤيد بالله الذي أمر بقتله (سنة ٤٠٠هـ) وانقرض عقبه. تنظر تفاصيل ولايته في «جذوة المقتبس»: ١/ص ٤٧. وترجمته في أعلام الزركلي: مج ٧/ص ١٣٢.

(٤) عبد الرحمن المرتضى: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي، أمير أندلسي ولد (عام ٣٦٨هـ) وبويع بجيآن (سنة ٤٠٧هـ) ولُقِّبَ بالمرتضى. كان - على ما ذكر ابن حزم - رجلاً صالحاً متقشفاً مائلاً إلى الفقه. قُتِلَ غِيلَةً (سنة ٤٠٨هـ). الأعلام: مج ٨/ص ٣٢٦.

(٥) مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، أبو عبد الملك، الملقب بالطَّلِيق: من أمراء بني أمية بالأندلس، سجن في أيام المنصور محمد بن أبي عامر، وهو في السادسة عشرة من عمره لقتله أباه (عبد الرحمن)، ومكث سجيناً ست عشرة سنة، وعاش بعد إطلاقه ست =

الأندلس في زمانهم^(١)، وأكثرَ تَعَزُّلِهِ بالشُّقْرِ، وقد رَأَيْتُهُ وجالَسْتُهُ.
وَلَيْسَ الْعَجَبُ فِيمَنْ أَحَبَّ قَبِيحًا، ثُمَّ لَمْ يَصْحَبْهُ ذَلِكَ فِي
سِوَاهُ، فَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا فِي مَنْ طُبِعَ مُذَّكَانَ عَلَى
تَفْضِيلِ الْأَدْنَى، وَلَكِنْ فِي مَنْ كَانَ يَنْظُرُ بَعِينَ الْحَقِيقَةِ، ثُمَّ
غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَى عَارِضٌ بَعْدَ طَوْلِ بَقَائِهِ فِي الْجَمَامِ^(٢)، فَأَحَالَهُ
عَمَّا عَهْدَتُهُ نَفْسُهُ حَوَالَةَ^(٣) صَارَتْ لَهُ طَبْعًا، وَذَهَبَ طَبْعُهُ الْأَوَّلُ
وَهُوَ يَعْرِفُ فَضْلَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلًا، فَإِذَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ
وَجَدَهَا تَأْبَى إِلَّا الْأَدْنَى. فَأَعْجَبَ لِهَذَا التَّغْلِبِ الشَّدِيدِ وَالتَّسَلُّطِ
الْعَظِيمِ. وَهُوَ أَصْدَقُ فِي الْمَحَبَّةِ حَقًّا مِمَّنْ يَتَحَلَّى بِشِيمِ قَوْمٍ
لَيْسَ مِنْهُمْ^(٤)، وَيَدَّعِي غَرِيزَةً لَا تَقْبَلُهُ^(٥)، فَيَزَعُمُ أَنَّهُ يَتَخَيَّرُ مَنْ
يُحِبُّ. أَمَّا لَوْ شَغَلَ الْمُحِبُّ بِصِيرَتِهِ، وَأَطَاعَ فِكْرَتَهُ^(٦)،

= عشرة سنة! كان أديباً شاعراً مكثراً، ونظم أكثر شعره في السجن، وعرف
بالطليق بعد خروجه منه. توفي حوالي (سنة ٤٠٠هـ) وقصته مفصلة في
القسم الثاني من «جذوة المقتبس»: ص ٥٤٦. وترجمته في الأعلام:
مج ٧/ص ٢٠٨. وقد ورد اسمه في ط. د. عباس خطأ حيث جاء:
«وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن...».
(ص ١٣١)، ولا أدري هل هو خطأ في أصل المخطوط أم خطأ في
الطبعة نفسها؟

- (١) أو: «في زمانه».
(٢) الجَمَام: الراحة، وقرأها بعضهم: «الجماعة». التونسية: (ص ٦٣).
(٣) الحَوَالَة: التغير والتحويل.
(٤) ورد في ط. التونسية: «وهو أصدق المحبة حقاً، لا من يتحلَّى بشيم قوم
ليس منهم، ويدَّعي غريزة لا تقبله» (ص ٦٣).
(٥) وفي بعض الطبعات: «لا تقابله».
(٦) أطاح فكرته: أعملها حتى استهلكها.

وَأَجْحَفَ بِتَمْيِيزِهِ، لِحَالِ بَيْنُهُ وَبَيْنَ التَّخِيرِ^(١) والارْتِيَادِ. وفي ذلك أقولُ شعراً منه :

[من البسيط]

مِنْهُمْ فَتَى كَانَ فِي مَحْبُوبِهِ وَقْصٌ
كَأَنَّمَا الْغَيْدُ فِي عَيْنِيهِ جَنَّانٌ^(٢)
وَكَانَ مُنْبَسِطاً فِي فَضْلِ خَبَرْتِهِ
بِحُجَّةٍ حَقَّتْهَا فِي الْقَوْلِ تَبْيَانٌ
إِنَّ الْمَهَا وَبِهَا الْأَمْثَالُ سَائِرَةٌ
لَا يَنْكِرُ الْحُسْنَ فِيهَا الدَّهْرُ إِنْسَانُ
وَقْصٌ فَلَيْسَ بِهَا عَنْقَاءٌ وَاحِدَةٌ
وَهَلْ تُزَانُ بِطُولِ الْجَيِّدِ بُعْرَانُ
وَأَخَرٌ كَانَ فِي مَحْبُوبِهِ قَوَّةٌ
يَقُولُ حَسْبِي فِي الْأَفْوَهِ غِزْلَانُ
وَنَالْتُ كَانَ فِي مَحْبُوبِهِ قِصْرٌ
يَقُولُ إِنَّ ذَوَاتِ الطُّوْلِ غِيْلَانُ
وَأَقُولُ أَيْضاً :

[من الطويل]

يَعِيبُونَهَا عِنْدِي بِشُقْرَةٍ شَعْرَهَا
فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الَّذِي زَانَهَا عِنْدِي

(١) وقرئت في ط . التونسية : «التخيل» ، (ص ٦٣) .

(٢) الغَيْدُ (بكسر الغين) جمع غادة : المرأة الجميلة الناعمة اللينة . وَالْغَيْدُ (بفتح الغين والياء) الثَّيِّبُ والتمايل بنعومة . . وَالْجَنَّانُ : ج : جَانٌّ - فَإِذَا قُصِدَ (الغَيْدُ) بالكسر فمعنى البيت : كأنما الجوّاري الجميلات تتمايل وتنثني أمامه كما لو كنَّ جَانًّا وشياطين لشدة فتنتهنَّ وسحرهنَّ . . انظر لسان العرب/ جنن .

يَعِيبُونَ لَوْنَ الثُّورِ^(١) وَالتَّبَرِ ضِلَّةً
لِرَأْيِ جَهْلٍ فِي الْغَوَايَةِ مُمْتَدَّةً
وَهَلْ عَابَ لَوْنَ النَّرْجِسِ الْغَضَّ عَائِبُ
وَلَوْنَ النُّجُومِ الزَّاهِرَاتِ عَلَى الْبُعْدِ
وَأَبْعَدُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ
مُفْضِلُ حِزْمِ فَاحِمِ اللَّوْنِ مُسْوَدُّ
بِهِ وَصِفَتْ أَلْوَانُ أَهْلِ جَهَنَّمَ
وَلِبَسَةُ بَاكِ مُثْكَلِ الْأَهْلِ مُحْتَدَّةٌ
وَمُذْ لَاحَتِ الرَّايَاتُ سُوداً^(٢) تَيَقَّنْتُ
نَفُوسَ الْوَرَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الرُّشْدِ

(١) في ط . التونسية : « الثُّور » وهو الزَّهْر الأبيض ، واحدته نَوْرَةٌ .

(٢) الرايات السود: كناية عن ثورة العباسيين على الأمويين ، ويرى د . عباس في البيت دليلاً على هوى ابن حزم الأموي ، وكراهيته للعباسيين . (تنظر رسائل ابن حزم بتحقيق د . عباس ١/ ١٣٣) .

٨

باب التعريض بالقول (*)

ولا بُدَّ لِكُلِّ مطلوبٍ من مَدْخَلٍ إِلَيْهِ، وَسَبَبٍ يَتَوَصَّلُ بِهِ نَحْوَهُ،
فَلَمْ يَنْفَرِدْ بِالِاخْتِرَاعِ دُونَ واسِطَةٍ إِلَّا الْعَلِيمُ الْأَوَّلُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

فَأَوَّلُ مَا يَسْتَعْمَلُ طَلَّابُ الْوَصْلِ وَأَهْلُ الْمَحَبَّةِ فِي كَشْفِ مَا
يَجِدُونَهُ إِلَى أَحَبَّتِهِمْ: التَّعْرِيزُ بِالْقَوْلِ، إِمَّا بِإِنْشَادِ شَعْرٍ، أَوْ بِإِرْسَالِ
مَثَلٍ، أَوْ تَعْمِيَةِ بَيْتٍ، أَوْ طَرَحِ لُغْزٍ، أَوْ تَسْلِيْطِ كَلَامٍ.

وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ إِدْرَاكِهِمْ، وَعَلَى حَسَبِ مَا
يَرَوْنَهُ مِنْ أَحَبَّتِهِمْ مِنْ نِفَارٍ أَوْ أُنْسٍ أَوْ فِطْنَةٍ أَوْ بَلَادَةٍ. وَإِنِّي لِأَعْرِفُ
مَنْ ابْتَدَأَ كَشَفَ مَحَبَّتِهِ إِلَى مَنْ كَانَ يُحِبُّ، بِأَبْيَاتٍ قُلَّتْهَا. فَهَذَا
وَشِبْهُهُ يَبْتَدِئُ بِهِ الطَّالِبُ لِلْمَوَدَّةِ، فَإِنْ رَأَى أُنْسًا وَتَسْهِيلاً زَادَ، وَإِنْ
يُعَايِنُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فِي حِينِ إِنْشَادِهِ لَشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَا، أَوْ
إِيرَادِهِ لِبَعْضِ الْمَعَانِي الَّتِي حَدَدْنَا، فَإِنَّ انْتِظَارَهُ الْجَوَابَ ^(١)، إِمَّا بِلَفْظٍ
أَوْ بِهَيْئَةِ الْوَجْهِ وَالْحَرَكَاتِ، لَمَْوْقِفٍ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْيَأْسِ هَائِلٍ، وَإِنْ
كَانَ حِينًا قَصِيْرًا، لِأَنَّهُ ^(٢) إِشْرَافٌ عَلَى بُلُوغِ الْأَمَلِ أَوْ انْقِطَاعِهِ.

وَمِنْ التَّعْرِيزِ بِالْقَوْلِ جِنْسٌ ثَانٍ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْإِتِّفَاقِ
وَمَعْرِفَةِ الْمَحَبَّةِ مِنَ الْمَحْبُوبِ، فَحِينَئِذٍ يَقَعُ التَّشْكِي، وَعَقْدُ الْمَوَاعِيدِ

(*) التعريض هنا: الكناية والتورية.

(١) ورد في ط التونسية: «فانتظاره الجواب» (ص ٦٤).

(٢) وفي التونسية: «ولكنه إشراف».

بالتَّغْيِيرِ^(١)، وإِحْكَامُ المَوَدَّاتِ بالتَّعْرِضِ، وبِكَلَامٍ يَظْهَرُ لِسَامِعِهِ مِنْهُ
مَعْنَى غَيْرُ مَا يَذْهَبَانِ إِلَيْهِ، فَيَجِيبُ السَّامِعُ عَنْهُ بِجَوَابٍ غَيْرِ مَا يَتَأَدَّى
إِلَى الْمَقْصُودِ بِالْكَلَامِ، عَلَى حَسَبِ مَا يَتَأَدَّى إِلَى سَمْعِهِ وَيَسْبِقُ إِلَى
وَهْمِهِ، وَقَدْ فَهِمَ كُلُّ مَنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، وَأَجَابَهُ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ
غَيْرُهُمَا، إِلَّا مَنْ أُيِّدَ بِحِسِّ نَافِذٍ، وَأُعِينَ بِذِكَاةٍ، وَأُمِدَّ بِتَجْرِبَةٍ، وَلَا
سِيَّماً إِنْ أَحْسَنَ مِنْ مَعَانِيهِمَا بِشَيْءٍ قَلَّمَا يَغِيبُ عَنِ الْمُتَوَسِّمِ^(٢)
الْمُجِيدِ؛ فَهَذَا لَكَ لَا خَفَاءَ عَلَيْهِ فِيمَا يُرِيدَانِ.

وَأَنَا أَعْرِفُ فُتًى وَجَارِيَةً كَانَا يَتَحَابَّانِ؛ فَأَرَادَهَا فِي بَعْضِ وَصْلِهَا
عَلَى بَعْضِ مَا لَا يَجِلُّ، فَقَالَتْ: «وَاللَّهِ لَأَشْكُونُكَ فِي الْمَلَأِ عِلَانِيَةً،
وَلَأَفْضَحَنَّكَ فُضِيحَةً مَسْتُورَةً». فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامِ حَضَرَتِ الْجَارِيَةُ
مَجْلِسَ بَعْضِ أَكْبَرِ الْمُلُوكِ، وَأَركَانِ الدَّوْلَةِ، وَأَجَلَّ رِجَالِ الْخِلَافَةِ،
وَفِيهِ مِمَّنْ يُتَوَقَّى أَمْرُهُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخَدَمِ، عَدَدٌ كَثِيرٌ؛ وَفِي جُمْلَةِ
الْحَاضِرِينَ ذَلِكَ الْفُتَى؛ لِأَنَّهُ كَانَ بِسَبَبِ^(٣) مِنَ الرَّئِيسِ. وَفِي
الْمَجْلِسِ مُعْنِيَاتٌ غَيْرُهَا؛ فَلَمَّا انْتَهَى الْغِنَاءُ إِلَيْهَا سَوَتْ عُوْدَهَا،
وَأَنْدَفَعَتْ تُغْنِي بِأَبْيَاتٍ قَدِيمَةٍ وَهِيَ:

[من الوافر]

غَزَالٌ قَدْ حَكَى بَذَرَ التَّمَامِ
كَشْمَسٍ قَدْ تَجَلَّتْ مِنْ غَمَامِ

(١) ورد في ط. التونسية: «وعقد المواعيد، والتغريض» (ص ٦٤). وفي سواها من
الطبعات: «والتقرير» و«التهديد». وعَرَّزَ به تغريراً: عَرَّضَهُ لِلْهَلَاكِ وَالسُّوءِ.
واقترح الأستاذ شاكِر قراءتها: «بالتَّوْرِيَةِ».

(٢) الْمُتَوَسِّمُ: الْمُتَقَطِّنُ الْمُتَنَبِّهُ.

(٣) السَّبَبُ: الْقِرَابَةُ وَالصَّلَةُ.

سَبَىٰ قَلْبِي بِالْحَاظِ مِرَاضٍ
 وَقَدْ الْغُضْنِ فِي حُسْنِ الْقَوَامِ
 خَضَعْتُ خُضُوعَ صَبٍّ مُسْتَكِينٍ
 لَهُ وَذَلَلْتُ ذِلَّةَ مُسْتَهَامٍ
 فَصَلَّنِي يَا فَدَيْتُكَ فِي حَلَالٍ
 فَمَا أَهْوَىٰ وَصَالًا فِي حَرَامٍ^(١)
 وَعَلِمْتُ أَنَا هَذَا الْأَمْرَ فَقُلْتُ:

[من الوافر]

عِتَابٌ وَاقِعٌ وَشَكَاةٌ ظَلَمَ
 أَتَتْ مِنْ ظَالِمٍ حَكَمٌ وَخَضَمِ
 تَشَكَّتْ مَا بِهِالَمْ يَدْرِ خَلْقٌ
 سِوَى الْمَشْكُومِ مَا كَانَتْ تُسَمِّي

(١) لم أجد هذه الأبيات فيما راجعت من المصادر القديمة ولم أعرف قائلها.

٩

بابُ الإشارة بالعين

ثُمَّ يَتَلَوُ التَّعْرِيزَ بِالْقَوْلِ - إِذَا وَقَعَ الْقَبُولُ وَالْمُوَافَقَةُ - الْإِشَارَةُ
بِلَحْظِ الْعَيْنِ، وَإِنَّهُ لَيَقُومُ فِي هَذَا الْمَعْنَى الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، وَيَبْلُغُ
الْمَبْلَغَ الْعَجِيبَ، وَيُقَطِّعُ بِهِ وَيَتَوَاصِلُ، وَيُوْعِدُ وَيُهَدِّدُ، وَيُقَبِّضُ
وَيُبْسِطُ، وَيُؤَمِّرُ وَيُنْهِي، وَتُضْرَبُ بِهِ الْوَعْدُ، وَيُنْبَهُ عَلَى الرَّقِيبِ،
وَيُضْحَكُ وَيُحْزَنُ، وَيَسْأَلُ وَيُجَابُ، وَيُمْنَعُ وَيُعْطَى.

ولكل واحد من هذه المعاني ضَرْبٌ مِنْ هَيْئَةِ اللَّحْظِ لَا يُوقَفُ
عَلَى تَحْدِيدِهِ إِلَّا بِالرُّؤْيَةِ، وَلَا يُمْكِنُ تَصْوِيرُهُ وَلَا وَصْفُهُ إِلَّا بِالْأَقْلِّ
مِنْهُ. وَأَنَا وَاصِفٌ مَا تيسَّرَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي:

فَالْإِشَارَةُ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ الْوَاحِدَةِ: نَهْيٌ عَنِ الْأَمْرِ؛ وَتَفْتِيرُهَا:
إِعْلَامٌ بِالْقَبُولِ؛ وَإِدَامَةٌ نَظَرِهَا: دَلِيلٌ عَلَى التَّوَجُّعِ وَالْأَسْفِ؛ وَكَسْرُ
نَظَرِهَا: آيَةُ الْفَرَحِ؛ وَالْإِشَارَةُ إِلَى إِطْبَاقِهَا: دَلِيلٌ عَلَى التَّهْدِيدِ؛
وَقَلْبُ الْحَدَقَةِ إِلَى جِهَةٍ مَا تُنَمَّ صَرْفُهَا بِسُرْعَةٍ: تَنْبِيهُ عَلَى مُشَارِ إِلَيْهِ،
وَالْإِشَارَةُ الْخَفِيَّةُ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنَيْنِ كِلْتَاهِمَا^(١): سُؤَالٌ، وَقَلْبُ الْحَدَقَةِ
مِنْ وَسَطِ الْعَيْنِ إِلَى الْمُوقِ بِسُرْعَةٍ: شَاهِدُ الْمَنْعِ؛ وَتَرْعِيدُ الْحَدَقَتَيْنِ
مِنْ وَسَطِ الْعَيْنَيْنِ: نَهْيٌ عَامٌّ؛ وَسَائِرُ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْمُشَاهَدَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَيْنَ تَنْوُبُ عَنِ الرُّسُلِ، وَيُدْرِكُ بِهَا الْمُرَادَ؛

(١) ورد في بعض الطبقات: «كلتاها».

وَالْحَوَاسُ الْأَرْبَعُ^(١) أَبْوَابٌ إِلَى الْقَلْبِ وَمَنَافِذُ نَحْوِ النَّفْسِ؛ وَالْعَيْنُ أْبْلَغُهَا وَأَصَحُّهَا دَلَالَةً وَأَوْفَاهَا^(٢) عَمَلًا. وَهِيَ رَائِدُ النَّفْسِ الصَّادِقُ، وَدَلِيلُهَا الْهَادِي، وَمَرَاتِبُهَا الْمَجْلُوءَةُ الَّتِي بِهَا تَقِفُ عَلَى الْحَقَائِقِ، وَتُمَيِّزُ الصِّفَاتِ، وَتَفْهَمُ الْمَحْسُوسَاتِ، وَقَدْ قِيلَ: «لَيْسَ الْمُخْبِرُ كَالْمُعَايِنِ»^(٣)، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَفْلِيمُونُ^(٤) صَاحِبُ الْفِرَاسَةِ، وَجَعَلَهَا مُعْتَمِدَةً فِي الْحُكْمِ.

وَبِحَسْبِكَ مِنْ قُوَّةِ إِدْرَاكِ الْعَيْنِ أَنَّهَا إِذَا لَاقَتْ شُعَاعَهَا شَيْئًا مَا^(٥) مَجْلُوءًا صَافِيًا، إِمَّا حَدِيدًا مَصْقُولًا^(٦)، أَوْ زُجَاجًا أَوْ مَاءً، أَوْ بَعْضَ الْحِجَارَةِ الصَّافِيَةِ، أَوْ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْمَجْلُوءَةِ الْبَرَّاقَةِ ذَوَاتِ الرَّفِيفِ وَالْبَصِيصِ وَاللِّمَعَانِ، يَتَّصِلُ أَقْصَى حُدُودِهِ بِجِسْمٍ كَثِيفٍ سَاتِرٍ مَنَاعٍ

(١) الحواس الأربع: في تقدير ابن حزم، الذوق واللمس، والسمع، والشم، وقبلها ذكر العين دليلاً على حاسة البصر. ويأتي تفصيله لذلك في الصفحة التالية.

(٢) في بعض الطبقات: «وأوفاه».

(٣) ليس المخبر كالمعاين: من أمثال العرب، وللرسول ﷺ حديث قريب منه: «ليس الخبر كالمعاينة». وورد المثل في «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٧ - ج ٢/ص ٣٠٣. وراجع: «موسوعة أمثال العرب» ليعقوب: ج ٥/ص ٢٣١ - ٢٤٤ على التوالي تجد بقية مصادره.

(٤) أفليمون: الالاذقي اليوناني، يذكره العرب باسم «أفليمون» و«فيليمون» و«فليمون»، وهو صاحب علم الفراسة، عاش في القرن الثاني بعد الميلاد. وله كتاب «الفراسة». وردت ترجمته في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطي - اختصره الزوزني باسم «تأريخ الحكماء» - مكتبة المثنى - بغداد - دون تاريخ - ص ٩٠.

(٥) في معظم الطبقات: «لاقي شعاعها شعاعاً».

(٦) في ط. التونسية وسواها: «مفصولاً». (ص ٦٧).

كدير، انعكس شعاعها، فأدرك الناظر نفسه ومازها^(١) عياناً. وهو الذي ترى في المرأة؛ فأنت حينئذ كالتاظر إليك بعين غيرك. ودليل عيان^(٢) على هذا، أنك تأخذ مَرَاتين كبيرتين فتمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك، والثانية بيسارك قبالة وجهك، ثم تزويها قليلاً حتى يلتقيا بالمُقَابلة، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك؛ وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرأة التي خلفك، إذ لم تجد^(٣) منفذاً في التي بين يديك؛ ولما لم يجد^(٤) وراء هذه الثانية منفذاً، انصرف إلى ما قابله من الجسم، وإن كان صالح غلام أبي إسحاق النظام^(٥) خالف في الإدراك، فهو قول ساقط لم يوافق عليه أحد.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكاناً، لأنها نورية لا تدرك الألوان بسواها، ولا شيء أبعد مرئى ولا أنأى غاية منها، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرأة، فهي تدركها وتصل إليها بالطفر^(٦)، لا على قطع الأماكن والحلول في المواضع

(١) ماز الشيء: مَيَّره.

(٢) في ط. التونسية: «ودليل عياني» (ص ٦٧). ويمكن أن نقرأ: «ودليل عيان».

(٣) «تجد [العين] منفذاً...».

(٤) «يجد [الضوء] وراء...».

(٥) أبو إسحاق النظام: سبقت ترجمته في الباب الأول صفحة ٧٧ الحاشية (٤).

أما غلامه صالح فقد ذُكر في بعض الأخبار عَرَضاً دون ترجمة وافية.

(٦) ورد في ط. التونسية: «بالنظر» (ص ٦٨). والطفر: هو: القفز من فوق

الشيء وتخطيه إلى ما وراءه. وللدكتور عباس مناقشة متأنية لهذه القراءة.

(ينظر: رسائل ابن حزم ١/ ١٣٨).

وَتَنْقُلِ الْحَرَكَاتِ . وَلَيْسَ هَذَا لشيءٍ مِنَ الْحَوَاسِّ مِثْلِ الذَّوْقِ
وَاللَّمْسِ ، وَلَا يُدْرَكَانِ إِلَّا بِالْمُجَاوَرَةِ ، وَالسَّمْعِ وَالشَّمِّ ، لَا يُدْرَكَانِ
إِلَّا مِنْ قَرِيبٍ ، وَدَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الطَّنْفِرِ ، أَنَّكَ تَرَى الْمُصَوِّتَ
قَبْلَ سَمَاعِ الصَّوْتِ ، وَإِنْ تَعَمَّدْتَ إدْرَاكَهُمَا مَعًا ، وَلَوْ كَانَ إدْرَاكُهُمَا
وَاحِدًا لَمَا تَقَدَّمَتِ الْعَيْنُ السَّمْعَ .

١٠

بابُ المراسلة

ثُمَّ يَتْلُو ذَلِكَ إِذَا امْتَزَجَا: المراسلةُ بالكُتْبِ. وللكتبِ آفاتٌ ^(١)،
ولقد رأيتُ أهلَ هذا الشأنِ يُبادرونَ لِقَطْعِ الكُتْبِ، ولِحَلِّهَا في الماءِ ^(٢)
وَلِمَحْوِ أثرِها ^(٣)، فَرُبَّ فضيحةٍ كانتْ بسببِ كتابٍ، وفي ذلك أقولُ:

[من الطويل]

عَزِيزٌ عَلَيَّ الْيَوْمَ قَطْعُ كِتَابِكُمْ
وَلَكِنَّهُ لَمْ يُلَفْ لِلوُدِّ قَاطِعٌ
فَأَثَرْتُ أَنْ يَبْقَى وَدَادٌ وَيَمَّحِي
مِدَادٌ فَإِنَّ الْفَرْعَ لِلأَصْلِ تَابِعٌ
فَكَمْ مِنْ كِتَابٍ فِيهِ مِيتَةٌ رَبِّهِ
وَلَمْ يَذَرِهِ إِذْ نَمَقَتْهُ الْأَصَابِعُ

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شَكْلُ الْكِتَابِ الْطِفَ الْأَشْكَالِ، وَجَنَسُهُ أَمْلَحُ
الْأَجْنَاسِ؛ وَلَعَمْرِي إِنَّ الْكِتَابَ لَلِلسَانِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، إِمَّا
لِحَصْرِ ^(٤) فِي الْإِنْسَانِ، وَإِمَّا لِحَيَاءٍ وَإِمَّا لَهَيْبَةٍ. نَعَمْ، حَتَّى إِنَّ

(١) قرئت في معظم الطبعات: «آيات».

(٢) في ط. التونسية: «وبحلها في الماء...» (ص ٦٩).

(٣) ورد في معظم الطبعات: «وبمحو أثرها». وأثبتنا: «لمحو...» طلباً لاستقامة المعنى.

(٤) حَصَرَ فَلَانٌ، حَصَرًا: ضَاقَ صَدْرُهُ. (الوسيط: حَصَرَ). ولعل المعنى المراد هنا أن الرسالة تُفَرِّجُ ضِيقَ المحبين عندما يعجزون عن التلاقي.

لوصول الكتاب إلى المحبوب، وعلم المُحِبُّ أَنَّهُ قد وقعَ بيده ورآه، لَلَّذَةِ يَجِدُهَا المُحِبُّ عَجِيبَةً تَقُومُ مقامَ الرؤية، وإنْ لِرَدِّ الجوابِ والنَّظَرِ إليه سروراً يَعْدِلُ اللقاءَ، ولهذا ما ترى العاشقُ يَضَعُ الكتابَ على عينيه وقلبه ويُعَانِقُهُ.

ولعهدي ببعض أهل المَحَبَّةِ، مِمَّنْ كَانَ يَتَحَرَّى^(١) ما يقولُ وَيُحَسِّنُ الوصفَ ويعبرُ عَمَّا في ضميره بلسانه، عبارةً جيدةً، ويُجيدُ النظرَ ويدققُ في الحقائق، لا يَدْعُ المراسلةَ وهو ممكنُ الوصلِ قريبُ الدَّارِ داني المَزارِ، ويحكي أَنَّها من وجوه اللذة.

ولقد أُخْبِرْتُ عَنْ بعضِ السَّقَّاطِ الوُضْعَاءِ، أَنَّهُ كَانَ يَضَعُ كتابَ محبوبه على إحليله، وإنْ هذا النوعُ مِنَ الاغْتِلَامِ قبيحٌ، وَضَرْبٌ مِنَ الشَّبَقِ فَاحِشٌ.

وَأَمَّا سَقْيُ الجَبْرِ بالدَّمْعِ، فأعرفُ مَنْ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيُقَارِضُهُ^(٢) محبوبه بِسَقْيِ الجَبْرِ بالرَّيْقِ، وفي ذلك أَقُولُ:

[من الطويل]

جوابُ أَتاني عَنْ كتابِ بعثته
فَسَكَّنَ مُهْتَاجاً وَهَيَّجَ ساكناً
سَقَيْتُ بِدَمْعِ العَيْنِ لَمَّا كَتَبْتُهُ
فَعَالَ مُحِبٌّ لَيْسَ فِي الْوُدِّ خَائِناً
فَمَا زَالَ مَاءُ العَيْنِ يَمْحُو سَطُورَهُ
فِيَا مَاءَ عَيْنِي قَدْ مَحَوْتَ المحاسنَا

(١) في بعض الطبعات: «يدري».

(٢) يَقَارِضُهُ: يجازيه ويبادلُه.

غدا بدموعي أول الخط بينا
وأضحى بدمعي آخر الخط بائنا

خبر

ولقد رأيتُ كتاباً لمُحِبِّ إلى محبوبه، وقد قَطَعَ في يده بسكين
له، فسالَ الدَّم، واستمدَّ منه، وكتبَ به الكتابَ أجمع. ولقد رأيتُ
الكتابَ بعد جُفوفِهِ فما شككتُ أَنَّهُ بصِغِ اللَّكِّ^(١).

(١) اللَّكُّ: صِغٌ أحمر، يستعمل في الجلود ودهان الخشب (الوسيط/لك).

١١

بابُ السَّفيرِ

وَيَقَعُ فِي الْحُبِّ بَعْدَ هَذَا، [و] بَعْدَ حُلُولِ الثَّقَةِ وَتَمَامِ
الاسْتِئْثَانِ، إِرْسَالُ السَّفِيرِ. وَيَجِبُ تَخْيِيرُهُ وَارْتِيادُهُ وَاسْتِجَادَتُهُ
وَاسْتِفْرَاهُهُ^(١). فَهُوَ دَلِيلُ عَقْلِ الْمَرْءِ، وَبَيِّدُهُ حَيَاتُهُ وَمَوْتُهُ، وَسَتْرُهُ
وَفَضِيحَتُهُ، بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى. فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ذَا هَيْئَةٍ، حَازِقًا
يَكْتَفِي بِالْإِشَارَةِ، وَيُقَرِّطُسُ^(٢) عَنِ الْغَائِبِ، وَيُحْسِنُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ،
وَيَضَعُ مِنْ عَقْلِهِ مَا أَغْفَلَهُ بَاعِثُهُ، وَيُؤَدِّي إِلَى الَّذِي أَرْسَلَهُ كُلَّ مَا
يَشَاهِدُ عَلَى وَجْهِهِ، كَاتِمًا لِلْأَسْرَارِ، حَافِظًا لِلْعَهْدِ، قَنُوعًا نَاصِحًا.
وَمَنْ تَعَرَّى^(٣) مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ، كَانَ ضَرَرُهُ عَلَى بَاعِثِهِ بِمَقْدَارِ مَا
نَقَصَهُ مِنْهَا. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا مِنْهُ:

[من الطويل]

رَسُولُكَ سَيْفٌ فِي يَمِينِكَ فَاسْتَجِدْ
خُسَامًا وَلَا تَضْرِبْ بِهِ قَبْلَ صَقْلِهِ
فَمَنْ يَكُ ذَا سَيْفٍ كَهَامٍ^(٤) فَضْرُهُ
يَعُودُ عَلَى الْمَعْنِيِّ مِنْهُ بِجَهْلِهِ

(١) اسْتَفْرَه: تَخَيَّرَ الْجِدِّ، وَاسْتَفْرَاهُ: اسْتَحْسَانُهُ. (الوسيط/فَرِه).

(٢) يَقَرِّطُسُ، هُنَا، بِمَعْنَى: يَعْبُرُ، مِنَ الْقَرَطَاسِ: صَحِيفَةٌ يَكْتُبُ عَلَيْهَا.

(٣) قَرَأَ مُحَقِّقُ الطَّبَعَةِ التُّونِسِيَّةِ: «وَمَنْ تَعَدَّى»، وَقَرَأَ سِوَاهُ: «وَمَنْ تَعُوزُهُ هَذِهِ

الصِّفَاتِ» وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

(٤) كَهَمَّ السَّيْفُ: كُلُّ وَلَمْ يَقْطَعْ. وَيُقَالُ: سَيْفٌ كَهَامٌ، وَلِسَانٌ كَهَامٌ. (الوسيط/كَهَم).

وأكثرُ ما يَسْتَعْمَلُ المحبُّون في إرسالِهِم إلى من يُحِبُّونَهُ :
 إمَّا خَامِلًا لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، وَلَا يُهْتَدَى لِلتَّحْفُظِ مِنْهُ ، لِصِبَاهُ أَوْ لِهَيْئَةِ
 رَثَةٍ أَوْ بَذَاذَةٍ ^(١) فِي طَلْعَتِهِ .
 وإمَّا جَلِيلًا لَا تَلَحُّقُهُ الظَّنُّ ^(٢) ، لئْسَكَ يُظْهَرُهُ ، أَوْ لِسِنَّ عَالِيَةٍ قَدْ
 بَلَغَهَا .

وما أَكْثَرَ هَذَا فِي النِّسَاءِ ، وَلَا سِيَّما ذَوَاتِ الْعَكَازِيزِ وَالسَّابِيحِ ،
 وَالتَّوْبِينِ الْأَحْمَرَيْنِ ^(٣) ؛ وَإِنِّي لَأَذْكُرُ بِقُرْطَبَةِ التَّحْذِيرِ لِلنِّسَاءِ
 الْمُحَدَّثَاتِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ حَيْثُمَا رَأَيْتُهَا .

أَوْ ذَوَاتِ صِنَاعَةٍ يُقَرَّبُ بِهَا مِنَ الْأَشْخَاصِ . فَمِنْ النِّسَاءِ :
 كَالطَّبِيبَةِ وَالْحَجَّامَةِ وَالسَّرَّاقَةِ ^(٤) وَالدَّلَّالَةِ وَالْمَاشِطَةِ وَالنَّائِثَةِ وَالْمُعْنِيَةِ
 وَالكَاهِنَةِ وَالْمُعَلِّمَةِ وَالْمُسْتَحْدَمَةَ ^(٥) وَالصَّنَّاعِ ^(٦) فِي الْمِغْزَلِ وَالنِّسِيجِ ،
 وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

أَوْ ذَا قَرَابَةٍ مِنَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ لَا يَشْخُ بِهَا عَلَيْهِ . فَكَمْ مَنِيْعٍ سُهِّلَ

(١) البَذَاذَةُ: سوء الحال وراثثة الهيئة . (الوسيط/بذ).

(٢) الظَّنُّ: جمع ظَنَّة، أي التهمة: أي لا تحيط به الشكوك.

(٣) لعله زِيٌّ بعض عجائز الأندلس في عصر ابن حزم.

(٤) الكلمة مختلَفٌ فيها، أوردها د. عباس «السَّرَّاقَةُ» ولم يجد لها معنًى بين

الحَرْف (ص ١٤٢). ولعل ابن حزم قصد المرأة السارقة فعلاً، أو التي تسترق

السمع أو النظر خَفِيَّةٌ؟؟ وورد في ط. التونسية: «السَّرَّاقَةُ» وَشَرَحَهَا بِالْمَرْأَةِ

التي تبيع أنواع الحشائش والأعشاب ليتداوى بها الناس. (ص ٧٢). وقرأها

بعضهم «السَّوَّاقَةُ» لعمَلِهَا فِي السُّوقِ [٩] (تنظر رسائل ابن حزم بتحقيق

عباس: ١/١٤٢، الحاشية الثالثة).

(٥) فِي بَعْضِ الطَّبِيعَاتِ: «الْمُسْتَحْفَةُ» وَ«الْمُسْتَحْفَةُ».

(٦) الصَّنَاع: الماهرة.

بهذه الأوصاف، وعسير يُسر، وبعيد قُرب، وجموح أنس^(١)! وكم داهية ذهت الحُجب المصونة، والأستار الكثيفة، والمقاصير المحروسة، والسدد المصبوطة، لأرباب هذه النعوت! ولولا أن أئبه عليها لذكرتها^(٢)، ولكن لقطع النظر^(٣) فيها وقلة الثقة بكل أحد. و«السعيد من وعظ بغيره»^(٤)، و«بالضد تتميز الأشياء»^(٥). أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره، ولا زال على الجميع ظل العافية.

(١) وقرأ محقق ط. التونسية: «سهل... ويسر... وقرب... وأنس» على البناء للمعلوم (ص ٧٢).

(٢) ورد في بعض الطبقات: «لما ذكرتها».

(٣) ورد في بعض الطبقات: «لقطع المضار».

(٤) «السعيد من وعظ بغيره»: حديث شريف ومثل، معناه أن السعيد من اعتبر بما لحق غيره من المكروه. ورد في «صحيح مسلم» - ج ٤ - ٤٦/ كتاب القدر - الحديث رقم ٢٦٤٥/٣ - ص ٢٠٣٧. ومنهم من يكمله بالقول: «والشقي من وعظ بنفسه»، ولعل هذه التكملة هي التي قصدها ابن حزم بقوله: «وبالضد تتميز الأشياء». وقيل إن المثل مأخوذ من قول الحارث بن كلدة:

إن السعيد له في غيره عظة وفي الحوادث تحكيم ومعتبر
ينظر المثل في «جمهرة أمثال العرب» للعسكري: ج ١/ ص ٥١٢، وفي عدة مصادر أخرى ذكرها يعقوب في «موسوعة أمثال العرب»: ج ٤/ ص ١٧٩.

(٥) «وبالضد تتميز الأشياء»: قول جرى مجرى المثل، مأخوذ من بيت للمتنبى، من قصيدته الهمزية، في مدح أبي علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب، ومطلعها:

أمن اذديارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء
والبيت هو:

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتبين الأشياء
«شرح الواحدي لديوان المتنبى» بعناية د. ياسين الأيوبي (بالاشتراك) - دار الراشد العربي - بيروت - ١٩٩٩ - ج ٢/ ص ٦٠٢.

خبر

وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَتْ الرَّسُولَ بَيْنَهُمَا، حَمَامَةٌ مُؤَدَّبَةٌ، وَيُعَقَّدُ
الْكِتَابُ فِي جَنَاحِهَا؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من الطويل]

تَخَيَّرَهَا نُوحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّهُ
لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نَحْوَهُ بِالْبَشَائِرِ
سَأَوْدَعُهَا كُتُبِي إِلَيْكَ فَهَآكَهَا
رَسَائِلَ تُهْدَى فِي قَوَادِمِ طَائِرِ

١٢

بابُ طَيِّ السَّرِّ

وَمِنْ بَعْضِ صِفَاتِ الْحَبِّ الْكِتْمَانُ بِاللِّسَانِ، وَجُحُودُ الْمُحِبِّ إِنْ سُئِلَ، وَالتَّصَنُّعُ بِإِظْهَارِ الصَّبْرِ، وَأَنْ يُرَى أَنَّهُ عِزَّاهُ^(١) خَلِيٌّ.

وَيَأْبَى السَّرُّ الدَّفِينَ^(٢)، وَنَارُ الْكَلْفِ الْمُتَأَجِّجَةُ فِي الضُّلُوعِ، إِلَّا ظُهُوراً فِي الْحَرَكَاتِ وَالْعَيْنِ، وَدَبِيباً كَدِيبِ النَّارِ فِي الْفَحْمِ، وَالْمَاءِ فِي يَبِيسِ الْمَدْرِ^(٣). وَقَدْ يُمَكِّنُ التَّمْوِيهَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى غَيْرِ ذِي الْحِسِّ اللَّطِيفِ، وَأَمَّا بَعْدَ اسْتِحْكَامِهِ فَمُحَالٌ.

وَرَبَّمَا يَكُونُ السَّبَبُ فِي الْكِتْمَانِ تَصَاوُنٌ^(٤) الْمُحِبِّ عَنْ أَنْ يَسِمَ نَفْسَهُ بِهَذِهِ السِّمَةِ عِنْدَ النَّاسِ، لِأَنَّهَا بَزَعِمُهُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْبَطَالَةِ، فَيَفِرُّ مِنْهَا وَيَتَفَادَى؛ وَمَا هَذَا الْوَجْهُ بِصَحِيحٍ^(٥)؛ فَبِحَسْبِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَعِفَّ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي يَأْتِيهَا بِاخْتِيَارِهِ، وَيُحَاسِبُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَأَمَّا اسْتِحْسَانُ الْحَسَنِ^(٦) وَتَمَكُّنُ الْحَبِّ فَطَبْعٌ لَا يُؤْمَرُ، وَلَا يُنْهَى عَنْهُ، إِذِ الْقُلُوبُ بِيَدِ مُقَلِّبِهَا وَلَا

(١) عِزَّاهُ: عَازَفَ عَنِ اللَّهْوِ وَالنِّسَاءِ (المحيط/عزه).

(٢) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «الدَّقِيقُ».

(٣) الْمَدْرُ: الطِّينُ (الوسيط/مدر).

(٤) تَصَاوُنٌ: تَكَلَّفَ صِيَانَةَ نَفْسِهِ مِنَ الْمَعَائِبِ وَنَحْوِهَا، وَوَقَّى نَفْسَهُ مِنْهَا.

(الوسيط/صان).

(٥) فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ: «وَمَا هَذَا وَجْهَ التَّصْحِيحِ».

(٦) وَتَقَرُّأُ: «الْحُسْنُ» كَمَا وَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: (ص ٧٣).

يَلْزَمُهُ غَيْرُ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّنَظَّرِ فِي فَرْقٍ مَا بَيْنَ الْخَطَا وَالصَّوَابِ، وَأَنْ
يَعْتَقِدَ الصَّحِيحَ بِالْيَقِينِ. وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ فِخْلَقُهُ، وَإِنَّمَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ
حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ الْمُكْتَسَبَةِ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الطويل]

يَلُومُ رَجَالٌ فِيكَ لَمْ يَعْرِفُوا الْهَوَى
وَسَيَّانٍ عِنْدِي فِيكَ لَاحٍ ^(١) وَسَاكِتٌ
يَقُولُونَ جَانِبَتِ التَّصَاوُنَ جُمْلَةً
وَأَنْتَ عَلِيمٌ ^(٢) بِالشَّرِيعَةِ قَانِتٌ ^(٣)
فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الرِّيَاءُ بِعَيْنِهِ
صُرَاحاً وَرَبِّي لِلْمُرَائِينَ مَاقِتٌ
مَتَى جَاءَ تَحْرِيمُ الْهَوَى عَنْ مُحَمَّدٍ
وَهَلْ مَنَعُهُ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ ثَابِتٌ؟!
إِذَا لَمْ أَوَاقِعْ مَحْرَماً أَتَّقِي بِهِ
مَجِيئِي يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْوَجْهَ بَاهِتٌ
فَلَسْتُ أَبَالِي فِي الْهَوَى قَوْلَ لَائِمٍ
سَوَاءً لَعْمَرِي جَاهِرٌ أَوْ مُخَافِتٌ
وَهَلْ يُلْزَمُ الْإِنْسَانُ إِلَّا اخْتِيَارُهُ
وَهَلْ بِخَبَايَا اللَّفْظِ يُؤْخَذُ صَامِتٌ

خبر

وَأَنِّي لَأَعْرِفُ بَعْضَ مَنْ امْتَحِنَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، فَسَكَنَ الْوَجْدُ

(١) لَاحٍ: لَائِمٌ.

(٢) قَرِئَتْ فِي بَعْضِ الطَّبْعَاتِ: «عَلَيْهِمْ».

(٣) قَانِتٌ: مُلْتَزِمٌ طَاعَةَ اللَّهِ.

بَيْنَ جَوَانِحِهِ، فَرَامَ جَحْدَهُ إِلَى أَنْ غُلِظَ الْأَمْرُ، وَعَرَفَ ذَلِكَ فِي شِمَائِلِهِ مَنْ تَعَرَّضَ لِلْمَعْرِفَةِ وَمَنْ لَمْ يَتَعَرَّضْ. وَكَانَ مَنْ عَرَّضَ ^(١) لَهُ بِشْيَاءَ نَجْهَهُ ^(٢) وَقَبَّحَهُ، إِلَى أَنْ كَانَ مَنْ أَرَادَ الْحُطُورَةَ لَدَيْهِ مِنْ إِخْوَانِهِ يُوْهِمُهُ تَصْدِيقَهُ فِي إِنْكَارِهِ، وَتَكْذِيبَ مَنْ ظَنَّ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ، فَسَرَّ بِهِذَا. وَلَعَهْدِي ^(٣) بِهِ يَوْمًا قَاعِدًا وَمَعَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ يُعَرِّضُ ^(٤) لَهُ بِمَا فِي ضَمِيرِهِ، وَهُوَ يَنْتَفِي غَايَةَ الْإِنْتِفَاءِ، إِذْ اجْتَاَزَ بِهِمَا الشَّخْصُ الَّذِي كَانَ يُتَّهَمُ بِعِلَاقَتِهِ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَحْبُوبِهِ حَتَّى اضْطَرَبَ وَفَارَقَ هَيْئَتَهُ الْأُولَى، وَاصْفَرَ لَوْنُهُ، وَتَفَاوَتْ مَعَانِي كَلَامِهِ بَعْدَ حُسْنِ تَثْقِيفٍ، فَقَطَعَ كَلَامَهُ الْمُتَكَلِّمُ مَعَهُ قَلْقًا ^(٥)، فَاِنْكَفَأَ وَاسْتَدْعَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِهِ. فَقِيلَ لَهُ: «مَا عَدَا عَمَّا بَدَأَ؟» ^(٦) فَقَالَ: «هُوَ مَا تَظُنُّونَ، عَذَرَ مَنْ عَذَرَ، وَعَذَلَ مَنْ عَذَلَ». فَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا، مِنْهُ:

[من البسيط]

مَا عَاشَ إِلَّا لِأَنَّ الْمَوْتَ يَرْحُمُهُ

مِمَّا يُرَى مِنْ تَبَارِيحِ الضَّنَى فِيهِ ^(٧)

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «عَرَّضَ»، وَعَرَّضَ لَهُ بِشْيَاءَ أَوْ بِقَوْلٍ: لَمْ يَبِينْهُ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهِ (الْوَسِيطُ / عَرْضُ).

(٢) نَجْهَهُ: رَدُّهُ أَفْبَحَ رَدًّا. (الْوَسِيطُ: نَجْهَ).

(٣) لَعَهْدِي، مِثْلُ لَعْمَرِي، وَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى: عَهْدَتِهِ.

(٤) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «يَعْرِضُ».

(٥) وَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ وَسِوَاهَا: «فَقَطَعَ كَلَامَهُ الْمُتَكَلِّمُ مَعَهُ. فَلَقَدْ اسْتَدْعَى مَا كَانَ فِيهِ...» (ص ٧٤).

(٦) قَوْلُ لَعْلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَهُ لِلزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَوْمَ الْجَمَلِ، يَرِيدُ: «مَا صَرَفَكَ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيْعَةِ... عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ، وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ؟» (مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ ج ٢/ ٢٩٦).

(٧) هَذَا الْبَيْتُ لَا يَمِثِلُ وَحْدَهُ فِكْرَةَ الْقِصَّةِ الَّتِي عَرَّضَهَا ابْنُ حَزْمٍ فِي الْخَبَرِ =

وأنا أقول:

[من الهزج]

دُمُوعُ الصَّبِّ تَنْسِفُكَ
وَسِثْرُ الصَّبِّ يَنْهَتِكَ
كَأَنَّ الْقَلْبَ إِذْ يَبْدُو
قَطَاةً ضَمَّهَا شَرَكُ
فِيَا أَصْحَابَنَا قُولُوا
فَإِنَّ الرَّأْيَ مُشْتَرَكُ
إِلَى كَمِّ ذَا أَكْثَامِهِ
وَمَالِي عَنْهُ مُتَّركُ!

وهذا إنَّما يَعْرِضُ عِنْدَ مُقَاوَمَةِ طَبْعِ الْكِتْمَانِ وَالتَّصَاوُنِ لَطَبْعِ الْمُحِبِّ وَغَلَبَتِهِ^(١)، فيكونُ صَاحِبُهُ مُتَخَيِّرًا بَيْنَ نَارَيْنِ مُخْرِقَتَيْنِ، وَرَبِّمَا كَانَ سَبَبُ الْكِتْمَانِ إِبْقَاءُ الْمُحِبِّ عَلَى مَحْبُوبِهِ. وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ دَلَائِلِ الْوَفَاءِ وَكَرَمِ الطَّبَعِ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من المتقارب]

دَرَى النَّاسُ أَنِّي فَتَى عَاشِقُ
كَيْبٌ مُعَنَّى وَلَكِنْ بِمَنْ؟
إِذَا عَايَنُوا حَالَتِي أَبْقَنُوا
وَإِنْ فَتَّشُوا رَجَمُوا^(٢) فِي الظَّنِّ

= السابق، ويبدو أنَّ هناك أبياتاً أخرى سَقَطَتْ وأهمَلها الناسخ. يؤكد هذا ورود أجزاء من «طوق الحمامة» في كتب معاصري ابن حزم، لم ترد في مخطوط الرسالة المتداولة في صورتها الحالية. وقد أشرنا إلى ذلك في المقدمة - ص ٢٩ - ٣١.

(١) في قراءة المستشرق برشيه: «لَطَبْعُ الْحُبِّ وَغَلَبَتِهِ». (تنظر رسائل ابن حزم بتحقيق د. عباس ١/١٤٦، الحاشية الثالثة).

(٢) في بعض الطبعات: «رَجَّعُوا». وَرَجَّم: تَكَلَّمَ بِالظَّنِّ وَبِمَا لَا يَعْلَمُ (الوسيط/رَجَّم).

كَخَطٍّ يُرَى رَسْمُهُ ظَاهِرًا
وإنْ طَلَبُوا شَرْحَهُ لَمْ يَبْنِ
كَصَوْتِ حَمَامٍ عَلَى أَيْكَةٍ
يُرْجَعُ بِالصَّوْتِ فِي كُلِّ فَنٍ
تَلَذُّ بَنَجُوهُ^(١) أَسْمَاعُنَا
وَمَعْنَاهُ مُسْتَعْجِمٌ لَمْ يَبْنِ
يَقُولُونَ بِاللَّهِ سَمَّ الَّذِي
نَفَى خُبَّهُ عَنْكَ طِيبَ الْوَسَنِ
وَهَيْهَاتَ دُونَ الَّذِي حَاوَلُوا
ذَهَابَ الْعُقُولِ وَخَوْضُ الْفِتَنِ
فَهُمْ أَبَدًا فِي اخْتِلَاجِ الشُّكُوكِ
بِظَنٍّ كَقَطْعٍ، وَقَطْعٍ كَظَنٍّ
وَفِي كِتْمَانِ السَّرِّ أَقُولُ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من البسيط]

للسَّرِّ عِنْدِي مَكَانٌ لَوْ يَحِلُّ بِهِ
حَيٌّ إِذَا مَا^(٢) اهْتَدَى رَيْبُ الْمَنُونِ لَهُ
أُمِّيَّتُهُ وَحَيَاةُ السَّرِّ مِيَّتُهُ
كَمَا سُرُورُ الْمُعْتَى فِي الْهَوَى الْوَلَهُ
● وَرَبَّمَا كَانَ سَبَبُ الْكِتْمَانِ تَوْفِي الْمُحِبِّ^(٣) عَلَى نَفْسِهِ مِنْ
إِظْهَارِ سِرِّهِ، لِجَلَالَةِ قَدْرِ الْمَحْبُوبِ.

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «بِفُحْوَاهُ» وَ«بَنُوجِهِ».

(٢) فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ: «لَا اهْتَدَى»، وَاسْتِخْدَامُ «مَا» أَذَقَّ، لِأَنَّ الْبَيْتَ لَا يَحْمِلُ
مَعْنَى الدُّعَاءِ. (تَنْظُرُ ط. التُّونِسِيَّةُ: ص ٧٥).

(٣) وَتَقْرَأُ: «وَرَبَّمَا كَانَ سَبَبُ الْكِتْمَانِ تَوْفِي الْمُحِبِّ...»، وَلَكِنَّا لَمْ نَجِدْ حَاجَةَ
إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ.

خبر

ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بـ«صُبْح» أمّ المؤيد (رحمه الله)، فغنت به جارية أدخلت على المنصور بن أبي عامر ليبتاعها، فأمر بقتلها.

خبر

وعلى مثال هذا قتل^(١) أحمد بن مغيث، واستئصال آل مغيث^(٢)، والتسجيل عليهم ألا يُستخدَم بواحد منهم أبداً، حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم؛ فلم يبق منهم إلا الشريد الضال. وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء، ومثل هذا كثير.

ويُحكى عن الحسن بن هاني^(٣) أنه كان مغرمًا بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة، وأحس منه ببعض ذلك، فانتهره على

(١) في ط. التونسية: «قتل أحمد». (ص ٧٦)، إلا أن ورود «واستئصال» بعدها - وهو مصدر - يرجح استخدام: «وقتل» لأنه مصدر أيضاً.

(٢) آل مغيث: من عائلات قرطبة في عصر ابن حزم، ينتسبون إلى مغيث بن الحارث (الرومي)، فاتح قرطبة ويذكر المقرئ في «نفح الطيب» أنه ليس برومي بل يشير إلى نسبه العسائي، وأن نسله من بني مغيث سادوا في قرطبة وعظم بيتهم. ينظر: الأعلام للزركلي: مج ٧/ ص ٢٧٦.

(٣) الحسن بن هاني: هو الشاعر العباسي المعروف أبو نواس. اختلف في تاريخي ولادته ووفاته (١٤٦ - ١٩٨ هـ) على وجه التقريب. أما محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة، فهو الخليفة الأمين العباسي، من أبناء هارون الرشيد، ولد من جارية (سنة ١٧٠ هـ)، وبويع بالخلافة (سنة ١٩٣ هـ). اختلف مع أخيه المأمون، واقتتلا في صراع طويل انتهى بمقتل الأمين الذي تحدث المصادر عن جمال صورته، ورقة شعره، وسوء تدبيره، وانغماسه في اللهو ومجالسة الندماء. الأعلام للزركلي: مج ٧/ ص ١٢٧.

إدامة النَّظَرِ إِلَيْهِ، فَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَقْدِرُ^(١) أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ إِلَيْهِ إِلَّا مَعَ غَلَبَةِ السُّكْرِ عَلَى مُحَمَّدٍ.

● وَرَبَّمَا كَانَ سَبَبُ الْكِتْمَانِ إِلَّا يَنْفَرُ^(٢) الْمَحْبُوبُ أَوْ يُنْفَرُ بِهِ. فَإِنِّي أَدْرِي مَنْ كَانَ مَحْبُوبَهُ لَهُ سَكَنًا وَجَلِيسًا، لَوْ بَاحَ بِأَقْلٍ سَبَبٍ مِنْ أَنَّهُ يَهْوَاهُ لَكَانَ مِنْهُ «مَنَاطُ الثَّرِيَّا قَدْ تَعَلَّتْ نَجُومُهَا»^(٣)؛ وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ السِّيَاسَةِ. وَلَقَدْ كَانَ يَبْلُغُ مِنَ انْبِسَاطِ هَذَا الْمَذْكُورِ مَعَ مَحْبُوبِهِ إِلَى فَوْقِ الْغَايَةِ وَأَبْعَدِ النَّهَائِيَةِ^(٤)؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ بَاحَ إِلَيْهِ بِمَا يَجِدُ، فَصَارَ لَا يَصِلُ إِلَى التَّافِهِ الْيَسِيرِ، مَعَ التَّيِّهِ وَدَالَّةِ الْحُبِّ، وَتَمَنُّعِ الثَّقَةِ بِمُلْكِ الْفُؤَادِ. وَذَهَبَ ذَلِكَ الْانْبِسَاطُ، وَوَقَعَ التَّصَنُّعُ وَالتَّجَنِّيُّ، فَكَانَ^(٥) أَخًا فَصَارَ عَبْدًا، وَنَظِيرًا فَعَادَ أَسِيرًا، وَلَوْ زَادَ فِي بَوَاحِهِ شَيْئًا إِلَى أَنْ يَعْلَمَ خَاصَّةُ الْمَحْبُوبِ ذَلِكَ، لَمَّا رَأَاهُ إِلَّا فِي الطَّيْفِ، وَلَا تَقْطَعُ الْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ، وَلَعَادَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِالضَّرَرِ.

(١) في ط. التونسية: «فُذِكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ إِنَّهُ كَانَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُدِيمَ...» (ص ٧٦).

(٢) وتقرأ: «يُنْفَرُ». وقرأها بعضهم: «يُشْهَرُ».

(٣) مناط الثريا قد تعلت نجومها: هو الشطر الثاني من قول عبد الرحمن بن حسان:

وإن بني حرب كما قد علمتم مناط الثريا قد تعلت نجومها
والبيت من البحر الطويل، لعبد الرحمن بن حسان. ينظر ديوانه: جمع وتحقيق مكّي العاني - بغداد - ط ١ - ١٩٧١ - ص ٥٢. وقيل إنه للأحوص، ينظر ديوانه: جمع وتحقيق عادل سليمان جمال - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة - ١٩٧٠ - ص ١٩١.

(٤) قوله: «فما هو إلا...» ساقط من الطبعة التونسية (ص ٧٧) وقد أثبتته د. عباس في طبعته (ص ١٤٨).

(٥) في بعض الطبعات: «لقد كان أخاً...».

- وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ أَسْبَابِ الْكِتْمَانِ الْحَيَاءُ الْغَالِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ .
- وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ أَسْبَابِ الْكِتْمَانِ أَنْ يَرَى الْمُحِبُّ مِنْ مَحَبُّوهِ انحرافاً وصدّاً، ويكونَ ذا نَفْسٍ أَبِيَّةٍ، فَيَسْتَتِرُ بِمَا يَجِدُ، لِيَلَّا يَشْمَتَ بِهِ عَدُوٌّ، أَوْ ^(١) لِيُرِيَهُمْ وَمَنْ يُحِبُّ، هَوَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

(١) قرأ بعضهم: «لِيَلَّا يَشْمَتَ بِهِ عَدُوُّهُ أَوْ عَدُوٌّ مَنْ يُحِبُّهُ» انظر ط . عباس (١) / (١٤٨) .

١٣

بابُ الإذاعةِ

وقد تعرّض في الحُبِّ الإذاعةُ، وهو مِنْ مُنكَرٍ ما يحدث مِنْ أعراضِهِ، ولها أسبابٌ:

منها أن يُريدَ صاحبُ هذا الفعلِ أن يَتَزَيَّأَ بِزِيِّ المُحِبِّينَ، ويدخلَ في عِدادِهِمْ. وهذه خِلافةٌ ^(١) لا تُرْضَى، وتَجْلِيحٌ ^(٢) بغيضٌ، ودَعْوَى في الحُبِّ زائفةٌ.

● وربما كانَ مِنْ أسبابِ الكَشْفِ عِلْبَةُ الحُبِّ، وتَسَوُّرٌ ^(٣) الجَهْرِ على الحَيَاءِ، فلا يملكُ الإنسانُ حينئذٍ لِنَفْسِهِ صَرْفاً ولا عَدَلاً. وهذا مِنْ أبْعَدِ غَايَاتِ العَشَقِ، وأقْوَى تَحَكُّمِهِ على العَقْلِ، حتَّى يُمَثِّلَ الحَسَنَ في تِمثالِ القَبِيحِ، والقَبِيحَ في هَيْئَةِ الحَسَنِ. وهُنَالِكَ يرى الخَيْرَ شَرًّا، والشَّرَّ خَيْراً ^(٤). وكم مَصُونِ السِّتْرِ، مُسَبِّلِ القِنَاعِ، مَسْدُولِ الغِطَاءِ، قد كَشَفَ الحُبُّ سِتْرَهُ، وأَباحَ حَرِيمَهُ، وأَهْمَلَ حِمَاهُ؛ فصارَ بَعْدَ الصِّيَانَةِ عِلْماً، وبعْدَ السُّكُونِ مَثَلاً؛ وأَحَبُّ شَيْءٍ

(١) الخِلافةُ: الخديعة.

(٢) التجليح: الإقدام الشديد والتعميم في الأمر، وركوب الرأس. (اللسان/ جلع).

(٣) التَّسَوُّرُ هنا بمعنى: التَّغَلُّبُ.

(٤) قرأ د. القاسمي محقق ط. التونسية: «حتَّى يُمَثِّلَ الحَسَنَ ... والقَبِيحَ في ... وهُنَالِكَ يُرَى الخَيْرُ ... والشَّرُّ ...» على البناء للمجهول: (ص ٧٨).

إليه الفضيحة فيما لو مثَل له قبل اليوم، لاعتراه النَّافِضُ^(١) عنْدَ ذِكْرِهِ^(٢)، ولطالَّت استِعَاذَتُهُ منه، فَسَهْلَ مَا كَانَ وَعَرَأَ، وهَانَ مَا كَانَ عَزِيزاً، ولأنَّ مَا كَانَ شَدِيداً.

وَلَعَهْدِي بِفَتَى مِنْ سَرَواتِ الرِّجَالِ وَعِلِيَّةِ إِخوانِي، قَدْ ذُهِبَ بِمَحَبَّةٍ جاريةٍ مقصورةٍ فتام^(٣) بها، وقطَعَهُ حُبُّها عن كثيرٍ مِنْ مصالِحِهِ. وظهرت آياتُ هواه لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ، إلى أَنْ كَانَتْ هِيَ تَعْدِلُهُ على ما ظَهَرَ مِنْهُ مِمَّا يَقودُهُ إليه هواه^(٤).

خبر

وَحَدَّثَنِي موسى بْنُ عاصِمٍ بن عمرو^(٥) قال: «كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ أَبِي الفَتْحِ والدي (رَحِمَهُ اللَّهُ)، وَقَدْ أَمَرَنِي بكتابٍ أَكْتُبُهُ، إِذْ لَمَحْتُ عَيْنِي جاريةً كُنْتُ أَكَلَفُ بها، فلم أملك نفسي، وَرَمِيتُ الكِتَابَ عَنْ يَدَيِ، وَبادَرْتُ نَحْوَهَا. وَبُهِتَ أَبِي وَظَنَّ أَنَّهُ عَرَضَ لي عَارِضٌ، ثُمَّ راجَعَنِي عَقْلِي، فَمَسَحْتُ وَجْهِي ثُمَّ عُدْتُ وَاعتَذَرْتُ بِأَنَّهُ غَلَبَنِي الرُّعافُ»^(٦).

(١) اعتراه النافض: أصابته حُمَّى نافض: رعدة وارتعاش. (الوسيط/نَفَضَ).

(٢) في بعض الطبعات: «عَنْ ذِكْرِهِ». التونسية: (٧٨).

(٣) تَامَ بها تيمناً: تعلق بها وتخلّى عن كُلِّ شيءٍ لأجلها، واستعبده حبّها وذهب بعقله. (الوسيط/تام). وورد في ط. التونسية وبعض الطبعات: «هام» وهو أبسط. وفي سواها: «لَمْ بها» بمعنى أصابه مَسٌّ أو لَمَمٌ وهو طَرْفٌ من الجنون (الوسيط/لَمَ).

(٤) في بعض الطبعات: «مِمَّا يَقودُهُ إلى مهوى».

(٥) موسى بن عاصم بن عمرو: ذكر صاحب «الصلة» قائلاً: موسى بن عاصم بن سفيان، من معاصري ابن حزم في قرطبة؟؟... ج ٣/ص ٨٨٣.

(٦) الرّعاف: الدم يخرج من الأنف.

واعلم أن هذا داعية نفار المحبوب، وفساد في التدبير،
وضعف في السياسة؛ وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سنة
وطريقة، متى تعداها الطالب أو خرق^(١) في سلوكها انعكس عمله
عليه، وكان كده عناء، وتعبه هباء، وبحثه وباء. وكلما زاد عن
وجه السيرة انجرافاً، وفي تجنّبها إغراقاً، وفي غير الطريق إغلالاً،
ازداد عن بلوغ مراده بعداً؛ وفي ذلك أقول قطعة منها:

[من الطويل]

ولا تسع في الأمر الجسيم تهازواً
ولا تسع جهرأ في اليسير تريده
وقابل أفانين الزمان متى يرد
عليك فإن الدهر جم وروده
بأشكالها من حسن سعيك يكفك الـ
يسير يسير والشديد شديده^(٢)
ألم تبصر المصباح أول وقده
وإشعاليه، بالنفخ يطفأ وقوده
وإن يتصرّم لفحه ولهيبه
فنفحك يذكّيه وتبدو مدوده

خبر

وإنّي لأعرف من أهل قرطبة، من أبناء الكتاب وجلة الخدمة،
من اسمه أحمد بن فتح، كنت أعهدّه كثير التصاؤن، من بعاة العلم
وطلاب الأدب، يبذ^(٣) أصحابه في الانقباض، ويفوقهم في

(١) خرق (بضم الراء وكسرهما): حمق، ولم يحسن عمله (الوسيط/ خرق).

(٢) ورد البيت في ط. التونسية مع بعض الاختلاف.

(٣) يبذ: يفوق ويغلب. وقرأها بعضهم: «يبرّ» والمعنى واحد.

الرَّعَةَ^(١)، لَا يُنْظَرُ^(٢) إِلَّا فِي حَلَقَةٍ^(٣) فَضْلٍ، وَلَا يُرَى إِلَّا فِي مَحْفِلٍ مَرْضِيٍّ، مَحْمُودِ الْمَذَاهِبِ، جَمِيلِ الطَّرِيقَةِ، بَانِتًا بِنَفْسِهِ، ذَاهِبًا بِهَا. ثُمَّ أَبْعَدَتْ الْأَقْدَارُ دَارِي مِنْ دَارِهِ؛ فَأَوَّلُ خَبَرٍ طَرَأَ عَلَيَّ بَعْدَ نَزُولِي شَاطِبَةَ، أَنَّهُ خَلَعَ عِذَارَهُ^(٤) فِي حُبِّ فَتَى مِنْ أَبْنَاءِ الْفَتَّانِينَ^(٥)، يُسَمَّى إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَحْمَدَ، أَعْرِفُهُ، لَا تَسْتَأْهِلُ صِفَاتِهِ مَحَبَّةً مِنْ^(٦) بَيْتِهِ خَيْرٌ وَخَدَمٌ، وَأَمْوَالٌ عَرِيضَةٌ وَوَفَرٌ تَالِدٌ. وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ كَشَفَ رَأْسَهُ، وَأَبْدَى وَجْهَهُ، وَرَمَى رَسْنَهُ^(٧)، وَحَسَرَ مُحَيَّاهُ، وَشَمَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، وَصَمَدَ صَمَدِ الشَّهْوَةِ. فَصَارَ حَدِيثًا لِلْسَّمَارِ، مُتَرَا جَعًا^(٨) بَيْنَ نَقْلَةِ الْأَخْبَارِ، وَتُهُودِي ذِكْرُهُ فِي الْأَقْطَارِ، وَجَرَتْ نُقْلَتُهُ^(٩) فِي الْأَرْضِ رَاحِلَةً بِالتَّعَجُّبِ، وَلَمْ يَحْصُلْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى كَشْفِ الْغِطَاءِ، وَإِذَاعَةِ السَّرِّ، وَشُنْعَةِ الْحَدِيثِ، وَفُحِّحِ الْأَخْذُوثَةِ، وَشُرُودِ مَحْبُوبِهِ عَنْهُ جُمْلَةً، وَالتَّحْظِيرِ عَلَيْهِ مِنْ رُؤْيِيهِ الْبَتَّةَ، وَكَانَ غَنِيًّا عَنْ ذَلِكَ،

(١) الرَّعَةُ: مِنَ الْوَرَعِ، وَهُوَ التَّقْوَى عَنِ الْمَحَارِمِ وَالتَّحَرُّجِ مِنْهَا مَعَ التَّقْوَى وَالاحتشام. وورد في ط. التونسية وسواها: «الدَّعَةُ».

(٢) بعض الطبقات: «لا يظهر».

(٣) حَلَقَةٍ، وَحَلَقَةٍ: بِتَسْكِينِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا.

(٤) خلع عذاره: انْهَمَكَ فِي الْغَيِّ وَلَمْ يَسْتَح. (الوسيط/عذر).

(٥) الْفَتَّانِينَ: جَمْعُ: فَتَّانٍ: وَهُوَ الصَّافِغُ، وَمِنْ مَعَانِيهَا: اللَّصُّ الَّذِي يَعْرِضُ لِلرَّفَقَةِ فِي طَرِيقِهِمْ، وَلَعَلَّ ابْنَ حَزَمٍ قَصَدَ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ، أَيْ: فَتَى مِنْ أَبْنَاءِ الصَّاعَةِ، إِلَّا إِذَا أَرَادَ سُوءَ أَخْلَاقِ ذَلِكَ الْفَتَى... (الوسيط/فتن). وورد في بعض الطبقات: «الْعَنَانِينَ»؟!

(٦) في بعض الطبقات: «لا تستأهل صفاته المحبة ممن...».

(٧) رمى رسنه: أَيْ تَصَرَّفَ بِهَوَاهُ عَلَى نَحْوِ مَا يُرِيد.

(٨) في معظم الطبقات: «ومُذَاقَعًا». وفي بعضها: «مُضَاغَةً».

(٩) نُقْلَتُهُ: هُنَا بِمَعْنَى النَّمِيْمَةِ وَحَدِيثِ السُّوءِ.

وَبِمَنْدُوحَةٍ^(١) واسعةٍ وَمَعْزِلٍ رَحْبٍ عَنْهُ . وَلَوْ طَوَى مَكْنُونَ سِرِّهِ ،
وَأَخْفَى بُنَيَاتِ ضَمِيرِهِ^(٢) ، لاسْتَدَامَ لِبَاسَ الْعَافِيَةِ ، وَلَمْ يُنْهَجْ بُرْدُ
الصَّيَانَةِ^(٣) ، وَلَكَانَ لَهُ فِي لِقَاءِ مَنْ بُلِيَ بِهِ ، وَمُحَادَثَتِهِ وَمُجَالَسَتِهِ ،
أَمَلٌ مِنَ الْأَمَالِ ، وَتَعَلُّلٌ كَافٍ ؛ وَإِنَّ حَبْلَ الْعُذْرِ لَيَقْطَعُ بِهِ ، وَالْحُجَّةُ
عَلَيْهِ قَائِمَةٌ ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُخْتَلِطاً فِي تَمْيِيزِهِ ، أَوْ مُصَابِأً فِي عَقْلِهِ
بِجَلِيلِ مَا فَدَحَهُ ، فَرَبَّمَا آلَ ذَلِكَ لِعُذْرِ صَاحِبِهِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ
مِنْ عَقْلِ ، أَوْ ثَبَّتَتْ مُسْكَةً ، فَهُوَ ظَالِمٌ فِي تَعَرُّضِهِ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّ
مَحْبُوبَهُ يَكْرَهُهُ وَيَتَأَذَّى بِهِ^(٤) .

هذا غَيْرُ صِفَةِ أَهْلِ الْحُبِّ ، وَسَيَأْتِي هَذَا مُفَسَّرًا فِي بَابِ الطَّاعَةِ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

● وَمِنْ أَسْبَابِ الْكَشْفِ وَجَهٌ ثَالِثٌ ، وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْعُقُولِ وَجَهٌ
مَرْدُودٌ وَفِعْلٌ سَاقِطٌ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ يَرَى الْمُحِبُّ مِنْ مَحْبُوبِهِ غَدْرًا أَوْ
مَلَلًا أَوْ كَرَاهَةً ؛ فَلَا يَجِدُ طَرِيقَ الْإِتِّصَافِ مِنْهُ إِلَّا بِمَا ضَرَّرَهُ عَلَيْهِ
أَعْوَدٌ مِنْهُ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْكَشْفِ وَالِاسْتِهَارِ ، وَهَذَا أَشَدُّ الْعَارِ
وَأَقْبَحُ الشَّنَارِ^(٥) ، وَأَقْوَى شَوَاهِدِ عَدَمِ الْعَقْلِ وَوُجُودِ السُّخْفِ .

● وَرَبَّمَا كَانَ الْكَشْفُ مِنْ حَدِيثٍ يَنْتَشِرُ وَأَقَاوِيلَ تَفْشُو ، تَوَافَقَ

(١) كان بمندوحة عن الأمر: كان في سعة وفُسحة وغنى عنه . (الوسيط/ ندح) .

(٢) بُنَيَاتِ ضَمِيرِهِ: أسرارها . وورد في بعض الطبقات: «بُلَيَّات» .

(٣) أَنَّهُجَ الثَّوْبَ: أبلاه وأخلفه . وَأَنَّهُجَ بُرْدَ الصَّيَانَةِ: لم يحافظ على سمعته ولم يصننها . (الوسيط/ نهج) .

(٤) بُنَيْنًا هُنَا قِرَاءَةُ د . الْقَاسِمِي فِي ط . التَّوْنِسِيَّةُ لَوْضُوحُ دَلَالَتِهَا وَاسْتِفْهَائُهَا الْمَعْنَى (ص ٨٠) ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْعِبَارَةُ: «وَأَمَّا إِنْ كَانَتْ لَهُ... إلخ» فِي ط . د .

عَبَّاسُ بَشِيءٍ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَالتَّغْيِيرِ . (ص ١٥٢) .

(٥) الشَّنَارُ: الأمر المشهور بالشُّعَّةِ وَالْقُبْحِ .

قِلَّةٌ^(١) مُبَالَاةٍ مِنَ الْمُحِبِّ بِذَلِكَ، وَرَضَى بِظَهْوِ سِرِّهِ، إِمَّا لِإِعْجَابٍ
أَوْ لاسْتِظْهَارٍ عَلَى بَعْضِ مَا يُؤَمِّلُهُ؛ وَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا الْفِعْلَ لِبَعْضِ
إِخْوَانِي مِنْ أَبْنَاءِ الْقَوَادِ.

وَقَرَأْتُ فِي بَعْضِ أَخْبَارِ الْأَعْرَابِ، أَنَّ نِسَاءَهُمْ لَا يَفْتَنُّونَ وَلَا
يُصَدِّقْنَ عِشْقَ عَاشِقٍ لَهُنَّ حَتَّى يَشْتَهَرَ وَيَكْشِفَ حُبَّهُ، وَيَجَاهِرَ
وَيُعْلِنَ، وَيُؤَوِّهَ بِذِكْرِهِنَّ. وَلَا أَدْرِي مَا مَعْنَى هَذَا، عَلَى أَنَّهُ يُذَكَّرُ
عَنْهُنَّ الْعَفَافُ، وَأَيُّ عَفَافٍ مَعَ امْرَأَةٍ أَقْصَى مَنَاهَا وَسُرُورِهَا الشُّهْرَةُ
فِي هَذَا الْمَعْنَى؟!

(١) وَيُقْرَأُ: «يُؤَافِقُ قِلَّةً . . .».

١٤

بَابُ الطَّاعَةِ

وَمِنْ عَجِيبٍ مَا يَقَعُ فِي الْحُبِّ طَاعَةُ الْمُحِبِّ لِمُحِبُّوهِ، وَصَرَفُهُ
طِبَاعَهُ قَسْرًا إِلَى طِبَاعِ مَنْ يُحِبُّهُ.

وَرُبَّمَا يَكُونُ الْمَرْءُ شَرِسَ الْخُلُقِ، صَعَبَ الشَّكِيمَةِ^(١)، جَمُوحَ
الْقِيَادَةِ، مَاضِيَ الْعَزِيمَةِ، حَمِيَّ الْأَنْفِ، أَبِي الْخَسْفِ. فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ
يَتَنَسَّمَ نَسِيمَ الْحُبِّ، وَيَتَوَرَّطَ غَمْرَهُ، وَيَعُومَ فِي بَحْرِهِ، فَتَعُودَ
الشَّرَاسَةُ لِيَانًا، وَالصُّعُوبَةُ سَهَالَةً، وَالْمَضَاءُ كَلَالَةً، وَالْحَمِيَّةُ
اسْتِسْلَامًا؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من المتقارب]

فَهَلْ لِلْوَصَالِ إِلَيْنَا مَعَادٌ
وَهَلْ لِتَصَارِيفِ ذَا الدَّهْرِ حَدٌ
فَقَدْ أَصْبَحَ السَّيْفُ عَبْدَ الْقَضِيبِ
وَأَضْحَى الْغَزَالُ الْأَسِيرُ أَسَدٌ

وَأَقُولُ شِعْرًا مِنْهُ:

[من الطويل]

وَأَنِّي وَإِنْ تَعَتَبَ لِأَهْوُونِ هَالِكٍ
كَذَائِبِ نُقْرِ زَلٍّ مِنْ يَدِ جُهَيْدٍ^(٢)

(١) الشكيمة: قوة القلب. وهنا بمعنى الأنفة والعناد.

(٢) هكذا ورد البيت في معظم الطبقات: والنُّقْرِ: ج نُقْرَة: القطعة المذابة من الذهب أو الفضة (المحيط/نقر) ولا ندري كيف تكون القطعة مذابة أو (ذائبة) =

على أَنْ قَتَلِي فِي هَوَاكَ لَذَاذَةً
فِيَا عَجَباً مِنْ هَالِكٍ مُتَلَذِّذٍ

ومنها:

ولو أَبْصَرْتَ أَنْوَارَ وَجْهِكَ فَارِسٌ
لَأَغْنَاهُمْ عَنْ هُرْمَزَانَ وَمُوبَذٍ^(١)

وَرُبَّمَا كَانَ الْمَحْبُوبُ كَارِهاً لِإِظْهَارِ الشُّكُوى، مُتَبَرِّماً بِسَمَاعِ
الْوَجْدِ، فَتَرَى الْمُحِبَّ حِينَئِذٍ يَكْتُمُ حُزْنَهُ، وَيَكْظِمُ أَسْفَهُهُ، وَيَنْطَوِي عَلَى
عَلَّتِيهِ، وَإِنَّ الْحَبِيبَ مُتَجَنِّباً، فَعِنْدَهَا يَقَعُ الْعِذَارُ عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ، وَالْإِقْرَارُ
بِالْجَرِيْمَةِ، وَالْمَرْءُ مِنْهَا بَرِيءٌ، تَسْلِيماً لِقَوْلِهِ وَتَرْكاً لِمُخَالَفَتِهِ. وَإِنِّي
لَأَعْرِفُ مَنْ دُهِبَ بِمِثْلِ هَذَا، فَمَا كَانَ يَنْفُكُ مِنْ تَوَجُّهِهِ الدُّنُوبِ نَحْوَهُ وَلَا
ذَنْبَ لَهُ، وَإِقْبَاعِ الْعِتَابِ عَلَيْهِ وَالسُّخْطِ، وَهُوَ نَقِيٌّ الْجِلْدِ.

وَأَقُولُ شِعْراً إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِي، وَيَقْرُبُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ
يَكُنْ مِنْهُ:

[من الطويل]

وَقَدْ كُنْتُ تَلْقَانِي بِوَجْهِهِ لِقْرَبِهِ
تَرَاضٍ، وَلِلْهُجْرَانِ عَنْ قُرْبِهِ سُخْطٍ

= وَتَرَلُّ فِي يَدِ النَّقَّادِ؟! وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَعَانِي الْمَصْطَنَعَةُ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ابْنِ حَزَمٍ.
وَلَعَلَّ هَذَا مَا دَفَعَ د. عَبَّاسٌ إِلَى رَدِّ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَاقْتِرَاحِ بَدِيلٍ عَنْهَا، فَقَرَأَ:
«كَرَائِفُ نَقْدِ دَلِّ فِي يَدِ جَهَبَذٍ» (ص ١٥٣). وَلَكِنَّ الْمَعْنَى الْعَامَ يَبْقَى
ضَعِيفاً... وَالْجَهَبَذُ: النَّقَّادُ الْخَبِيرُ الْبَارِعُ بِطَرُقِ النَّقْدِ، لَفْظٌ مُعَرَّبٌ (تاج
العروس/ جهبذ).

(١) هُرْمَزَانُ: اسْمُ أَحَدِ مَلُوكِ إِيرَانَ. وَيُمْكِنُ أَنْ تُصَرَّفَ فِي الشَّعْرِ فَتَقْرَأَ:
«هُرْمَزَانٍ». يَنْظُرُ: «الْمَعْجَمُ الْفَارْسِيُّ الْكَبِيرُ» لِلدَّكْتُورِ إِبْرَاهِيمِ الدَّسُوقِيِّ شَتَا -
مَكْتَبَةُ مَدْبُولِي - الْقَاهِرَةِ - دُونَ تَارِيخٍ - مَج ٣ - هُرْمَزَانُ/ص ٣١٧١. وَمُوبَذُ:
حَكِيمٌ دِينِي وَفِيهِ فِي الدِّيَانَةِ الزَّرْدَشْتِيَّةِ. الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ: ص ٢٨١٠.

وما تَكَرَّهُ الْعَتَبَ الْيَسِيرَ سَجِيَّتِي
 عَلَى أَنَّهُ قَدْ عِيبَ فِي الشَّعْرِ الْوَخْطُ^(١)
 فَقَدْ يُتَعَبُ الْإِنْسَانُ فِي الْفِكْرِ نَفْسَهُ
 وَقَدْ يَحْسُنُ الْخِيْلَانُ^(٢) فِي الْوَجْهِ وَالنَّقْطُ
 تَزِينُ إِذَا قَالَتْ وَيَفْحَشُ أَمْرُهَا
 إِذَا أَفْرَطَتْ يَوْمًا، وَهَلْ يُحْمَدُ الْفَرْطُ؟
 ومنه:

أَعْنَهُ فَقَدْ أَضْحَى لِفَرْطِ هُمُومِهِ
 يُبَكِّي لَهُ الْقِرْطَاسُ وَالْحَبْرُ وَالْخَطُ
 وَلَا يَقُولَنَّ قَائِلٌ: «إِنَّ صَبَرَ الْمُحِبَّ عَلَى ذِلَّةٍ^(٣) الْمَحْبُوبِ دَنَاءٌ
 فِي النَّفْسِ» فَهَذَا خَطَأٌ^(٤)؛ وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْمَحْبُوبَ لَيْسَ كُفْؤًا وَلَا
 نَظِيرًا فَيَقَارَضُ بِأَذَاهُ، وَلَيْسَ سَبُّهُ وَجْهًا مِمَّا يُعَيِّرُ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَيَبْقَى
 ذِكْرُهُ عَلَى الْأَحْقَابِ، وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ وَلَا فِي
 مَقَاعِدِ الرُّؤَسَاءِ؛ فَيَكُونُ الصَّبْرُ مُسْتَجِرًّا^(٥) لِلْمَذَلَّةِ، وَالضَّرَاعَةُ
 قَائِدَةٌ^(٦) لِلْإِسْتِهَانَةِ؛ فَقَدْ تَرَى الْإِنْسَانَ يَكْلِفُ^(٧) بِأَمْتِهِ الَّتِي يَمْلِكُ
 رَقَّهَا، وَلَا يَحُولُ حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّعَدِّيِّ عَلَيْهَا، فَكَيْفَ الْإِتِّصَافُ^(٨)

(١) الْوَخْطُ: الشَّيْبُ. أَيْ اخْتِلَاطُ الْبَيَاضِ بِسَوَادِ الشَّعْرِ.

(٢) الْخِيْلَانُ: جَمْعُ الْخَالِ: شَامَةٌ أَوْ عَلَامَةٌ سَوْدَاءَ فِي الْبَدَنِ.

(٣) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «عَلَى ذِلَّةِ الْمَحْبُوبِ» مِنْ الدَّلَالِ وَالْتَمَنُّجِ.

(٤) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «فَقَدْ أَخْطَأَ» (ص ٨٣).

(٥) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «جَارًا لِلْمَذَلَّةِ» (ص ٨٣) وَفِي سِوَاهَا: «مُسْتَجِرَّةٌ».

(٦) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «وَضَرَاعَةٌ قَائِدَةٌ لِلْإِسْتِهَانَةِ» (ص ٨٣).

(٧) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «لَا يَكْلِفُ» وَهُوَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْمَعْنَى.

(٨) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «الْإِتِّصَارُ» (ص ٨٣).

منها؟ وسُبُلُ الامتعاَضِ مِنَ السَّبِّ ^(١) غَيْرُ هَذِهِ، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيْنَ عَلِيَّةِ
الرَّجَالِ الَّذِينَ تُحْصَى أَنْفُسُهُمْ، وَتُتَّبَعُ ^(٢) مَعَانِي كَلَامِهِمْ، فَتُوجَّهُ لَهَا
الْوُجُوهُ البَعِيدَةُ، لِأَنَّهُمْ لَا يُوقِعُونَهَا سُدًى، وَلَا يُلْقُونَهَا هَمَلًا. وَأَمَّا
المَحْبُوبُ فَصَعْدَةٌ ثَابِتَةٌ ^(٣)، وَقَضِيبٌ مُنَادٍ ^(٤)، يَجْفُو وَيَرْضَى مَتَى
شَاءَ لَا لِمَعْنَى؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الكامل]

لَيْسَ التَّذَلُّلُ فِي الْهَوَى يُسْتَنْكَرُ
فَالْحُبُّ فِيهِ يَخْضَعُ الْمُسْتَكْبِرُ
لَا تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلَّتِي فِي حَالَةٍ
قَدْ ذَلَّ فِيهَا قَبْلِي الْمُسْتَنْصِرُ ^(٥)
لَيْسَ الْحَبِيبُ مِمَّاثِلًا وَمُكَافِيًا
فَيَكُونُ صَبْرُكَ ذِلَّةً إِذْ تَضْبِرُ
تُفَاحَةً وَقَعَتْ فَالَمَ وَقَعُهَا
هَلْ قَطَعُهَا مِنْكَ أَنْتَ صَارًا يُذَكَّرُ؟!

خبر

وَحَدَّثَنِي أَبُو دَلْفٍ الْوَرَّاقُ، عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْفِيلَسُوفِ
الْمَعْرُوفِ بِالْمَجْرِيطِيِّ ^(٦) أَنَّهُ قَالَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي بَشَرْيِّ مَقْبَرَةِ قُرَيْشٍ

(١) فِي التُّونِسِيَّةِ: «مِنَ السَّيِّدِ» (ص ٨٣).

(٢) وَتُقْرَأُ: «وَتُتَّبَعُ».

(٣) صَعْدَةٌ ثَابِتَةٌ: قَنَاةٌ مُسْتَوِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَثْقِيفٍ.

(٤) مُنَادٍ: مُشَدُّودٌ مُسْتَقِيمٌ.

(٥) الْمُسْتَنْصِرُ: يُشِيرُ إِلَى افْتِتَانِ الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصَرِ بِجَارِيَتِهِ «صَبْح»، وَهُوَ مَا سَبَقَتْ

الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ - ص ٦٧.

(٦) مَسْلَمَةُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ قَاسِمٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (الْمَجْرِيطِيُّ)، أَبُو الْقَاسِمِ: فِيلَسُوفٌ =

بِقَرُطْبَةٍ، الْمُوَازِي لِدَارِ الْوَزِيرِ أَبِي عُمَرَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ حُدَيْرٍ ^(١) (رَحِمَهُ اللَّهُ): «فِي هَذَا الْمَسْجِدِ كَانَ مَرِيضٌ ^(٢) مُقَدَّمُ بْنُ الْأَصْفَرِ أَيَّامَ حَدَائِثِهِ لِعِشْقِ بَعْجِيبٍ ^(٣)، فَتَى الْوَزِيرِ أَبِي عُمَرَ ^(٤) الْمَذْكُورِ؛ وَكَانَ يَتْرُكُ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ مَسْرُورٍ، وَبِهَا كَانَ ^(٥) سَكْنَاهُ، وَيَقْصِدُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ بِسَبَبِ عَجِيبٍ، حَتَّى أَخَذَهُ الْحَرَسُ غَيْرَ مَا مَرَّةٍ فِي اللَّيْلِ، فِي حِينِ انْصِرَافِهِ عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ؛ وَكَانَ يَقْعُدُ وَيَنْظُرُ مِنْهُ، إِلَى أَنْ كَانَ الْفَتَى يَغْضَبُ وَيَضْجَرُ، وَيَقُومُ إِلَيْهِ فَيُوجِعُهُ ضَرْبًا، وَيَلْطِمُ خَدَيْهِ وَعَيْنَيْهِ، فَيُسَرُّ بِذَلِكَ وَيَقُولُ: هَذَا وَاللَّهِ أَقْصَى أَمْنِيَّتِي، وَالْآنَ قَرْتُ عَيْنِي! وَكَانَ عَلَى هَذَا زَمَانًا يُمَاشِيهِ».

قَالَ أَبُو دَلْفٍ: «وَلَقَدْ حَدَّثَنَا مَسْلَمَةُ بِهَذَا الْحَدِيثِ غَيْرَ مَرَّةٍ بِحَضْرَةِ عَجِيبٍ، عِنْدَمَا كَانَ يَرَى ^(٦) مِنْ وَجَاهَةِ مُقَدَّمُ بْنُ الْأَصْفَرِ،

= رياضي فلكي، ولد عام (٣٣٨هـ). كان إمام الرياضيين بالأندلس. ونسب بعضهم إليهم أنه مؤلف «رسائل إخوان الصفا». توفي سنة (٣٩٨هـ). الأعلام: مج ٧/ ص ٢٢٤.

(١) أحمد بن محمد بن سعيد بن موسى بن حُدَيْرٍ، أبو عمر، ورد في بعض الطبقات: «أبو عمرو» - الوزير ولد عام (٢٥٥هـ)، وتوفي سنة (٣٢٧هـ)، ذكرته عدة مصادر أندلسية. إلا أن هناك آخرين حملوا هذا الاسم. ينظر: «موسوعة تاريخ الأندلس»: د. حسين مؤنس - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ط ١ - ١٩٩٦ - ص ٢٦٣. وانظر فهرس أعلامه: ص ٥٦٠.

(٢) مَرِيضٌ: مَكَانٌ يجلس فيه. وقرئت في بعض الطبقات: «مَرَضٌ»، ولا يبدو أنها دقيقة.

(٣) في ط. التونسية: «بعشق عَجِيبٍ» (ص ٨٤).

(٤) وفيها أيضاً: «أبي عمرو» (ص ٨٤).

(٥) وفي بعض الطبقات صححت إلى: «كانت سكناه».

(٦) في بعض الطبقات «يبرم».

وَعَرَضَ جَاهِهِ وَعَافِيَتِهِ». فَكَانَتْ حَالُ مُقَدِّمِ بْنِ الْأَصْفَرِ هَذَا قَدْ جَلَّتْ^(١) جِدًّا، وَاخْتُصَّ بِالْمُظْفَرِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ اخْتِصَاصًا شَدِيدًا، وَاتَّصَلَ بِوَالِدَتِهِ وَأَهْلِهِ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مِنْ بُنْيَانِ الْمَسَاجِدِ وَالسَّقَايَاتِ، وَتَسْبِيلِ^(٢) وَجْهِهِ الْخَيْرِ غَيْرُ قَلِيلٍ، مَعَ تَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ أَصْحَابُ السُّلْطَانِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِالنَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

خبر

وَأُشْنِعَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ كَانَتْ لِسَعِيدِ بْنِ مِنْذَرِ بْنِ سَعِيدٍ^(٣) صَاحِبِ الصَّلَاةِ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ، أَيَّامَ الْحَكْمِ الْمُسْتَنْصَرِ بِاللَّهِ (رَحِمَهُ اللَّهُ)، جَارِيَةً يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، فَعَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ يُعْتَقَهَا وَيَتَزَوَّجَهَا، فَقَالَتْ لَهُ سَاخِرَةً بِهِ، وَكَانَ عَظِيمَ اللَّحِيَّةِ: «إِنَّ لِحَيَّتِكَ أَسْتَبِشْعُ عَظْمَهَا، فَإِنْ حَذَفْتَ مِنْهَا كَانَ مَا تَرَعْبُهُ». فَأَعْمَلَ الْجَلَمَيْنِ^(٤) فِيهَا حَتَّى لَطَفَتْ، ثُمَّ دَعَا بِجَمَاعَةِ شُهُودٍ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى عِتْقِهَا، ثُمَّ خَطَبَهَا إِلَى نَفْسِهِ فَلَمْ تَرْضَ بِهِ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ حَضَرَ أَخُوهُ حَكَمَ بْنَ مِنْذَرٍ، فَقَالَ

(١) فِي طِ التَّوْنِيسِيَّةِ: «حَلَّتْ جِدًّا».

(٢) فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ: «وَتَسْهِيل».

(٣) سَعِيدُ بْنُ مِنْذَرٍ بْنُ سَعِيدٍ: تَذَكُّرُ الْمَصَادِرِ أَبَاهُ مِنْذَرُ بْنُ سَعِيدِ الْقَاضِي، أَبَا الْحَكَمِ، الْمَعْرُوفُ بِالْبَلُّوطِيِّ نَسَبَةً إِلَى مَوْضِعِ قُرْبِ قُرْطُبَةَ يُقَالُ لَهُ: فَحْصُ الْبَلُّوطِ. وَالْمِنْذَرُ هَذَا عَاشَ أَيَّامَ الْحَكْمِ (الْمُسْتَنْصَرِ بِاللَّهِ)، وَوَلِيَ الْقَضَاءَ، وَكَانَ عَالِمًا فَقِيهًا، وَأَدِيبًا بَلِغًا، وَخَطِيبًا عَلَى الْمَنَابِرِ، وَلَعَلَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِإِشَارَةِ ابْنِ حَزْمٍ: «صَاحِبُ الصَّلَاةِ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ». وَسَعِيدُ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ الْقِصَّةُ هُوَ أَحَدُ أَوْلَادِهِ. يُنْظَرُ: «جَذْوَةُ الْمُقْتَبَسِ»: ق ٢/ص ٥٥٥. وَمَوْسُوعَةُ تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ لِمُؤَنَسٍ - ج ١ - ص ٥١٥. وَتَجَدُّ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنْ الْمَوْسُوعَةِ ذَكَرَ لِسَعِيدِ بْنِ مِنْذَرٍ: ص ٢٦٣ وَغَيْرَهَا.

(٤) جَلَمَ الشَّيْءَ: قَطَعَهُ، وَالْجَلَمَانُ عَلَى صُورَةِ الْفَعْلَانِ، أَوْ عَلَى صُورَةِ الْمُثْنَى: (الْجَلَمَانُ): مَا يُجَزُّ بِهِ: (الْمَقْصُصُ). (الْوَسِيطُ/جَلَمٌ).

لِمَنْ حَضَرَ: «إِعْرِضْ عَلَيْهَا أَنِّي أَخْطُبُهَا أَنَا»، فَفَعَلَ فَأَجَابَتْ إِلَيْهِ، فَتَزَوَّجَهَا فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ بَعِينِهِ، وَرَضِيَ بِهَذَا الْعَارِ الْفَادِحِ عَلَى وَرَعِهِ وَنُسْكِهِ وَاجْتِهَادِهِ.

فَأَنَا أَدْرَكْتُ سَعِيداً هَذَا، وَقَدْ قَتَلَهُ الْبَرْبَرُ يَوْمَ دُخُولِهِمْ قُرْطَبَةَ عَنُوءَةً، وَانْتِهَابِهِمْ إِيَّاهَا؛ وَحَكَمَ الْمَذْكُورُ أَخُوهُ، هُوَ رَأْسُ الْمُعْتَزِلَةِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَكَبِيرُهُمْ وَأَسْتَاذُهُمْ، وَمُتَكَلِّمُهُمْ وَنَاسِكُهُمْ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ شَاعِرٌ طَيِّبٌ وَفَقِيهٌ. وَكَانَ أَخُوهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُنْذِرٍ مُتَّهَمًا بِهَذَا الْمَذْهَبِ أَيْضاً. وَلِي خُطَّةُ الرَّدِّ^(١) أَيَّامَ الْحَكَمِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَهُوَ الَّذِي صَلَبَهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ، إِذِ اتَّهَمَهُ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْقُضَاةِ بِقُرْطَبَةَ، أَنَّهُمْ يُبَايعُونَ سِرّاً لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، فَقَتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَصَلَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُنْذِرٍ، وَبَدَّدَ شَمْلَ مَنْ اتَّهَمَ. وَكَانَ أَبُوهُمْ قَاضِي الْقُضَاةِ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ مُتَّهَمًا بِمَذْهَبِ الْإِعْتِزَالِ أَيْضاً، وَكَانَ أَخْطَبَ النَّاسِ وَأَعْلَمَهُمْ بِكُلِّ فَنٍّ وَأَوْرَعَهُمْ وَأَكْثَرَهُمْ هَزْلاً وَدُعَابَةً. وَحَكَمَ الْمَذْكُورُ، فِي الْحَيَاةِ فِي حِينِ كِتَابَتِي إِلَيْكَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، قَدْ كُفَّ بَصَرُهُ وَأَسَنَّ جِداً.

خبر

● وَمِنْ عَجِيبِ طَاعَةِ الْمُحِبِّ لِمَحْبُوبِهِ، أَنِّي أَعْرِفُ مَنْ كَانَ سَهْرَ اللَّيَالِي الْكَثِيرَةِ، وَلَقِيَ الْجَهْدَ الْجَاهِدَ، فَقَطَّعَتْ قَلْبُهُ ضُرُوبُ الْوَجْدِ، ظَفِرٌ^(٢) بِمَنْ يُحِبُّ، وَلَيْسَ بِهِ امْتِنَاعٌ، وَلَا عِنْدَهُ دَفْعٌ؛ فَحِينَ رَأَى مِنْهُ

(١) خُطَّةُ الرَّدِّ: وَرَدَتْ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «خُطْبَةُ الرَّدِّ». وَخُطَّةُ الرَّدِّ مَنْصِبٌ قَضَائِي.

(٢) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «ثَمَ ظَفَرُ بَمَنْ يُحِبُّ» (ص ٨٦).

بعض الكراهة لما نواه، تركه وانصرف عنه، لا تعففاً ولا تحوفاً،
لكن توقفاً عند موافقته رضاه، ولم يجد من نفسه معيناً على إتيان ما
لم ير له إليه نشاطاً، وهو يجد ما يجد. وإني لأعرف من فعل هذا
الفعل ثم تندم لعذر^(١) ظهر من المحبوب؛ فقلت في ذلك:

[من الرمل]

غافِص^(٢) الفُرْصَةَ واعْلَمْ أَنَّهَا
كَمْضِيّ الْبَرْقِ تَمْضِي الْفُرْصُ
كَمْ أُمُورٍ أَمْكَنْتَ أَهْمْلَهَا^(٣)
هِيَ عِنْدِي إِذْ تَوَلَّتْ غُصَصُ
بَادِرِ الْكَنْزِ الَّذِي الْفَيْتَهُ
وَأَنْتَهَزَ صَيْدًا^(٤) كَبَارِ يَفْنِصُ
وَلَقَدْ عَرَضَ مِثْلُ هَذَا بَعَيْنَهُ لِأَبِي الْمَطْرِفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ
ابن محمود^(٥) صديقنا، وأنشدته أبياتاً لي، فطار بها كل مطار،
وأخذها مني فكانت هجيراًه.

(١) في بعض الطبعات: «لِعَذْرِ».

(٢) غافِص الشيء غفافصه: فاجأه وأخذه على غرة... (الوسيط/ غافِص). وورد
الشطر في ط. التونسية:

قَانِصُ الْفُرْصَةَ واعْلَمْ أَنَّهُ

(٣) في التونسية وسواها: «أَهْمْلَهَا» (ص ٨٧).

(٤) وفي بعض الطبعات: «صَبْرًا».

(٥) عبد الرحمن بن أحمد بن محمود (أبو المطرف): وردت ترجمته في
«جدوة المقتبس» دون أن يرد فيها اسم «محمود»، وهو: عبد
الرحمن بن أحمد بن بشر، قاضي الجماعة بقرطبة، فقيه عالم أديب،
يذكر صاحب الجدوة أن ابن حزم أثنى عليه في شعره. ينظر: «جدوة
المقتبس»: ق ٢/ ص ٤٢٧.

خبر

ولقد سألتني يوماً أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان، أيام كوني بالمدينة، وكان طويل اللسان جداً، مثقفاً للسؤال في كل فن، فقال لي، وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه: «إذا كره من أحب، لقائي، وتجنب قربي، فما أصنع؟»، قلت: أرى أن تسعى في إدخال الروح^(١) على نفسك بلقائه وإن كره. فقال: «لكنني لا أرى ذلك بل أوثر هواه على هواي، ومُراده على مُرادِي، وأصبر ولو كان في ذلك الحنف»^(٢). فقلت له: إني إنما أحببته لنفسِي ولألتذاذها بصورته، فأنا أتبع قياسي وأقود أصلي، وأقفو طريقي في الرغبة في سرورها. فقال لي: «هذا ظلم من القياس. أشد من الموت ما تُمني له»^(٣) الموت، وأعز من النفس ما بذلت له النفس. فقلت له: إنَّ بذلك نفسك لم يكن اختياراً، بل كان اضطراراً، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها، وتركك لقاء اختياراً^(٤) منك أنت فيه مَلوم، لإضرارك بنفسك، وإدخالك الحيف^(٥) عليها. فقال لي: «أنت رجل جَدَلِيّ، ولا جدل في الحب يُلتفت إليه». فقلت له: إذا كان صاحبه مؤوفاً^(٦)، فقال: «وأي آفة أعظم من الحب؟!».

(١) الروح: الراحة والفرح والسرور.

(٢) الحنف: الموت المحتوم.

(٣) في بعض الطبقات: «به».

(٤) في بعض الطبقات: «اختياراً».

(٥) في بعض الطبقات: «الحنف». والحيف: الظلم.

(٦) مؤوفاً: مصاباً بآفة. والآفة: الداء الشديد يُهلك صاحبه.

١٥

بَابُ الْمُخَالَفَةِ

وَرُبَّمَا اتَّبَعَ الْمُحِبُّ شَهْوَتَهُ، وَرَكِبَ رَأْسَهُ، فَبَلَغَ شِفَاءَهُ مِنْ
مَحْبُوبِهِ، وَتَعَمَّدَ مَسَرَّتَهُ مِنْهُ عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ، سَخَطَ أَوْ رَضِيَ. وَمَنْ
سَاعَدَهُ الْوَقْتُ عَلَى هَذَا وَتَبَّتْ جِنَانُهُ، وَأُتِيحَتْ لَهُ الْأَقْدَارُ، اسْتَوْفَى
لَذَّتَهُ جَمِيعَهَا، وَذَهَبَ غَمُّهُ، وَانْقَطَعَ هَمُّهُ، وَرَأَى أَمَلَهُ، وَبَلَغَ
مَرْغُوبَهُ. وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ أَبْيَاتاً مِنْهَا:

[من السريع]

إِذَا أَنَا بَلَغْتُ نَفْسِي الْمُنَى
مِنْ رَشَاءٍ مَا زَالَ لِي مُمْرِضًا
فَمَا أَبَالِي الْكُرْهَ مِنْ طَاعَةٍ
وَلَا أَبَالِي سَخَطًا مِنْ رِضَى
إِذَا وَجَدْتُ الْمَاءَ لَا بُدَّ أَنْ
أُطْفِئَ بِهِ مُشْعَلَ جَمْرِ الْغَضَا^(١)

(١) الْغَضَا: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً
لا ينطفئ. واحدته غَضَاة. (الوسيط/ غَضَا).

١٦

بابُ العاذل

وللحُبِّ آفاتٌ، فأولُّها العاذِلُ. والْعُدَالُ أَقْسَامٌ:

١ - فأولُّهم صديقٌ قدَّ أسْقَطَتْ مَوْوَنَةُ التَّحَفُّظِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؛ فَعَدْلُهُ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرِ الْمُسَاعَدَاتِ، وَهُوَ بَيْنَ الْحَضِّ وَالنَّهْيِ. وفي ذلك زاجرٌ لِلنَّفْسِ عَجِيبٌ، وَتَقْوِيَّةٌ لَطِيفَةٌ بِهَا عَوْضٌ وَعَمَلٌ. ودَوَاءٌ تَسْتَدُّ عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ^(١)، ولا سِيِّمًا إِنْ كَانَ رَفِيقًا فِي قَوْلِهِ، حَسَنَ التَّوَصُّلِ إِلَى مَا يُورَدُ^(٢) مِنَ الْمَعَانِي بِلُطْفِهِ، عَالِمًا بِالْأَوْقَاتِ الَّتِي يُؤَكِّدُ فِيهَا النَّهْيَ^(٣)، وبِالْأَحْيَانِ الَّتِي يَزِيدُ فِيهَا الْأَمْرَ، وَالسَّاعَاتِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا وَاقِفًا^(٤) بَيْنَ هَذَيْنِ، عَلَى قَدَرٍ مَا يَرَى مِنْ تَسَهُّلِ الْعَاشِقِ وَتَوَعُّرِهِ، وَقَبُولِهِ وَعِصْيَانِهِ.

(١) في الأصل ومعظم الطبقات: «تَشْتَدُّ عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ». وما أثبتناه هو قراءة المستشرق برشيه ومن بعده د. عباس الذي رَجَّحَ قَوْلَهُ: «تَسْتَدُّ» مِنَ السَّدَادِ وَالصَّلَاحِ، لورود ما يدل على زجر النفس والاعتدال. ولو ثبتنا القراءة بـ«تَشْتَدُّ» لوقع التناقض في العبارة.. (تنظر: رسائل ابن حزم بتحقيق د. عباس: ١/١٦١)، والطبعة التونسية التي وردت فيها العبارة بقراءة: «تشتد» مع تغيير طفيف (ص ٩٠).

(٢) في بعض الطبقات: «يراد».

(٣) وقرأ د. عباس: «يؤكِّدُ فيها النهي»، وبِالْأَحْيَانِ الَّتِي يَزِيدُ فِيهَا الْأَمْرَ» (ص ١٦١). ويُرَجَّحُ الْقِرَاءَةُ بِالْمَبْنِيِّ لِلْمَعْلُومِ التَّنَاطُرُ فِي تَرْكِيبِ الْعِبَارَاتِ وَدَلَالَتِهَا، فَلَا يَحْسُنُ أَنْ نَقْرَأَ بِالْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ مَرَّةً، وَالْمَعْلُومِ مَرَّةً أُخْرَى.

(٤) في معظم الطبقات: «وقفًا».

٢ - ثُمَّ عَاذِلٌ زَاجِرٌ لَا يُفِيقُ أَبَدًا مِنَ الْمَلَامَةِ، وَذَلِكَ خَطْبٌ شَدِيدٌ وَعِبَاءٌ ثَقِيلٌ. وَوَقَعَ لِي مِثْلُ هَذَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ الْكِتَابِ وَلَكِنَّهُ يُشَبِّهُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا السَّرِيِّ عَمَّارَ بْنَ زِيَادٍ صَدِيقَنَا، أَكْثَرَ مِنْ عَذْلِي عَلَى نَحْوِ نَحْوَتِهِ، وَأَعَانَ عَلَيَّ بَعْضُ ^(١) مَنْ لَامَنِي فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ أَيْضًا، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ سَيَكُونُ مَعِي، مُخْطِئًا كُنْتُ أَوْ مُصِيبًا، لَوْ كَيْدَ صَدَاقَتِي وَصَحِيحِ أُخُوْتِي بِهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ اشْتَدَّ وَجْدُهُ، وَعَظُمَ كَلْفُهُ، حَتَّى كَانَ الْعَدْلُ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، لِيُرِيَ الْعَاذِلَ عِصْيَانَهُ، وَيَسْتَلِدَّ مُخَالَفَتَهُ، وَيُحْصِلَ مُقَاوَمَتَهُ لِلْإِثْمِ ^(٢) وَغَلَبَتُهُ إِيَّاهُ، كَالْمَلِكِ الْهَازِمِ لِعَدُوِّهِ، وَالْمُجَادِلِ الْمَاهِرِ الْغَالِبِ لَخَصْمِهِ، وَيُسَرُّ بِمَا يَقَعُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ. وَرُبَّمَا كَانَ هُوَ ^(٣) الْمُسْتَجَلِبُ لِعَدْلِ الْعَاذِلِ بِأَشْيَاءٍ يورِدُهَا تَوْجِبُ ابْتِدَاءَ الْعَدْلِ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ آيَاتًا مِنْهَا:

[من البسيط]

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيَّ اللَّوْمُ وَالْعَدْلُ
كَيْ أَسْمَعَ أَسْمَ الَّذِي ذِكْرَاهُ لِي أَمَلُ
كَأَنَّنِي شَارِبٌ بِالْعَدْلِ صَافِيَةً
وَبِاسْمِ مَوْلَايَ بَعْدَ الشَّرْبِ أَتَقَلُّ ^(٤)

(١) ورد في ط. التونسية: «بعض» (ص ٩٠) وهو خطأ.

(٢) في بعض الطبقات: «اللائمة» و«للائمة».

(٣) في ط. التونسية: «كان هذا المستجلب...».

(٤) أَتَقَلُّ هُنَا بِمَعْنَى: أَتَنَاوَلُ الثَّقْلَ (بِضْمِ النُّونِ وَسُكُونِ الْقَافِ): وَالثَّقْلُ هُوَ: مَا يُتَقَلُّ بِهِ وَيُتَفَكَّكُ مَعَ الشَّرَابِ مِنْ جَوْزٍ وَلَوْزٍ وَبَنْدُقٍ... (الوسيط/نقل).

١٧

بابُ المُسَاعِدِ مِنَ الْإِخْوَانِ

وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُتَمَنِّاةِ فِي الْحُبِّ، أَنْ يَهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْإِنْسَانِ صَدِيقًا مُخْلِصًا، لَطِيفَ الْقَوْلِ، بَسِيطَ الطَّوْلِ^(١)، حَسَنَ الْمَأْخَذِ، دَقِيقَ الْمَنْفَعِ، مُتَمَكِّنَ الْبَيَانِ، مُرْهَفَ اللِّسَانِ، جَلِيلَ الْحِلْمِ، وَاسِعَ الْعِلْمِ، قَلِيلَ الْمُخَالَفَةِ، عَظِيمَ الْمُسَاعَفَةِ، شَدِيدَ الْاِحْتِمَالِ، صَابِرًا عَلَى الْإِدْلَالِ^(٢)، جَمَّ الْمُوَافَقَةِ، جَمِيلَ الْمُخَالَفَةِ^(٣)، مُسْتَوِيَ الْمُطَابَقَةِ، مَحْمُودَ الْخَلَائِقِ، مَكْفُوفَ الْبَوَائِقِ^(٤)، مَخْتُومَ الْمُسَاعَدَةِ، كَارِهًا لِلْمُبَاعَدَةِ، نَبِيلَ الْمَدَاحِلِ^(٥)، مَضْرُوفَ الْغَوَائِلِ^(٦)، غَامِضَ الْمَعَانِي، عَارِفًا بِالْأَمَانِي، طَيِّبَ الْأَخْلَاقِ، سَرِيَّ الْأَعْرَاقِ، مَكْتُومَ السَّرِّ، كَثِيرَ الْبِرِّ، صَحِيحَ الْأَمَانَةِ، مَأْمُونًا خِيَانَةَ، كَرِيمَ النَّفْسِ^(٧)، صَحِيحَ

(١) الطَّوْلُ: الغنى واليسر، وإذا قُرِئَتْ: «الطَّوْلُ» حملت معنى التناول والتمادي. (الوسيط/ طال).

(٢) الإدلال: جرأة الأصحاب وإفراطهم على صاحبهم لثقتهم بمحبته.

(٣) وردت في جميع الطبوعات: «المخالفة»، ورأينا قراءتها: «المخالقة»: المعاشرة، لوضوح أسلوب السجع عند ابن حزم، ولورود «المخالقة» في السطر السابق، ولا نظنُّ الكاتب يُكْرِّها.

(٤) البوائق: جمع بائقة، الشرور والدواهي. (الوسيط/ باق).

(٥) في بعض الطبوعات: «الشمائل».

(٦) الغوائل: جمع غائلة، وهي المفاصد والشرور.

(٧) ورد في ط. التونسية: «كريم النفس، نافذ الجس»، صحيح الحدس (ص ٩٢).

الحَدَس، مَضْمُونُ الْعَوْنِ، كَامِلُ الصَّوْنِ، مَشْهُورُ الْوَفَاءِ، ظَاهِرُ الْغِنَاءِ، ثَابِتُ الْقَرِيحَةِ، مَبْدُولُ النَّصِيحَةِ، مُسْتَيَقِّنُ الْوِدَادِ، سَهْلُ الْانْقِيَادِ، حَسَنُ الْاِعْتِقَادِ، صَادِقُ اللَّهْجَةِ، خَفِيفُ الْمُهْجَةِ، عَفِيفُ الطُّبَاعِ، رَحْبُ الذَّرَاعِ، وَاسِعُ الصَّدْرِ، مُتَخَلِّقًا بِالصَّبْرِ، يَأْلَفُ الْإِمْحَاصَ^(١)، وَلَا يَعْرِفُ الْإِعْرَاضَ، يَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ بِبَلَابِلِهِ^(٢)، وَيُشَارِكُهُ فِي خَلْوَةِ فِكْرِهِ^(٣)، وَيُفَاوِضُهُ فِي مَكْتُومَاتِهِ، وَإِنْ فِيهِ لِلْمُحِبِّ لِأَعْظَمِ الرَّاحَاتِ، وَأَيْنَ هَذَا؟! فَإِنْ ظَفِرْتَ بِهِ يَدَاكَ فَشَدَّهُمَا عَلَيْهِ شَدَّ الضَّنِينِ^(٤)، وَأَمْسِكْ بِهِمَا إِمْسَاكَ الْبَخِيلِ، وَصُنَّهُ بِطَارِفِكَ وَتَالِدِكَ. فَمَعَهُ يَكْمُلُ الْأَنْسُ، وَتَنْجَلِي الْأَحْزَانُ، وَيَقْصُرُ الزَّمَانُ، وَتَطْيِبُ الْأَحْوَالُ. وَلَنْ يَفْقِدَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَةِ عَوْنًا جَمِيلًا، وَرَأْيًا حَسَنًا؛ وَلِذَلِكَ اتَّخَذَ الْمُلُوكُ الْوُزَرَءَ وَالْذُّخْلَاءَ، كِي يُخَفِّفُوا عَنْهُمْ بَعْضَ مَا حَمَلُوهُ^(٥) مِنْ شَدِيدِ الْأُمُورِ، وَطَوَّقُوهُ مِنْ بَاهِظِ الْأَحْمَالِ، وَلَكِي يَسْتَعْنُوا بِآرَائِهِمْ، وَيَسْتَمِدُّوا بِكِفَايَتِهِمْ، وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي قُوَّةِ الطَّبِيعَةِ أَنْ تَقَاوِمَ كُلَّ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا دُونَ اسْتِعَانَةٍ بِمَا يُشَاكِلُهَا، وَهُوَ مِنْ جَنْسِهَا.

وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ - لِعُدْمِهِ هَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الْإِخْوَانِ، وَقِلَّةِ ثَبَّتِهِ مِنْهُمْ، لَمَّا جَرَّبَهُ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ مِمَّنْ بَاحَ إِلَيْهِ بَشْيَءٍ

(١) الإِمْحَاصُ: الصَّدَقُ وَالْإِخْلَاصُ. مَحَضَهُ الْوُدَّ: أَخْلَصَهُ.

(٢) الْبَلَابِلُ: جَمْعُ بَلْبَالٍ: شِدَّةُ الْهَمِّ وَالْوَسْوَاسِ.

(٣) وَرَدَ فِي ط. د. عَبَّاسٍ: «وَيُشَارِكُهُ فِي خَلْوَةِ فِكْرِهِ». وَفِي طَبْعَاتٍ أُخْرَى «خَلْوَةُ فِكْرِهِ» وَ«يُشَارِكُهُ فِي حُلُوهِ وَمُرِّهِ». (تَنْظُرُ: رَسَائِلُ ابْنِ حَزْمَ بِتَحْقِيقِ د. عَبَّاسٍ ١/١٦٣).

(٤) الضَّنِينُ: الشَّدِيدُ الْبَخِيلُ، وَالْبَخِيلُ بِالشَّيْءِ الْغَفِيسُ، أَوْ الْحَرِيصُ عَلَيْهِ. (الْوَسِيطُ/ضَّنٌ).

(٥) فِي بَعْضِ الْقُرَءَاتِ: «حُمَلُوهُ».

مَنْ سِرَّهُ أَحَدٌ وَجَهَيْنِ: إِمَّا إِزْرَاءَ عَلَى رَأْيِهِ، وَإِمَّا إِذَاعَةً لِسِرِّهِ - أَقَامَ
الْوَحْدَةَ مَقَامَ الْأُنْسِ، وَكَانَ يَنْفَرِدُ فِي الْمَكَانِ النَّازِحِ عَنِ الْأَنْبَسِ،
وَيُنَاجِي الْهَوَاءَ^(١)، وَيُكَلِّمُ الْأَرْضَ، وَيَجِدُ فِي ذَلِكَ رَاحَةً كَمَا يَجِدُ
الْمَرِيضُ فِي التَّأَوُّهِ، وَالْمَحْزُونُ^(٢) فِي الزَّفِيرِ؛ فَإِنَّ الْهُمُومَ إِذَا
تَرَادَفَتْ فِي الْقَلْبِ ضَاقَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَفْضُ^(٣) مِنْهَا شَيْءٌ بِاللِّسَانِ،
وَلَمْ يُسْتَرْخَ إِلَى الشَّكْوَى، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَهْلِكَ غَمًّا وَيَمُوتَ أَسْفًا.

وَمَا رَأَيْتُ الْإِسْعَادَ^(٤) أَكْثَرَ مِنْهُ فِي النِّسَاءِ، فَعِنْدَهُنَّ مِنَ الْمُحَافَظَةِ
عَلَى هَذَا الشَّأْنِ، وَالتَّوَاصِي بِكَيْفِيَّتِهِ، وَالتَّوَاطُّؤِ عَلَى طَيِّبِهِ، إِذَا أُطْلِعْنَ
عَلَيْهِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الرِّجَالِ، وَمَا رَأَيْتُ امْرَأَةً كَشَفَتْ سِرَّ مُتَحَابِّينَ، إِلَّا
وَهِيَ عِنْدَ النِّسَاءِ مَمْقُوتَةٌ مُسْتَقْفَلَةٌ مَرْمِيَّةٌ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ. وَإِنَّهُ
لَيُوجَدُ عِنْدَ الْعَجَائِزِ فِي هَذَا الشَّأْنِ مَا لَا يُوْجَدُ عِنْدَ الْفَتَيَاتِ؛ لِأَنَّ
الْفَتَيَاتِ مِنْهُنَّ رُبَّمَا كَشَفْنَ مَا عَلِمْنَ عَلَى سَبِيلِ التَّغَايُرِ؛ وَهَذَا لَا
يَكُونُ إِلَّا فِي النَّدْرَةِ. وَأَمَّا الْعَجَائِزُ فَقَدْ يَنْسَنَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ، فَانْصَرَفَ
الْإِشْفَاقُ مَحْضًا إِلَى غَيْرِهِنَّ.

خبر

وَإِنِّي لِأَعْلَمُ امْرَأَةً مُوسِرَةً، ذَاتَ جَوَارٍ وَخَدَمٍ، فَشَاعَ عَلَى إِحْدَى
جَوَارِيهَا أَنَّهَا تَعَشَّقُ فَتًى مِنْ أَهْلِهَا وَيَعَشَّقُهَا، وَأَنَّ بَيْنَهُمَا مَعَانِي
مَكْرُوهَةً، وَقِيلَ لَهَا: «إِنَّ جَارِيَتِكَ فُلَانَةٌ تَعْرِفُ ذَلِكَ، وَعِنْدَهَا جَلِيَّةٌ
أَمْرُهَا»، فَأَخَذَتْهَا وَكَانَتْ غَلِيظَةً الْعُقُوبَةِ، فَأَذَاقَتْهَا مِنْ أَنْوَاعِ الضَّرْبِ

(١) في ط. التونسية: «الهُوَى» (ص ٩٣).

(٢) في التونسية: «والمحزون» (ص ٩٣).

(٣) في بعض الطبقات: «لَمْ يُفْضَ مِنْهَا شَيْءٌ» و«لَمْ يَفْشِ شَيْءٌ».

(٤) الإسعاد، هنا: المعاونة.

والإيذاء ما لا يَصْبِرُ على مثله جُلْدَاءُ^(١) الرِّجَالِ، رَجَاءُ أَنْ تَبُوحَ لَهَا بِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَ لَهَا، فَلَمْ تَفْعَلِ الْبَتَّةَ.

خبر

وَإِنِّي لِأَعْلَمُ امْرَأَةً جَلِيلَةً، حَافِظَةً لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، نَاسِكَةً مُقْبِلَةً عَلَى الْخَيْرِ، وَقَدْ ظَفَرْتُ بِكِتَابٍ لِفَتَى إِلَى جَارِيَةٍ كَانَ يَكْلَفُ بِهَا، وَكَانَتْ فِي غَيْرِ مُلْكِهَا، فَعَرَفْتُهُ الْأَمْرَ، فَرَامَ الْإِنْكَارَ، فَلَمْ يَنْتَهِيَأْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَتْ لَهُ: «مَا لَكَ؟ وَمَنْ ذَا عَصِمَ؟ فَلَإِ تُبَالِ بِهَذَا، فَوَاللَّهِ لَا أَطْلَعْتُ عَلَى سَرَكُمَا أَحَدًا أَبَدًا، وَلَوْ أُمَكَّنِي أَنْ أَبْتَاعَهَا لَكَ مِنْ مَالِي، وَلَوْ أَحَاطَ بِهِ كُلُّهُ، لَجَعَلْتُهَا لَكَ فِي مَكَانٍ تَصِلُ إِلَيْهَا فِيهِ، وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ أَحَدٌ».

وَإِنَّكَ لَتَرَى الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ الْمُسِنَّةَ الْمُنْقَطِعَةَ الرَّجَاءِ مِنَ الرِّجَالِ، وَأَحَبَّ^(٢) أَعْمَالِهَا إِلَيْهَا، وَأَرْجَاهَا لِلْقُبُولِ عِنْدَهَا، سَعِيَهَا فِي تَزْوِيجِ يَتِيمَةٍ، وَإِعَارَةِ ثِيَابِهَا وَحَلِيِّهَا لِعُرُوسٍ مُقَلَّةٍ. وَمَا أَعْلَمُ عِلَّةً تَمَكِّنُ هَذَا الطَّبْعَ مِنَ النِّسَاءِ، إِلَّا أَنَّهُنَّ مُتَفَرِّغَاتُ الْبَالِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ الْجَمَاعِ وَدَوَاعِيهِ، وَالْعَزْلِ وَأَسْبَابِهِ، وَالتَّأَلُّفِ وَوُجُوهِهِ، لَا شُغْلَ لَهُنَّ غَيْرُهُ، وَلَا خُلُقْنَ لِسِوَاهُ. وَالرِّجَالُ مُقْتَسِمُونَ فِي كَسْبِ الْمَالِ، وَصُحْبَةِ السُّلْطَانِ، وَطَلَبِ الْعِلْمِ، وَحِيَاطَةِ الْعِيَالِ، وَمُكَابَدَةِ الْأَسْفَارِ، وَالصَّيْدِ، وَضُرُوبِ الصَّنَاعَاتِ، وَمُبَاشَرَةِ الْحُرُوبِ، وَمُلَاقَاةِ الْفِتَنِ، وَتَحْمُلِ الْمَخَافِ، وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، وَهَذَا كُلُّهُ مُتَحَيِّفٌ لِلْفَرَاغِ^(٣)، صَارِفٌ عَنْ طَرِيقِ الْبُطْلِ.

(١) الجلداء: واحدها: جليد، الصابر على المكروه.

(٢) في ط. التونسية: «أحب» بحذف الواو. (ص ٩٤).

(٣) مُتَحَيِّفٌ لِلْفَرَاغِ: يُنْقِصُ مِنْهُ وَلَا يَدْعُ لَهُ مَجَالًا.

وَقَرَأْتُ فِي سَيْرِ مُلُوكِ السُّودَانِ، أَنَّ الْمَلِكَ مِنْهُمْ يُوَكِّلُ ثِقَةً لَهُ
بِنِسَائِهِ، يُلْقِي عَلَيْهِنَّ ضَرْبَةً مِنْ غَزَلِ الصُّوفِ يَشْتَغِلْنَ بِهَا أَبَدَ الدَّهْرِ،
لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَقِيَتْ بِغَيْرِ شُغْلٍ إِنَّمَا تَتَشَوَّفُ^(١) إِلَى
الرِّجَالِ، وَتَحْنُ إِلَى النِّكَاحِ.

ولقد شاهدتُ النساءَ، وَعَلِمْتُ مِنْ أَسْرَارِهِنَّ مَا لَا يَكَادُ يَعْلَمُهُ
غَيْرِي، لِأَنِّي رُبِّيتُ فِي حُجُورِهِنَّ، وَنَشَأْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ، وَلَمْ أَعْرِفْ
غَيْرَهُنَّ، وَلَا جَالَسْتُ الرِّجَالَ إِلَّا وَأَنَا فِي حَدِّ السَّبَابِ، وَحِينَ
تَبَقَّلُ^(٢) وَجْهِي. وَهُنَّ عَلَّمَنِي الْقُرْآنَ، وَرَوَّيَنِي كَثِيرًا مِنَ الْأَشْعَارِ،
وَدَرَّبَنِي فِي الْخَطِّ، وَلَمْ يَكُنْ وَكْدِي^(٣) وَإِعْمَالُ ذَهْنِي، مُذْ أَوَّلِ
فَهْمِي، وَأَنَا فِي سِنِّ الطُّفُولَةِ جَدًّا، إِلَّا تَعَرَّفْتُ أَسْبَابَهُنَّ، وَالْبَحْثَ عَنْ
أَخْبَارِهِنَّ، وَتَحْصِيلَ ذَلِكَ. وَأَنَا لَا أَنْسَى شَيْئًا مِمَّا أَرَاهُ مِنْهُنَّ،
وَأَصُلُ ذَلِكَ غَيْرَةً شَدِيدَةً طَبِعَتْ عَلَيْهَا، وَسَوْءُ ظَنٍّ فِي جِهَتِهِنَّ
فُطِرْتُ بِهِ، فَأَشْرَفْتُ مِنْ أَسْبَابِهِنَّ عَلَى غَيْرِ قَلِيلٍ، وَسَيَأْتِي ذَلِكَ
مُفَسَّرًا فِي أَبْوَابِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «تَشَوَّقُ».

(٢) تَبَقَّلَ: بَقَلَ وَجْهَ الْعُلَامِ: نَبَتَ شَعْرُهُ. وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «تَمَلَّلَ» وَهِيَ
بِمَعْنَى سَمِنَ، وَاكْتَهَلَ.

(٣) الْوَكْدُ: الْهَمُّ وَالْقَصْدُ.

١٨

باب الرقيب

وَمِنْ آفَاتِ الْحُبِّ الرَّقِيبُ، وَإِنَّهُ لَحُمَى بَاطِنَةٌ، وَبِرْسَامٌ^(١) مُلِحٌ، وَفِكْرٌ مُكَبٌّ.

وَالرَّقَبَاءُ أَقْسَامٌ:

١ - فَأُولَهُمْ مُثْقَلٌ بِالْجُلُوسِ، غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ، فِي مَكَانٍ اجْتَمَعَ فِيهِ الْمَرْءُ مَعَ مَحْبُوبِهِ، وَعَزَمًا عَلَى إِظْهَارِ شَيْءٍ مِنْ سِرِّهِمَا، وَالْبُوحِ بَوَاجِدِهِمَا، وَالْانْفِرَادِ بِالْحَدِيثِ. وَلَقَدْ يَعْرِضُ لِلْمُحِبِّ مِنَ الْقَلْقِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مَا لَا يَعْرِضُ لَهُ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ يَزُولُ سَرِيعًا، فَهُوَ عَائِقٌ حَالِ دُونَ الْمُرَادِ وَقَطَعَ مُتَوَنٍّ^(٢) الرَّجَاءَ.

خبر

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ يَوْمًا مُحِبَّيْنِ فِي مَكَانٍ قَدْ ظَنَّا أَنَّهُمَا انْفَرَدَا فِيهِ وَتَأَهَّبَا لِلشَّكْوَى، فَاسْتَحْلِيَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ الْخُلُوعِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمَوْضِعُ حِمَى، فَلَمْ يَلْبَثَا أَنْ طَلَعَ عَلَيْهِمَا مَنْ كَانَا يَسْتَتْفِلَانِهِ، فَرَأْنِي، فَعَدَلَ إِلَيَّ وَأَطَالَ الْجُلُوسَ مَعِي، فَلَوْ رَأَيْتَ الْفَتَى الْمُحِبَّ، وَقَدْ تَمَازَجَ الْأَسْفُ الْبَادِي عَلَى وَجْهِهِ

(١) البرسام: ذات الجنب، وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة (الوسيط/ برسم).

(٢) في بعض الطبقات: «متوقِّرٌ»، ولا معنى لها.

مَعَ الْعُضْبِ، لَرَأَيْتَ عَجَبًا. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من الطويل]

يُطِيلُ جُلُوسًا وَهُوَ أَثْقَلُ جَالِسٍ
وَيُبْدِي حَدِيثًا لَسْتُ أَرْضَى فُنُونَهُ
شَمَامٌ وَرَضْوَى وَاللُّكَامُ وَيَذْبُلُ
وَلِبْنَانُ وَالصَّمَانُ وَالْحَزْنُ دُونَهُ^(١)

٢- ثُمَّ رَقِيبٌ قَدْ أَحَسَّ مِنْ أَمْرِهِمَا بِطَرَفٍ، وَتَوَجَّسَ مِنْ مَذْهَبِهِمَا شَيْئًا، فَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَسْتَقْرِي^(٢) حَقِيقَةَ ذَلِكَ، فَيُذِمُّ الْجُلُوسَ، وَيُطِيلُ الْقُعُودَ، وَيَتَقَفَّى^(٣) الْحَرَكَاتِ، وَيَرْمُقُ الْوُجُوهَ، وَيُحْصِي^(٤) الْأَنْفَاسَ، وَهَذَا أَعَدَى مِنَ الْجَرَبِ^(٥). وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ هَمَّ أَنْ يُبَاطِشَ رَقِيبًا هَذِهِ صِفَتُهُ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من مُخَلَعِ البسيط]

مَوَاصِلٌ لَا يُغِبُّ قَضْدًا
أَعْظَمُ بِهِذَا الْوِصَالِ غَمًّا

(١) هذه أسماء أماكن، توحى بالثقل والإيذاء النفسي. وجلها من الجبال العالية ذات المسالك الوعرة والتضاريس الصعبة. وشمام: اسم جبل. ينظر: معجم البلدان لياقوت: ج ٣/ص ٤١٠. ورضوى: جبل بالمدينة: ج ٣/ص ٥٨. واللُّكَامُ: جبل مشرف على أنطاكية: ج ٥/ص ٢٥. وَيَذْبُلُ: جبل مشهور بنجد: ج ٥/ص ٤٩٦. وَلِبْنَانُ: جبل مُطَلٌّ على حمص: ج ٥/ص ١٢. وَالصَّمَانُ: اسم موضع أو جبل اخْتُلِفَ في تحديده: ج ٣/ص ٤٨١. وَالْحَزْنُ: كلُّ أرض غليظة أو اسم موضع أو طريق: ج ٢/ص ٢٩٢ - ٢٩٣. وقد وردت «الْحَزْنُ» في ط. التونسية وغيرها: «الْحَرْبُ».

(٢) وردت في بعض الطبعات: «يستبري» و«يستبين».

(٣) قرأها بعضهم: «يَتَجَفَّى» و«يتخفى بالحركات».

(٤) في معظم الطبعات: «ويُحْصَلُ».

(٥) في بعض الطبعات: «الْحَرْبُ».

صَارَ وَصِرْنَا لِفَرْطِ مَا لَا

يَزُولُ كَالِإِسْمِ وَالْمُسَمَّى

٣- ثُمَّ رَقِيبٌ عَلَى الْمَحْبُوبِ، فَذَلِكَ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِلَّا بِتَرْصِيهِ. وَإِذَا أَرْضِيَ فَذَلِكَ غَايَةُ اللَّذَّةِ، وَهَذَا الرَّقِيبُ هُوَ الَّذِي ذَكَرْتُهُ الشُّعْرَاءُ فِي أَشْعَارِهِا. وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مَنْ تَلَطَّفَ فِي اسْتِرْضَاءِ رَقِيبٍ حَتَّى صَارَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِ رَقِيباً لَهُ، وَمَتَغَافِلاً فِي وَقْتِ التَّغَافُلِ، وَدَافِعاً عَنْهُ وَسَاعِياً لَهُ؛ فَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الطويل]

وَرُبَّ رَقِيبٍ أَرْقَبُوهُ فَلَمْ يَزَلْ

عَلَى سَيِّدِي عَمْدًا لِيُبْعِدَنِي عَنْهُ

فَمَا زَالَتْ الْأَلْطَافُ تُحَكِّمُ أَمْرَهُ

إِلَى أَنْ غَدَا خَوْفِي لَهُ أَمْنًا مِنْهُ^(١)

وَكَانَ حُسَامًا سُلَّ حَتَّى يَهْدِنِي^(٢)

فَعَادَ مُحِبًّا مَا لِنِعْمَتِهِ كُنْهُ

وَأَقُولُ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من المُسَرَّح]

صَارَ حَايَةً وَكَانَ سَهْمَ رَدَى

وَكَانَ سُمًّا فَصَارَ دِرْيَاقًا^(٣)

(١) فِي بَعْضِ الطَّبِيعَاتِ: «أَمْنًا».

(٢) فِي مَعْظَمِ الطَّبِيعَاتِ: «يَهْدِنِي». وَهَذَا الشَّيْءُ يَهْدُهُ، هَذَا وَهَذَا: قَطْعُهُ سَرِيعًا. (الْوَسِيطُ/ هَذَا).

(٣) السُّمُّ: تَقْرَأُ مِثْلُ ثَلَاثَةِ بَفَتْحِ السَّيْنِ أَوْ ضَمِّهَا أَوْ كَسْرُهَا. وَالدَّرْيَاقُ (وَالْتَّرِيَاقُ: فِي بَعْضِ الطَّبِيعَاتِ) دَوَاءٌ يَسْتَعْمَلُ لِدَفْعِ السَّمُومِ مِنَ الْمَعْدَةِ وَالْأَمْعَاءِ، وَهُوَ لَفْظٌ مَعْرَبٌ (اللسان/ تَرْيَاق).

وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ رَقَّبَ عَلَى بَعْضٍ مَنْ كَانَ يُشْفِقُ عَلَيْهِ، رَقِيباً
وَتَقَّ بِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ، فَكَانَ أَعْظَمَ الْآفَةِ عَلَيْهِ وَأَصْلَ الْبَلَاءِ فِيهِ .
وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الرَّقِيبِ حِيلَةٌ، وَلَا وَجَدَ إِلَى تَرْضِيهِ سَبِيلٌ،
فَلَا طَمَعٌ إِلَّا بِالْإِشَارَةِ بِالْعَيْنِ هَمْساً، وَبِالْحَاجِبِ أحياناً، وَالتَّعْرِيزِ
اللطيفِ بالقول؛ وفي ذلك مُتَعَةٌ وَبَلَاغٌ إِلَى حِينٍ، يَقْنَعُ بِهِ الْمُشْتَاقُّ؛
وفي ذلك أَقْوَلُ شِعْراً أَوَّلُهُ:

[من الطويل]

عَلَى سَيِّدِي مَنِّي رَقِيبٌ مُحَافِظٌ
وَفِيَّ لِمَنْ وَالَاهُ لَيْسَ بِنَاكِثٍ
ومنه:

وَيَقْطَعُ أَسْبَابَ اللَّبَانَةِ^(١) فِي الْهَوَى
وَيَفْعَلُ فِيهَا فِعْلَ بَعْضِ الْحَوَادِثِ
كَأَنَّ لَهُ فِي قَلْبِهِ رَيْبَةً تَرَى
وَفِي كُلِّ عَيْنٍ مُخْبِرٌ بِالْأَحَادِثِ
ومنه:

عَلَى كُلِّ مَنْ حَوْلِي رَقِيبَانِ رُقْبَا^(٢)
وَقَدْ خَصَّنِي ذُو الْعَرْشِ مِنْهُمْ بِثَالِثٍ
وَأَشْنَعُ مَا يَكُونُ الرَّقِيبُ إِذَا كَانَ مِمَّنْ امْتَحَنَ بِالْعِشْقِ قَدِيماً،
وَدُهَيَّ بِهِ، وَطَالَتْ مُدَّتُهُ فِيهِ، ثُمَّ عَرِي^(٣) عَنْهُ بَعْدَ إِحْكَامِهِ لِمَعَانِيهِ،

(١) اللَّبَانَةُ: الْحَاجَّةُ، وَيُقَالُ: قَضَى فُلَانٌ لُبَانَتَهُ.

(٢) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «رُقْبَا».

(٣) قَرَأَهَا بَعْضُهُمْ: «عَرِي».

فَكَانَ رَاغِبًا فِي صِيَانَةِ مَنْ رُقِبَ عَلَيْهِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَيُّ رِقْبَةٍ تَأْتِي مِنْهُ،
وَأَيُّ بَلَاءٍ مَضْبُوبٍ يَحِلُّ عَلَى أَهْلِ الْهَوَى مِنْ جِهَتِهِ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الوافر]

رَقِيبٌ طَالَمَا عَرَفَ الْغَرَامَا
(١) وَقَاسَى الْوَجْدَ إِذْ مُنِعَ الْمَنَامَا
وَلَاقَى فِي الْهَوَى أَلْمَا أَلِيمَا
(٢) وَكَادَ الْحُبُّ يُورِدُهُ الْجِمَامَا
وَأَتَقَنَ حِيلَةَ الصَّبِّ الْمَعْنَى
وَلَمْ يُضِعِ الْإِشَارَةَ وَالْكَلامَا
وَأَعْقَبَهُ التَّسْلَى بَعْدَ هَذَا
وَصَارَ يَرَى الْهَوَى عَارًا وَذَامَا
وَضَيَّرَ دُونَ مَنْ أَهْوَى رَقِيبًا
لِيُبْعِدَ عَنْهُ صَبًّا مُسْتَهَامَا
فَأَيُّ بَلِيَّةٍ صُبَّتْ عَلَيْنَا
وَأَيُّ مُصِيبَةٍ حَلَّتْ لِمَامَا

وَمِنْ طَرِيفٍ مُعَانِي الرُّقْبَاءِ أَنِّي أَعْرِفُ مُجِيبِينَ مَذْهَبُهُمَا وَاحِدٌ فِي
حُبٍّ مَحْبُوبٍ وَاحِدٍ بَعِينِهِ، فَلَعَهْدِي بِهِمَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا رَقِيبٌ
عَلَى صَاحِبِهِ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من السريع]

صَبَّانِ هَيْمَانَانِ فِي وَاحِدٍ
كَلَاهُمَا عَنْ خِذْنِهِ مُنْخَرِفٌ

(١) ورد في ط. التونسية: «وقاسى الوجد وامتنع المناما».

(٢) الجمام: الموت.

كَالْكَلْبِ فِي الْآرِيِّ لَا يَعْتَلِفُ
وَلَا يُحَلِّي الْغَيْرَ أَنْ يَعْتَلِفَ^(١)

(١) الْآرِيُّ: مَحْبِسُ الدَّابَّةِ، أَوْ عُرْوَةٌ تُثَبَّتُ فِي حَائِطٍ أَوْ وَتْدٍ، تُشَدُّ فِيهَا الدَّابَّةُ (الْوَسِيطُ/أَرَى). وَقَوْلُهُ: «الْغَيْرَ» وَرَدَ فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ؛ وَخَالَفَهُ مُحَقِّقُ ط. التُّونِسِيَّةِ فَقَرَأَ: «الْعَيْرَ» (ص ٩٩)، وَهُوَ الْجِمَارُ. وَيَبْدُو أَنَّ الْبَيْتَ نَظْمٌ لِمَثَلٍ مَعْرُوفٍ، وَرَدَ نَصُّهُ فِي «الْحَيَوَانَ» لِلْجَاهِظِ: «كَالْكَلْبِ يَرِبُضُ فِي الْآرِيِّ، فَلَا هُوَ يَأْكُلُ، وَلَا يَدْعُ الدَّابَّةَ تَعْتَلِفُ». يَنْظُرُ: «الْحَيَوَانَ» بِتَحْقِيقِ عَبْدِ السَّلَامِ هَارُونَ - دَارُ الْجِيلِ - بَيْرُوتَ - ١٩٩٦ - ج ١/ص ٢٩١. وَيَنْظُرُ الْمَثَلُ كَذَلِكَ فِي «مَوْسُوعَةِ أَمْثَالِ الْعَرَبِ» لِيَعْقُوبَ - ج ٤/ص ٥٩٨.

١٩

باب الواشي

وَمِنْ آفَاتِ الْحُبِّ: الْوَاشِي، وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا وَاشٍ يَرِيدُ الْقَطْعَ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينِ فَقَطْ، وَإِنَّ هَذَا لَا فَرْهَمَا سَوَاءً، عَلَى أَنَّهُ السُّمُّ الدُّعَافُ^(١)، وَالصَّابُ الْمُمَقِّرُ^(٢)، وَالْحَتْفُ الْقَاصِدُ، وَالْبَلَاءُ الْوَارِدُ. وَرَبِّمَا لَمْ يَنْجَعِ تَرْقِيشُهُ^(٣). وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ الْوَاشِي فِإِلَى الْمَحْبُوبِ، وَأَمَّا الْمُحِبُّ فَهِيَهَا، «حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ»^(٤)، وَ«مَنْعَ الْحَرْبِ مِنَ الطَّرِبِ»^(٥)، شُغْلُهُ بِمَا هُوَ فِيهِ مَانِعٌ لَهُ مِنْ اسْتِمَاعِ الْوَاشِي. وَقَدْ عَلِمَ الْوُشَاءُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ إِلَى الْخَلِيِّ الْبَالِ، الصَّائِلِ^(٦) بِحُوزَةِ الْمُلْكِ، الْمُتَعَتِّبِ^(٧) عِنْدَ أَقْلٍ سَبَبٍ.

(١) الدُّعَافُ: السُّمُّ يَقْتُلُ مِنْ سَاعَتِهِ.

(٢) الصَّابُ: شَجَرٌ مُرٌّ لَهُ عَصَارَةٌ بِيضَاءُ بِالْغَةِ الْمَرَارَةِ، وَاحِدَتُهُ صَابَةٌ. وَالْمُمَقِّرُ: الشَّدِيدُ الْمَرَارَةِ، وَأَمَقَّرَ الشَّيْءُ: صَارَ مُرًّا (الوسيط/ صاب ومقر).

(٣) أَي لَمْ يَنْفَعِهِ (الوَاشِي) مَا يُرْقِشُهُ وَيَزِينُهُ وَيُثَمِّنُهُ مِنَ الْكَلَامِ لِبُلُوغِ مَرَادِهِ.

(٤) الْجَرِيضُ: الْغُصَّةُ، وَالْقَرِيضُ: الشَّعْرُ. وَ«حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ»: مَثَلٌ مَعْرُوفٌ يُضْرَبُ لِأَمْرِ يَعُوقُ دُونَهُ عَائِقٌ. يَنْظُرُ (اللسان/ جَرَضَ) وَ«مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ» لِلْمِيدَانِيِّ: ١/ ١٩١.

(٥) الْحَرْبُ: الْوَيْلُ وَالْهَلَاكُ، وَشِدَّةُ الْغَضَبِ. وَ«مَنْعَ الْحَرْبِ مِنَ الطَّرِبِ» قَوْلٌ كَسَابَقَهُ فِي الْمَعْنَى.

(٦) الصَّائِلُ: ذُو السَّطُورَةِ وَالتَّطَاوُلِ.

(٧) وَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «الْمُتَعَتِّبُ» (ص ١٠٠).

وإِنَّ لِلْوُشَاةِ ضُرُوباً مِّنَ التَّنْقِيلِ^(١)، فَمِنْهَا أَنْ يُذَكَّرَ لِلْمَحْبُوبِ
عَمَّنْ يُحِبُّ أَنَّهُ غَيْرُ كَاتِمٍ لِلسِّرِّ، وَهَذَا مَكَانٌ صَعْبُ الْمُعَانَاةِ، بَطِيءُ
البُرْءِ، إِلَّا أَنْ يُوَافِقَ مُعَارِضاً^(٢) لِلْمُحِبِّ فِي مَحَبَّتِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ يُوجِبُ
النَّفَارَ، فَلَا فَرَجَ لِلْمَحْبُوبِ إِلَّا بِأَنْ تَسَاعِدَهُ الْأَقْدَارُ بِالْإِطْلَاعِ عَلَى
بَعْضِ أَسْرَارِ مَنْ يُحِبُّ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْمَحْبُوبُ ذَا عَقْلٍ، وَلَهُ حَظٌّ
مِنْ تَمْيِيزِ^(٣)، ثُمَّ يَدْعُهُ وَالْمَطَاوِلَةَ^(٤). فَإِذَا تَكَذَّبَ عِنْدَهُ نَقُلُ الْوَاشِي،
مَعَ مَا أَظْهَرَ مِنَ التَّحَفُّظِ وَالْجَفَاءِ، وَلَمْ يَسْمَعْ لِسِرِّهِ إِذَاعَةً، عَلِمَ أَنَّهُ
إِنَّمَا زَوَّرَ لَهُ الْبَاطِلَ^(٥)، وَاضْمَحَلَّ مَا قَامَ فِي نَفْسِهِ. وَلَقَدْ شَاهَدْتُ
هَذَا بَعِينِهِ، لِبَعْضِ الْمُحِبِّينَ مَعَ بَعْضِ مَنْ كَانَ يُحِبُّ؛ وَكَانَ
الْمَحْبُوبُ شَدِيدَ الْمُرَاقَبَةِ، عَظِيمَ الْكِتْمَانِ، وَكَثُرَ الْوُشَاةُ بَيْنَهُمَا،
وَحُدِّثَ فِي حُبِّ لَمْ يَكُنْ، حَتَّى ظَهَرَتْ أَعْلَامُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ^(٦)،
وَرَكِبَتْهُ وَجْمَةٌ^(٧)، وَأَظْلَتَتْهُ فِكْرَةٌ، وَدَهَمَتْهُ حَيْرَةٌ، إِلَى أَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ
وَبَاحَ بِمَا نُقِلَ إِلَيْهِ. فَلَوْ شَاهَدْتُ مَقَامَ الْمُحِبِّ فِي اعْتِذَارِهِ لَعَلِمْتُ أَنَّ
الْهُوَى سُلْطَانُ مُطَاعٍ، وَبِنَاءٌ مَشْدُودُ الْأَوَاحِي^(٨)، وَسِنَانٌ نَافِذٌ. وَكَانَ

(١) التَّنْقِيلُ: نُقِلَ الْأَخْبَارُ وَالْكَلَامُ.

(٢) قُرِئَتْ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «مُعَارِضاً» وَ«مُقَارِضاً».

(٣) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «مِنْ التَّمْيِيزِ» (ص ١٠١).

(٤) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «يُدِيمُهُ الْمَطَاوِلَةُ».

(٥) قُرِئَتْ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «زَوَّرَ لَهُ الْبَاطِلَ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ.

(٦) وَقَعَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ بَعْضُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، مَعَ تَغْيِيرِ
طَفِيفٍ، وَذَلِكَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ: «وَكَثُرَ الْوُشَاةُ بَيْنَهُمَا، حَتَّى ظَهَرَتْ أَعْلَامُ
ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَحُدِّثَ فِي حُبِّ لَمْ يَكُنْ، وَرَكِبَتْهُ...» (ص ١٠١).

(٧) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «رَحْمَةٌ» (ص ١٠١). وَالْوَجْمَةُ: مِنَ الْوُجُومِ: السَّكُوتُ
وَالْإِطْرَاقُ لِشِدَّةِ الْحُزَنِ.

(٨) الْأَوَاحِي: جَمْعُ آخِيَةٍ وَهِيَ عُرْوَةٌ تَثْبِتُ فِي الْأَرْضِ أَوْ الْحَائِطِ وَتَرْبِطُ فِيهَا
الدَّابَّةَ. (الْوَسِيطُ/أَخَا).

اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف، والإنكار والتوبة، والرَّمي بالمقاليـد^(١)، فَبَعْدَ لَأَيِّ مَا صَلَحَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا.

وَرُبَّمَا ذَكَرَ الْوَاشِي أَنَّ مَا يُظْهَرُ الْمُحِبُّ مِنَ الْمَحَبَّةِ لَيْسَ بِصَحِيحٍ^(٢). وَأَنَّ مَذْهَبَهُ فِي ذَلِكَ شِفَاءُ نَفْسِهِ وَبَلُوغُ وَطَرِهِ؛ وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ النَّقْلِ، وَإِنْ كَانَ شَدِيداً^(٣)، فَهُوَ أَيْسَرُ مُعَانَةً مِمَّا قَبْلَهُ، فَحَالَةُ الْمُحِبِّ غَيْرُ حَالَةِ الْمُتَلَدِّدِ. وَشَوَاهِدُ الْوَجْدِ مُتَفَاوِتَةٌ^(٤) بَيْنَهُمَا. وَقَدْ وَقَعَ مِنْ هَذَا بُذْ كَافِيَةٌ فِي بَابِ الطَّاعَةِ.

وَرُبَّمَا نَقَلَ الْوَاشِي أَنَّ هَوَى الْعَاشِقِ مُشْتَرِكٌ، وَهَذِهِ النَّارُ الْمُحْرِقَةُ وَالْوَجَعُ الْفَاشِي فِي الْأَعْضَاءِ. وَإِذَا وَافَقَ النَّاقِلُ لِهَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنْ يَكُونَ الْمُحِبُّ فَتَى حَسَنَ الْوَجْهِ، حُلُوَ الْحَرَكَاتِ، مَرْغُوباً فِيهِ، مَايلاً إِلَى اللَّذَاتِ، دُنْيَاوِيٌّ^(٥) الطَّبْعِ، وَالْمَحْبُوبُ امْرَأَةً جَلِيلَةَ الْقَدْرِ، سَرِيَّةَ الْمَنْصِبِ، فَأَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ سَعْيُهَا فِي إِهْلَاكِهِ، وَتَصَدِّيقُهَا لِحَتْفِهِ. فَكَمْ صَرِيحٌ عَلَى هَذَا السَّبَبِ، وَكَمْ مَنْ سَقَى السُّمَّ، فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُ لِهَذَا الْوَجْهِ^(٦). وَهَذِهِ كَانَتْ مِيتَةً مِرْوَانَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حُدَيْرٍ، وَالِدِ أَحْمَدَ الْمُتَنَسِّكِ، وَمُوسَى وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ الْمَعْرُوفَيْنِ بَابْنِي لُبْنَى، مِنْ قِبَلِ قَطْرِ النَّدى

(١) المقاليـد: جمع مقلاد، المفتاح. قصد بذلك: التخلي عن الأمور والأعباء.

(٢) وردت في بعض الطبوعات: «وربما ذكر الواشي أَنَّ وجوه ما يُظْهَرُ الْمُحِبُّ مِنَ الْمَحَبَّةِ لَيْسَتْ بِصَحِيحَةٍ». تنظر ط. التونسية: (ص ١٠١).

(٣) جاءت العبارة في ط. التونسية على شيء من التغيير، فَوَرَدَ: «وهذا فَضْلٌ، وَإِنْ كَانَ شَدِيداً فِي النِّقْلِ، فَهُوَ أَيْسَرُ مُعَانَةً مِمَّا قَبْلَهُ» (ص ١٠١).

(٤) في ط. التونسية: «متفرقة» بدل «متفاوتة» (ص ١٠١).

(٥) في ط. التونسية: «دُنْيَاوِيٌّ».

(٦) هذه العبارة: «فَكَمْ صَرِيحٌ... لِهَذَا الْوَجْهِ» ساقطة من طبعة د. عباس.

جاريته، وفي ذلك أقول مُحذراً لبعض إخواني قطعةً منها:

[من الطويل]

وهل يأمنُ النسوانَ غيرُ مُغفلٍ
جهولٍ لأسبابِ الردى مُتعرِّضٍ^(١)
وكَمْ واردٍ حوضاً مِنَ الموتِ أسوداً
ترشّفه من طيبِ الطّعمِ أبيض

والثاني^(٢) واش يسعى للقطع بين المحبين، لينفرد بالمحبوب
ويستأثر به، وهذا أشدُّ شيء وأفظعُه^(٣)، وأجزمُ^(٤) لاجتهادِ الواشي
واستفادته بجُهدِه^(٥).

ومن الوشاة جنس ثالث، وهو واش يسعى بهما^(٦) جميعاً،
ويكشف سرهما، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المحبُّ مساعداً؛
وفي ذلك أقول:

[من الطويل]

عجبتُ لواشٍ ظلَّ يكشفُ أمرنا
وما يسوى أخبارنا يتنقّسُ
وماذا عليه من عنائي ولوعتي؟
أنا أكلُ الرُّمانَ والوُلْدُ تضرُسُ^(٧)

(١) في معظم الطبعات: «مُتَّارِضٌ» بمعنى: متعرض ومتصدّد. (الوسيط/أرض).

(٢) كان قد ذكر في (ص ١٧٦) ضربين من الوشاة، تحدّث عن أحدهما، وهذا هو الثاني.

(٣) في معظم الطبعات: «وأفطعُه». (٤) قرأها بعضهم: «وأجزعُه».

(٥) قرأها بعضهم: «واستفادة جُهدِه». (٦) بهما: بالمُحِبِّين.

(٧) من الأمثال العربية القديمة. «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون». وأصله وارد في العهد القديم، ونصه: «إِنَّ الآباءَ أَكَلُوا الحَصْرَمَ، وَأَسْنَانُ =

ولا بُدَّ أَنْ أوردَ ما يُشبهُ ما نحنُ فيه، وإنْ كَانَ خارجاً منه، وهو شيءٌ في بيانِ التَّنْقِيلِ والنَّمائِمِ. فالكلامُ يدعو بعضُهُ بعضاً كما شَرَطْنَا في أَوَّلِ الرِّسَالَةِ.

وما في جميعِ النَّاسِ شَرٌّ مِنَ الوُشَاةِ، وَهُمْ النَّمَامُونَ، وإنَّ النَّمِيمَةَ لَطَبَعَ يَدُلُّ عَلَى نَتَنِ الْأَصْلِ، ورداءةِ الْفَرْعِ، وَفَسَادِ الطَّيْعِ، وَخُبْثِ النِّسَاءِ، وَلَا بُدَّ لِصَاحِبِهِ مِنَ الْكَذِبِ. والنَّمِيمَةُ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الْكَذِبِ، وَنَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِهِ، وَكُلُّ نَمَامٍ كَذَابٌ، وما أَحْبَبْتُ كَذَاباً قَطُّ، وَإِنِّي لِأَسَامِخُ فِي إِخَاءِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ، وَإِنْ كَانَ عَظِيماً، وَأَكِلَ أَمْرَهُ إِلَى خَالِقِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَخَذَ مَا ظَهَرَ مِنْ أَخْلَاقِهِ، حَاشَا مَنْ أَعْلَمَهُ يَكْذِبُ، فَهُوَ عِنْدِي مَاحٍ لِكُلِّ مُحَاسِنَةٍ، وَمُعَفٌّ ^(١) عَلَى جَمِيعِ خِصَالِهِ، وَمُذْهَبٌ كُلُّ مَا فِيهِ؛ فَمَا أَرْجُو عَنْهُ خَيْراً أَصْلاً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ فَهُوَ يَتَوَبُّ عَنْهُ صَاحِبُهُ، وَكُلُّ ذَاِمٍ فَقَدْ يُمَكِّنُ الْاسْتِتَارَ بِهِ وَالتَّوْبَةَ مِنْهُ، حَاشَا الْكَذِبَ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الرَّجْعَةِ عَنْهُ، وَلَا إِلَى كِتْمَانِهِ حَيْثُ كَانَ. وما رَأَيْتُ قَطُّ، وَلَا أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى كَذَاباً تَرَكَ الْكَذِبَ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهِ، وَلَا بَدَأَتْ قَطُّ بِقَطِيعَةٍ ذِي مَعْرِفَةٍ إِلَّا أَنْ أَطْلَعَ لَهُ عَلَى الْكَذِبِ، فَحِينَئِذٍ أَكُونُ أَنَا الْقَاصِدَ إِلَى مُجَانَبَتِهِ وَالتَّعَرُّضَ لِمُتَارَكَتِهِ، وَهِيَ سِمَةٌ مَا رَأَيْتُهَا قَطُّ فِي أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ مَزْنُونٌ إِلَيْهِ بِشَرِّ فِي نَفْسِهِ ^(٢)، مَعْمُورٌ ^(٣)

= البنين ضرست». ينظر «الكتاب المقدس» - طبعة دار المشرق - سفر حزقيال - ١٨ - ص ١٧٩٨.

(١) مُعَفٌّ عَلَى جَمِيعِ خِصَالِهِ: مَاحٍ لَهَا وَمَزِيلٌ.

(٢) زَنَهُ بِالْشَيْءِ: اتَّهَمَهُ بِهِ، وَمَزْنُونٌ إِلَيْهِ بِشَرٍّ: مُتَّهَمٌ بِهِ. (اللسان/ زَنَنَ). ووردت العبارة في ط. التونسية: «إِلَّا وَهُوَ مَزْنُونٌ فِي نَفْسِهِ إِلَيْهِ بِشَقٍّ» (ص ١٠٣).

(٣) وردت في ط. التونسية: «مَعْمُورٌ عَلَيْهِ» (ص ١٠٣).

عليه لعاهة سوء في ذاته، نعوذ بالله من الخذلان.

وقد قال بعض الحكماء: «آخ مَنْ شُتَّ واجْتَنِبَ ثلاثة: الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، والمَلُولُ فإنه أوثق ما تكون به، لَطُولِ الصُّحْبَةِ وتأكُّدِها يخذلك، والكَذَابُ فإنه يجني عليك آمَنَ ما كُنْتَ فيه من حيث لا تشعُر».

وحديث عن رسول الله ﷺ: «حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١)؛ وعنه عليه السلام: «لَا يُؤْمِنُ الرَّجُلُ بِالْإِيمَانِ كُلَّهُ حَتَّى يَدَعَ الْكَذِبَ فِي الْمَزَاجِ»^(٢). حَدَّثَنَا بهذا أَبُو عَمْرٍو أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى بْنِ رِفَاعَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ أَبِي عُبَيْدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ عَنْ شَيْوَخِهِ، وَالْآخَرُ مِنْهُمَا مُسْنَدٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا).

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ صَفَاً كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ ﴿[الصف: ٣، ٤]. وعن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ سُئِلَ هَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: فَهَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: فَهَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: لَا». حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَحْمَدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ. وبهذا الإسناد، أَنَّ

(١) ينظر الحديث في «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» لأبي العباس القسطلاني - دار الفكر - دون ذكر مكان النشر وتاريخه - المجلد التاسع - ص ٢١.

(٢) ورد الحديث بنص قريب لما ذكره ابن حزم في «مسند الإمام أحمد بن حنبل» - المكتب الإسلامي - مج ٢/ ص ٣٥٢ و ٣٦٤ على التوالي.

رسول الله ﷺ قال: «لا خير في الكذب» في حديث سُئِلَ فيه . وبهذا الإسناد عن مالك أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «لا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَنْكُتُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ حَتَّى يَسْوَدَ الْقَلْبُ فَيُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَذَّابِينَ». وبهذا الإسناد عن ابن مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ»^(١).

وَرُوي أَنَّهُ أَنَاهُ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «يا رسولَ اللَّهِ، إِنِّي أُسْتَهْتَرُ»^(٢) بِثَلَاثٍ: الْخَمْرِ وَالزَّنا وَالْكَذِبِ. فَمُرْنِي أَيُّهَا أَتْرُكُ»، قَالَ: «اتْرُكِ الْكَذِبَ»، فَذَهَبَ عَنْهُ^(٣). ثُمَّ أَرَادَ الزَّنا فَفَكَّرَ فَقَالَ: «آتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَسْأَلُنِي: أَرَزَيْتَ؟ فَإِنْ قُلْتُ: نَعَمْ، حَدَّنِي، وَإِنْ قُلْتُ: لا، نَقَضْتُ الْعَهْدَ»، فَتَرَكَهُ. ثُمَّ كَذَلَكَ فِي الْخَمْرِ. فَعَادَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يا رسولَ اللَّهِ إِنِّي تَرَكْتُ الْجَمِيعَ».

فَالْكَذِبُ أَضْلُ كُلِّ فَاحِشَةٍ، وَجَامِعُ كُلِّ سُوءٍ، وَجَالِبٌ لِمَقْتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)^(٤) قَالَ: «كُلُّ

(١) ورد الحديث في «صحيح مسلم» - ج ٤/٤٥ كتاب البر/ الحديث رقم ١٠٥/١٠٣ ص ٢٠١٣. ينظر الحديثان (١٠٣ - ١٠٤) - ص ٢٠١٢. وقد وردا بمعني ولفظ مشابهين. وورد في «مسند الإمام أحمد» - المكتب الإسلامي - ج ١/ ص ٣ - ٥ - على التوالي.

(٢) ورد في ط. التونسية: «أُسْتَتِرُ» (ص ١٠٤). واسْتَهْتَرَ بالشيء، يُسْتَهْتَرُ: فتن به ولزمه غير مبالٍ بنقد ولا موعظة. (الوسيط/ هتَر).

(٣) في ط. التونسية: «فذهب منه» (ص ١٠٤).

(٤) هذا نص ما جاء في ط. د. عباس، وقد وَرَدَ في ط. التونسية غيرُه وهو: «وعن أبي بكر... أَنَّهُ قَالَ: لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ». وعن ابن مسعود =

الْخِلَالِ يُطْبِعُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ». وعن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا: مَنْ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(١).

وَهَلِ الْكُفْرُ إِلَّا كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهُ الْحَقُّ، وَهُوَ يُحِبُّ الْحَقَّ، وَبِالْحَقِّ قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَمَا رَأَيْتُ أُخْرَى مِنْ كَذَابٍ، وَمَا هَلَكَتِ الدُّوْلُ، وَلَا هَلَكَتِ الْمَمَالِكُ، وَلَا سُفِكَتِ الدِّمَاءُ ظُلْمًا، وَلَا هُتِكَتِ الْأَسْتَارُ بِغَيْرِ التَّمَائِمِ وَالْكَذِبِ، وَلَا أُكْدَتِ الْبَغْضَاءُ وَالْإِحْنُ^(٢) الْمُرْدِيَةُ إِلَّا بِنَمَائِمٍ لَا يَحْطَى صَاحِبُهَا إِلَّا بِالْمَقْتِ وَالْخِزْيِ وَالذُّلِّ، وَأَنْ يَنْظُرَ مِنْهُ الَّذِي يَنْقُلُ إِلَيْهِ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ بِالْعَيْنِ الَّتِي يَنْظُرُ بِهَا إِلَى الْكَلْبِ^(٣).

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(٤) [الْهُمَزَةُ: ١]. وَيَقُولُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الْحُجُرَاتُ: ٦]، فَسَمَى النُّقْلَ بِاسْمِ الْفُسُوقِ، وَيَقُولُ: ﴿وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَاْفٍ مَّهِينٍ هَمَزٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ

= (رضي الله عنه) أنه قال: «كُلُّ الْخِلَالِ يَطْبِعُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ، إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ».

(١) ورد الحديث بلفظ مشابه في «صحيح مسلم» - ج ١ - كتاب الإيمان - الأحاديث (١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩) - ص ٧٨. وفي «مسند الإمام أحمد» - ج ٢/ ص ٣٥٧.

(٢) الْإِحْنُ: جمع إْحْنَةٍ، وهي: الْحِفْظُ وَالضُّغْنُ. (الوسيط/ أَحْن).

(٣) في ط. التونسية: «من الكلب» (ص ١٠٥).

(٤) الْهُمَزَةُ: الهامز، وهو العِيَابُ فِي الْغَيْبِ الَّذِي يَغْمَزُ مِنْ قَنَاةِ الْآخِرِينَ. وَاللُّمَزَةُ: الْعِيَابُ لِلنَّاسِ فِي وُجُوهِهِمْ. وَكَلَا الْفَلْطَتَيْنِ: الْهُمَزَةُ وَاللُّمَزَةُ تَسْتَعْمَلَانِ لِلْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ.

زَنِيمٍ^(١) [القلم: ١٣]. والرَّسُولُ عليه السَّلَامُ يقولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ»^(٢) ويقولُ: «وإِيَّاكُمْ وَقَاتِلَ الثَّلَاثَةِ»، يَعْنِي الْمُنْقَلَ وَالْمُنْقُولَ إِلَيْهِ وَالْمُنْقُولَ عَنْهُ. وَالْأَحْنَفُ^(٣) يَقُولُ: «الثَّقَةُ لَا يَبْلُغُ». وَحَقُّ لَذِي الْوَجْهِينِ^(٤) أَلَّا يَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا؛ وَهُوَ مَا يَجْعَلُهُ مِنْ أَحْسَنِ الطَّبَائِعِ وَأَرْذَلِهَا.

ولي إلى أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى الثَّقَفِيِّ الشَّاعِرِ^(٥) رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَدْ نَقَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِي عَنِّي كَذِبًا عَلَى جِهَةِ الْهَزْلِ،

(١) مهين: ضعيف فيه حَقَارَةٌ وَصُغُرٌ، وَقِيلَ إِنَّ مَعْنَاهَا هُنَا: الْفَاجِرُ، وَقَلِيلُ الرَّأْيِ وَالتَّمْيِيزِ. (اللُّسَانُ/مَهَنَ). وَالْعُتْلُ: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ، الْجَافِي الْغَلِيظِ. (اللُّسَانُ/عُتْلَ). وَالزَّنِيمُ: الدَّعِي، وَاللَّئِيمُ الْمَعْرُوفُ بِلُؤْمِهِ وَشَرِّهِ. (اللُّسَانُ وَالْوَسِيطُ/زَنَمَ).

(٢) الْقَتَاتُ: مِنَ الْقَتِّ: وَهُوَ الْكَذِبُ وَالنَّمِيمَةُ. وَالْقَتَاتُ: الَّذِي يَتَسَمَّعُ أَحَادِيثَ النَّاسِ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فَيَنْمُ عَلَيْهِمْ، وَيُخْبِرُ أَعْدَاءَهُمْ. (اللُّسَانُ/قَتَ).

(٣) الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ حُصَيْنِ الْمُرِّي السَّعْدِيُّ الْمُنْقَرِي التَّمِيمِيُّ، أَبُو بَحْرٍ، سَيِّدُ تَمِيمٍ، وَأَحَدُ الْعِظَمَاءِ الدَّهَاءِ الْفَصَحَاءِ الشُّجْعَانِ الْفَاتِحِينَ. وَلَدَ فِي الْبَصْرَةِ سَنَةَ (٣ ق. هـ)، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ وَلَمْ يَرَهُ. وَوَفَدَ عَلَى عَمْرِ بْنِ أَلْتِ الْخَلِيفَةِ إِلَيْهِ، فِي الْمَدِينَةِ. يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي الْحِلْمِ، وَأَخْبَارُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَهُ خُطُبٌ وَكَلِمَاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالْبُلْدَانِ. تَوَفِيَ فِي الْكُوفَةِ سَنَةَ (٧٢ هـ). أَعْلَامُ الزَّرْكَلِيِّ: ج ١/ص ٢٧٦.

(٤) ذُو الْوَجْهِينِ وَاللَّسَانَيْنِ: الَّذِي يَقُولُ لَكَ مَا يَسْرُكُ فِي حُضُورِكَ وَمَا يَسِيءُ إِلَيْكَ فِي الْغِيَابِ.

(٥) إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَيْسَى الثَّقَفِيِّ: (أَبُو إِسْحَاقَ): أَوْرَدَ الْحُمَيْدِيُّ فِي «جَذْوَةِ الْمُقْتَبَسِ» تَرْجَمَةً لِمُحَدِّثِ أَنْدَلُسِيٍّ يَحْمِلُ هَذَا الْأَسْمَ نَفْسَهُ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ وَفَاتِهِ كَانَتْ سَنَةَ (٢٥٦ هـ)، مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُ عَاشَ قَبْلَ ابْنِ حَزْمٍ بِأَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ عَامٍ. وَلَمْ أَجِدْ تَرْجَمَةً لِمَنْ يَحْمِلُ هَذَا الْأَسْمَ مِنْ مُعَاَصِرِي ابْنِ حَزْمٍ. يَنْظُرُ: «جَذْوَةُ الْمُقْتَبَسِ»: ج ١/ص ٢٣٨ - ٢٤١. وَ«بَغِيَةُ الْمَلْتَمَسِ»: ج ١/ص ٢٦٨.

وَكَانَ هَذَا الشَّاعِرُ كَثِيرَ الْوَهْمِ، فَأَغْضَبَهُ^(١) وَصَدَّقَهُ، وَكِلَاهُمَا كَانَ لِي صَدِيقًا، وَمَا كَانَ النَّاقِلُ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْمُزَاحِ جَمَّ الدُّعَابَةِ، فَكَتَبْتُ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ - وَكَانَ يَقُولُ بِالْخَبْرِ - شِعْرًا، مِنْهُ:

[من الطويل]

وَلَا تَتَبَدَّلْ^(٢) قَالَةً قَدْ سَمِعْتَهَا
نُقَالُ وَلَا تَدْرِي الصَّحِيحَ بِمَا تَدْرِي
كَمَنْ قَدْ أَرَاكَ الْمَاءَ لَلَّالَ أَنْ بَدَا
فَلَاقَى الرَّدَى فِي الْأَفْيَحِ الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ^(٣)
وَكَتَبْتُ إِلَى الَّذِي نَقَلَ عَنِّي، شِعْرًا مِنْهُ:

[من الطويل]

وَلَا تُدْغِمَنَّ^(٤) فِي الْجِدِّ مَرْحًا كَمُولِجٍ
فَسَادَ عِلَاجِ النَّفْسِ طَيِّ صِلَاحِهَا
وَمَنْ كَانَ نَقْلَ الزُّورِ أَمْضَى سِلَاحِهِ
كَمِثْلِ الْخُبَارَى تَتَّقِي بِسُلَاحِهَا^(٥)

(١) فِي بَعْضِ الْقَرَاءَاتِ: «فَأَخَذَ بِهِ».

(٢) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «تَتَقَبَّلُ».

(٣) رَدَدَ الشُّطْرَ الْأَوَّلَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «كَمْ قَدْ أَرَاكَ الْمَاءَ لَلَّالَ إِنْ بَدَا»، وَهُوَ مَكْسُورٌ وَمُضْطَرَّبٌ. وَالْأَلَّ: السَّرَابُ، أَوْ هُوَ خَاصٌّ بِمَا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ. وَالْأَفْيَحُ: الْوَاسِعُ. وَالْمَهْمَةُ: الْمَفَازَةُ الْبَعِيدَةُ، وَالْبَلَدُ الْمُقْفَرُ.

(٤) رَدَدَ فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ: «وَلَا تَزْعَمَا»، وَفِي بَعْضِهَا: «وَلَا تَمُزِّجَنَّ».

(٥) الْخُبَارَى: طَائِرٌ رَمَادِي طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْمَنْقَارِ. وَالشُّطْرُ إِشَارَةٌ إِلَى مِثْلِ عَرَبِيٍّ مَعْرُوفٍ هُوَ: «أَسْلَحُ مِنْ خُبَارَى». وَسُلَاحُ الْخُبَارَى وَالطَّيْرِ وَغَيْرِهِ: كُلُّ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْبَطْنِ مِنْ فُضْلَاتٍ. وَقِيلَ إِنَّ الْخُبَارَى تَسْلُحُ سَاعَةَ الْخَوْفِ. وَالْمِثْلُ وَارَدَ فِي «جُمُهِرَةِ الْأَمْثَالِ» لِلْعَسْكَرِيِّ - ج ١/ ص ٥٣٤. وَ«الْحَيَوَانُ» لِلْبَاحِظِ =

وكانَ لي صديقٌ مرَّةً، وكَثُرَ التَّدْخِيلُ^(١) بيني وبينه، حتى كَدَحَ^(٢) ذلكَ فيه، واستَبَانَ في وجهه وفي لَحْظِهِ، وطَبِعتُ على التَّائِي والتَّرْبُصِ والمَسَالِمَةِ ما أَمَكَنْتُ^(٣)، وَوَجَدْتُ بالانْخِفاصِ سبيلاً إلى مُعاوَدَةِ المَوَدَّةِ، فكَتَبْتُ إليه شِعْراً، منه:

[من الطويل]

ولي في الذي أبدي، مرام لو أنَّها
بَدَتْ، ما أدعى حُسْنَ الرِّمَايةِ وَهَرَزُ^(٤)
وأقولُ مُخاطِباً لِعُبَيْدِ الله بنِ يَحْيَى الجَزِيرِيِّ^(٥) الذي يَحْفَظُ لِعَمِّهِ

= ج ٢/ ص ٣٠٦. وفي مصادر أخرى ذكرها يعقوب في «موسوعة أمثال العرب»: ج ٢/ ص ٣٦٥.

(١) قرأها المستشرق الفرنسي برشيه: «التدجيل». تنظر «رسائل ابن حزم» بتحقيق د. عباس ١/ ١٧٧، الحاشية الخامسة. والتدخيل: كثرة الاختلاط والمداخلة.

(٢) كَدَحَ: أثَّرَ فيه، وظهرت علاماته عليه.

(٣) وتقرأ: «ما أَمَكَنْتُ».

(٤) وَهَرَزَ: ورد في حاشية ط. التونسية «هرمز» (ص ١٠٦) والصحيح «وهرز». وهو قائد الجيش الفارسي الذي أرسله كسرى على رأس حملة لنصرة الأمير سيف بن ذي يزن في قتال الأحباش لإخراجهم من اليمن. ضُرِبَ فيه المثل في دقة الرماية. تنظر «دائرة المعارف» للمعلم بطرس البستاني: مج ١٠/ ص ٣٢٥.

(٥) تذكر المصادر عدة أشخاص ممن حملوا هذا الاسم في عصر ابن حزم إلا أن ترجمة أيٍّ منهم لا تنطبق على ما يذكره ابن حزم - أعلاه - من سوء أخلاق هذا الرجل، وعدم الوثوق به. ويرى د. عباس أنه من العبث مساءلة المصادر عما كان في مثل أخلاقه. أما عمُّه المذكور فهو عبد الملك بن إدريس الأزدي المعروف بابن الجزيري، وقد ذكره الحُمَيْدي في «جدوة المقتبس» بلقب الجزيري، وذكره ابن بشكوال في «الصلة» بلقب ابن الجزيري، وترجم كلاهما له على أنه عالم أديب شاعر فطن بليغ صاحب =

الرَّسَائِلَ الْبَلِيغَةَ، وَكَانَ طَبْعُ الْكَذِبِ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ، وَاسْتَحَوَذَ عَلَى عَقْلِهِ، وَأَلْفَهُ أَلْفَةَ النَّفْسِ الْأَمَلِ، وَيُؤَكِّدُ نَفْلَهُ وَكَذِبَهُ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ الْمُعْلَظَةِ مُجَاهِرًا بِهَا، أَكْذَبَ مِنَ السَّرَابِ، مُسْتَهْتَرًا بِالْكَذِبِ مَشْغُوفًا بِهِ، لَا يَزَالُ يُحَدِّثُ مَنْ قَدْ صَحَّ عِنْدَهُ أَنَّهُ لَا يُصَدِّقُهُ، فَلَا يَزْجُرُهُ ذَلِكَ عَنْ أَنْ يُحَدِّثَ بِالْكَذِبِ:

[من الطويل]

بدا كُلُّ مَا كَتَمْتُهُ بَيْنَ مُخْبِرٍ
وَحَالٍ أَرْتَنِي قُبْحَ عَقْدِكَ بَيْنَنَا
وَكَمْ حَالَةٍ صَارَتْ بَيَانًا بِحَالَةٍ
كَمَا تُثَبِّتُ الْأَحْكَامَ بِالْحَبْلِ الزُّنَا
وفيه أقولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من الطويل]

أَنْتُمْ مِنَ الْمِرَاةِ فِي كُلِّ مَا دَرَى
وَأَقْطَعُ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ قُضْبِ الْهِنْدِ^(١)
أَظُنُّ الْمَنَايَا وَالزَّمَانَ تَعَلَّمَا
تَحْيِلُهُ بِالْقَطْعِ بَيْنَ ذَوِي الْوُدِّ
وفيه أيضاً أقولُ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ:

[من الطويل]

وَأَكْذَبُ مِنْ حُسْنِ الظُّنُونِ حَدِيثُهُ
وَأَقْبَحُ مِنْ دَيْنِ وَفَقْرٍ مُلَازِمٍ

= رسائل وأشعار مروية، وهو أحد وزراء الدولة العامرية، وقد ذكرت المصادر بعض شعره. توفي قبل سنة (٤٠٠هـ) بمدة، وقيل سنة (٣٩٤هـ) في إحدى غزواته. يُنظر: «جذوة المقتبس»: ٢/ص ٤٤٤. و«الصلة»: ج ٢/ص ٥٢٢.
(١) في بعض الطبوعات: «من قَصْبِ الْهِنْدِ». والقَصْبُ: جمع قضيب: وهو السيف.

أوامرُ ربِّ العَرْشِ أَضِيعُ عِنْدَهُ
 وَأَهْوَنُ مِنْ شَكْوَى إِلَى غَيْرِ رَاحِمٍ
 تَجَمَّعَ فِيهِ كُلُّ خِزْيٍ وَفَضْحَةٍ
 فَلَمْ يُبَقِّ شَتْمًا فِي الْمَقَالِ لِشَاتِمٍ
 وَأَثْقَلَ مِنْ عَذْلِ عَلَى غَيْرِ قَابِلٍ
 وَأَبْرَدُ بَرْدًا مِنْ مَدِينَةِ سَالِمٍ^(١)
 وَأَبْغَضُ مِنْ بَيْنٍ وَهَجَرٍ وَرُقْبَةٍ
 جُمِعْنَ عَلَى حَرَّانٍ حَيْرَانَ هَائِمٍ^(٢)

وليسَ مَنْ نَبَّهَ غَافِلًا، أَوْ نَصَحَ صَدِيقًا، أَوْ حَفِظَ مُسْلِمًا، أَوْ
 حَكَى عَنْ فَاسِقٍ، أَوْ حَدَّثَ عَنْ عَدُوٍّ - مَا لَمْ يَكُنْ يَكْذِبُ وَلَا
 يُكْذِبُ، وَلَا تَعَمَّدَ الضَّعَائِنَ - مُتَقَلًّا^(٣). وَهَلْ هَلَكَ الضُّعَفَاءُ، وَسَقَطَ
 مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ، إِلَّا فِي قِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِالنَّاصِحِ مِنَ النَّمَامِ، وَهُمَا
 صِفَتَانِ مُتَقَارِبَتَانِ فِي الظَّاهِرِ، مُتَفَاوِتَتَانِ فِي الْبَاطِنِ؛ إِحْدَاهُمَا دَاءٌ

(١) مدينة سالم: Medina - Cel, Medinacelli مدينة بالأندلس. ذكر ياقوت أنها
 تتصل بأعمال باروشة (شرقي قرطبة)، كانت من أعظم المدن وأشرفها
 وأكثرها شجراً وماءً. ألفها طارق بن زياد لما فتح الأندلس خراباً، فَعُمِّرَتْ
 في الإسلام ثم صارت بيد الإفرنج. معجم البلدان: مج ٣/ ص ١٩٤. ويسمى
 الإسبان اليوم مدينا سالي: تقع على الضفة اليسرى لنهر جالون في شمال
 شرق إسبانيا. تنظر: دائرة المعارف الإسلامية: بترجمة: أحمد الشنتاوي
 ورفيقه - دار المعرفة - بيروت - دون تاريخ - مج ١١/ ص ٦٨.

(٢) الرُّقْبَةُ: التحفظ والفرغ. ولها معان أخرى منها المراقبة. (اللسان/رقب).
 وَالْحَرَّانُ: من الحرّ: من أصابه عطش شديد. (الوسيط/حرّ). وفي البيت أثرٌ
 لبعض أمثال العرب، منها قولهم: «أشأم من غراب البين». و«أقطع من
 البين»، ومثله في ذم الرُّقْبَةِ وقسوة الهجر.

(٣) في بعض القراءات: «ناقلاً».

والأخرى دواء؟ والثاقبُ القريحة لا يخفى عليه أمرُهُما، لكنَّ الناقلَ مَنْ كَانَ تَنْقِيلُهُ غَيْرَ مَرْضِيٍّ فِي الدِّيَانَةِ، وَنَوَى بِهِ التَّشْتِيتَ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ، وَالتَّضْرِيبَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، وَالتَّحْرِيشَ ^(١) وَالتَّوْبِيشَ ^(٢) وَالتَّرْقِيشَ ^(٣). فَمَنْ خَافَ إِنْ سَلَكَ طَرِيقَ النَّصِيحَةِ أَنْ يَقَعَ فِي طَرِيقِ التَّمِيمَةِ، وَلَمْ يَثِقْ لِنَفَازِ تَمْيِيزِهِ، وَمَضَاءِ تَقْدِيرِهِ، فِيمَا يَرِدُّهُ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ وَمُعَامَلَةِ أَهْلِ زَمَانِهِ، فَلْيَجْعَلْ دِينَهُ دَلِيلًا وَسِرَاجًا يَسْتَضِيءُ بِهِ، فَحَيْثُمَا سَلَكَ بِهِ سَلَكٌ وَحَيْثُمَا أَوْقَفَهُ وَقَفٌ وَكَفِيلًا لَهُ بِالنَّظَرِ، وَزَعِيمًا بِالْإِصَابَةِ، وَضَمَانًا لِلْفَلَجِ ^(٤) وَالْخُلَاصِ ^(٥). فَشَارِعُ الشَّرِيعَةِ، وَبَاعِثُ الرُّسُولِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَمُرْتَبُ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، أَعْلَمُ بِطَرِيقِ الْحَقِّ، وَأَذْرَى بِعَوَاقِبِ السَّلَامَةِ وَمَغَبَّاتِ ^(٦) النَّجَاةِ، مِنْ كُلِّ نَازِلٍ لِنَفْسِهِ بِزَعْمِهِ، وَبَاحِثٍ بِقِيَاسِهِ فِي ظَنِّهِ.

(١) التحريش: الإغراء والإفساد، والتعرُّض للآخر لتهيينه. وورد في بعض الطبقات: «التحريض».

(٢) التوبيش: وَبَشُ الكلام: رديئه (اللسان/وبش) وقرئت في بعض الطبقات: «التوحيش» و«التقريش».

(٣) التَّرْقِيش: سبق شرحه، وهو تزوين الكلام وتنميته.

(٤) الفَلَج: الظَّفَرُ بالحاجة، وَفَلَجَ الرَّجُلُ، يَفْلُجُ، فَلَجًا: ظَفَرَ.

(٥) العبارة: «وكفيلًا له بالنظر... والخلاص» سقطت من عدة طبقات، وثبتها

د. عباس في طبعته (ص ١٧٩).

(٦) المَعْبَةُ من كل شيء: عاقبته وأخيره.

٢٠

باب الوصل

ومن وجوه العشق: الوصل، وهو حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والشور الدائم، ورحمة من الله عظيمة. ولولا أن الدنيا ممر^(١) ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاه، لقننا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه، وكمال الأمان، ومُنْتَهَى الأراجي^(٢).

ولقد جربت اللذات على تصرفها، وأدرت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان، ولا للمال المستفاد^(٣)، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن من بُعد^(٤) الخوف، ولا الترويح على المال^(٥)، من الموقع في النفس ما للوصل، ولا سيما بعد طول الامتناع، وحلول الهجر، حتى

(١) في ط. التونسية: «دار ممر» (ص ١٠٩).

(٢) الأراجي، جمع أرجية (أفعولة) كل ما أخر وأرجى. وتحمل هنا معنى ما يتمنى ويُرجى.

(٣) قرأها محقق التونسية: «ولا المال المستفاد، ولا الوجود... ولا الأوبة... ولا الأمن...» (ص ١٠٩).

(٤) ورد في ط. التونسية: «ولا الأمن بعد الخوف» (ص ١٠٩).

(٥) قرأ المستشرق برشيه: «ولا الأمن من بعد الخوف والنزوح عن الآل...؟! (تتظر رسائل ابن حزم بتحقيق د. عباس: ١/ ١٨٠ - الحاشية الأولى).

يَتَأَجَّجَ عَلَيْهِ الْجَوَى، وَيَتَوَقَّدَ لَهَيْبِ الشَّقْوِ، وَتَتَضَرَّمُ نَارُ الرَّجَاءِ. وما إصنافُ ^(١) النَّبَاتِ بَعْدَ غِبِّ الْقَطْرِ، وَلَا إِشْرَاقُ الْأَزَاهِيرِ بَعْدَ إِقْلَاعِ السَّحَابِ السَّارِيَّاتِ فِي الزَّمَانِ السَّجَسَجِ ^(٢)، وَلَا خَرِيرُ الْمِيَاهِ الْمُتَخَلِّلَةِ لِأَفَانِينَ الثُّوَارِ ^(٣)، وَلَا تَأْتِقُ الْقُصُورِ الْبَيْضِ، قَدْ أَحْدَقَتْ بِهَا الرِّيَاضُ ^(٤) الْخَضِرُ، بِأَحْسَنَ مِنْ وَصْلِ حَبِيبٍ قَدْ رُضِيَتْ أَخْلَاقُهُ، وَحُمِدَتْ غَرَائِزُهُ، وَتَقَابَلَتْ فِي الْحُسْنِ أَوْصَافُهُ؛ وَأَنَّهُ لَمُعْجَزُ أَلْسِنَةِ الْبُلْغَاءِ، وَمُقَصِّرٌ فِيهِ بَيَانُ الْفُصَحَاءِ، وَعِنْدَهُ تَطْيِشُ الْأَلْبَابِ، وَتَعَزُّبُ الْأَفْهَامِ ^(٥)؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من البسيط]

وسائل لي عمالي من العُمَر

وقد رأى الشَّيْبَ فِي الْفُؤْدَيْنِ وَالْعُدْرِ ^(٦)

(١) صَنَّفَ الشَّجَرُ: بَدَأَ وَرْقُهُ وَتَنَوَّعَ، وَالْإِصْنَافُ هُنَا بَدْءُ الْإِيرَاقِ، وَقَرَأَهَا مُحَقِّق ط. التَّوْنِسِيَّةُ: «أَصْنَافٌ» أَيْ ضُرُوبٌ وَأَنْوَاعٌ (ص ١٠٩). أَمَّا الْمُسْتَشْرِقُ بِرَشِيهِ فَجَعَلَهَا: «إِيرَاقٌ» وَهُوَ تَدَخُّلٌ مِنْهُ. (تَنْظُرُ رَسَائِلُ ابْنِ حَزْمَ بِتَحْقِيقِ د. عَبَّاسٍ: ١٨٠/١ - الْحَاشِيَّةُ الثَّالِثَةُ).

(٢) السَّجَسَجُ: يَوْمٌ سَجَسَجَ: لَا حَرَّ فِيهِ وَلَا بَرْدٌ. وَهُوَ أَيْ سَجَسَجَ: مُعْتَدِلٌ (الْوَسِيطُ/السَّجَسَجُ).

(٣) الْأَفَانِينَ: جَمْعُ أَفْنُونٍ، وَهُوَ الْغُصْنُ الْمُتَلَفُّ، وَالنَّوْعُ مِنَ الْفَنِّ. (الْوَسِيطُ/فَنٌّ)، وَالثُّوَارُ: الزَّهْرُ وَاحِدَتُهُ ثُوَارَةٌ.

(٤) فِي قِرَاءَةِ الْمُسْتَشْرِقِ بِرَشِيهِ: «قَدْ أَحْدَقْنَ بِالرِّيَاضِ» (تَنْظُرُ رَسَائِلُ ابْنِ حَزْمَ بِتَحْقِيقِ د. عَبَّاسٍ: ١٨١/١ - الْحَاشِيَّةُ الْأُولَى).

(٥) تَعَزَّبُ الْأَفْهَامُ: تَبَعَّدَ عَنِ الصَّوَابِ وَالرَّأْيِ. وَعَزَبَ الشَّيْءُ، يَعْزُبُ، عَزُوبًا: بَعْدَ وَخْفِيٍّ. (الْوَسِيطُ/عَزَبَ).

(٦) الْفُؤْدُ: جَانِبُ الرَّأْسِ مِمَّا يَلِي الْأُذْنَ، وَالشَّعْرُ النَّابِتُ فَوْقَهُ، وَهُمَا فُؤْدَانُ. وَيُقَالُ: «حَلَّ الشَّيْبُ بِفُؤْدِيهِ». وَالْعُدْرَةُ: الْخُصْلَةُ مِنَ الشَّعْرِ، وَجَمْعُهَا عُذْرٌ (الْوَسِيطُ/فَادٌ، وَعُذْرٌ).

أَجَبْتُه: سَاعَةً لَا شَيْءَ أَحْسَبُهُ
 عُمْراً سِوَاهَا بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالنَّظَرِ
 فَقَالَ لِي: كَيْفَ ذَا بَيْنُنَا لِي فَلَقَدْ
 أَخْبَرْتَنِي أَشْنَعَ الْأَنْبَاءِ وَالْخَبَرِ
 فَقُلْتُ: إِنَّ الَّتِي قَلْبِي بِهَا عَلِقُ
 قَبْلْتُهَا قُبْلَةً يَوْمًا عَلَى خَطَرٍ
 فَمَا أَعُدُّ وَلَوْ طَالَتْ سِنِّي سِوَى
 تِلْكَ السُّوَيْعَةِ بِالتَّحْقِيقِ مِنْ عُمْرِي
 وَمِنْ لَذِيذِ مَعَانِي الْوَصْلِ: الْمَوَاعِيدُ؛ وَإِنَّ لِلْوَعْدِ الْمُتَنَظَّرِ مَكَاناً
 لَطِيفاً مِنْ شَغَافِ الْقَلْبِ؛ وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ:
 أَحَدُهُمَا: الْوَعْدُ بِزِيَارَةِ الْمُحِبِّ لِمَحْبُوبِهِ، وَفِيهِ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:
 [من البسيط]

أَسَامِرُ الْبَدْرِ لَمَّا أَبْطَأَتْ وَأَرَى
 فِي نَوْرِهِ مِنْ سَنَا إِشْرَاقِهَا عَرَضاً
 فَبِتُّ مُشْتَطِطاً وَالْوُدُّ مُخْتَلِطاً^(١)
 وَالْوَصْلُ مُنْبَسِطاً وَالْهَجْرُ مُنْقَبِضاً
 وَالثَّانِي: انْتِظَارُ الْوَعْدِ مِنَ الْمُحِبِّ أَنْ يَزُورَ مَحْبُوبَهُ. وَإِنَّ لِمَبَادِي
 الْوَصْلِ وَأَوَائِلِ الْإِسْعَافِ لَتَوَلُّجاً^(٢) عَلَى الْفَوَائِدِ لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنَ
 الْأَشْيَاءِ. وَإِنِّي لَا عَرَفُ مَنْ كَانَ مُمْتَحِناً بِهَوَى فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ
 الْمُصَاقِبَةِ، فَكَانَ يَصِلُ مَتَى شَاءَ بِلَا مَانِعٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى غَيْرِ النَّظَرِ

(١) قرأ بعضهم هذا الشطر:

فَبِتُّ مُغْتَبِطاً وَالْوُدُّ مُغْتَبِطاً

(٢) قرأ المستشرق برشيه: «الثلوجا».

والمُحَادَثَةُ زَمَانًا طَوِيلًا، لَيْلًا مَتَى أَحَبَّ وَنَهَارًا، إِلَى أَنْ سَاعَدَتْهُ
الْأَقْدَارُ بِإِجَابَةٍ، وَمَكَّنَتْهُ بِإِسْعَادٍ، بَعْدَ يَأْسِهِ، لِطَوِيلِ الْمُدَّةِ، وَلَعَهْدِي
بِهِ قَدْ كَادَ أَنْ يَخْتَلِطَ عَقْلُهُ فَرَحًا، وَمَا كَادَ يَتَلَحُّقُ كَلَامُهُ سُرُورًا،
فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ :

[من البسيط]

بِرَغْبَةٍ^(١) لَوْ إِلَى رَبِّي دَعَوْتُ بِهَا
لَكَانَ ذَنْبِي عِنْدَ اللَّهِ مَغْمُورًا
وَلَوْ دَعَوْتُ بِهَا أَسَدَ الْفَلَاحِ لَغَدَا
إِضْرَارُهَا عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَقْصُورًا
فَجَادَ بِاللَّئِمِ لِي مِنْ بَعْدِ مَنَعَتِهِ
فَاهْتَجَّ مِنْ لَوْعَتِي مَا كَانَ مَغْمُورًا
كَشَارِبِ الْمَاءِ كِي يُطْفِئِي الْغَلِيلَ بِهِ
فَغُصَّ فَانْصَاعَ فِي الْأَجْدَاثِ مَقْبُورًا
وَقُلْتُ :

[من الْمُتَقَارِبِ]

جَرَى الْحُبُّ مِنِّي مَجْرَى النَّفْسِ
وَأَعْطَيْتُ عَيْنِي عِنَانَ الْفَرَسِ
وَلِي سَيِّدٌ لَمْ يَزَلْ نَافِرًا
وَرُبَّتْ مَا جَادَ لِي فِي الْخُلْسِ
فَقَبَّلْتُهُ طَالِبًا رَاحَةً
فَزَادَ أَلِيلًا^(٢) بِقَلْبِي الْيَبَسِ

(١) قرأ المستشرق برشيه : «بي رغبة» .

(٢) الأليل : الأنين ، وقلق المحموم واضطرابه .

وكان فؤادي كَنَبَتْ هَشِيم
يَبِيسَ رَمَى فِيهِ رَامِ قَبَسٍ^(١)

ومنها:

ويا جَوْهَرَ الصَّيْنِ سُحْقاً فَقَدْ
غَنَيْتُ بِياقُوتَةِ الأَنْدَلُسِ

خبر

وإني لأَعْرِفُ جاريةً اشْتَدَّ وَجْدُهَا بَفَتَى مِنْ أبناءِ الرُّؤَسَاءِ، وهو لا عِلْمَ عِنْدَهُ، وَكَثُرَ غَمُّهَا بِهِ وَطَالَ أَسْفُهَا إِلَى أَنْ ضَنَيْتُ بِحُبِّهِ، وهو بَعْرَارَةٌ^(٢) الصَّبَا لا يَشْعُرُ؛ وَيَمْنَعُهَا مِنْ إِبْدَاءِ أَمْرِهَا إِلَيْهِ الْحَيَاءُ مِنْهُ، لَأَنَّهَا كَانَتْ بِكُراً بِخَاتِمِهَا^(٣)، مَعَ الإِجْلَالِ لَهُ عَنِ الْهُجُومِ عَلَيْهِ بِمَا لا تَدْرِي لَعَلَّهُ لا يُوَافِقُهُ. فَلَمَّا تَمَادَى الْأَمْرُ - وَكَانَا الْفَيْنِ فِي النَّشْأَةِ - شَكْتُ ذَلِكَ إِلَى امْرَأَةٍ جَزَلَةٍ الرَّأْيِ^(٤) كَانَتْ تَثِقُ بِهَا لِتَوَلِّيْهَا تَرْبِيَّتَهَا، فَقَالَتْ لَهَا: عَرَضِي لَهُ بِالشَّعْرِ، فَفَعَلَتِ الْمَرْءَ بَعْدَ الْمَرْءِ، وَهُوَ لَا يَأْبَهُ فِي كُلِّ هَذَا. وَلَقَدْ كَانَ لَقِيناً^(٥) ذَكِيّاً، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَظُنْ ذَلِكَ، فَيَمِيلُ إِلَى تَفْتِيشِ^(٦) الْكَلَامِ بِوَهْمِهِ، إِلَى أَنْ عِيلَ صَبْرُهَا، وَضَاقَ صَدْرُهَا، وَلَمْ تُمَسِّكْ نَفْسَهَا فِي قَعْدَةٍ كَانَتْ لَهَا مَعَهُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي مُنْفَرِدَيْنِ. وَلَقَدْ كَانَ - يَعْلَمُ اللَّهُ - عَفِيفاً مُتَصَاوِناً بَعِيداً عَنِ

(١) الْقَبَسُ: الشُّعْلَةُ مِنَ النَّارِ.

(٢) الْعَرَارَةُ: الْغَفْلَةُ، وَحِدَاثَةُ السَّنِّ.

(٣) الْخَاتِمُ: (بِفَتْحِ التَّاءِ وَكسرها) الْبَكَارَةُ. وَيُقَالُ: رُفَّتْ إِلَيْهِ بِخَاتِمِهَا.

(٤) ذَاتَ رَأْيٍ حَكِيمٍ أَوْ مُحْكَمٍ.

(٥) اللَّقْنُ: الذَّكِيُّ الْحَصِيفُ، الَّذِي يَسْمَعُ جَيِّداً وَيَسْتَوْعِبُ مَا يُلْقَنُهُ.

(٦) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «تَفْتِيشٍ».

المعاصي، فلما حان قيامها عنه بَدَرَتْ إليه، فقبَّلَتْهُ في فَمِهِ، ثُمَّ وَلَّتْ في ذلك الحين ولم تُكَلِّمْهُ بِكَلِمَةٍ، وهي تَتَهَادَى في مَشْيِهَا، كما أَقُولُ في أبياتٍ لي:

[من البسيط]

كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو فِي تَأْوُدِهَا
قَضِيبُ نَرْجَسَةٍ فِي الرُّوضِ مَيَّاسُ
كَأَنَّمَا خَطُوهَا ^(١) فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا
نَفْسِهِ مِنْ وَقْعِهَا خَطَرٌ وَوَسْوَاسُ
كَأَنَّمَا مَشْيُهَا مَشْيُ الْحَمَامَةِ لَا
كَدُّ يُعَابُ وَلَا بُطْءٌ بِهِ بَاسُ

فَبُهِتَ وَسَقَطَ فِي يَدِهِ، وَفُتَّ فِي عَضْدِهِ، وَوَجَدَ فِي كَبِدِهِ،
وَعَلَّتْهُ وَجَمَةٌ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ غَابَتْ عَنْ عَيْنِهِ، وَوَقَعَ فِي شَرْكِ
الرَّذَى ^(٢)، وَاشْتَعَلَتْ فِي قَلْبِهِ النَّارُ، وَتَصَعَّدَتْ أَنْفَاسُهُ، وَتَرَادَفَتْ
أُوجَالُهُ ^(٣)، وَكَثُرَ قَلْقُهُ، وَطَالَ أَرْقُهُ، فَمَا غَمَضَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَيْنًا،
وَكَانَ هَذَا بَدْءَ الْحُبِّ بَيْنَهُمَا دَهْرًا، إِلَى أَنْ جَذَّتْ حَبْلَيْهُمَا ^(٤) يَدُ
النَّوَى؛ وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ مَصَائِدِ إِبْلِيسَ وَدَوَاعِي الْهَوَى الَّتِي لَا يَقِفُ لَهَا
أَحَدٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: «إِنَّ دَوَامَ الْوَصْلِ يُودِي بِالْحُبِّ»، وَهَذَا

(١) فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ: «خُلْدُهَا».

(٢) وَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ غَابَتْ عَنْهُ، [حَتَّى] وَقَعَ فِي شَرْكِ
الرَّذَى» (ص ١١٢).

(٣) أُوجَالُهُ: مَخَاوِفُهُ، وَالْوَجَلُ: الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ وَالْقَلَقُ.

(٤) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «جُمَلَتْهَا» (ص ١١٢)، وَعِنْدَ بَرَشِيهِ: «جَمَلَتْهُمَا».

هَجِينٌ مِنَ الْقَوْلِ، إِنَّمَا ذَلِكَ لِأَهْلِ الْمَلَلِ، بَلْ كُلَّمَا زَادَ وَصْلاً زَادَ اتِّصَالاً.

وَعَنِّي أَخْبِرُكَ أَنِّي مَا رَوَيْتُ قَطُّ مِنْ مَاءِ الْوَصْلِ، وَلَا زَادَنِي إِلَّا ظَمًا؛ وَهَذَا حُكْمٌ مِنْ تَدَاوَى بَدَائِهِ ^(١) وَإِنْ رَفَعَهُ عَنْهُ شَيْئًا مَا ^(٢). وَلَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ التَّمَكُّنِ بِمَنْ أَحَبُّ أَبْعَدَ الْغَايَاتِ الَّتِي لَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ وَرَاءَهَا مَرْمًى. فَمَا وَجَدْتَنِي إِلَّا مُسْتَزِيدًا؛ وَلَقَدْ طَالَ بِي ذَلِكَ فَمَا أَحْسَسْتُ بِسَامَةٍ وَلَا رَهَقْتَنِي فِتْرَةٌ ^(٣).

وَقَدْ ضَمَّنِي مَجْلِسٌ مَعَ بَعْضِ مَنْ كُنْتُ أَحَبُّ، فَلَمْ أَجَلْ خَاطِرِي فِي فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْوَصْلِ، إِلَّا وَجَدْتُهُ مُقْصِرًا عَنْ مُرَادِي، وَغَيْرِ شَافٍ وَجْدِي، وَلَا قَاضٍ أَقْلَ لُبَانَةٍ مِنْ لُبَانَاتِي، وَوَجَدْتَنِي كُلَّمَا ارْزَدَدْتُ دُنُوًّا ارْزَدَدْتُ وَلَوْعًا، وَقَدَحْتُ زِنَادَ الشَّوْقِ نَارَ الْوَجْدِ بَيْنَ ضُلُوعِي، فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَدَدْتُ بَأَنَّ الْقَلْبَ شَقَّ بِمُدِيَّةٍ
وَأَدْخَلَتْ فِيهِ ثُمَّ أَطْبِقَ فِي صَدْرِي
فَأَصْبَحْتَ فِيهِ لَا تَحْلِينَ غَيْرَهُ
إِلَى مُقْتَضَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ
تَعِيشِينَ فِيهِ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أَمْتُ
سَكَنْتِ شَغَافَ الْقَلْبِ فِي ظُلَمِ الْقَبْرِ

(١) في بعض الطبعات: «تداوى برأيه». ط التونسية: (ص ١١٢).

(٢) في ط. التونسية وطبعات أخرى: «سريعاً» بدل «شيئاً ما» (ص ١١٢).

(٣) رهقني فترة: هكذا وردت في جميع الطبعات، مع جواز قراءتها: «رهقني فترة» وهو التعبير المتداول تضميناً لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا فِتْرَةٌ﴾ والفترة: من الفتور: التراخي والكسل.

وما في الدنيا حالةٌ تُعَدِّلُ مُجَبِّينَ إِذَا عَدِمَا الرُّقَبَاءَ، وَأَمَنَا الوُشَاءَ،
وَسَلَمًا مِنَ الْبَيْنِ، وَرَغْبًا عَنِ الْهَجْرِ، وَبَعْدًا عَنِ الْمَلَلِ، وَفَقْدًا الْعُدَّالِ،
وَتَوَافَقًا فِي الْأَخْلَاقِ، وَتَكَافِيًا فِي الْمَحَبَّةِ، وَأَتَاخَ اللَّهُ لَهُمَا رِزْقًا دَارًا،
وَعَيْشًا قَارًا^(١)، وَزَمَانًا هَادِيًا، وَكَانَ اجْتِمَاعُهُمَا عَلَى مَا يُرْضِي الرَّبَّ مِنَ
الْحَلَالِ^(٢)؛ وَطَالَتْ صُحْبَتُهُمَا، وَاتَّصَلَتْ إِلَى وَقْتِ حُلُولِ الْحِمَامِ^(٣)
الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ وَلَا بُدَّ مِنْهُ، هَذَا عَطَاءٌ لَمْ يَحْصُلْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَحَاجَةٌ لَمْ
تُقْضَ لِكُلِّ طَالِبٍ. وَلَوْلَا أَنَّ مَعَ هَذِهِ الْحَالِ الْإِشْفَاقَ مِنْ بَعَثَاتِ الْمَقَادِيرِ
الْمُحْكَمَةِ فِي غَيْبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ حُلُولِ فِرَاقٍ لَمْ يُكْتَسَبْ،
وَاخْتِرَامَ مَنِيَّةٍ^(٤) فِي حَالِ الشَّبَابِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَقُلْتُ إِنَّهَا حَالٌ
بَعِيدَةٌ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، وَسَلِيمَةٌ مِنْ كُلِّ دَاخِلَةٍ^(٥).

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ اجْتَمَعَ لَهُ هَذَا كُلُّهُ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ دُهِيًا فِي مَنْ كَانَ
يُحِبُّهُ، بِشِرَاسَةِ أَخْلَاقٍ، وَدَالَةٍ^(٦) عَلَى الْمَحَبَّةِ؛ فَكَانَا لَا يَتَهَيَّيَانِ
الْعَيْشَ، وَلَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ فِي يَوْمٍ إِلَّا وَكَانَ بَيْنَهُمَا خِلَافٌ فِيهِ،
وَكَلاهُمَا كَانَ مَطْبُوعًا بِهَذَا الْخُلُقِ، لِثِقَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَحَبَّةِ
صَاحِبِهِ، إِلَى أَنْ دَبَّتِ النَّوَى^(٧) بَيْنَهُمَا، فَتَفَرَّقَا بِالمَوْتِ الْمُرْتَبِّ لِهَذَا
العَالَمِ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من المنسرح]

كَيْفَ أَدُمُ النَّوَى وَأَظْلِمُهَا
وَكُلُّ أَخْلَاقٍ مَنْ أَحَبُّ نَوَى

(١) عَيْشًا قَارًا: ثَابِتًا مُسْتَقَرًّا.

(٢) فِي التُّونِسِيَّةِ وَمَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ: «الْحَالِ» (ص ١١٣).

(٣) الْحِمَامُ: المَوْتُ. (٤) اخْتَرَمَتْهُ الْمَنِيَّةُ: أَخَذَتْهُ.

(٥) الدَّاخِلَةُ، مِنَ النَفْسِ، طَوَيْتُهَا وَنَوَايَاها.

(٦) الدَّالَّةُ: سَبَقَ شَرْحُهَا، وَهِيَ الْجُرْأَةُ عَلَى الْمَحْبُوبِ مَعَ الْغُثْجِ وَالتَّدَلُّلِ.

(٧) النَّوَى: الْبَعْدُ وَالْفِرَاقُ، وَقُرِئَتْ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «وَدَنَتِ النَّوَى...».

قَدْ كَانَ يَكْفِي هَوَى أَضِيقُ بِهِ
فَكَيْفَ إِذْ حَلَّ بِي نَوَى وَهَوَى

وَرُوِيَ عَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ^(١) (رَحِمَهُ اللَّهُ) أَنَّهُ قَالَ لِجُلَسَائِهِ :
«مَنْ أَنْعَمَ النَّاسَ عَيْشَةً؟» قَالُوا : «أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ» فَقَالَ : «وَأَيْنَ مَا
يَلْقَى مِنْ فُرَيْشٍ؟» قِيلَ : «فَأَنْتَ» قَالَ : «أَيْنَ مَا أَلْقَى مِنَ الْخَوَارِجِ
وَالشُّعُورِ؟» قِيلَ : «فَمَنْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟» قَالَ : «رَجُلٌ مُسْلِمٌ لَهُ زَوْجَةٌ
مُسْلِمَةٌ لَهُمَا كِفَافٌ مِنَ الْعَيْشِ ، قَدْ رَضِيَتْ بِهِ وَرَضِيَ بِهَا ، لَا يَعْرِفُنَا
وَلَا نَعْرِفُهُ» ^(٢) .

وَهَلْ فِيمَا وَافَقَ إعْجَابَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَجَلَّ الْقُلُوبَ ، وَاسْتَمَالَ
الْحَوَاسَّ ، وَاسْتَهْوَى الثُّنُوسَ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى الْأَهْوَاءِ ، وَافْتَطَعَ
الْأَلْبَابَ ، وَاخْتَلَسَ الْعُقُولَ ، مُسْتَحْسِنٌ يَعْدِلُ إِشْفَاقَ مُحِبٍّ عَلَى
مَحْبُوبٍ ؟ وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرًا ؛ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمَنَاطِرِ

(١) زياد بن أبي سفيان = (زياد بن أبيه) : أمير، من الدهاة، القادة
الفاحين، الولاة. من أهل الطائف. ولد في السنة الأولى للهجرة،
واُخْتُلِفَ في اسم أبيه، ف قيل : عُبيد الثقفي، وقيل : أبو سفيان. ولدت له
أمه سمية (جارية الحارث بن كلدة الثقفي) في الطائف، وتبناه عبيد
الثقفي (مولي الحارث بن كلدة)، وأدرك النبي ﷺ ولم يره، وأسلم في
عهد أبي بكر، وكان كاتباً، ثم وُلَّاهُ علي بن أبي طالب إمرة فارس،
ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية، وتحصن في قلاع فارس. وتبين
لمعاوية أنه أخوه من أبيه (أبي سفيان)، فكتب إليه بذلك، فقدم زياد
عليه، وألحقه معاوية بنسبه سنة (٤٤هـ)، فكان عضده الأقوى. وولَّاهُ
البصرة والكوفة وسائر العراق، وظلَّ في ولايته إلى أن توفي سنة
(٥٣هـ). وكان خطيباً بليغاً. الأعلام للزركلي مج ٣/ ص ٥٣.

(٢) وردت حكاية زياد بتوسع وتفصيل في «بهجة المجالس» للقرطبي - مج ١/
القسم الأول - ص ١١٧.

العَجَبِيَّة، الباعثة على الرِّقَّة الرَّائِقَةِ المَعْنَى، لَا سِيَّما ^(١) إِنْ كَانَ هَوَى يُكْتَتَم ^(٢) بِهِ. فَلَوْ رَأَيْتَ المَحْبُوبَ حِينَ يَعْزُضُ بِالسُّؤَالِ عَنْ سَبَبِ تَغَضُّب ^(٣) بِمُحِبِّهِ، وَخَجَلَتُهُ فِي الخُرُوجِ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ بِالْاِعْتِذَارِ، وَتَوَجَّيْهُهُ إِلَى غَيْرِ وَجْهِهِ، وَتَحَيُّلُهُ فِي اسْتِنْبَاطِ مَعْنَى يُقِيمُهُ عِنْدَ جُلَسَائِهِ، لَرَأَيْتَ عَجَبًا، وَلَذَّةً مَخْفِيَّةً لَا تُقَاوِمُهَا لَذَّةٌ. وَمَا رَأَيْتُ أَجْلَبَ لِلْقُلُوبِ وَلَا أَغْوَصَ عَلَى حَبَّاتِهَا ^(٤) وَلَا أَنْفَذَ لِلْمَقَاتِلِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ. وَإِنَّ لِلْمُحِبِّينَ فِي الْوَصْلِ مِنَ الْاِعْتِذَارِ، مَا أَعْجَزَ أَهْلَ الْأَذْهَانِ الذَّكِيَّةِ وَالْأَفْكَارِ الْقَوِيَّةِ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَرَاتِ هَذَا، فَقُلْتُ:

[من السريع]

إِذَا مَرَّجْتَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
جَوَّزْتَ مَا شِئْتَ عَلَى الْغَافِلِ
وَفِيهِمَا فَرْقٌ صَحِيحٌ لَهُ
عَلَامَةٌ تَبْدُو إِلَى الْعَاقِلِ
كَالتَّبَرِّ إِنْ تَمَزَّجَ بِهِ فَضَّةٌ
جَازَتْ عَلَى كُلِّ فَتًى جَاهِلٍ
وَإِنْ تُصَادَفَ صَائِغًا مَاهِرًا
مَيَّزَ بَيْنَ الْمَحْضِ وَالْخَائِلِ ^(٥)
وَإِنِّي لِأَعْلَمُ فَتًى وَجَارِيَّةً، كَانَ يَكْلَفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ،

(١) في ط. التونسية: «ولا سيَّما» (ص ١١٤).

(٢) وفيها أيضاً: «يُكْتَتَم بِهِ» (ص ١١٤).

(٣) ورد في ط. التونسية: «تَغَضُّبِهِ» (ص ١١٤).

(٤) في معظم الطبقات «حياتها»، وما أثبتناه قراءة د. عباس، لتناسب المعنى.

(٥) في معظم الطبقات: «الحائل» وهي بمعنى: «المتغير». أمّا «الخائل» فتعني

المشتبه الأمر.

فكانا يَضْطَجِعَانِ إِذَا حَضَرَهُمَا أَحَدٌ، وَبَيْنَهُمَا الْمِسْنَدُ الْعَظِيمُ مِنْ
الْمَسَانِدِ الْمَوْضُوعَةِ عِنْدَ ظَهْوَرِ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ، وَيَلْتَقِي
رَأْسَاهُمَا وَرَاءَ الْمِسْنَدِ، وَيَقْبَلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَلَا يُرْيَانِ،
وَكَاثِنُهُمَا إِنَّمَا يَتَمَدَّدَانِ مِنَ الْكَلَلِ؛ وَلَقَدْ كَانَا بَلَّغًا^(١) مِنْ تَكَافِيهِمَا^(٢)
فِي الْمَوَدَّةِ أَمْرًا عَظِيمًا، إِلَى أَنْ كَانَ الْفَتَى الْمُحِبُّ رُبَّمَا اسْتَطَالَ
عَلَيْهَا^(٣)؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من السريع]

وَمِنْ أَعَاجِيبِ الزَّمَانِ الَّتِي
طَمَّتْ^(٤) عَلَى السَّامِعِ وَالْقَائِلِ
رَغَبَةً مَرْكَوبٍ إِلَى رَاكِبٍ
وَذَلَّةَ الْمَسْئُولِ لِلْسَّائِلِ
وَطَوْلُ^(٥) مَأْسُورٍ إِلَى أَسِيرٍ
وَصَوْلَةَ الْمَقْتُولِ لِلْقَاتِلِ
مَا إِنْ سَمِعْنَا فِي الْوَرَى قَبْلَهَا
خُضُوعَ مَأْمُولٍ إِلَى أَمِلٍ
هَلْ هَاهُنَا وَجْهٌ تَرَاهُ سَوَى
تَوَاضُعِ الْمَفْعُولِ لِلْفَاعِلِ؟
وَلَقَدْ حَدَّثَنِي امْرَأَةٌ أَثِقُ بِهَا، أَنَّهَا شَاهَدَتْ فَتًى وَجَارِيَّةً كَانَا يَجِدُ

(١) في معظم الطبقات: «ولقد كان بلَّغًا». والقراءة أعلاه قراءة برشييه،

ود. عباس الذي يتساءل بأي شيء نَصَبَ مَنْ يقرأ «ولقد كان بلَّغًا» أمرًا؟.

(٢) في التونسية وبعض الطبقات: «من تكافيهما» (ص ١١٥).

(٣) استطال عليها: تناول واعتدّى.

(٤) طمَّت: عمَّت وكثُرَتْ، وعمَّرت وعطَّت.

(٥) الطَّوْلُ: الفضل والامتنان.

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ فَضْلٌ وَجَدَ، قَدْ اجْتَمَعَا فِي مَكَانٍ عَلَى طَرَبٍ، وَفِي يَدِ الْفَتَى سِكِّينٌ يَقْطَعُ بِهَا بَعْضَ الْفَوَاكِهَ، فَجَرَّهَا جَرًّا زَائِدًا، فَقَطَعَ إِبْهَامَهُ قَطْعًا لَطِيفًا ظَهَرَ فِيهِ دَمٌ، وَكَانَ عَلَى الْجَارِيَةِ غِلَالَةٌ قَصَبٌ خَزَائِنِيَّةٌ لَهَا قِيَمَةٌ، فَصَرَفَتْ^(١) يَدَهَا وَخَرَقَتْهَا، وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا فَضْلَةً شَدَّ بِهَا إِبْهَامَهُ.

وَأَمَّا هَذَا الْفِعْلُ لِلْمُحِبِّ فَقَلِيلٌ فِي مَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَفَرَضَ لَزِمٌ وَشَرِيعَةٌ مُؤَدَّاةٌ، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ بَدَلَ نَفْسَهُ وَوَهَبَ رُوحَهُ، فَمَا يَمْنَعُ بَعْدَهُمَا^(٢)؟

خبر

وَأَنَا أَذْرَكْتُ بِنْتَ زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى التَّمِيمِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ بَرْطَالٍ^(٣)، وَعَمُّهَا كَانَ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةِ مُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى^(٤)،

(١) فِي بَعْضِ الطَّبْعَاتِ: «فَصَرَفَتْ»، وَهِيَ لَا تَخْدُمُ الْمَعْنَى. وَصَرَفَتْ يَدَهَا: وَجَّهَتْهَا.

(٢) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «فَمَا يَنْفَعُ بَعْدَهَا؟» (ص ١١٦). عَلَى اعْتِبَارِ الضَّمِيرِ عَائِدًا إِلَى الرُّوحِ دُونَ النَّفْسِ.

(٣) زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا التَّمِيمِيِّ، أَبُو يَحْيَى، وَيَعْرِفُ بِابْنِ بَرْطَالٍ: مِنْ أَهْلِ قَرْطَبَةِ، كَانَ فَقِيهًا ثَقَّةً نَبِيلاً فِي الْفَتَا وَعَقْدَ الشُّرُوطِ، وَتَصَرَّفَ فِي الْقَضَاءِ أَيَّامَ النَّاصِرِ وَالْمُسْتَنْصِرِ. تُوْفِيَ سَنَةَ (٣٥٩هـ). يَنْظُرُ: «تَارِيخُ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ» لِابْنِ الْفَرُضِيِّ: تَحْقِيقُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْيَارِيِّ - دَارُ الْكِتَابِ الْمِصْرِيِّ (الْقَاهِرَةِ) وَدَارُ الْكِتَابِ اللَّيْثَانِيِّ (بَيْرُوت) - ط ٢ - ١٩٨٩ - ج ١/ ص ٢٧٣.

(٤) مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى التَّمِيمِيِّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ بَرْطَالٍ: قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةِ وَلِدَ حَوَالِي سَنَةِ (٢٩٩هـ). تَوَسَّعَ ابْنُ الْفَرُضِيِّ فِي تَرْجُمَتِهِ فَذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ رَحْلَةً وَاسِعَةً زَارَ فِيهَا مَكَّةَ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ وَسَمِعَ مِنْ عُلَمَائِهَا. وَلِي مَنَاصِبَ عَدِيدَةً فِي زَمَنِ الْإِمَامِ النَّاصِرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ وَلِيَ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ =

وأخوها^(١) الوزير القائد الذي كَانَ قَتْلُهُ غَالِبَ^(٢) وقَائِدَيْنِ لَهُ فِي الْوَقْعَةِ الْمَشْهُورَةِ بِالثُّغُورِ، وَهُمَا مَرْوَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ شَهِيدٍ، وَيُوسُفُ بْنُ سَعِيدِ الْعَكِّي^(٣)، وَكَانَتْ مُتَزَوِّجَةً بِيَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ^(٤) ابْنِ الْوَزِيرِ يَحْيَى بْنِ إِسْحَاقَ، فَعَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ وَهُمَا فِي أَعْضُ عَيْشِهِمَا وَأَنْصَرِ سُرُورِهِمَا، فَبَلَغَ مِنْ أَسْفِهَا عَلَيْهِ أَنْ بَاتَتْ مَعَهُ فِي دَثَارٍ وَاحِدٍ لَيْلَةً

= بقرطبة في صدر دولة المؤيد، وولي الوزارة إلى أن توفي بقرطبة سنة (٣٩٤هـ). ينظر: «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفريسي بتحقيق الأبياري ج ٢/ص ٧٩٢، وأعلام الزركلي: مج ٧/ص ١٣٦.

(١) أخوها: أي أخو بنت زكريا، هكذا وردت في ط. د. عباس (ص ١٨٨)، وط. التونسية (ص ١١٦). فيما ورد في معظم الطبوعات «أخوه».

(٢) غالب بن عبد الرحمن الناصري: من أشهر قادة الحكم المستنصر بالله ووزرائه، كان له دور كبير في مقاتلة القوى المناوئة لبني أمية في الأندلس، ولي مدينة سالم، وتحالف مع المنصور بن أبي عامر أيام خلافة هشام المؤيد بالله وصاهره، ثم اختلف معه وخرج عليه لتنازع المصالح، فتقاتلا في وقعة الثغور التي يشير إليها ابن حزم أعلاه، وانتهت الموقعة بمصرع غالب (سنة ٣٧١هـ) وانتصار المنصور الذي تذكر الروايات أنه بالغ في القسوة إلى حد الأمر بالتمثيل بجثمان خصمه وصهره الصريع، فصَلَبَ رأسه على باب الزاهرة دهرأ طويلاً. وقد ذكر ابن حزم تفاصيل موقعة الثغور نقلاً عن أبيه الوزير. تنظر رسالته «نقط العروس» بتحقيق إحسان عباس - ضمن رسائل ابن حزم - المجلد الثاني - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ - ص ٩٤. وينظر: «تاريخ إسبانية الإسلامية: أعمال الأعلام» للسان الدين بن الخطيب بتحقيق بروفتسفال - دار المكشوف - بيروت - ط ٢ - ١٩٥٦ - ص ٦٢ وما بعدها.

(٣) القائدان مروان ويوسف: تضمن المصادر التي بين أيدينا بذكر شيء مفيد عن هذين القائدين.

(٤) يحيى بن محمد بن الوزير يحيى بن إسحاق: لم أجد ترجمةً لِيَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ المذكور أعلاه، ولكنَّ المصادر تذكر جَدَّهُ الْوَزِيرَ يَحْيَى بْنَ إِسْحَاقَ، إذ أورد له الحُمَيْدِي ترجمة مقتضبة في «جذوة المقتبس»: ق ٢/ص ٥٩٦.

مات، وجعلته آخر العهد به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موته.

وإنَّ للوصل المختلس الذي يُخاتل^(١) به الرُّقباءُ، ويُتحفظُ به من الحُضر، مثل الضَّحكِ المَسْتور، والنَّحْنَحَةِ، وجولان الأيدي، والضَّغَطِ بالأجناب، والقرص باليد والرجل، لموقعاً من النفس شيئاً؛ وفي ذلك الوقت أقول:

[من المديد]

إنَّ للوصل الحَفِيَّ مَحَلًّا
ليس للوصل المَكِينِ الجَلِيَّ
لذَّةَ تَمَزُّجِهَا بارتِقَابِ
كَمَسِيرٍ فِي خِلَالِ النَّقْيِ^(٢)

خبر

ولقد حدثني ثقة من إخواني، جليل من أهل البيوتات، أنه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آلِه، وكان ممنوعاً منها، فهام عقله بها؛ قال لي: «فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة، غربي قرطبة مع بعض أعمامي، فتَمَشَّيْنَا فِي البساتين، وأبعدنا عن المنازل، وأنبسطنا على الأنهار، إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث؛ فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع»؛ قال: «فأمر عمي

(١) المختالة هنا: المخادعة والتورية (بمعناها اللغوية).

(٢) النقي: مخففة من النقي، وهو كتمان من الرمل تنقاد محدودبة. كأن ما يستشعر به المحبون من لذة التواصل المختال هذا، نوع من المسير المضطرب في هذه الكتمان الرملية (انظر: لسان العرب/نقا).

بِبَعْضِ الْأَعْطِيَةِ، فَأُلْقِيَ عَلَيَّ، وَأَمَرَهَا بِالْاِكْتِنَانِ^(١) مَعِي، فَظُنَّ بِمَا سِئَتْ مِنَ التَّمَكُّنِ عَلَى أَغْيُنِ الْمَلَأِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَيَا لَكَ مِنْ جَمْعِ كَخَلَاءٍ، وَاحْتِفَالِ كَانْفِرَادٍ!«. قَالَ لِي: «فَوَاللَّهِ لَا نَسِيتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَبَدًا». وَلَعَهْدِي بِهِ وَهُوَ يُحَدِّثُنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَعْضَاؤُهُ كُلُّهَا تَضْحَكُ، وَهُوَ يَهْتَزُّ فَرَحًا، عَلَى بُعْدِ الْعَهْدِ وَامْتِدَادِ الزَّمَانِ؛ فَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا، مِنْهُ:

[من الخفيف]

يَضْحَكُ الرُّوضُ وَالسَّحَائِبُ تَبْكِي
كَحَبِيبٍ رَأَى صَبًّا مُعَنَّى

خبر

وَمِنْ بَدِيعِ الْوَصْلِ مَا حَدَّثَنِي بِهِ بَعْضُ إِخْوَانِي، أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ الْمُصَاقِبَةِ لَهُ، هَوًى^(٢)؛ وَكَانَ فِي الْمَنَزِلَيْنِ مَوْضِعٌ مُطْلَعٌ^(٣) مِنْ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، فَكَانَتْ تَقِفُ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَكَانَ فِيهِ بَعْضُ الْبُعْدِ؛ فَتَسَلَّمُ عَلَيْهِ وَيَدُّهَا مَلْفُوفَةٌ فِي قَمِيصِهَا. فَخَاطَبَهَا مُسْتَخْبِرًا لَهَا عَنْ ذَلِكَ، فَأَجَابَتْهُ: «إِنَّهُ رَبَّمَا أَحْسَنَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْءٌ، فَوَقَفَ لَكَ غَيْرِي، فَسَلَّمَ عَلَيْكَ، فَردَدْتَ عَلَيْهِ فَصَحَّ الظَّنُّ؛ فَهَذِهِ عَلَامَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ. فَإِذَا رَأَيْتَ يَدًا مَكْشُوفَةً تُشِيرُ نَحْوَكَ بِالسَّلَامِ فَلَيْسَتْ يَدِي، فَلَا تُجَاوِبْ».

(١) الاكتنان: الاستتار، واكتن الشيء: استتر، واكتنت المرأة: غطت وجهها وسترته حياءً من الناس. (الوسيط/كن).

(٢) كنى (بالهوى) هنا، عن المحبوبة، باعتبار ما تشغله وتحتله من قلبه من هوى الفؤاد.

(٣) مُطْلَعٌ: مكان عالٍ يُشْرِفُ عَلَى ما تحته.

وَرُبَّمَا اسْتَحْلِيَّ الْوِصَالَ، وَاتَّفَقَتِ الْقُلُوبُ، حَتَّى يَقَعَ التَّجْلِيحُ^(١)
 فِي الْوِصَالِ، فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى لَائِمٍ، وَلَا يُسْتَتَرُ مِنْ حَافِظٍ، وَلَا يُبَالَى
 بِنَاقِلٍ، بَلِ الْعَدْلُ حِينَئِذٍ يُغْرِي؛ وَفِي صِفَةِ الْوِصْلِ، أَقُولُ شِعْرًا،
 منه :

[من السريع]

كَمِ دُرَّتْ حَوْلَ الْحُبِّ حَتَّى لَقَدْ
 حَصَلَتْ فِيهِ كُحُصُولِ الْفَرَاشِ
 ومنه :

تَعَشُّوْا إِلَى الْوِصْلِ دَوَاعِي الْهَوَى
 كَمَا سَرَى نَحْوَ سَنَا النَّارِ عَاشٍ^(٢)
 ومنه :

عَلَّلَنِي بِالْوِصْلِ مِنْ سَيِّدِي
 كَمِثْلِ تَعْلِيلِ الظَّمَاءِ الْعِطَاشِ
 ومنه :

لَا تُوقِفِ الْعَيْنَ عَلَى غَايَةٍ
 فَالْحُسْنُ فِيهِ مُسْتَزِيدٌ وَفَاشٍ^(٣)

(١) التجليح: المعاندة وركوب الرأس. سبق شرحه.

(٢) عاش: عاش وسكن آخره للروي. عشا يعيش فهو عاش، والعاشي من يرى النار ليلاً فيقصددها مستضيئاً بها.

(٣) فاش: فشا الشيء: انتشر واتسع خبره. ووردت اللفظة في بعض الطبقات: «وباش؟»، وفي ط. التونسية: «وناش» على أن أصلها «ناشي»؟ (ص ١١٨) مع ملاحظة أن د. القاسمي محقق ط. التونسية جعل الروي بالشين المكسورة، وجعلها د. عباس بالشين الساكنة، وهو الأصوب.

وأقولُ مِنْ قَصِيدَةٍ لِي :

[من السريع]

هَلْ لِقَتِيلِ الْحُبِّ مِنْ وَادٍ ^(١)
 أَمْ هَلْ لِعَانِي الْحُبِّ مِنْ فَادٍ
 أَمْ هَلْ لِدَهْرِي عَوْدَةٌ نَحْوَهَا
 كَمِثْلِ يَوْمِ مَرَفِي الْوَادِي؟
 ظَلَلْتُ فِيهِ سَابِحاً صَادِياً
 يَا عَجَباً لِلْسَّابِحِ الصَّادِي ^(٢)
 ضَنَيْتُ يَا مَوْلَايَ وَجْداً فَمَا
 تُبْصِرُنِي أَلْحَاطُ غَوَّادِي ^(٣)
 كَيْفَ اهْتَدَى الْوَجْدُ إِلَى غَائِبٍ
 عَنْ أَعْيُنِ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي ^(٤)؟
 مَلَّ مُدَاوَاتِي طَبِيبِي فَقَدْ
 يَرْحَمُنِي لِلْسُّقْمِ حُسَّادِي

(١) وادٍ: ودى القاتلُ القتيلَ وَدِيّاً، وَدِيَّةً، وَوَدِيَّةً: أعطى وَلِيَّه دِيَّتَه، فهو وادٍ، بصيغة اسم الفاعل: دافع الدِّيَّة. (الوسيط/ ودى). وقد وردت في جميع الطبقات: «مِنْ وَادِي» وكذلك في عجز البيت: «من فادي» على سبيل الإشباع والإطلاق.

(٢) الصَّادِي: مَنْ اسْتَدَّ عَطَشُهُ.

(٣) غَوَّادِي: جمع عائد وهو زائر المريض.

(٤) الحَاضِر: ساكن الحَضَر، والبَادِي: المقيم في البادية. والمعنى: عن أعين الجميع.

٢١

بابُ الهَجْرِ

وَمِنْ آفَاتِ الْحُبِّ أَيْضاً: الْهَجْرُ، وَهُوَ عَلَى ضَرْوَيْ:

١ - فَأُولَٰهَا؛ هَجْرٌ يُوجِبُهُ تَحْفُظٌ مِنْ رَقِيبٍ حَاضِرٍ؛ وَإِنَّهُ لَأَخْلَى مِنْ كُلِّ وَصْلٍ. وَلَوْلَا أَنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ وَحُكْمَ التَّسْمِيَةِ، يُوجِبُ إِدْخَالَهُ فِي هَذَا الْبَابِ، لَرَجَعْتُ^(١) بِهِ عَنْهُ، وَلَا أَجْلَلْتُهُ عَنْ تَسْطِيرِهِ فِيهِ. فَحِينَئِذٍ تَرَى الْحَبِيبَ مُنْحَرِفاً عَنْ مُجِبِّهِ، مُقْبِلاً بِالْحَدِيثِ عَلَى غَيْرِهِ، مُعْرِضاً كَمُعْرِضٍ لِّئَلَّا تَلْحَقَ ظَنَّتُهُ^(٢) أَوْ تَسْبِقَ اسْتِرَابَتُهُ؛ وَتَرَى الْمُحِبَّ أَيْضاً كَذَلِكَ، وَلَكِنْ طَبَعَهُ لَهُ جَاذِبٌ، وَنَفْسُهُ لَهُ صَارِفَةٌ بِالرَّغْمِ^(٣)؛ فَتَرَاهُ حِينَئِذٍ مُنْحَرِفاً كَمُقْبِلٍ، وَسَاكِئاً كَنَاطِقٍ، وَنَاطِراً إِلَى جِهَةٍ، نَفْسُهُ فِي غَيْرِهَا؛ وَالْحَازِقُ الْفَطْنُ إِذَا كَشَفَ بَوْهَمِهِ عَنْ بَاطِنِ حَدِيثِهِمَا، عَلِمَ أَنَّ الْخَافِيَ غَيْرُ الْبَادِي، وَمَا جَهَرَ بِهِ غَيْرُ نَفْسِ الْخَبَرِ؛ وَإِنَّهُ لَمَنْ الْمَشَاهِدِ الْجَالِبَةِ لِلْفِتَنِ، وَالْمَنَاطِرِ الْمُحَرِّكَةِ لِلْسَّوَائِكِنِ، الْبَاعِثَةِ لِلْحَوَاطِرِ، الْمُهَيِّجَةِ لِلضَّمَائِرِ، الْجَاذِبَةِ لِلْفُتُوءِ. وَلِي أَبْيَاتُ

(١) قُرِئَتْ فِي بَعْضِ الطَّبْعَاتِ «لَأَرْجَأْتُ».

(٢) الظُّنَّةُ: التَّهْمَةُ (اللسان/ظُنَّ).

(٣) الرَّغْمُ: الْإِكْرَاهُ وَالْإِجْبَارُ (اللسان/رغم).

فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا أَوْرَدْتُهَا، وَإِنْ كَانَ فِيهَا غَيْرُ هَذَا الْمَعْنَى
عَلَى مَا شَرَطْنَا، مِنْهَا:

[من الطويل]

يَلُومُ أَبُو الْعَبَّاسِ جَهْلًا بِطَبْعِهِ
كَمَا عَيَّرَ الْحَوْتُ النَّعَامَةَ بِالصَّدْيِ (١)

ومنها:

وَكَمْ صَاحِبٍ أَكْرَمْتُهُ غَيْرَ طَائِعٍ
وَلَا مُكْرَهٍ إِلَّا لِأَمْرِ تَعَمُّدَا
وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبِرُّ إِلَّا لِغَيْرِهِ
كَمَا نَصَبُوا لِلطَّيْرِ بِالْحَبِّ مِصِيدَا
وَأَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ مُحْتَوِيَةٍ عَلَى ضُرُوبٍ مِنَ الْحِكَمِ وَفَنُونٍ مِنَ
الْآدَابِ الطَّبِيعِيَّةِ:

[من الطويل]

وَسَرَّاءُ أَحْشَائِي لِمَنْ أَنَا مُؤَثِّرٌ
وَسَرَّاءُ أَنْبَائِي لِمَنْ أَتَحَبَّبُ

(١) الصَّدْيُ: الظَّمَا. وقوله: «كَمَا عَيَّرَ الْحَوْتُ النَّعَامَةَ بِالصَّدْيِ» تَضْمِينُ لِبَعْضِ
أَمْثَالِ الْعَرَبِ الَّذِينَ قَالُوا: «أَظْمَأُ مِنْ حَوْتٍ» يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَعْطِشُ فِي الْبَحْرِ
وَيَحْتَاجُونَ بِقَوْلِ الرَّاجِزِ:

كَالْحَوْتِ لَا يَرُوبِهِ شَيْءٌ يُلْهِمُهُ يَصْبَحُ ظِمَانًا وَفِي الْبَحْرِ فَمُهُ
وَلَكِنْهُمْ يَنْقُضُونَ هَذَا بِمَثَلٍ آخَرَ هُوَ: «أَرَوِي مِنْ حَوْتٍ» لِأَنَّهُ كَمَا قِيلَ لَا
يَحْتَاجُ إِلَى الشُّرْبِ. أَمَّا وَصَفُهُمْ لَهُ بِالظَّمَا وَالْعَطَشِ: «أَعْطِشَ مِنْ حَوْتٍ»
فَلِأَنَّهُ لَا يَفَارِقُ الْمَاءَ. وَقَدْ ضَرَبُوا الْمَثَلَ فِي الْإِرْتَوَاءِ عَلَى النَّعَامَةِ، فَقِيلَ:
«أَرَوِي مِنْ نَعَامَةٍ» لِأَنَّهُ لَا تَحْتَاجُ الْمَاءَ، فَإِنْ رَأَتْهُ شَرِبَتْهُ عَيْثًا. تَنْظُرُ الْأَمْثَالُ
السَّابِقَةَ مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى مَصَادِرِهَا فِي «مَوْسُوعَةِ أَمْثَالِ الْعَرَبِ» لِيَعْقُوبَ:
ج ٢/ ص ٣١٠ - ٣١١ - ٤٩٧ عَلَى التَّوَالِي.

فَقَدْ يُشْرَبُ الصَّابُ ^(١) الْكَرِيهَ لِعِلَّةٍ
وَيُتْرَكُ صَفْوُ الشَّهْدِ وَهُوَ مُحَبَّبٌ
وَأُعْذِلُ فِي إِجْهَادِ نَفْسِي فِي الَّذِي
أُرِيدُ وَأَنْتِي فِيهِ أَشْقَى وَأَتَعَبُ
هَلِ اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ وَالْدُّرُّ كُلُّهُ
رَأَيْتَ بَغِيرِ الْغَوْصِ فِي الْبَحْرِ يُطْلَبُ
وَأَصْرِفُ نَفْسِي عَنْ وَجْهِهِ طِبَاعِهَا
إِذَا فِي سِوَاهَا صَحَّ مَا أَنَا أَرْغَبُ
كَمَا نَسَخَ اللَّهُ الشَّرَائِعَ قَبْلَنَا
بِمَا هُوَ أَذْنَى لِلصَّلَاحِ وَأَقْرَبُ
كَمَا صَارَ لَوْنُ الْمَاءِ لَوْنًا
وَفِي الْأَصْلِ لَوْنُ الْمَاءِ أَبْيَضُ ^(٢) مُعْجَبُ

ومنها:

أَقَمْتُ ذَوِي وَدِّي مُقَامَ طِبَائِعِي
حَيَاتِي بِهَا وَالْمَوْتُ مِنْهُمْ يُرْهَبُ

ومنها:

وَمَا أَنَا مِمَّنْ تَطَّيَّبَ بِهِ ^(٣) بِشَاشَةٍ
وَلَا يَقْتَضِي مَا فِي ضَمِيرِي التَّجَنُّبُ

(١) الصَّابُ: عصارة شجر مُرٍّ واحدته صابة، وقيل هو عصارة الصَّبْرِ (اللسان/ صوب)

(٢) في رأي العلم الحديث هذه مغالطة علمية، فالحقيقة العلمية تقول: ليس للماء لون.

(٣) تطيَّبه: تستميله، (لا يطبِّبني العملُ المقدِّي): أي لا يستميلني (اللسان/ طبي).

أَرِيدُ نِفَاراً عِنْدَ ذَلِكَ بَاطِناً
 وَفِي ظَاهِرِي أَهْلٌ وَسَهْلٌ وَمَرْحَبٌ
 فَإِنِّي رَأَيْتُ الْحَرْبَ يَغْلُو اشْتِعَالُهَا
 وَمَبْدُؤُهَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مَلْعَبٌ
 وَلِلْحَيَّةِ الرُّفْشَاءُ وَشِيٌّ وَلَوْنُهَا
 عَجِيبٌ وَتَحْتَ الْوَشْيِ سَمٌّ مُرَكَّبٌ
 وَإِنْ فِرْنَدُ^(١) السَّيْفِ أَعْجَبُ مَنَظَرًا
 وَفِيهِ إِذَا هُزَّ الْحِمَامُ الْمُذْرَبُ^(٢)
 وَأَجْعَلُ ذَلَّ النَّفْسِ عِزَّةً أَهْلِيهَا
 إِذَا هِيَ نَالَتْ مَا لَهَا فِيهِ مَرْغَبٌ^(٣)
 فَقَدْ يَضَعُ الْإِنْسَانُ فِي الثَّرْبِ وَجْهَهُ
 لِيَأْتِي غَدًا وَهُوَ الْمَصُونُ الْمُقَرَّبُ
 فَذَلُّ يَسُوقُ الْعِزَّ أَجْوَدَ لِلْفَتَى
 مِنْ الْعِزِّ يَتْلُوهُ مِنَ الذُّلِّ مَرَكَّبٌ
 وَكَمْ مَأْكَلٍ أَرَبَتْ^(٤) عَوَاقِبُ غِبِّهِ^(٥)
 وَرُبَّ طَوَى بِالْخَضْبِ آتٍ وَمُعْقِبٌ

(١) فِرْنَدُ السَّيْفِ: الْفِرْنَدُ: وَشْيُ السَّيْفِ، وَهُوَ دَخِيلٌ.

(٢) الْمُذْرَبُ: سَيْفٌ ذَرِبَ وَمُذْرَبٌ: أُنْقِعَ فِي السَّمِّ ثُمَّ شُحِذَ. (اللسان/ ذرب).

(٣) فِي سَائِرِ الطَّبَعَاتِ «مَذْهَبٌ» وَفِي طَبَعَةِ الْقَاسِمِيِّ: «إِذَا هِيَ نَالَتْ مَا بَهَا فِيهِ مَذْهَبٌ» وَهِيَ قِرَاءَةٌ لَا تَقْدَمُ الْمَعْنَى الْمُنَاسِبَ لِلسِّيَاقِ.

(٤) أَرَبَتْ: نَمَتْ وَزَادَتْ.

(٥) غِبَّهُ: الْغَيْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عَاقِبَتُهُ وَآخِرُهُ، وَمَاءٌ غِبٌّ: بَعِيدٌ.

وما ذاقَ عِزَّ النَّفْسِ مَنْ لَا يُذِلُّهَا
 وَلَا أَلْتَذَّ طَعْمَ الرُّوحِ ^(١) مَنْ لَيْسَ يَنْصَبُ ^(٢)
 وَرُودُكَ نَغْبٍ ^(٣) الْمَاءِ مِنْ بَعْدِ ظَمَاةٍ
 أَلَذُّ مِنَ الْعَلِّ ^(٤) الْمَكِينِ وَأَعَذَبُ
 ومنها:

وَفِي كُلِّ مَخْلُوقٍ تَرَاهُ تَفَاضُلٌ
 فَرِدٌ طَيِّبًا إِنْ لَمْ يُتَخَ لَكَ أَطْيَبُ
 وَلَا تَرْضَ وَرَدَ الرَّنْقِ ^(٥) إِلَّا ضَرُورَةٌ
 إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ حَاشَاءُ مَشْرَبُ
 وَلَا تَقْرَبَنَّ مِلْحَ الْمِيَاهِ فَإِنَّهَا
 شَجَى ^(٦) وَالصَّدَى ^(٧) بِالْحُرِّ أَوْلَى وَأَوْجَبُ
 ومنها:

فَخُذْ مِنْ جَدَاهَا مَا تيسَّرَ واقتنع
 وَلَا تَكْ مشغولاً بِمَنْ هُوَ يَغْلِبُ

(١) الرُّوح: الراحة.

(٢) يَنْصَبُ: نَصَبٌ: أَعْيَا وَتَعِبَ وَجَدَّ وَاجْتَهَدَ.

(٣) نَغْبٌ: النَّغْبَةُ وَالنُّغْبَةُ: (بِالضَّمِّ) الْجَرْعَةُ، وَجَمْعُهَا نَغَبٌ. (اللسان/نغب).

(٤) الْعَلُّ: الْعَلْلُ وَالْعَلْلُ: الشَّرْبَةُ الثَّانِيَّةُ، وَقِيلَ: الشُّرْبُ بَعْدَ الشُّرْبِ تَبَاعًا، يُقَالُ: عَلَلْتُ بَعْدَ نَهْلٍ (اللسان/عل - علل).

(٥) الرَّنْقُ: الْكَدْرُ، الْمَشُوبُ.

(٦) فِي اللِّسَانِ شَجَا بِالْأَلْفِ الَّتِي أَصْلُهَا وَاو؛ الشَّجْوُ: الْهَمُّ وَالْحُزْنُ، وَالشَّجَا: مَا اعْتَرَضَ فِي حَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالِدَابَةِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَوْدٍ أَوْ غَيْرِهَا. وَكَتَابَتُهَا بِالْأَلْفِ الْمَقْصُورَةِ جَائِزَةٌ.

(٧) أَثْبَتَهَا د. عَبَّاسُ (الصَّدَا) وَالْأَصُوبُ فِي الْمَعَاجِمِ: الصَّدَى، وَهِيَ (الصَّدَى) فِي تَحْقِيقِ الْقَاسِمِيِّ. انْظُرْ (اللسان: صدى - الوسيط: صدى).

فَمَالِكَ شَرْطٌ عِنْدَهَا لَا وَلَا يَدُ
وَلَا هِيَ إِنْ حَصَّلتَ أُمٌّ وَلَا أَبُ

ومنها :

وَلَا تَيَأْسُنْ مِمَّا يُنَالُ بِحِيلَةٍ
وَإِنْ بَعُدَتْ فَالْأَمْرُ يَنَالُ وَيَضْعُبُ
وَلَا تَأْمَنِ الْإِظْلَامَ فَالْفَجْرُ طَالَعُ
وَلَا تَلْتَبِسْ بِالضُّوْءِ فَالشَّمْسُ تَغْرُبُ

ومنها :

أَلَحَّ فَإِنَّ الْمَاءَ يَكْدُخُ فِي الصِّفَا
إِذَا طَالَ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَيَذْهَبُ
وَكَثُرَ وَلَا تَفْشَلْ وَقَلِّلْ كَثِيرَ مَا
فَعَلْتَ فَمَاءَ الْمُزْنِ جَمٌّ وَيَنْضُبُ
فَلَوْ يَتَغَذَّى الْمَرْءُ بِالسُّمِّ قَاتَهُ
وَقَامَ لَهُ مِنْهُ غِذَاءٌ مُجَرَّبُ

٢ - ثُمَّ هَجَرَ يُوجِبُهُ التَّدَلُّلُ وَهُوَ الَّذِي مِنْ كَثِيرِ الْوَصَالِ، وَلِذَلِكَ لَا
يَكُونُ إِلَّا عَنْ ثِقَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَحَابِّينِ بِصَاحِبِهِ،
وَاسْتِحْكَامِ الْبَصِيرَةِ فِي صِحَّةِ عَقْدِهِ؛ فَحِينَئِذٍ يُظْهِرُ الْمَحْبُوبُ
هَجْرَانًا لِيَرَى صَبْرَ مُحِبِّهِ، وَذَلِكَ لِئَلَّا يَضْفُو الدَّهْرُ الْبَتَّةَ،
وَلِيَأْسَفَ الْمُحِبُّ إِنْ كَانَ مُفْرِطَ الْعِشْقِ عِنْدَ ذَلِكَ، لَا لِمَا
حَلَّ، لَكِنْ مَخَافَةً أَنْ يَتَرَقَّى إِلَى مَا هُوَ أَجَلُّ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ
الْهَجْرُ سَبَبًا إِلَى غَيْرِهِ، أَوْ خَوْفًا مِنْ آفَةٍ حَادِثٍ مَلَلٍ.

وَلَقَدْ عَرَضَ لِي فِي الصَّبَا هَجْرٌ مَعَ بَعْضٍ مَنِ كُنْتُ أَلْفٌ، عَلَى

هذه الصِّفَة، وَهُوَ لَا يَلْبُثُ أَنْ يَضْمَحِلَّ ثُمَّ يَعُودَ؛ فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ، قُلْتُ عَلَى سَبِيلِ الْمُزَاحِ شِعْراً بَدِيعِياً، خَتَمْتُ كُلَّ بَيْتٍ مِنْهُ بِقَسِيمٍ^(١) مِنْ أَوَّلِ قَصِيدَةِ طَرْفَةِ بْنِ الْعَبْدِ الْمَعْلُوقَةِ^(٢)، وَهِيَ الَّتِي قَرَأْنَاهَا مَشْرُوحَةً عَلَى أَبِي سَعِيدِ الْفَتَى الْجَعْفَرِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرِ الْمُقَرَّرِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ النَّحَّاسِ (رَحِمَهُمُ اللَّهُ) فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِقُرْطُبَةٍ^(٣)، وَهِيَ:

[من الطويل]

تَذَكَّرْتُ وَدًّا لِلْحَبِيبِ كَأَنَّهُ
لِلْخَوْلَةِ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدِ

- (١) يرجح د. عباس: «بقسيم» على الرِّغَم من أن جميع الطبقات الأخرى أوردت: «بقِسم»، والأفضل «قسيم» لأن قسيم كل شيء شطره.
- (٢) طرفة بن العبد ومعلقتة: (نحو ٨٦ - ٦٠ هـ = نحو ٥٣٨ - ٥٦٤ م) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. وقصته مع الملك عمرو بن هند مشهورة. إذ أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين، يأمره فيه بقتله؛ فقتله المكعبر شاباً. أشهر شعره معلقتة التي مطلعها:

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدِ

وقد ضمّن ابنُ حزم جزءاً منها أبياته هذه. ينظر ديوانه بشرح الأعلام الشنتمري - تحقيق درية الخطيب ولطفي الصّقال - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٧٥ - ص ٦.

- (٣) المسجد الجامع بقرطبة: من أعظم جوامع مدينة قرطبة بالأندلس، ويرجع تاريخه إلى بدايات فتح الأندلس، أعاد عبد الرحمن الداخل بناءه على أساس وشكل جديدين، فانتهى بناؤه عام (١٧٠ هـ)، وتوسع الأمراء والخلفاء بعد عبد الرحمن في عمارته وزينته. كان له دور سياسي وتعليمي وقضائي إلى جانب كونه مسجداً للصلاة. ينظر لمزيد من التفصيل: «الموسوعة العربية العالمية» - مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع - الرياض - ط ١ - ١٩٩٦ - مج ١٨ - مادة جامع قرطبة - ص ١٥٣.

وَعَهْدِي بِعَهْدِ كَانَ لِي مِنْهُ ثَابِتٌ
 «يَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ»
 وَقَفْتُ بِهِ لَا مُوقِنًا بِرُجُوعِهِ
 «وَلَا آيسًا أَبْكِي وَأُبْكِي إِلَى الْغَدِ»
 إِلَى أَنْ أَطَالَ النَّاسُ عَذْلِي وَأَكْثَرُوا
 «يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَلَدِ»
 كَأَنْ فُنُونَ السُّخْطِ مِمَّنْ أَحْبَبُهُ
 «خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ»^(١)
 كَأَنْ انْقِلَابَ الْهَجَرِ وَالْوَصْلِ مَرَكَبٌ
 «يَجُورُ بِهِ الْمَلَأُحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي»
 فَوَقْتُ رَضَى يَتَلَوُهُ وَقْتُ تَسْخُطِ
 «كَمَا قَسَمَ التُّرْبُ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ»^(٢)
 وَيَبْسِمُ نَحْوِي وَهُوَ غَضْبَانٌ مُعْرِضٌ
 «مُظَاهِرٌ سِمَاطِي لَوْلُو وَزَبْرَجَدٍ»^(٣)

٣ - ثُمَّ هَجَرٌ يُوْجِبُهُ الْعِتَابُ لِذَنْبٍ يَقَعُ مِنَ الْمُحِبِّ، وَهَذَا فِيهِ بَعْضُ الشَّدَّةِ، لَكِنَّ فَرْحَةَ الرَّجْعَةِ وَسُرُورَ الرِّضَى يَعْدِلُ مَا مَضَى، فَإِنَّ لِرِضَى الْمَحْبُوبِ بَعْدَ سُخْطِهِ لَذَّةٌ فِي الْقَلْبِ لَا تَعْدِلُهَا لَذَّةٌ، وَمَوْقِعًا^(٤) مِنَ الرُّوحِ لَا يَقُوفُهُ شَيْءٌ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا.

(١) دَدٌ: الدُّدُ: اللَّهْوُ وَاللَّعِبُ، وَفِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ: دَدٌ، وَدَدًا مِثْلَ قَفَا، وَدَدَنَ (اللسان/ددا).

(٢) الْمُفَايِلُ: الْمُفَايِلَةُ: لَعِبَةُ لِلصَّبِيَّانِ (اللسان/فيل).

(٣) السِّمَاطُ: الْخَيْطُ مَا دَامَ فِيهِ الْخَرَزُ. وَالسِّمَاطَانُ: الْخَيْطَانُ (اللسان/سمط).

الزَّبْرَجَدُ: وَالزَّبْرَدَجُ: الزَّمْرَدُ.

(٤) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ «وَمَوْقِفًا» وَالْأَقْرَبُ إِلَى الْمَعْنَى وَمَوْقِعًا، وَهُوَ رَأْيِي د. عَبَّاسٍ أَيْضًا.

وهل شاهدٌ مُشاهدٌ، أو رَأَتْ عَيْنٌ، أو قامَ في فكرٍ، ألدُّ وأشهى من مُقامٍ قد قامَ عنه كلُّ رقيبٍ، وَبَعْدَ عنه كلُّ بغِيضٍ، وغابَ عنه كلُّ واشٍ، واجتمعَ فيه مُحبَّانٌ قد تصارَما لذنْبٍ وَقَعَ من المُحبِّ مِنْهُمَا، وطالَ ذلك قليلاً، وبدأ نَقْضُ الهَجْرِ، ولم يَكُنْ ثَمَّ مانِعٌ من الإطالة للحديث، فابتدأ المُحبُّ في الاعتذار والخضوع والتذلل والإدلاء^(١) بِحُجَّتِهِ الواضحة^(٢) من الإدلال والإذلال والتَّدَمُّم بما سَلَفَ؛ فَطَوْرًا يَدُلُّ ببراءته، وطورًا يَرُدُّ بِالْعَفْوِ^(٣)، ويستدعي المغفرة، ويَقْرُّ بالذَّنْبِ ولا ذَنْبَ لَهُ؛ والمَحْبُوبُ في كلِّ ذلك ناظرٌ إلى الأرض يُسَارِقُهُ اللَّحْظَ الْخَفِيُّ، وربما أدامَهُ فيه، ثمَّ يَبْسِمُ مُخْفِيًا لِبَسْمِهِ، وذلك علامة الرِّضَى؛ ثمَّ يَنْجَلِي مَجْلِسُهُمَا عن قَبُولِ العُذْرِ، وتَقَبُّلِ الْقَوْلِ. وَأَنْمَحَتْ^(٤) ذُنُوبُ النَّفْلِ، وَذَهَبَتْ آثارُ السُّخْطِ، وَوَقَعَ الجوابُ بـ«نَعَمْ» و«ذَنْبُكَ مَغْفُورٌ» لو كانَ، فكيفَ ولا ذَنْبَ؟ وَخَتَمَا أَمْرَهُمَا بِالْوَصْلِ الْمُمَكِّنِ، وَسَقُوطِ العِتَابِ، والإِسعادِ، وَتَفَرَّقَا على هذا. هذا مكانٌ تَقْصُرُ دُونُهُ الصِّفَاتُ وَتَتَلَكَّنُ^(٥) بتحديدِهِ الألسنة.

ولقد وَطِئَتْ بِسَاطِ الخُلَفَاءِ، وشاهدَتْ مَحَاضِرَ المُلُوكِ، فما

(١) الإدلاء: في جميع الطبعات «والأدلة» ورأي د. عباس أصوب.

(٢) الواضحة: لم ترد إلا في طبعة واحدة. وورد في معظمها: «والإدلاء بحجته من الإدلال...» بحذف «الواضحة».

(٣) في إحدى الطبعات: «يريد العفو».

(٤) في ط، د. عباس: ائْتَحَتْ، وليس في المعجم افْعَل من (محا) فالأصوب انمحت على (انفعل). واقترح الأستاذ شاكر: «ائْمَحَتْ».

(٥) تَتَلَكَّنُ: تعترضُ كلامَ المتكلم أو لسانه اللغة الأعجمية (اللسان/ لكن).

رَأَيْتُ هَيِّئَةً تَعْدُلُ هَيِّئَةً مُحِبًّا لِمَحْبُوبِهِ؛ وَرَأَيْتُ تَمَكَّنَ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى
الرُّؤَسَاءِ وَتَحَكَّمَ الْوُزَرَاءِ، وَانْبَسَاطَ مُدَبِّرِي الدُّوَلِ؛ فَمَا رَأَيْتُ أَشَدَّ
تَبَجُّحًا وَلَا أَعْظَمَ سُرُورًا بِمَا هُوَ فِيهِ، مِنْ مُحِبٍّ أَيْقَنَ أَنَّ قَلْبَ
مَحْبُوبِهِ عِنْدَهُ، وَوَثَقَ بِمَيْلِهِ إِلَيْهِ وَصِحَّةَ مَوَدَّتِهِ لَهُ؛ وَحَضَرَتْ مَقَامَ
الْمُعْتَذِرِينَ بَيْنَ أَيْدِي السَّلَاطِينِ، وَمَوَاقِفَ الْمُتَّهَمِينَ بِعَظِيمِ الذُّنُوبِ
مَعَ الْمُتَمَرِّدِينَ الطَّاغِينَ، فَمَا رَأَيْتُ أَذَلَّ مِنْ مَوْقِفٍ مُحِبٍّ هَيْمَانَ بَيْنَ
يَدَيِ مُحِبٍِّ غَضَبَانَ، قَدْ غَمَرَهُ السُّخْطُ وَعَلَبَ عَلَيْهِ الْجَفَاءُ.

وَلَقَدْ امْتَحَنْتُ الْأَمْرَيْنِ وَكُنْتُ فِي الْحَالَةِ الْأُولَى أَشَدَّ مِنَ الْحَدِيدِ
وَأَنْفَذَ مِنَ السَّيْفِ، لَا أُجِيبُ إِلَى الدَّيْنَةِ وَلَا أَسَاعِدُ عَلَى الْخُضُوعِ؛
وَفِي الثَّانِيَةِ أَذَلَّ مِنَ الرِّدَاءِ، وَأَلْيَنَ مِنَ الْقُطْنِ، أَبَادِرُ إِلَى أَقْصَى
غَايَاتِ التَّذَلُّلِ، وَأَعْتَنِمُ فُرْصَةَ الْخُضُوعِ لَوْ نَجَعَ، وَأَتَحَلَّلُ بِلِسَانِي،
وَأَغْوِصُّ عَلَى دَقَائِقِ الْمَعَانِي بَيَانِي، وَأَفْتِنُ الْقَوْلَ فُنُونًا، وَأَتَصَدَّى
لِكُلِّ مَا يُوجِبُ التَّرَضِّيَ.

وَالْتَجَنِّي بَعْضَ عَوَارِضِ الْهَجْرَانِ، وَهُوَ يَقَعُ فِي أَوَّلِ الْحُبِّ
وآخِرِهِ، فَهُوَ فِي أَوَّلِهِ عِلَامَةٌ لَصِحَّةِ الْمَحَبَّةِ، وَفِي آخِرِهِ عِلَامَةٌ
لِفُتُورِهَا وَبَابٌ لِلسُّلُوكِ.

خبر

وَأَذْكُرُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنِّي كُنْتُ مُجْتَازًا، فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ بِقَرْطَبَةَ
مِنْ مَقْبَرَةِ بَابِ عَامِرٍ^(١)، فِي لَمَّةٍ مِنَ الطُّلَّابِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ،
وَنَحْنُ نَرِيدُ مَجْلِسَ الشَّيْخِ أَبِي الْقَاسِمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ

(١) مقبرة باب عامر: هي المقبرة الواقعة أمام باب عامر القُرشي في الجانب
الغربي بقَرْطَبَة، والمنسوبة إليه.

المِصْرِيُّ الصَّوَّافُ^(١) بالرُّصَافَةِ^(٢) أستاذي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَمَعَنَا أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ الْبَلَوِيُّ^(٣) مِنْ أَهْلِ سَبْتَةِ^(٤)، وَكَانَ

(١) عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد البصري الأزدي العُتْكَي المصري الصَّوَّافُ النَّسَابَةُ، (أبو القاسم). هكذا ورد اسمه ونسبه في «الصلة» لابن بشكوال. وهو ممن تتلمذ عليهم ابن حزم، وَذَكَرَ أَنَّهُ قَدِمَ الْأَنْدَلُسَ مِنْ مِصْرَ سَنَةِ (٣٩٤هـ)، وَكَانَ أَدِيبًا حَافِظًا، وَصَاحِبَ أَشْعَارٍ، تَفَقَّهَ بِالْأَنْدَلُسِ وَسَكَنَ قَرْطَبَةَ إِلَى أَنْ وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ فَخَرَجَ. مَاتَ بِمِصْرَ سَنَةِ (٤١٠هـ). يَنْظُرُ: «الصلة» بِتَحْقِيقِ الْأَبْيَارِيِّ: ج ٢/ص ٥١٩.

(٢) الرُّصَافَةُ: الْمَدَنُ الَّتِي تَحْمِلُ اسْمَ الرِّصَافَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا رِصَافَةُ الشَّامِ (قَسْرِينَ)، وَرِصَافَةُ بَغْدَادَ فِي شَرْقِيهَا، وَرِصَافَةُ الْأَنْبَارِ، وَرِصَافَةُ بَلَنْسِيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَغَيْرَهَا. أَمَّا الْمَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ ابْنِ حَزْمَ هُنَا فَهِيَ رِصَافَةُ قَرْطَبَةَ لَا بَغْدَادَ كَمَا وَهَمَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ، وَهِيَ تَقَعُ بِقَرْطَبَةَ فِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا، أَنْشَأَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّخَلُ وَسَمَّاها الرُّصَافَةَ تَشْبِيهًا بِرِصَافَةِ الشَّامِ، وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ فِي آيَاتِهِ الشَّهِيرَةِ:

تَبَدَّلَتْ لَنَا وَسَطَ الرِّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ: شَبِيهِي بِالْغَرْبِ وَالتَّوَلَّى وَطُولَ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضِ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمَثَلَكُ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمَنْتَأَى مِثْلِي
يَنْظُرُ «مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ» لِْيَاقُوتَ: ج ٣/ص ٥٢ - ٥٦. وَ«الرُّوضُ الْمَعْطَارُ» فِي خَبَرِ الْأَقْطَارِ لِلْحَمِيرِيِّ تَحْقِيقُ: د. إِحْسَانُ عَبَّاسٍ - مُؤَسَّسَةُ نَاصِرٍ - بَيْرُوتَ - ط ٢ - ١٩٨٠ - ص ٢٦٩.

(٣) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ الْبَلَوِيُّ، (أَبُو بَكْرٍ): مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَدِيبٌ شَاعِرٌ، مِنْ مُعَاَصِرِي ابْنِ حَزْمَ. تَرَجَمَتْهُ مُقْتَضِبَةٌ فِي «جَدْوَةُ الْمُقْتَبَسِ» لِلْحَمِيدِيِّ: ق ٢/ص ٤٣١.

(٤) سَبْتَةُ: Cepta بفتح السين، وقيل: سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب وصفها ياقوت في معجمه فذكر جودة مرساها، وهي على برّ البربر تقابل جزيرة الأندلس، مدينة حصينة داخلية في البحر. وهي اليوم مدينة معروفة في الجزء الشمالي من المملكة المغربية، تقع على البحر الأبيض المتوسط تجاه جبل طارق، ويذكر أنها مدينة قديمة تعاقب عليها القرطاجيون =

شاعراً مُفْلِقاً. وهو يُنشد لنفسه في صِفَةِ مُتَجَنٍّ مَعْهُودٍ أَيْبَاتاً لَهُ،
منها:

[من الطويل]

سَرِيعٌ إِلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ، وَإِنَّهُ
إِلَى نَقْضِ أَسْبَابِ الْمَوَدَّةِ أَسْرَعُ
يَطُولُ عَلَيْنَا أَنْ نُرْقِعَ وَدَّهُ
إِذَا كَانَ فِي تَرْقِيعِهِ يَتَقَطَّعُ

فوافقَ إنشادَ البيتِ الأوَّلِ من هذينِ البيتينِ خُطُورٌ ^(١) أَبِي [عَلِيٍّ]
الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْفَاسِي ^(٢) (رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى)، وهو يُؤمُّ أيضاً
مَجْلِسَ ابْنِ أَبِي يَزِيدَ ^(٣)، فَسَمِعَهُ فَتَبَسَّمَ، (رَحِمَهُ اللَّهُ)، نَحُونَا
وَطَوَانَا مَاشِيَاً، وَهُوَ يَقُولُ: بَلْ إِلَى عَقْدِ الْمَوَدَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ! هَذَا
عَلَى جِدِّ أَبِي [عَلِيٍّ] الْحُسَيْنِ (رَحِمَهُ اللَّهُ) وَفَضْلِهِ وَتَقَرُّبِهِ وَبِرَاءَتِهِ
وَنُسْكِهِ وَزُهْدِهِ وَعِلْمِهِ، فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ:

[من الكامل]

دَعْ عَنْكَ نَقْضَ مَوَدَّتِي مُتَعَمِّداً
وَاعْقِدْ حِبَالَ وَصَالِنَا يَا ظَالِماً

= والإغريق والرومان والعرب ثم البرتغاليون والإسبان. ينظر «معجم البلدان»
لياقوت: ج ٣/ص ٢٠٥. وكذلك موسوعة المورد للبلعكي مج ١/ص ٦٠٧.

(١) الخطور، هنا بمعنى: المرور أو العبور.

(٢) الحسين بن علي الفاسي (أبو علي): من أهل العلم والفضل، ذكر ابن حزم
شيئاً عن علمه وورعه وحسن أخلاقه، توفي قبل ابن حزم. ترجمته في
«جذوة المقتبس»: ق ١/ص ٢٩٩. وفي «بغية الملتبس»: ج ١/ص ٣٢٨. وورد
اسمه في بعض المصادر خطأً: الحسن بدل الحسين.

(٣) ابن أبي يزيد: هو عبد الرحمن بن محمد (أبو القاسم) الذي ورد ذكره قبل
قليل في صفحة ٢١٧ الحاشية (١).

وَلتَرْجِعَنَّ، أَرَدْتَهُ أَوْ لَمْ تُرِدْ،

كَرْهًا لِمَا قَالَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ

وَيَقَعُ فِيهِ الْهَجْرُ وَالْعِتَابُ؛ وَلَعَمْرِي إِنَّ فِيهِ إِذَا كَانَ قَلِيلًا لِلذَّةِ،
وَأَمَّا إِذَا تَفَاقَمَ فَهُوَ فَأَلْ غَيْرُ مَحْمُودٍ، وَأَمَارَةٌ^(١) وَبَيْئَةُ الْمَصْدَرِ،
وَعَلَامَةٌ سُوءٍ. وَهِيَ بِجُمْلَةِ الْأَمْرِ مَطِيَّةُ الْهَجْرَانِ، وَرَائِدُ الصَّرِيمَةِ،
وَنَتِيجَةُ التَّجْنِي، وَعِنَوَانُ الثَّقَلِ، وَرَسُولُ الْإِنْفِصَالِ، وَدَاعِيَةُ
الْقَلَى^(٢)، وَمَقْدَمَةُ الصَّدِّ. وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا لَطَفَ، وَكَانَ أَصْلُهُ
الِإِشْفَاقُ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الوافر]

لَعَلَّكَ بَعْدَ عَثْبِكَ أَنْ تَجُودَا

بِمَا مِنْهُ عَتَبْتَ وَأَنْ تَزِيدَا

فَكَمْ يَوْمٍ رَأَيْنَا فِيهِ صَحْوًا

وَأُسْمِعْنَا بِآخِرِهِ الرُّعُودَا

وَعَادَ الصَّحْوُ بَعْدُ كَمَا عَلِمْنَا

وَأَنْتَ كَذَاكَ نَرْجُو أَنْ تَعُودَا

وَكَانَ سَبَبَ قَوْلِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، عِتَابٌ وَقَعَ فِي يَوْمٍ هَذِهِ صِفَتُهُ
مِنْ أَيَّامِ الرَّبِيعِ، فَعُلْتُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَكَانَ لِي فِي بَعْضِ الزَّمَنِ صَدِيقَانِ، وَكَانَا أَحْوَيْنَ، فَعَابَا فِي
سَفَرٍ ثُمَّ قَدِمَا، وَقَدْ أَصَابَنِي رَمْدٌ فَتَأَخَّرَا عَنْ عِيَادَتِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِمَا،
وَالْمُخَاطَبَةُ لِلْأَكْبَرِ مِنْهُمَا، شِعْرًا مِنْهُ:

[من المتقارب]

وَكُنْتُ أَعِدُّ أَيْضًا عَلَى

أَخِيكَ بِمُؤَلِّمَةِ السَّامِعِ

(١) أَمَارَةٌ: علامة.

(٢) الْقَلَى: البغض.

وَلَكِنْ إِذَا الدَّجْنُ غَطَّى ذُكَاءً^(١)

فَمَا الظَّنُّ بِالْقَمَرِ الطَّالِعِ؟

٤ - ثُمَّ هَجَرَ يُوجِبُهُ الْوُشَاءُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهِمْ وَفِيمَا يَتَوَلَّدُ مِنْ دَيْبِ عَقَارِبِهِمْ، وَرُبَّمَا كَانَ سَبَبًا لِلْمُقَاطَعَةِ الْبَتَّةِ.

٥ - ثُمَّ هَجَرَ الْمَلَلُ، وَالْمَلَلُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الْإِنْسَانِ، وَأُخْرَى لِمَنْ ذُهِبَ بِهِ إِلَّا يَصْنُفُو لَهُ صَدِيقٌ، وَلَا يَصِحُّ لَهُ إِخَاءٌ، وَلَا يَثْبُتَ عَلَى عَهْدٍ، وَلَا يَصْبِرَ عَلَى إِلْفٍ، وَلَا تَطُولَ مُسَاعَدَتُهُ لِمُحِبٍّ، وَلَا يُعْتَقَدُ مِنْهُ وَدٌّ وَلَا بَغْضَةٌ. وَأَوَّلَى الْأُمُورِ بِالنَّاسِ إِلَّا يَقَرَّبُوهُ مِنْهُمْ وَأَنْ يَفِرُّوا عَنْ صُحْبَتِهِ وَلِقَائِهِ؛ فَلَنْ يَحْظُوا^(٢) مِنْهُ بِطَائِلٍ. وَلِذَلِكَ أَبْعَدْنَا هَذِهِ الصِّفَةَ عَنِ الْمُحِبِّينَ وَجَعَلْنَاهَا فِي الْمَحْبُوبِينَ، فَهُمْ بِالْجُمْلَةِ أَهْلُ التَّجَنِّيِ وَالتَّظَنِّيِ^(٣) وَالتَّعَرُّضِ لِلْمُقَاطَعَةِ. وَأَمَّا مَنْ تَزَيَّا بِاسْمِ الْحُبِّ، وَهُوَ مَلُولٌ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَحَقُّهُ أَنْ يَهْجَرَ مَذَاقَهُ^(٤)، وَيُنْفَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَا يُدْخَلُ فِي جُمْلَتِهِمْ.

وَمَا رَأَيْتُ قَطُّ هَذِهِ الصِّفَةَ أَشَدَّ تَغَلُّبًا مِنْهَا عَلَى أَبِي عَامِرٍ^(٥)

(١) ذُكَاءٌ: بالضم اسم الشمس.

(٢) فِي ط. د. عَبَّاسٌ «يُخْلَوُ» وَفِي طِ الْقَاسِمِيِّ «يُظْفَرُوا»، وَفِي طَبْعَةِ أُخْرَى «يَحْظُوا»، وَالْأَصُوبُ «يَحْظُوا» لِأَنَّهَا الْأَقْرَبُ وَالْأَسْلَمُ لِلْسِّيَاقِ.

(٣) التَّظَنِّيُّ: إِعْمَالُ الظَّنِّ، وَأَصْلُهُ التَّظَنُّنُ أَبْدَلْتُ إِحْدَى النُّونَاتِ يَاءً (اللسان/ظن).

(٤) فِي طِ عَبَّاسٍ «أَنْ يُهْجَرَ مَذَاقُهُ» وَهُوَ بَعِيدٌ؛ وَمَعْنَى الْبَهْرَجِ لَا يَنَاسِبُ سِيَاقَ الْمَعْنَى. وَفِي طِ، الْقَاسِمِيُّ: «أَلَا يَتَجَرَّعُ» وَهِيَ مُنَاسِبَةٌ لِلْسِّيَاقِ.

(٥) أَبُو عَامِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ: صَدِيقُ ابْنِ حَزْمٍ. سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي صَفْحَةِ ١٠٤ الْحَاشِيَةِ (٣). وَهُوَ غَيْرُ الْحَاجِبِ الْمَنْصُورِ.

مُحَمَّدُ بْنُ [أبي] عامرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَلَوْ وَصَفَ لِي وَاصِفٌ بَعْضَ مَا عَلِمْتُهُ مِنْهُ لَمَا صَدَّقْتُهُ. وَأَهْلُ هَذَا الطَّبَعِ أَسْرَعُ الْخَلْقِ مَحَبَّةً، وَأَقْلُهُمْ صَبْرًا عَلَى الْمَحْبُوبِ وَعَلَى الْمَكْرُوهِ، وَبِالْصَّدِّ؛ وَانْقِلَابُهُمْ عَنِ الْوَدِّ عَلَى قَدَرٍ تَسْرِعُهُمْ إِلَيْهِ؛ فَلَا تَثِقُ بِمَلُولٍ وَلَا تَشْغَلُ بِهِ نَفْسُكَ، وَلَا تُعْنَهَا ^(١) بِالرَّجَاءِ فِي وَفَائِهِ. فَإِنْ دُفِعَتْ إِلَى مَحَبَّتِهِ ضَرُورَةً فَعُدَّهُ ابْنَ سَاعَتِهِ، وَاسْتَأْنِفُهُ كُلَّ حِينٍ مِنْ أَحْيَانِهِ، بِحَسَبِ مَا تَرَاهُ مِنْ تَلَوْنِهِ، وَقَابِلُهُ بِمَا يَشَاكِلُهُ.

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو عامرٍ الْمُحَدَّثُ عَنْهُ، يَرَى الْجَارِيَةَ فَلَا يَصْبِرُ عَنْهَا، وَيَحِيقُ بِهِ مِنَ الْاِغْتِمَامِ وَالْهَمِّ مَا يَكَادُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ حَتَّى يَمْلِكُهَا؛ وَلَوْ حَالَ دُونَ ذَلِكَ شَوْكُ الْقِتَادِ ^(٢)؛ فَإِذَا أُيْقِنَ بِتَصْيِيرِهَا إِلَيْهِ، عَادَتْ الْمَحَبَّةُ نِفَارًا، وَذَلِكَ الْأَنْسُ شُرُودًا، وَالْقَلْقُ إِلَيْهَا قَلْقًا مِنْهَا، وَنِزَاعُهُ نَحْوَهَا نِزَاعًا عَنْهَا؛ فَيَبِيعُهَا بِأَوْكَسِ الْأَثْمَانِ. هَذَا كَانَ دَأْبُهُ حَتَّى أَتْلَفَ، فِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ عَشْرَاتِ أَلُوفِ الدَّنَانِيرِ، عَدَدًا عَظِيمًا. وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ هَذَا مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحَذَقِ وَالذِّكَاةِ وَالثَّبَلِ وَالْحَلَاوَةِ وَالتَّوَقُّدِ، مَعَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ، وَالْمَنْصَبِ الْفَخْمِ، وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ؛ وَأَمَّا حُسْنُ وَجْهِهِ وَكَمَالُ صُورَتِهِ فَشَيْءٌ تَقِفُ الْحُدُودُ عَنْهُ، وَتَكِلُ الْأَوْهَامُ عَنْ وَصْفِ أَقْلِهِ، وَلَا يَتَعَاطَى أَحَدٌ وَصْفَهُ. وَلَقَدْ كَانَتْ الشَّوَارِعُ تَخْلُو مِنَ السَّيَّارَةِ، وَيَتَعَمَّدُونَ الْخُطُورَ عَلَى بَابِ دَارِهِ، فِي الشَّارِعِ الْآخِذِ مِنَ النَّهْرِ الصَّغِيرِ،

(١) تُعْنَاهَا: التَّعْنَى: الْحَبْسُ. وَلَا تُعْنَاهَا: لَا تَحْبِسْهَا وَلَا تُثَمِّنْهَا بِالرَّجَاءِ. وَفِي طَبْعَةِ الْقَاسِمِيِّ: «لَا تُعْنَاهَا» وَفِي طَبْعَةِ أُخْرَى «لَا تَعْلَلْهَا» وَأَقْرَبُ الْقَرَاءَاتِ: «لَا تَعْلَلْهَا» أَوْ «لَا تُثَمِّنْهَا».

(٢) الْقِتَادُ: شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ أَمْثَالُ الْإِبْرِ.

على باب دارنا في الجانب الشرقي بقرطبة، إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة؛ وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله، ملاصقة لنا، لا لشيء إلا للنظرة منه. ولقد مات من محبته جوار كن علقن أو هامهن به، ووفين^(١) له فخانهن مما أملنه منه، فصرن رهائن البلى، وقتلتهن الوحدة. وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى «عفراء»، عهدي بها لا تستر بمحبته حيثما جلست، ولا تجف دموعها، وكانت قد تصيرت^(٢) من داره إلى البركات الخيال صاحب الفتيان.

ولقد كان (رحمه الله)، يخبرني عن نفسه، أنه يمل اسمه فضلاً عن غير ذلك. وأما إخوانه، فإنه تبدل بهم في عمره على قصره مراراً؛ وكان لا يثبت على زي واحد كأبي براقش^(٣)، حيناً يكون في ملابس الملوك، وحيناً في ملابس القتاك.

فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته، على أي وجه كان، ألا يستفرغ عامة جهده في محبته، وأن يقيم اليأس من دوامه حصناً^(٤) لنفسه، فإذا لاح له مخايل الملل قاطعه أياماً حتى ينشط

(١) في بعض الطباعات: «ربين»، وفي غيرها: «رئين»، وهو بعيد.

(٢) «تصيرت» بمعنى: صارت وانتقلت!

(٣) أبو براقش: اسم طائر وصف بتغير اللون حتى ضرب به المثل في كل متلون ذي وجهين، وجاء في لسان العرب: «تبرقش الرجل: تزين بألوان شتى مختلفة». وأصله من أبي براقش. بيد أنهم لا يتفقون على تحديد هذا الطائر، فقد اختلفت أوصافه وأسماءه في المصادر المختصة بعلوم الحيوان. ينظر دائرة المعارف بإشراف فؤاد أفرام البستاني - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٦٢ - مج ٤/ ص ٢٠٢.

(٤) في بعض الطباعات «خصماً».

بَالُهُ، وَيَبْعُدَ بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ يُعَاوِدُهُ؛ فَرُبَّمَا دَامَتِ الْمَوَدَّةُ مَعَ هَذَا؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من المجتث]

لَا تَرْجُوْنَ مَلُولاً
لَيْسَ الْمَلُولُ بِعُدَّةٍ
وُدِّ الْمَلُولِ فَدَعَاهُ
عَارِيَّةٌ مُسْتَرَدَّةٌ^(١)

٦ - وَمِنَ الْهَجْرِ ضَرْبٌ يَكُونُ مُتَوَلِّيه الْمُحِبُّ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَرَى مِنْ جَفَاءٍ مَحْبُوبِهِ وَالْمِيلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، أَوْ لِثَقِيلٍ يُلَازِمُهُ؛ فَيَرَى الْمَوْتَ وَتَجَرُّعَ غُصَصِ الْأَسَى، وَالْعَصَصَ عَلَى نَقِيفِ الْحَنْظَلِ، أَهْوَنَ مِنْ رُؤْيَا مَا يَكْرَهُ، فَيَنْقَطِعُ وَكِبْدُهُ تَنْقَطِعُ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من السريع]

هَجَرْتُ مَنْ أَهْوَاهُ لَا عَنْ قَلْبِي
يَا عَجَباً لِلْعَاشِقِ الْهَاجِرِ
لَكِنَّ عَيْنِي لَمْ تُطِيقْ نَظْرَةً
إِلَى مُحَيَّا الرِّشَاءِ الْغَادِرِ^(٢)
فَالْمَوْتُ أَحْلَى مَطْعِماً^(٣) مِنْ هَوَايَ
يُبَاحُ لِلْوَارِدِ وَالصَّادِرِ

(١) عَارِيَّة: الْعَارِيَّةُ: الْمُنِيحَةُ وَهِيَ النَاقَةُ أَوْ الشَاةُ تَعْطِيهَا غَيْرُكَ يَحْتَلِبُهَا ثُمَّ يَرُدُّهَا إِلَيْكَ. (اللسان/غير). وَفِي ط الْقَاسِمِيِّ «عَارِيَّةٌ» دُونَ تَشْدِيدِ الْيَاءِ، وَالْأَصُوبُ بِالتَّشْدِيدِ لِأَنَّ الْمَعْجَمَ يَضَعُفُهَا وَهِيَ مَشْهُورَةٌ.

(٢) الرِّشَاءُ: الظَّبْيُ إِذَا قَوِيَ وَتَحَرَّكَ وَمَشَى مَعَ أُمِّهِ.

(٣) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ «مَطْعِماً».

وفي الفؤادِ النَّارُ مَذْكِيَّةٌ
 فاعجبْ لَصَبِّ جَزَعِ صَابِرٍ
 وقد أَباحَ اللّهُ في دِينِهِ
 تَقِيَّةَ المَأْسُورِ لِلْأَسِيرِ
 وقد أَحَلَّ الكُفْرَ خَوْفَ الرَّدَى
 حتى ترى المُوْمِنَ كالكَافِرِ

خبر

ومِنْ عَجِيبِ ما يَكُونُ فيها وشَنِيعِهِ، أَنِي أَعْرِفُ مَنْ هَامَ قَلْبُهُ
 بِمُتَنَاءٍ عَنْهُ نَافِرٍ مِنْهُ، فَقَاسَى الِوَجْدَ زَمْنًا طَوِيلًا، ثُمَّ سَنَحَتْ لَهُ الْأَيَّامُ
 بَسَانِحَةً عَجِيبَةً مِنَ الْوَصْلِ، أَشْرَفَ مِنْهَا عَلَى بُلُوغِ أَمَلِهِ، فَحِينَ لَمْ
 يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَايَةِ رَجَائِهِ إِلَّا كَ«لَا» وَ«لَا»^(١) عَادَ الْهَجْرُ وَالْبُعْدُ إِلَى
 أَكْثَرِ مِمَّا كَانَ قَبْلُ، فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ:

[من السريع]

كَانَتْ إِلَى دَهْرِي لِي حَاجَةٌ
 مَقْرُونَةٌ فِي الْبُعْدِ بِالْمُشْتَرِي^(٢)
 فَسَاقَهَا بِاللُّطْفِ حَتَّى إِذَا
 كَانَتْ مِنَ الْقُرْبِ عَلَى مَحْجَرِي^(٣)
 أَبْعَدَهَا عَنِّي فَعَادَتْ كَأَنَّ
 لَمْ تَبْدُ لِلْعَيْنِ وَلَمْ تَظْهَرِ

(١) دلالة على قصر الزَّمن وقرب المسافة. وأوردها القاسمي: «كهؤلاء» ولا دلالة واضحة للإشارة هنا.

(٢) المشتري: أكبر الكواكب السيَّارة، واستخدمه ابن حزم هنا للدلالة على البُعد.

(٣) محجر العين: العظم المحيط بها (اللسان/ حجر).

وقلت :

[من الطويل]

دَنَا أَمْلِي حَتَّى مَدَدْتُ لِأَخْذِهِ
يَدًا فَأَنْشَنِي نَحْوَ الْمَجْرَةِ رَاحِلًا
فَأُصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَقَدْ كُنْتُ مُوقِنًا
وَأُضْحِي مَعَ الشَّعْرِى وَقَدْ كَانَ حَاصِلًا^(١)
وَقَدْ كُنْتُ مَحْسُودًا فَأُصْبَحْتُ حَاسِدًا
وَقَدْ كُنْتُ مَأْمُولًا فَأُصْبَحْتُ أَمَلًا
كَذَا الدَّهْرُ فِي كَرَاتِهِ وَانْتِقَالِهِ
فَلَا يَأْمَنَنَّ الدَّهْرُ مَنْ كَانَ عَاقِلًا

٧ - ثُمَّ هَجَرُ الْقَلْبَى، وَهُنَا ضَلَّتِ الْأَسَاطِينُ^(٢) وَنَفَدَتِ الْحِيَلُ
وَعَظُمَ الْبَلَاءُ؛ وَهُوَ الَّذِي خَلَّى الْعُقُولَ ذَوَاهِلَ. فَمَنْ دُهِىَ بِهِذِهِ
الدَّاهِيَةِ، فَلْيَتَصَدَّ لِمَحْبُوبٍ مَحْبُوبِهِ، وَلْيَتَعَمَّدْ مَا يَعْرِفُ أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ.
وَيَجِبُ أَنْ يَجْتَنِبَ مَا يَدْرِي أَنَّهُ يَكْرَهُهُ، فَرُبَّمَا عَطَفَهُ ذَلِكَ عَلَيْهِ إِنْ
كَانَ الْمَحْبُوبُ مِمَّنْ يَدْرِي قَدَرَ الْمُوَافَقَةِ وَالرَّغْبَةِ فِيهِ. وَأَمَّا مَنْ لَمْ
يَعْلَمْ قَدَرَ هَذَا، فَلَا طَمَعَ فِي اسْتِصْرَافِهِ^(٣)، بَلْ حَسَنَاتُكَ عِنْدَهُ
ذُنُوبٌ. فَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْمَرْءُ عَلَى اسْتِصْرَافِهِ، فَلْيَتَعَمَّدِ السُّلُوَانَ،
وَلْيَحَاسِبْ نَفْسَهُ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْجِرْمَانِ، وَلْيَسْعَ فِي نَيْلِ

(١) الشَّعْرِى: كوكب نيرٍ يطلع عند شدة الحرِّ.

(٢) في كثير من الطبوعات: «الأساطير» و«الأشاطر» ولعل أقربها «الأساطين»
بمعنى: العظماء.

(٣) استصرافه: سؤاله المحبوب التغاضي عن عيوبه ومكروهه. أي صرْفُهُ عن كل
ذلك.

رَغْبَتِهِ عَلَى أَيِّ وَجْهِ أَمْكَنَهُ . وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً أَوَّلُهَا :

[من الطويل]

دُهِيتُ بِمَنْ لَوْ أَدْفَعُ الْمَوْتَ دُونَهُ
لَقَالَ إِذَا يَا لَيْتَنِي فِي الْمَقَابِرِ
ومنها :

وَلَا ذَنْبَ لِي إِذْ صِرْتُ أَحَدُوكَ رَكَائِبِي
إِلَى الْوَرْدِ وَالذُّنْيَا تُسَيِّئُ مَصَادِرِي
وَمَاذَا عَلَى الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ بِالضُّحَى
إِذَا قَصُرَتْ عَنْهَا ضِعَافُ الْبَصَائِرِ
وأقول :

[من مُخَلَّع البسيط]

مَا أَقْبَحَ الْهَجَرَ بَعْدَ وَضَلٍ
وَأَحْسَنَ الْوَضَلَ بَعْدَ هَجَرٍ
كَالْوَفْرِ تَحْوِيهِ بَعْدَ فَقْرٍ
وَالْفَقْرِ يَأْتِيكَ بَعْدَ وَفْرِ
وأقول :

[من السريع]

مَعْهُودُ أَخْلَاقِكَ قِسْمَانِ
وَالدَّهْرُ فَيْكَ الْيَوْمَ صِنْفَانِ
فَإِنَّكَ النُّعْمَانُ فِيمَا مَضَى
وَكَانَ لِلنُّعْمَانِ يَوْمَانِ^(١)

(١) النعمان: هو النعمان بن المنذر، وقصته في يوم يؤسه ويوم سعدته مشهورة، =

يَوْمُ نَعِيمٍ فِيهِ سَعْدُ الْوَرَى
 وَيَوْمُ بِأَسَاءٍ وَعُدْوَانٍ
 فَيَوْمُ نِعْمَاكَ لِغَيْرِي وَيَوْمُ
 مِي مِنْكَ ذُو بُؤْسٍ وَهَجْرَانٍ
 أَلَيْسَ حُبِّي لَكَ مُسْتَأْهِلاً
 لِأَنْ تُجَازِيَهُ بِإِحْسَانٍ
 وَأَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من الكامل]

يَا مَنْ جَمِيعُ الْحُسْنِ مُنْتَظِمٌ
 فِيهِ كَنْظَمُ الدُّرِّ فِي الْعَقْدِ
 مَا بَالُ حَتْفِي مِنْكَ يَطْرُقُنِي
 قَصْداً وَوَجْهُكَ ^(١) طَالِعُ السَّعْدِ
 وَأَقُولُ قَصِيدَةً أَوَّلُهَا:

[من الطويل]

أَسَاعَةٌ تَوْدِيعِيكَ ^(٢) أَمْ سَاعَةُ الْحَشْرِ
 وَلَيْلَةٌ بَيْنِي مِنْكَ أَمْ لَيْلَةُ النَّشْرِ
 وَهَجْرُكَ تَغْذِيبُ الْمُوَحِّدِ يَنْقُضِي
 وَيَرْجِي ^(٣) التَّلَاقِي، أَمْ عَذَابُ ذَوِي الْكُفْرِ

= إذ جعل يوماً لسعده يكافئ فيه أول من يلقاه، ويوماً لنحسه يقتل فيه أول من يلقاه.

(١) في إحدى الطبقات: «ووجهي».

(٢) في ط القاسمي «توديعك»، ولا يستقيم بها الوزن.

(٣) في بعض الطبقات: «ويرجو». وثبتها د. عباس هكذا مرجحاً إياها.

ومنها:

سَقَى اللّهُ أَيَّاماً مَضَتْ وَلِيَالِيَا
تُحَاكِي لَنَا النَّيْلُوفَرَ الْغَضَّ فِي النَّشْرِ^(١)
فَأَوْرَاقُهُ الْأَيَّامُ حُسْنًا وَبَهْجَةً
وَأَوْسَطُهُ اللَّيْلُ الْمُقْصَرُّ لِلْعُمَرِ
لَهَوْنَا بِهَا فِي غَمْرَةٍ وَتَأَلَّفِ
تَمُرٌ فَلَا نَذْرِي وَتَأْتِي فَلَا نَذْرِي
فَأَعْقَبَنَا مِنْهُ زَمَانٌ كَأَنَّهُ
وَلَا شَكَّ حُسْنُ الْعَقْدِ أَعْقَبَ بِالْغَدْرِ

ومنها:

فَلَا تَيْأَسِي يَا نَفْسُ عَلَّ زَمَانَنَا
يَعُودُ بِوَجْهِ مُقْبِلٍ غَيْرِ مُزَوَّرٍ^(٢)
كَمَا صَرَفَ الرَّحْمَنُ مُلْكَ أُمِّيَّةٍ
إِلَيْهِمْ، وَلَوْ ذِي بِالتَّجْمُلِ وَالصَّبْرِ
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَمَدُحُ أَبَا بَكْرٍ هِشَامَ بْنِ مُحَمَّدٍ^(٣) أَخَا أَمِيرِ

(١) اللَّيْلُوفَرُ: نوع من الزهر تغنى به الشعراء وخاصة شعراء العصر العباسي الثاني وما تلاه. وورد عند بعض الشعراء (الليئوفر) كما نجده عند السري الرفاء بكثرة.

والتَّشْرِ: في هذا البيت، الرائحة الذكية الفوَّاحة. والنشر، في البيت الأسبق: يوم الحساب في الآخرة.

(٢) في جميع الطبعات: «مُذْبِرٌ»، وما أثبتناه أنسب للوزن.

(٣) هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، (أبو بكر)، المعتد بالله، آخر ملوك بني أمية بالأندلس. كان مقيماً في حصن «ألبونت» من ثغور قرطبة، وبويع بعد وفاة المستكفي بالله سنة (٤١٨هـ)، فكان يُحْطَبُ له في =

المؤمنين عبد الرحمن المرتضى^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ، فأقول:

[من الطويل]

أَلَيْسَ يُحِيطُ الرُّوحُ فِينَا بِكُلِّ مَا
دَنَا وَتَنَاءَى وَهُوَ فِي حُجْبِ الصَّدْرِ
كَذَا الدَّهْرُ جِسْمٌ وَهُوَ فِي الدَّهْرِ رُوحُهُ
مُحِيطٌ بِمَا فِيهِ وَإِنْ شِئْتَ فَاسْتَقْرِ^(٢)

ومنها:

إِتَاوَتْهُمْ تُهْدَى إِلَيْهِ، وَمِنَّةٌ
تَقْبُلُهَا مِنْهُمْ يُقَاوَمُ بِالشُّكْرِ^(٣)
كَذَا كُلُّ نَهْرٍ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ طَمَتْ
غَرَارَتُهُ، يَنْصَبُ فِي لَجَجِ الْبَحْرِ

= قرطبة، والفتن قائمة في البلاد، لا قدرة له على قمعها. ودخل قرطبة أواخر سنة (٤٢٠هـ)، فأقام قليلاً، وثارت به طائفة من الجند، فخلعوه وأخرجوه من قصره هو ونساؤه وخدمه سنة (٤٢٢هـ)، فليجأ إلى جامع قرطبة بمن معه، وأقام أياماً يعطف عليه الناس بالطعام والشراب إلى أن أخرج من قرطبة. وبوفاته سنة (٤٢٨هـ) انقرضت الدولة الأموية في الأندلس. الأعلام للزركلي: مج ٨/ ص ٨٨.

(١) عبد الرحمن المرتضى: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي: بويغ سنة (٤٠٧هـ). قُتِلَ غيلةً. تحدث ابن حزم عن تقشُّفه وميله إلى الفقه والعلم. الأعلام للزركلي: مج ٣/ ص ٣٢٦.

(٢) استقر: استقرى الأشياء: تَبَّعَهَا لمعرفة أحوالها وخواصها.

(٣) الإتاوة: ما يدفعه الذمي من جزية. أو هي الضريبة وما شابه. وفي معظم الطبقات «إتاوتها». وورد الشطر الثاني عند عباس: «تَقْبُلُهَا مِنْهُمْ تُقَاوَمُ بِالشُّكْرِ» وما أثبتناه هو قراءة محقق ط. التونسية. ويمكن أن نقرا: «تَقْبُلُهَا مِنْهُمْ تُقَاوَمُ بِالشُّكْرِ».

٢٢

بابُ الوفاء

وَمِنْ حَمِيدِ الْغَرَائِزِ، وَكَرِيمِ الشَّيَمِ، وَفَاضِلِ الْأَخْلَاقِ فِي الْحَبِّ وَغَيْرِهِ: الْوَفَاءُ؛ وَإِنَّهُ لِمِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ وَأَوْضَحِ الْبَرَاهِينِ عَلَى طَيْبِ الْأَصْلِ وَشَرَفِ الْعُنْصُرِ. وَهُوَ يَتَفَاضَلُ بِالتَّفَاضُلِ اللَّازِمِ لِلْمَخْلُوقَاتِ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من البسيط]

أَفْعَالُ كُلِّ امْرِئٍ تُنْبِي بِعُنْصُرِهِ
وَالْعَيْنُ تُغْنِيكَ عَنْ أَنْ تَطْلُبَ الْأَثَرَا

ومنها:

وَهَلْ تَرَى قَطُّ دِفْلَى^(١) أَنْبَتَتْ عَنبًا
أَوْ تَذْخُرُ النَّحْلُ فِي أَوْكَارِهَا الصَّبْرَا

١ - وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ الْوَفَاءِ أَنْ يَفِي الْإِنْسَانُ لِمَنْ يَفِي لَهُ. وَهَذَا فَرَضٌ لَازِمٌ، وَحَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى الْمُحِبِّ وَالْمَحْبُوبِ، لَا يَحُولُ عَنْهُ إِلَّا خَبِيثُ الْمُحْتَدِ، لَا خَلَاقَ^(٢) لَهُ وَلَا خَيْرَ عِنْدَهُ. وَلَوْلَا أَنْ رِسَالَتَنَا هَذِهِ لَمْ نَقْصُدْ بِهَا الْكَلَامَ فِي

(١) الدَّفْلَى: نبت مٌ، زهره كالورد الأحمر. وحمله (ثمره) بالخروب، ويتخذ للزينة (المعجم الوسيط: دفلى).

(٢) لَا خَلَاقَ لَهُ: الْخَلَاقُ: الْحِطُّ وَالنَّصِيبُ مِنَ الْخَيْرِ. يُقَالُ: فَلَانٌ لَا خَلَاقَ لَهُ: لَا رَغْبَةَ لَهُ فِي الْخَيْرِ.

أَخْلَقَ الْإِنْسَانَ^(١) وَصِفَاتِهِ الْمَطْبُوعَةِ وَالْمُتَطَبِّعَ بِهَا، وَمَا يَزِيدُ مِنَ الْمَطْبُوعِ بِالتَّطَبُّعِ، وَمَا يَضْمَحِلُّ مِنَ التَّطَبُّعِ بِعَدَمِ الطَّبُّعِ، لَزِدْتُ فِي هَذَا الْمَكَانِ مَا يَجِبُ أَنْ يَوْضَعَ فِي مِثْلِهِ؛ وَلَكِنَّا إِنَّمَا قَصَدْنَا التَّكَلُّمَ فِيْمَا رَغِبْتُهُ مِنْ أَمْرِ الْحُبِّ فَقَطْ، وَهَذَا أَمْرٌ كَانَ يَطُولُ جَدًّا إِذِ الْكَلَامُ فِيهِ يَتَفَنَّنُ كَثِيرًا.

خبر

وَمِنْ أَرْفَعَ^(٢) مَا شَاهَدْتُهُ مِنَ الْوَفَاءِ، فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَأَهْوَلِهِ شَأْنًا: قِصَّةُ رَأَيْتُهَا عَيْنًا؛ وَهُوَ أَنِّي أَعْرِفُ مَنْ رَضِيَ بِقِطْعَةٍ مَحْبُوبَةٍ، وَأَعَزَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ الْمَوْتُ عِنْدَهُ أَحْلَى مِنْ هَجْرٍ سَاعَةٍ، فِي جَنْبِ طَيْهِ لِسِرٍّ أَوْدَعَهُ، وَالتَّزَمَ مَحْبُوبَهُ يَمِينًا غَلِيظَةً أَلَّا يَكَلِّمَهُ أَبَدًا، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا خَبَرٌ، أَوْ يَقْضَحَ إِلَيْهِ ذَلِكَ السِّرُّ؛ عَلَى أَنَّ صَاحِبَ ذَلِكَ السِّرِّ كَانَ غَائِبًا، فَأَبَى مِنْ ذَلِكَ، وَتَمَادَى هُوَ عَلَى كِثْمَانِهِ، وَالثَّانِي عَلَى هِجْرَانِهِ إِلَى أَنْ فَرَّقَتْ بَيْنَهُمَا الْأَيَّامُ.

٢ - ثُمَّ مَرْتَبَةٌ ثَانِيَةٌ وَهِيَ الْوَفَاءُ لِمَنْ غَدَرَ، وَهِيَ لِلْمُحِبِّ دُونَ الْمَحْبُوبِ، وَلَيْسَ لِلْمَحْبُوبِ هَا هُنَا طَرِيقٌ وَلَا يَلْزَمُهُ ذَلِكَ، وَهِيَ خُطَّةٌ لَا يُطَبِّقُهَا إِلَّا جَلْدٌ^(٣) قَوِيٌّ، وَاسِعُ الصَّدْرِ، حُرٌّ النَّفْسِ، عَظِيمُ الْحِلْمِ، جَلِيلُ الصَّبْرِ، حَصِيفُ الْعَقْلِ^(٤)، مَا جِدَّ الْخُلُقِ، سَالِمُ النِّيَّةِ. وَمَنْ قَابَلَ الْعَدْرَ بِمِثْلِهِ فَلَيْسَ

(١) فِي إِحْدَى الطَّبَعَاتِ: «النِّسَاءُ»، وَهُوَ مُجَانِبٌ لِلصُّوَابِ.

(٢) فِي إِحْدَى النُّسخِ: «أَشْنَعُ».

(٣) جَلْدٌ: صَبُورٌ.

(٤) فِي ط. عَبَّاسٍ: «الْعُقْدَةُ» وَفِي سَائِرِ الطَّبَعَاتِ: الْعَقْلُ، وَهُوَ أَرْجَحُ لِمُنَاسَبَتِهِ سِيَاقَ الْكَلَامِ.

بِمُسْتَأْهِلٍ لِلْمَلَامَةِ، وَلَكِنَّ الْحَالَ الَّتِي قَدَّمْنَا، تَفُوقُهَا جِدًّا وَتَفُوتُهَا بَعْدًا. وَغَايَةُ الْوَفَاءِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، تَرْكُ مُكَافَأَةِ الْأَذَى بِمِثْلِهِ، وَالْكَفُّ عَنْ سَيِّئِ الْمُقَارَضَةِ^(١) بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ، وَالتَّأْنِي فِي جَدٍّ^(٢) حَبْلِ الصُّحْبَةِ مَا أَمَكَنَ. وَرُجِّيَتْ الْأَلْفَةُ، وَطُمِعَ فِي الرَّجْعَةِ، وَلاَحَتْ لِلْعُودَةِ أَدْنَى مَخِيلَةٍ^(٣)، وَشِيمَتْ مِنْهَا أَقْلٌ بَارِقَةٌ، أَوْ تُوجَّسَ مِنْهَا أَيْسَرُ عَلَامَةٍ. فَإِذَا وَقَعَ الْيَأْسُ وَاسْتَحْكَمَ الْعَيْظُ، فَحِينَئِذٍ [لِذَلِكَ] بِالسَّلَامَةِ مِمَّنْ غَرَّكَ، وَالْأَمْنِ مِمَّنْ ضَرَّكَ، وَالنَّجَاةِ مِمَّنْ آذَاكَ^(٤)، وَأَنْ يَكُونَ ذِكْرُ مَا سَلَفَ مانِعًا مِنْ شِفَاءِ الْعَيْظِ فِيمَا وَقَعَ، فَارْعِي الْأَذْمَةَ^(٥) حَقًّا وَكَيْدًا عَلَى أَهْلِ الْعُقُولِ؛ وَالْحَنِينُ إِلَى مَا مَضَى، وَالْأَيْسَى، مَا قَدْ فُرِعَ مِنْهُ وَفَنِيَتْ مُدَّتُهُ، أَثْبَتُ الدَّلَائِلِ عَلَى صِحَّةِ الْوَفَاءِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ حَسَنَةٌ جِدًّا، وَوَاجِبٌ اسْتِعْمَالُهَا فِي كُلِّ وَجْهِ مِنْ وَجُوهِ مَعَامَلَاتِ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ.

خبر

وَلَعَهْدِي بِرَجُلٍ مِنْ صَفْوَةِ إِخْوَانِي، قَدْ عَلِقَ بِجَارِيَةٍ، فَتَأَكَّدَ الْوُدَّ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ عَدَرَتْ بِعَهْدِهِ وَنَقَضَتْ وُدَّهُ، وَشَاعَ خَبْرُهُمَا، فَوُجِدَ^(٦) لَذَلِكَ وَجْدًا شَدِيدًا.

(١) المقارضة: سبق شرحها. والمقارضة هنا بالأذى.

(٢) الجدُّ: الكسر أو القطع.

(٣) المخيلة: الظن، والمخيلة: السحابة التي تخالها ماطرة لرعدها وبرقها. وهو المعنى الأقرب لذكره «بارقة» بعدها.

(٤) في كثير من الطبقات: «حينئذٍ والسلامة من غرك والأمن من ضرك والنجاة من أذاك» وهذا التصويب من ط. عباس، عن إحدى النسخ.

(٥) في إحدى الطبقات: الذمة. (٦) وجد: حزن.

خبر

وكان لي مرةً صديقٌ، فَفَسَدَتْ نِيَّتُهُ بَعْدَ وَكِيدِ مَوَدَّةٍ لَا يُكْفَرُ^(١) بِمِثْلِهَا. وكان عَلِمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا سِرَّ صَاحِبِهِ وَسَقَطَتْ الْمُؤَوَّنَةُ. فلما تَغَيَّرَ عَلَيَّ أَفْشَى كُلِّ مَا أَطْلَعَ لِي عَلَيْهِ مِمَّا كُنْتُ أَطْلَعْتُ مِنْهُ عَلَى أَضْعَافِهِ، ثُمَّ اتَّصَلَ بِهِ أَنَّ قَوْلَهُ فِيَّ قَدْ بَلَغَنِي، فَجَزَعَ لَذَلِكَ وَخَشِيَ أَنْ أَقَارِضَهُ^(٢) عَلَى قَبِيحِ فَعْلَتِهِ؛ وَبَلَغَنِي ذَلِكَ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ شِعْرًا أُؤْنَسُ فِيهِ، وَأُعْلِمُهُ أَنِّي لَا أَقَارِضُهُ.

خبر

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الدَّرَجِ^(٣)، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ مِنْهُ، وَلَا هَذَا الْفَصْلُ الْمُتَقَدِّمُ مِنْ جِنْسِ الرِّسَالَةِ وَالْبَابِ، وَلَكِنَّهُ شَبِيهُ لَهُ عَلَى مَا قَدْ ذَكَرْنَا وَشَرَطْنَا، وَذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَلِيدِ بْنِ مَكْسِيرٍ^(٤) الْكَاتِبَ، كَانَ مُتَّصِلًا بِي وَمُنْقَطِعًا إِلَيَّ، أَيَّامَ وَزَارَةِ أَبِي (رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ) فَلَمَّا وَقَعَ بِقَرْطَبَةِ مَا وَقَعَ، وَتَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ، خَرَجَ إِلَى بَعْضِ النَّوَاحِي، فَاتَّصَلَ بِصَاحِبِهَا فَعَرَّضَ جَاهَهُ، وَحَدَّثَتْ لَهُ وَجَاهَهُ، وَحَالَ حَسَنَةً. فَحَلَلْتُ أَنَا تِلْكَ النَّاحِيَةَ فِي بَعْضِ رِحْلَتِي، فَلَمْ يُوَفِّني حَقِّي، بَلْ ثَقُلَ عَلَيْهِ مَكَانِي، وَأَسَاءَ مُعَامَلَتِي وَصُحْبَتِي، وَكَلَّفَتْهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ حَاجَةً لَمْ يَقُمْ فِيهَا وَلَا قَعْدَ، وَاشْتَغَلَ عَنْهَا بِمَا لَيْسَ فِي مِثْلِهِ شُغْلٌ؛ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ شِعْرًا أَعَاتِبُهُ فِيهِ، فَجَاوَبَنِي مُسْتَعْتِبًا عَلَى ذَلِكَ، فَمَا كَلَّفَتْهُ

(١) فِي إِحْدَى الطَّبَعَاتِ: «يُفَكِّر».

(٢) شَرْحُنَا «الْمُقَارِضَةُ» فِي حَاشِيَةِ سَابِقَةٍ.

(٣) الدَّرَجُ: الطَّرِيقُ وَالسَّبِيلُ.

(٤) مُحَمَّدُ بْنُ وَلِيدِ بْنِ مَكْسِيرٍ الْكَاتِبُ: تَذَكَّرَ الْمَصَادِرَ بَعْضَ مِنْ حَمَلُوا اسْمَ «مُحَمَّدُ بْنُ وَلِيدٍ» مِنْ مُعَاوِرِي ابْنِ حَزْمٍ، وَلَكِنْ تَرْجُمَةُ أَيِّ مِنْهُمْ لَمْ تَقْتَرَنَ بِاسْمِ «ابْنِ مَكْسِيرٍ» الْوَارِدِ هُنَا، مِمَّا يَجْعَلُنَا لَا نَقْطَعُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ.

حاجةً بَعْدَهَا. ومِمَّا لي في هذا المَعْنَى وَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْبَابِ،
ولَكِنَّهُ يَشْبَهُهُ، أَيْبَاتٌ قُلْتُهَا، مِنْهَا:

[من البسيط]

وَلَيْسَ يُحْمَدُ كِتْمَانٌ لِمُكْتَتِمٍ
لَكِنْ كَتَمَكَ مَا أَفْشَاهُ مُفْشِيهِ
كَالْجُودِ بِالْوَفْرِ أَسْنَى مَا يَكُونُ إِذَا
قَلَّ الْوُجُودُ لَهُ أَوْ ضَنَّ مُعْطِيهِ

٣ - ثُمَّ مَرْتَبَةٌ ثَالِثَةٌ وَهِيَ الْوَفَاءُ مَعَ الْيَأْسِ الْبَاتِّ، وَبَعْدَ حُلُولِ
الْمَنِيَا، وَفُجَاءَاتِ الْمَنُونِ؛ وَإِنَّ الْوَفَاءَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لِأَجَلٍ
وَأَحْسَنُ مِنْهُ فِي الْحَيَاةِ، وَمَعَ رَجَاءِ الْلِقَاءِ.

خبر

ولقد حَدَّثَتْنِي امْرَأَةٌ أَثْقَى بِهَا، أَنَّهَا رَأَتْ فِي دَارِ مُحَمَّدٍ بْنِ وَهَبٍ
الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الرِّكِيزَةِ^(١)، مِنْ وَلَدِ بَذْرِ^(٢)، الدَّاحِلِ مَعَ الْإِمَامِ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ^(٣) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، جَارِيَةً رَاضِيَةً جَمِيلَةً، كَانَ
لَهَا مَوْلَى. فَجَاءَتْهُ الْمَنِيَّةُ؛ فَبِيعَتْ فِي تَرْكِتِهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَرْضَى
بِالرَّجَالِ بَعْدَهُ، وَمَا جَامَعَهَا رَجُلٌ، إِلَى أَنْ لَقِيَتْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.
وكَانَتْ تُحَسِّنُ الْغِنَاءَ، فَأَنْكَرَتْ عِلْمَهَا بِهِ، وَرَضِيَتْ بِالْخِدْمَةِ،

(١) مُحَمَّدُ بْنُ وَهَبٍ، ابْنُ الرِّكِيزَةِ. وَهُوَ فِي إِحْدَى الطَّبَعَاتِ: «بَابِي الرِّكِيزَةُ»: لَمْ
أَجِدْ تَرْجُمَتَهُ.

(٢) بَذْرُ: مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلِ، تَتَحَدَّثُ الْمَصَادِرُ عَنْ مُؤَازَرَتِهِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ
فِي رَحْلَتِهِ وَدُخُولِهِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَفِي التَّمَكِينِ لَهُ فِي الْمَلِكِ. يَنْظُرُ: «أَعْمَالُ
الْأَعْلَامِ» لِابْنِ الْخَطِيبِ - ص ٨. و«نَفْحُ الطَّيْبِ» لِلْمَقْرِي: ج ١/ ص ٣١٨.

(٣) الْإِمَامُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ: عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلِ: سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي صَفْحَةِ ٦٦.

والخروج عن جُمْلَةِ الْمُتَّخِذَاتِ لِلنَّسْلِ وَاللَّذَّةِ وَالْحَالِ الْحَسَنَةِ، وَفَاءٌ مِنْهَا لِمَنْ دَثَرَ^(١)، وَوَارَثَهُ الْأَرْضُ، وَتَلَمَّاتٌ^(٢) عَلَيْهِ الصَّفَائِحُ. وَلَقَدْ رَامَهَا سَيِّدُهَا الْمَذْكُورُ أَنْ يَضُمَّهَا إِلَى فَرَاشِهِ مَعَ سَائِرِ جَوَارِيهِ، وَيُخْرِجَهَا مِمَّا هِيَ فِيهِ فَأَبَتْ، فَضَرَبَهَا غَيْرَ مَرَّةٍ وَأَوْقَعَ بِهَا الْأَدَبَ^(٣)، فَصَبَرَتْ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، فَأَقَامَتْ عَلَى امْتِنَاعِهَا؛ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْوَفَاءِ غَرِيبٌ جِدًّا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْوَفَاءَ عَلَى الْمُحِبِّ أَوْجَبٌ مِنْهُ عَلَى الْمَحْبُوبِ؛ وَشَرْطُهُ لَهُ الْزَمٌ؛ لِأَنَّ الْمُحِبَّ هُوَ الْبَادِي بِاللِّصُوقِ وَالتَّعَرُّضِ لِعَقْدِ الْأَذِمَّةِ، وَالْقَاصِدُ لَتَأْكِيدِ الْمَوَدَّةِ وَالْمُسْتَدْعِي صِحَّةَ الْعَشْرَةِ، وَالْأَوَّلُ فِي عِدَادِ طَالِبِي الْأَصْفِيَاءِ^(٤)، وَالسَّابِقُ فِي ابْتِغَاءِ اللَّذَّةِ بَاكِتْسَابِ الْخَلَّةِ^(٥)، وَالْمُقَيَّدُ نَفْسَهُ بِزِمَامِ الْمَحَبَّةِ - قَدْ عَقَلَهَا بِأَوْثَقِ عِقَالٍ، وَخَطَمَهَا بِأَشَدِّ خِطَامٍ^(٦)، فَمَنْ قَسَرَهُ عَلَى هَذَا كُلِّهِ إِنْ لَمْ يَرِدْ إِيَّامُهُ؟ وَمَنْ أَجَبَرَهُ عَلَى اسْتِجْلَابِ الْمُقَّةِ^(٧) إِنْ لَمْ يَنْوَ حَتْمَهَا بِالْوَفَاءِ لِمَنْ أَرَادَهُ عَلَيْهَا؟ وَالْمَحْبُوبُ إِنَّمَا هُوَ مَجْلُوبٌ إِلَيْهِ، وَمَقْصُودٌ نَحْوَهُ، وَمُخَيَّرٌ فِي الْقَبُولِ أَوْ التَّرْكِ؛ فَإِنْ قَبِلَ فَعَايَةُ الرَّجَاءِ، وَإِنْ أَبَى فَعَيِّرُ مُسْتَحَقٌّ لِلذَّمِّ. وَلَيْسَ التَّعَرُّضُ لِلْوَضِلِ وَالْإِلْحَاحُ فِيهِ، وَالتَّاتِي لِكُلِّ

(١) دَثَرَ: بَلَى، أَوْ غَابَتْ وَامُحَّتْ آثَارُهُ.

(٢) تَلَمَّاتُ الْأَرْضِ بِهِ وَعَلَيْهِ: اشْتَمَلَتْ وَاسْتَوَتْ وَوَارَثَتْ.

(٣) الْأَدَبُ: الْعَجَبُ.

(٤) فِي إِحْدَى الطَّبَعَاتِ: «طَالِبُ الْأَصْفِيَاءِ».

(٥) الْخَلَّةُ: الْخِصْلَةُ. أَيِ الْعَادَةِ.

(٦) خِطَامُ الْبَعِيرِ أَوْ الدَّابَّةِ: زِمَامُهَا.

(٧) الْمُقَّةُ: الْوَلَهُ فِي الْحُبِّ.

ما يُسْتَجَلَبُ به من المُوَافَقَةِ وَتَصْفِيَةِ الْحَضَرَةِ وَالْمَغِيبِ، من الوفاء في شَيْءٍ. فَحَظَّ نَفْسِهِ أَرَادَ الطَّالِبُ، وفي سروره سعى وله اختطَّب، والحبُّ يَدْعُوهُ وَيَحْدُوهُ على ذلك شاءَ أو أبى، وإنما يُحَمَّدُ الْوَفَاءَ مِمَّنْ يَقْدِرُ على تَرْكِه.

وللوفاء شروط على المُجِبِّين لازمة:

فَأَوَّلُهَا أَنْ يَحْفَظَ عَهْدَ مَحْبُوبِهِ ويرعى عَيْبَتَهُ، وَتَسْتَوِيَ عِلَانِيَتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ، وَيَطْوِي سِرَّهُ وَيَنْشُرْ خَيْرَهُ، وَيُعْطِيَ على عيوبه، وَيُحَسِّنَ أَعْمَالَهُ، وَيتغافلَ عَمَّا يَقَعُ منه على سبيلِ الْهَفْوَةِ، ويرضى بِمَا حَمَلَهُ، وَلَا يُكْثِرَ عليه بما يُنْفِرُ مِنْهُ، وَأَلَّا يَكُونَ طَلْعَةً دَبُوباً وَلَا مَلَّةً طَرَفاً^(١).

وعلى المَحْبُوبِ إِنْ سَاوَاهُ فِي الْمَحَبَّةِ مِثْلُ ذَلِكَ؛ وَإِنْ كَانَ دُونَهُ فِيهَا فَلْيَسِّرْ لِلْمُحِبِّ أَنْ يُكَلِّفَهُ الصُّعُودَ إِلَى مَرَبَّتِهِ، وَلَا لَهُ الْاِشْتِطَاطُ عَلَيْهِ بِأَنْ يَسُوْمَهُ الْاِسْتِواءَ مَعَهُ فِي دَرَجَتِهِ. وَبِحَسْبِهِ مِنْهُ حَيْثُ ذِكْرُ كِتْمَانِ خَبْرِهِ وَأَلَّا يَقَابِلَهُ بِمَا يَكْرَهُ وَلَا يُخِيفُهُ بِهِ.

وَإِنْ كَانَتْ الثَّالِثَةُ - وَهِيَ السَّلَامَةُ مِمَّا يَلْقَى بِالْجُمْلَةِ - فَلْيَقْنَعْ بِمَا وَجَدَ، وَلْيَأْخُذْ مِنَ الْأَمْرِ مَا اسْتَدَفَّ^(٢)، وَلَا يَطْلُبْ شَرْطاً وَلَا يَقْتَرِحْ عَقْداً^(٣)، وَإِنَّمَا لَهُ مَا سَنَحَ بِجَدِّهِ أَوْ مَا حَانَ بِكَدِّهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَسْتَبِينُ قُبْحُ الْفِعْلِ لِأَهْلِهِ، وَلِذَلِكَ يَتَضَاعَفُ قُبْحُهُ

(١) اعتمدت قراءة عباس، وهي أنسب للمعنى، فالطلعة: الشديداً البحث في أحوال الآخرين. والدبوب: النمام. والملة والطريف: السريع المالل.

(٢) استداف الأمر: استتب واستقام.

(٣) في إحدى الطبقات: «حقداً»، وفي بعضها: «حقاً».

عِنْدَ مَنْ لَيْسَ مِنْ ذَوِيهِ، وَلَا أَقُولُ قَوْلِي هَذَا مُمْتَدِحاً؛ وَلَكِنْ آخِذاً
بَأَدَبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ لَقَدْ
مَنَحَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْوَفَاءِ لِكُلِّ مَنْ يَمُتُ إِلَيَّ بِلُفْيَةٍ وَاحِدَةٍ،
وَوَهَبَنِي مِنَ الْمُحَافَظَةِ لِمَنْ يَتَذَمُّ مِنِّي، وَلَوْ بِمُحَادَثَتِهِ سَاعَةً، حِطًّا
أَنَا لَهُ شَاكِرٌ وَحَامِدٌ، وَمِنْهُ مُسْتَمِدٌّ وَمُسْتَزِيدٌ، وَمَا شَيْءٌ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنَ
الْعَدْرِ؛ وَلَعَمْرِي مَا سَمَحْتُ نَفْسِي قَطُّ فِي الْفِكْرَةِ، فِي إِضْرَارِ مَنْ
بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَقْلٌ ذِمَامٌ، وَإِنْ عَظُمَتْ جَرِيرَتُهُ وَكَثُرَتْ إِلَيَّ ذُنُوبُهُ. وَلَقَدْ
دَهَمَنِي مِنْ هَذَا غَيْرُ قَلِيلٍ؛ فَمَا جَزَيْتُ عَلَى السُّوءِ^(١) إِلَّا
بِالْحُسْنَى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيراً. وَبِالْوَفَاءِ أَفْتَخِرُ فِي كَلِمَةٍ
طَوِيلَةٍ، ذَكَرْتُ فِيهَا مَا مَضَى مِنَ التَّكْبَاتِ، وَدَهَمَنَا مِنَ الْحَلِّ
وَالْتَّرَحَالِ وَالتَّجَوُّلِ فِي الْأَفَاقِ، أَوَّلُهَا:

[من البسيط]

وَلِي، فَوَلَّى جَمِيلُ الصَّبْرِ يَتْبَعُهُ
وَصَرَخَ الدَّمَعُ مَا تُخْفِيهِ أَضْلَعُهُ
جِسْمٌ مَلُولٌ وَقَلْبٌ آلَفٌ فَإِذَا
حَلَّ الْفِرَاقُ عَلَيْهِ فَهُوَ مُوجَعُهُ
لَمْ تَسْتَغْرِ بِه دَارٌ وَلَا وَطَنٌ
وَلَا تَدْفَأُ مِنْهُ قَطُّ مَضْجَعُهُ
كَأَنَّمَا صِيغَ مِنْ رَهْوِ السَّحَابِ^(٢) فَمَا
تَزَالُ رِيحٌ إِلَى الْأَفَاقِ تَدْفَعُهُ

(١) سوءى: وزان (فُعْلى) صيغة مبالغة من السوء، مذكرها الأسوأ، ومؤنثها: سُوءَى.

(٢) رهو السحاب: حركته الساكنة الهادئة.

كَأَنَّمَا هُوَ تَوْحِيدٌ تَضِيقُ بِهِ
 نَفْسُ الْكَفُورِ فَتَأْبَى حِينَ تُودَعُهُ
 أَوْ كَوَكَبٍ قَاطِعٍ فِي الْأَفْقِ مُنْتَقِلٌ
 فَالَسَّيْرُ يُغْرِبُهُ حِيناً وَيُطْلِعُهُ
 أَظْنُهُ لَوْ جَزَنُوهُ أَوْ تُسَاعِدُهُ
 أَلَقْتُ عَلَيْهِ انْهَمَالَ الدَّمْعِ يَتْبَعُهُ^(١)

وبالوفاء أيضاً أفتخرُ في قصيدة لي طويلة أوردتها، وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب. فكان سبب قولي لها أن قوماً من مخالفي شَرَقُوا بي فأساؤوا العَتَبَ في وَجْهي، وَقَذَفُونِي بِأَتِي أَعْضِدُ الْبَاطِلَ بِحُجَّتِي، عَجْزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نَصْرِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَحَسَداً لي. فَقُلْتُ وَخَاطَبْتُ بِقَصِيدَتِي بَعْضَ إِخْوَانِي، وَكَانَ ذَا فَهْمٍ، مِنْهَا:

[من الطويل]

وُخِذْنِي عَصَا مُوسَى وَهَاتِ جَمِيعَهُمْ
 وَلَوْ أَنَّهُمْ حَيَّاتُ ضَالٍ نَضَانِضُ^(٢)

ومنها:

يُذِيعُونَ فِي عَيْبِي عَجَائِبَ جَمَّةٍ
 وَقَدْ يُتَمَنَّى^(٣) اللَّيْثُ وَاللَّيْثُ رَابِضُ

(١) في هذا النص معارضة لقصيدة (علي بن زريق البغدادي) التي مطلعها:

لَا تَعْذِلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يُولَعُهُ قَدْ قُلْتُ حَقّاً وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

(٢) الحية النضناض: التي تسعى قلقه، غير مستقرة، لا تثبت في مكانها لِشَرَّتِهَا

(اللسان: نضض) والضال: السدُر البرِّي.

(٣) في إحدى الطبقات: «وقد يستهان».

ومنها:

وَيَرْجُونَ مَا لَا يَبْلُغُونَ كَمَثَلِ مَا
يُرجي مُحَالاً في الإمام، الرّوافضُ

ومنها:

وَلَوْ جَلَدِي فِي كُلِّ قَلْبٍ وَمُهْجَةٍ
لَمَا أَثَرْتُ فِيهَا الْعُيُونَ الْمَرَائِضُ
أَبَتْ عَنْ ذَنبِي الْوَصْفِ ضَرْبَةً لَا زِبْ
كَمَا أَبَتْ الْفِعْلَ الْحُرُوفُ الْخَوَافِضُ (١)

ومنها:

وَرَأَيْتُ لَهُ فِي كُلِّ مَا غَابَ مَسْلَكُ
كَمَا تَسْلُكُ الْجِسْمَ الْعُرُوقُ النَّوَابِضُ
يَبِينُ مَدَبُ النَّمْلِ فِي غَيْرِ مُشْكِ
وَيُسْتَرُّ عَنْهُمْ لِلْفُيُولِ الْمَرَابِضُ (٢)

(١) الحروف الخوافض: حروف الجر وهي تأتي الدخول على الفعل ومباشرته.

(٢) يبين مدب النمل في غير مشكل: يظهر مكان ديب النمل في غير صعوبة على دفته. والفيلول: جمع فيل. ومرابض الفيلة: أمكتها حيث تربض.

٢٣

بابُ الغدر

وَكَمَا أَنَّ الْوَفَاءَ مِنْ سَرِيٍّ ^(١) النُّعُوتِ وَنَبِيلِ الصِّفَاتِ، فَكَذَلِكَ الْغَدْرُ مِنْ ذَمِيمِهَا وَمَكْرُوهِهَا. وَإِنَّمَا يُسَمَّى غَدْرًا مِنَ الْبَادِئِ بِهِ، وَأَمَّا الْمُقَارِضُ بِالْغَدْرِ عَلَى مِثْلِهِ - وَإِنْ اسْتَوَى مَعَهُ فِي حَقِيقَةِ الْفِعْلِ - فَلَيْسَ بِغَدْرٍ وَلَا هُوَ مَعِيًّا بِذَلِكَ؛ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَحِزْبًا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الثَّانِيَةَ لَيْسَتْ بِسَيِّئَةٍ، وَلَكِنْ لِمَا جَانَسَتْ الْأُولَى فِي الشَّبَهِ، أَوْقَعَ عَلَيْهَا مِثْلَ اسْمِهَا، وَسَيَّأَتِي هَذَا مُفَسَّرًا فِي بَابِ السُّلُوفِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَلِكثَرَةِ وَجُودِ الْغَدْرِ فِي الْمَحْبُوبِ، اسْتَغْرِبَ الْوَفَاءَ مِنْهُ، فَصَارَ قَلِيلُهُ الْوَاقِعُ مِنْهُمْ، يُقَاوِمُ الْكَثِيرَ الْمَوْجُودَ فِي سِوَاهُمْ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الوافر]

قَلِيلُ وَفَاءٍ مَنْ يَهْوَى يَجِلُّ
وَعُظْمُ وَفَاءٍ مَنْ يَهْوَى يَقِلُّ
فَنَادِرَةُ الْجَبَانِ أَجَلُ مِمَّا
يَجِيءُ بِهِ الشُّجَاعُ الْمُشْمَعِلُ ^(٢)

وَمَنْ قَبِيحَ الْغَدْرِ، أَنْ يَكُونَ لِلْمُحِبِّ سَفِيرٌ إِلَى مَحْبُوبِهِ، يَسْتَرِيحُ

(١) السَّرِيُّ: الرفيع، الشريف.

(٢) اشْمَعَلُ الرجل: ارتفع وأشرف، واشْمَعَلَ: خَفَّ وطرب.

إليه بأسراره، فَيَسْعَى حَتَّى يَقْلِبَهُ إِلَى نَفْسِهِ وَيَسْتَأْثِرَ بِهِ دُونَهُ؛ وفيه أقول:

[من الطويل]

أَقَمْتُ سَفِيرًا قَاصِدًا فِي مَطَالِبِي
وَوَثَّقْتُ بِهِ جَهْلًا، فَضَرَبَ ^(١) بَيْنَنَا
وَحَلَ عُرَى وُدِّي وَأَثْبَتَ وَدَّهَ
وَأَبْعَدَ عَنِّي كُلَّ مَا كَانَ مُمَكِّنَا
فَصِرْتُ شَهِيدًا بَعْدَمَا كُنْتُ مُشْهَدًا
وَأَصْبَحَ ^(٢) ضَيْفًا بَعْدَمَا كَانَ ضَيْفَنَا ^(٣)

خبر

ولقد حَدَّثَنِي الْقَاضِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «أَذْكُرُ فِي الصَّبَا جَارِيَةً فِي بَعْضِ السُّدَدِ ^(٤)، يَهْوَاهَا فَتَى مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ، مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَتَهْوَاهُ وَيَتَرَاوُلَانِ؛ وَكَانَ السَّفِيرُ بَيْنَهُمَا وَالرَّسُولُ بِكُتُبِهِمَا فَتَى مِنْ أَتْرَابِهِ كَانَ يَصِلُ إِلَيْهَا؛ فَلَمَّا عَرَضَتِ الْجَارِيَةُ لِلْبَيْعِ، أَرَادَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهَا ابْتِيَاعَهَا، فَبَدَرَ الَّذِي كَانَ رَسُولًا فَاشْتَرَاهَا. فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا، فَوَجَدَهَا قَدْ فَتَحَتْ دُرْجًا لَهَا تَطْلُبُ فِيهِ بَعْضَ حَوَائِجِهَا، فَأَتَى إِلَيْهَا وَجَعَلَ يُفَتِّشُ الدُّرْجَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كِتَابٌ مِنْ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي كَانَ يَهْوَاهَا، مَضْمَنًا بِالْغَالِيَةِ ^(٥) مَصُونًا مُكْرَمًا، فَغَضِبَ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا يَا فَاسِقَةً؟ قَالَتْ: أَنْتَ سَقَيْتَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: لَعَلَّهُ مُحَدِّثٌ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَيْنِ، فَقَالَتْ: مَا هُوَ إِلَّا مِنْ قَدِيمِ تِلْكَ الَّتِي تَعْرِفُ؛ قَالَ: فَكَأَنَّمَا أَلْقَمْتُهُ حَجْرًا، فَسَقَطَ فِي يَدَيْهِ وَسَكَتَ».

(١) ضَرَبَ بَيْنَنَا: أَغْرَى بَعْضَنَا بَعْضًا، بِمَا يَشِبُّهُ الْإِبْغَاضَ، أَوْ التَّبْغُضَ.

(٢) فِي سَائِرِ الطَّبَعَاتِ: «وَأَصْبَحْتُ» وَالْمَعْنَى لَا يَسْتَقِيمُ بِهَا.

(٣) الضَّيْفُ: ضَيْفُ الضَّيْفِ. (٤) السُّدْدُ جَمْعُ: سُدَّةٍ، بَاحَةُ الدَّارِ.

(٥) الْغَالِيَةُ: أَخْلَاطٌ مِنَ الطَّيِّبِ وَالْمَشْكِ (المعجم الوسيط/ غلي).

٢٤

بابُ البين

وقد عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مُجْتَمِعٍ مِنْ افْتِرَاقٍ، وَلِكُلِّ دَانٍ مِنْ تَنَافٍ، وَتِلْكَ عَادَةُ اللَّهِ فِي الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. وَمَا شَيْءٌ مِنْ دَوَاهِي الدُّنْيَا يَعْدِلُ الْاِفْتِرَاقَ، وَلَوْ سَأَلْتَ الْأَرْوَاحَ بِهِ، فَضْلاً عَنِ الدُّمُوعِ كَانَ قَلِيلاً. وَسَمِعَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ قَائِلاً يَقُولُ: «الْفِرَاقُ أَخُو الْمَوْتِ»، فَقَالَ: «بَلِ الْمَوْتُ أَخُو الْفِرَاقِ».

وَالْبَيْنُ يَنْقَسِمُ أَقْسَاماً:

١ - فَأَوَّلُهَا مُدَّةٌ يُوقَنُ بِانْصِرَامِهَا وَبِالْعَوْدَةِ عَنْ قَرِيبٍ، وَإِنَّهُ لَشَجَى فِي الْقَلْبِ، وَغُصَّةٌ فِي الْحَلْقِ لَا تَبْرَأُ إِلَّا بِالرَّجْعَةِ. وَأَنَا أَعْلَمُ مَنْ كَانَ يَغِيبُ مَنْ يُحِبُّ عَنْ بَصَرِهِ يَوْماً وَاحِداً، فَيَعْتَرِيهِ مِنَ الْهَلَعِ وَالْجَزَعِ، وَشُغْلِ الْبَالِ، وَتَرَادُفِ الْكَرْبِ، مَا يَكَادُ يَأْتِي عَلَيْهِ.

٢ - ثُمَّ بَيْنٌ مَنَعَ مِنَ اللَّقَاءِ، وَتَحْظِيرٍ عَلَى الْمَحْبُوبِ مِنْ أَنْ يَرَاهُ مُحِبُّهُ؛ فَهَذَا، وَلَوْ كَانَ مَنْ تُحِبُّهُ مَعَكَ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ، فَهُوَ بَيْنٌ، لِأَنَّهُ بَائِنٌ عَنْكَ؛ وَإِنَّ هَذَا لَيُؤَلِّدُ مِنَ الْحُزَنِ وَالْأَسْفِ غَيْرَ قَلِيلٍ، وَلَقَدْ جَرَّبْنَاهُ فَكَانَ مُرّاً، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الطويل]

أَرَى دَارَهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَسَاعَةٍ
وَلَكِنِّ مَنْ فِي الدَّارِ عَنِّي مُغَيَّبٌ

وَهَلْ نَافِعِي قُرْبِ الدَّيَّارِ، وَأَهْلُهَا
 عَلَى وَضْلِهِمْ مَنِّي رَقِيبٌ مُرَقَّبٌ؟
 فَيَا لَكَ، جَارَ الْجَنْبِ، أَسْمَعُ حِسَّهُ
 وَأَعْلَمُ أَنَّ الصَّيْنَ أَدْنَى وَأَقْرَبُ
 كَصَادٍ يَرَى مَاءَ الطَّوِيِّ بِعَيْنِهِ
 وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ يُسَبِّبُ ^(١)
 كَذَلِكَ مَنْ فِي اللَّحْدِ عَنْكَ مُعَيَّبٌ
 وَمَا دُونَهُ إِلَّا الصَّفِيحُ الْمُنْصَبُ
 وَأَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ مُطَوَّلَةٍ:

[من الطويل]

مَتَى تَشْتَفِي نَفْسٌ أَضَرَّ بِهَا الْوَجْدُ
 وَتَصْقَبُ ^(٢) دَارَ قَدْ طَوَى أَهْلُهَا الْبُعْدُ؟
 وَعَهْدِي بِهِنْدٍ وَهِيَ جَارَةٌ بَيْتِنَا
 وَأَقْرَبُ مِنْ هِنْدٍ لِطَالِبِهَا الْهِنْدُ
 بَلَى إِنَّ فِي قُرْبِ الدَّيَّارِ لَرَّاحَةً
 كَمَا يُمَسِّكُ الظَّمَانُ أَنْ يَذْنُو الْوَرْدُ ^(٣)
 ٣ - ثُمَّ بَيْنَ يَتَعَمَّدُهُ الْمُحِبُّ بُعْدًا عَنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ، وَخَوْفًا أَنْ يَكُونَ
 بَقَاؤُهُ سَبَبًا إِلَى مَنَعِ الْإِقَاءِ، وَذَرِيعَةً إِلَى أَنْ يَفْشُو الْكَلَامُ، فَيَقْعُ
 الْحِجَابُ الْغَلِيظُ.
 ٤ - ثُمَّ بَيْنَ يُولِّدُهُ الْمُحِبُّ لِبَعْضِ مَا يَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ آفَاتِ

(١) ضبطها محقق ط. التونسية: «يُسَبِّبُ» (ص ١٤٤).

(٢) تَصْقَبُ: صَقَبَ الشَّيْءُ يَصْقَبُ صَقْبًا: قُرْبُ وَدَنَا. (الوسيط/ صَقَبَ).

(٣) الورد: الماء الذي يُورَد.

الزَّمانِ، وعُذْرُهُ مَقْبُولٌ أو مُطْرَحٌ، على قَدْرِ الحَافِزِ له إلى الرَّحِيلِ .

خبر

ولَعَهْدِي بِصَدِيقٍ لي دَارُهُ المَرِيَّةُ؛ فَعَنَّتْ^(١) له حَوَائِجُ إلى شَاطِبَةِ فَقَصَّدَهَا؛ وَكَانَ نَازِلًا بِهَا في مَنَزَلِي مُدَّةَ إقامَتِهِ بِهَا. وَكَانَ له بِالمَرِيَّةِ عَلاقَةٌ هِيَ أَكْبَرُ هَمِّهِ وَأَذْهَى عَمِّهِ. وَكَانَ يُؤْمَلُ بِتَّهَا^(٢) وَفَرَاغَ أَسْبَابِهِ، وَأَنْ يُوشِكَ الرَّجْعَةُ وَيُسْرِعَ الأَوْبَةُ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا حِينَ لَطِيفٍ بَعْدَ احتلاله^(٣) عِنْدِي؛ حَتَّى جَيْشَ المَوْفُقِ أَبُو الجَيْشِ مُجَاهِدٌ، صَاحِبُ الجَزَائِرِ^(٤) الجِيوشِ، وَقَرَّبَ العَسَاكِرَ وَنَابَذَ خَيْرَانَ صَاحِبَ المَرِيَّةِ^(٥) وَعَزَمَ على اسْتِصَالِهِ؛ فَانْقَطَعَتِ الطُّرُقُ بِسَبَبِ هَذِهِ الحَرْبِ،

(١) ضبطها محقق ط. التونسية: «فَعَنَّتْ» (ص ١٤٤). وما ثبتناه أدق.

(٢) يُؤْمَلُ بِتَّهَا: هذه قراءة القاسمي في ط. التونسية (ص ١٤٤)، وقرأها عباس: «يُؤْمَلُ تَبَيَّتْهَا» (ص ٢١٦). واختارنا القراءة الأولى لوضوحها وسهولتها.

(٣) احتلاله: أي حلوله ونزوله.

(٤) مجاهد العامري: مجاهد بن يوسف بن علي العامري (بالولاء)، (أبو الجيش): من ملوك الطوائف بالأندلس بعد انقراض الدولة الأموية، ذو أصل رومي، ولد بقرطبة، رآه المنصور بن أبي عامر مع مواليه ونسبه إليه. أسس الدولة العامرية في دانية وميورقة وأطرافهما. قمع فتنة البربر، غزا الإفرنج. تلقب بالموفق بالله، ودامت له الإمارة إلى أن توفي سنة (٤٣٦هـ). الأعلام للزركلي: مج ٥/ص ٢٧٨.

(٥) خيران الصَّقْلَبِي: من موالى آل أبي عامر، أمير داهية. له حروب ووقائع في أيام المؤيد والمرتضى الأمويين بالأندلس، ثم مع ملوك الطوائف، كان قائداً محنكاً، ورأى أمراء البلاد يَسْتَقِلُّ كُلَّ واحد منهم بما تحت يده بعد خراب الخلافة، فوثب على مدينة المرية وأعمالها واستقل بها إلى أن مات سنة (٤١٩هـ). الأعلام: مج ٢/ص ٣٢٦.

وَتُحْمِيَتِ السُّبُلُ وَاحْتَرَسَ الْبَحْرُ بِالْأَسَاطِيلِ؛ فَتَضَاعَفَ كَرْبُهُ، إِذْ لَمْ يَجِدْ إِلَى الْإِنْصِرَافِ سَبِيلًا الْبَتَّةَ، وَكَادَ يُطْفَأُ أَسْفًا^(١)، وَصَارَ لَا يَأْسُ بغيرِ الْوَحْدَةِ، وَلَا يَلْجَأُ إِلَّا إِلَى الزَّفِيرِ وَالْوُجُومِ، وَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ مِمَّنْ لَمْ أَقْدِرْ قَطُّ فِيهِ أَنْ قَلْبُهُ يُدْعِنُ لِلوُدِّ، وَلَا شِرَاسَةَ طَبْعِهِ تُجِيبُ إِلَى الْهَوَى.

وَأَذْكُرُ أَنِّي دَخَلْتُ قَرْطُبَةَ بَعْدَ رَحِيلِي عَنْهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ مُنْصَرِفًا عَنْهَا، فَضَمَّنِي الطَّرِيقُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الْكُتَّابِ، قَدْ رَحَلَ لِأَمْرِ مُهِمٍّ وَتَخَلَّفَ سَكَنَ لَهُ^(٢)، فَكَانَ يَرْتَمِضُ^(٣) لَذَلِكَ.

وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ مَنْ عَلِقَ بِهَوَى لَهُ، وَكَانَ فِي حَالِ شَطْفٍ، وَكَانَتْ لَهُ فِي الْأَرْضِ مَذَاهِبٌ وَاسِعَةٌ، وَمَنَادِيحُ^(٤) رَحْبَةٌ، وَوَجُوهٌ مُتَصَرِّفٌ كَثِيرَةٌ، فَهَانَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَآثَرَ الْإِقَامَةَ مَعَ مَنْ يُحِبُّ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا مِنْهُ:

[من الكامل]

لَكَ فِي الْبِلَادِ مَنَادِيحٌ مَعْلُومَةٌ

وَالسَّيْفُ غُفْلٌ^(٥) أَوْ يَبِينُ قِرَائُهُ

٥ - ثُمَّ بَيْنَ رَحِيلٍ وَتَبَاعُدِ دِيَارٍ، وَلَا يَكُونُ مِنَ الْأَوْبَةِ فِيهِ عَلَى يَقِينِ خَبِرٍ^(٦)، وَلَا يَحْدُثُ تَلَاقٍ، وَهُوَ الْخَطْبُ الْمَوْجِعُ، وَالْهَمُّ

(١) يطفأ ههنا، يلفظ أنفاسه. شبه روحه في جسده بالنار المتأججة. وانطفأوها: خمدوها وموتوها.

(٢) قرأها المستشرق برشييه: «وَحَلَفَ سَكَنًا لَهُ». وهي قراءة ممكنة. والسكن: الزوج، وأهل البيت.

(٣) يرتمض للشيء: يحزن ويشتد قلقه عليه.

(٤) مناديح: مندوحة: أرض واسعة، وسعة وفُسْحَة، وجمعها: مناديح.

(٥) غُفْلٌ: لا يُرْجَى خيره ولا يخشى شره. (الوسيط/ غُفْلٌ).

(٦) ويمكن أن نقرا: «على يقين خبر».

المُفْطَعُ، وَالْحَادِثُ الْأَشْنَعُ، وَالِدَاءُ الدَّوِيُّ^(١). وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ
الْهَلَعُ فِيهِ إِذَا كَانَ النَّائِي هُوَ الْمَحْبُوبُ؛ وَهُوَ الَّذِي قَالَتْ فِيهِ
الشُّعْرَاءُ كَثِيرًا؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قَصِيدَةً مِنْهَا:

[من الطويل]

وَبِي عِلَّةٌ أَعْيَا الطَّبِيبَ عِلَاجُهَا
سَتُورِدُنِي لَا شَكَّ مِنْهَلْ مَصْرَعِي
رَضِيتُ بِأَنْ أَضْحِيَ قَتِيلَ وِدَادِهِ
كَجَارِعِ سَمٍّ فِي رَحِيقِ مُشْعَشَعِ^(٢)
فَمَا لِلَّيَالِي مَا أَقَلَّ حَيَاءُهَا
وَأَوْلَعَهَا بِالنَّفْسِ مِنْ كُلِّ مُوَلَعٍ
كَأَنَّ زَمَانِي عَبْشَمِي^(٣) يَخَالُنِي
أَعْنَتْ عَلَى عُثْمَانَ أَهْلَ التَّشْيِيعِ
وَأَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ:

[من الطويل]

أَظُنُّكَ تِمَثَالَ الْجِنَانِ أَبَاحَهُ
لِمُجْتَهِدِ النُّسَاكِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ

- (١) الدَّاءُ الدَّوِيُّ: الْمَرَضُ الشَّدِيدُ. وَقَرَأَهَا عَبَّاسٌ: «الدَّوَاءُ الدَّوِيُّ» (ص ٢١٨)،
وَلَمْ أَجِدْ لَهَا تَسْوِيعًا، إِلَّا إِذَا قُصِدَ بِالْدَّوَاءِ: الدَّوَى، وَهُوَ الْمَرَضُ، أَمَّا الدَّوَاءُ
فَهُوَ مَا يُتَدَاوَى بِهِ وَيُعَالَجُ. (الْوَسِيطُ/ دَوِيَّ).
(٢) مُشْعَشَعٌ: شَعَشَعَ الشَّرَابَ: مَزَجَهُ بِقَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ.
(٣) عَبْشَمِيٌّ: نَسَبَةٌ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ.

وَلِلْقَارِي أَنْ يَتَسَاءَلَ هُنَا: مَا عِلَاقَةُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ بِمَا يورده ابن حزم عن
أَقْسَامِ الْبَيْنِ وَضُرُوبِهِ؟ إِذْ يَلَاظُ د. عَبَّاسُ أَنَّ «أَغْلَبَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ لَا يَنْطَبِقُ
عَلَى مَضمُونِ الْفَقْرَةِ السَّابِقَةِ»، وَيُرَجِّحُ أَنَّ يَكُونُ هَذَا التَّنَاقُضُ مِنْ عَمَلِ
النَّاسِخِ الَّذِي يَحذفُ الْأَبْيَاتِ اخْتِصَارًا، وَيُورِدُ بَعْضًا مِنْهَا دُونَ تَرَوُّ وَدِرَايَةٍ.
(تَنْظُرُ رِسَالَتِ ابْنِ حَزْمٍ بِتَحْقِيقِ عَبَّاسٍ: (١/ ٢١٨)، الْحَاشِيَةُ الْأُولَى).

وَأَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ:

[من الطويل]

لَأُبْرِدَ بِاللُّقْيَا غَلِيلاً مِنَ الْهَوَى
تَوَقَّدَ نِيرَانُ الْغَضَا هَيْمَانُهُ^(١)
وَأَقُولُ شِعْراً مِنْهُ:

[من الطويل]

خَفِيتَ عَنِ الْأَبْصَارِ وَالْوُجُدِ ظَاهِرٌ
فَأَعْجِبْ بِأَعْرَاضِ تَبِينٍ وَلَا شَخْصٍ
غَدَا الْفَلَكَ الدَّوَّارُ حَلَقَةً خَاتِمٌ
مُحِيطٌ بِمَا فِيهِ وَأَنْتَ لَهُ فَصٌّ
وَأَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ:

[من الطويل]

غَنَيْتَ عَنِ التَّشْبِيهِ حُسْنًا وَبَهْجَةً
كَمَا غَنَيْتَ شَمْسُ السَّمَاءِ عَنِ الْحَلِيِّ
عَجِبْتُ لِنَفْسِي بَعْدَهُ كَيْفَ لَمْ تَمُتْ
وَهَجْرَانُهُ دَفَنِي وَفُقْدَانُهُ نَعْيِي
وَلِلْجَسَدِ الْغَضِّ الْمُنْعَمِ كَيْفَ لَمْ
تُذِبْهُ يَدُ خَشْنَاءٍ [تَقْوَى عَلَى] الْبَرْزِيِّ^(٢)

(١) يحتمل البيت قراءة أخرى أوردتها د. عباس، وهي:

لَأُبْرِدَ بِاللُّقْيَا غَلِيلاً مِنَ الْهَوَى تَوَقَّدَ نِيرَانُ الْغَضَا هَيْمَانُهُ
(ص ٢١٨).

وورد في ط. التونسية «تَوَقَّع» بدلاً من «تَوَقَّدَ». والأستاذان عباس والقاسمي لا يضبطان الأشعار ضبطاً دقيقاً يحسم الشك، بل يتركان تأويلها للقارئ.

(٢) في الشطر الثاني نقص في أصل المخطوطة، وما بين حاصرتين: [تَقْوَى =

وإنَّ للأُوبَةَ مِنَ البَيْنِ الَّذِي تُشْفِقُ مِنْهُ النَّفْسُ لِطُولِ مَسَافَتِهِ،
وَتَكَادُ تَيَاسُّ مِنَ العَوْدَةِ فِيهِ، لَرَوْعَةٍ تَبْلُغُ مَا لَا حَدَّ وَرَاءَهُ، وَرُبَّمَا
قَتَلَتْ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الخفيف]

لِلتَّلَاقِي بَعْدَ الْفِرَاقِ سُرُورٌ
كَسُرُورِ الْمُفِيقِ حَانَتْ وَفَاتَهُ
فَرَحَةٌ تُبْهِجُ النَّفُوسَ وَتُحْيِي
مَنْ دَنَا مِنْهُ بِالْفِرَاقِ مَمَاتَهُ
رُبَّمَا قَدْ تَكُونُ دَاهِيَةَ الْمَوْتِ
تُودِي بِأَهْلِهِ هَجَمَاتَهُ
كَمْ رَأَيْنَا مَنْ عَبَّ فِي الْمَاءِ عَطْشًا
نَ فَزَارَ الْحِمَامَ وَهُوَ حَيَاتَهُ
وَإِنِّي لِأَعْلَمُ مَنْ نَأَتْ دَارُ مَحْبُوبِهِ زَمَنًا، ثُمَّ تَيَسَّرَتْ لَهُ أُوبَةٌ، فَلَمْ
يَكُنْ إِلَّا بِقَدْرِ التَّسْلِيمِ وَاسْتِيفَائِهِ، حَتَّى دَعَتْهُ نَوَى ثَانِيَّةً، فَكَادَ أَنْ
يَهْلِكَ؛ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الطويل]

أَطَلْتُ زَمَانَ الْبُعْدِ حَتَّى إِذَا انْقَضَى
زَمَانُ النَّوَى بِالْقُرْبِ عُدْتُ إِلَى الْبُعْدِ
فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَرَّةِ الطَّرْفِ قُرْبُكُمْ
وَعَاوَدَكُمْ بُعْدِي وَعَاوَدَنِي وَجَدِي
كَذَا حَائِزٍ فِي اللَّيْلِ ضَاقَتْ وَجُوهُهُ
رَأَى الْبَرْقَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ

= [علي] أضافه د. عباس في طبعته (ص ٢١٩)، فيما ورد في ط. التونسية:
«تُدْبُهُ يَدُ خَشْنَاءَ بِالْبَرِّي» في خلل عروضي ظاهر.

فَأَخْلَفَهُ مِنْهُ رَجَاءُ دَوَامِهِ
 وَبَعْضُ الْأَرَاஜِيِّ ^(١) لَا تُفِيدُ وَلَا تُجْدِي
 وَفِي الْأَوْبَةِ بَعْدَ الْفِرَاقِ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من الطويل]

لَقَدْ قَرَّتِ الْعَيْنَانِ بِالْقُرْبِ مِنْكُمْ
 كَمَا سَخِنَتْ ^(٢) أَيَّامَ يَطْوِيكُمْ الْبُعْدُ
 فَلِلَّهِ فِيمَا قَدْ مَضَى الصَّبْرُ وَالرِّضَى
 وَلِلَّهِ فِيمَا قَدْ قَضَى الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ

خبر

وَلَقَدْ نُعِيَ إِلَيَّ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ أَحَبُّ مِنْ بِلْدَةِ نَازِحَةٍ، فَقُمْتُ فَارًّا
 بِنَفْسِي نَحْوَ الْمَقَابِرِ، وَجَعَلْتُ أَمْشِي بَيْنَهَا وَأَقُولُ:

[من الوافر]

وَدِدْتُ بَأَنَّ ظَهَرَ الْأَرْضِ بَطْنُ
 وَأَنَّ الْبَطْنَ مِنْهَا صَارَ ظَهْرًا
 وَأَنْتِي مِتُّ قَبْلَ وَرُودِ خَطْبِ
 أَتَى فَأَثَارَ فِي الْأَكْبَادِ جَمْرًا
 وَأَنَّ دَمِي لِمَنْ قَدْ بَانَ غَسْلُ
 وَأَنَّ ضُلُوعَ صَدْرِي كَنْ قَبْرًا

(١) الْأَرَاஜِيُّ، جَمْعُ أَرَجِيَّةٍ: وَهُوَ مَا أُرْجِيَ وَأُخِّرَ. لَكِنِ الْمَعْنَى هُنَا يُوْحِي بِالرَّجَاءِ
 وَالْأَمْنِيَّةِ.

(٢) سَخْنَةُ الْعَيْنِ: نَقِيضُ سَكُونِهَا، وَقَدْ سَخِنَتْ عَيْنُهُ (بِالْكَسْرِ)، تَسَخَّنُ: لَمْ تَقَرَّ.
 (اللسان/ سَخَنَ).

ثُمَّ اتَّصَلَ بَعْدَ حِينٍ تَكْذِيبُ ذَلِكَ الْخَبَرِ، فَقُلْتُ:

[من السريع]

بُشْرَى أَتَتْ وَالْيَأْسُ مُسْتَحْكِمٌ
وَالْقَلْبُ فِي سَبْعِ طَبَاقٍ شِدَادٌ^(١)
كَسَتْ فُوَادِي خُضْرَةً^(٢) بَعْدَمَا
كَانَ فُوَادِي لَا بِسَاءَ لِلْحِدَادِ
جَلَى سَوَادٌ^(٣) الْغَمِّ عَنِّي كَمَا
يُجَلَى بِلَوْنِ الشَّمْسِ لَوْنُ السَّوَادِ
هَذَا وَمَا آمَلُ وَضْلاً سِوَى
صَدَقِ وَفَاءٍ بِقَدِيمِ الْوِدَادِ
فَالْمُرْنُ قَدْ يُطَلَبُ لَا لِلْحَيَا
لَكِنْ لِظِلِّ بَارِدِ ذِي امْتِدَادِ

وَيَقَعُ فِي هَذَيْنِ الصَّنْفَيْنِ مِنَ الْبَيْنِ الْوِدَاعُ، أَعْنِي رَحِيلَ الْمُحِبِّ أَوْ رَحِيلَ الْمَحْبُوبِ. وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمَنَاطِرِ الْهَائِلَةِ وَالْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ الَّتِي تُفْتَضِّحُ فِيهَا عَزِيمَةُ كُلِّ مَاضِي الْعَزَائِمِ، وَتَذْهَبُ قُوَّةُ كُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ، وَتَسْكُبُ كُلُّ عَيْنٍ جَمُودٍ، وَيُظْهَرُ مَكْنُونُ الْجَوَى. وَهُوَ فَضْلٌ مِنْ فُصُولِ الْبَيْنِ يَجِبُ التَّكَلُّمُ فِيهِ، كَالْعِتَابِ فِي بَابِ الْهَجْرِ.

(١) سَبْعِ طَبَاقٍ شِدَادٍ: لَعَلَّهُ قَصَدَ بِهَا اللَّيَالِي السَّيِّئَةَ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ فِيهَا الْعَذَابَ عَلَى عَادٍ فَضْرَبَ بِهَا الْمَثَلَ فِي الشَّدَّةِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا سَبْعُ سِنِّي يَوْسُفَ الصِّدِّيقِ (عليه السلام) فِي الشَّدَّةِ. (اللسان/ سبع). وَفِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ «إِحْدَى بَنَاتِ طَبَقٍ» وَهِيَ الدَّوَاهِي، وَأَصْلُهَا الْحَيَّاتُ الْخَبِيثَةُ.

(٢) خُضْرَةٌ: بِالنُّصْبِ عَلَى تَقْدِيرِ: «كَسَتْ الْبُشْرَى فُوَادِي خُضْرَةً»، وَتُفْرَأُ: «خُضْرَةً» بِتَقْدِيرِ: «كَسَتْ خُضْرَةً فُوَادِي» عَلَى أَنَّهَا فَاعِلٌ.

(٣) أَوْ: سَوَادٌ..

وَلَعَمْرِي لو أَنَّ ظريفاً يموتُ في ساعةِ الوداعِ، لكانَ مَعذُوراً إذا تَفَكَّرَ فيما يَحِلُّ به بعد ساعةٍ من انقطاعِ الآمالِ، وحُلُولِ الأوجالِ^(١)، وتَبَدُّلِ السُّرورِ بالحُزنِ. وإنَّها سَاعَةٌ تُرِقُّ القُلُوبَ القاسيةَ، وتُليِّنُ الأفئدةَ الغلاظَ. وإنَّ حَرَكَةَ الرَّأسِ، وإِدْمانَ النَّظَرِ، والزَّفَرَةَ بعدَ الوداعِ، لها تِكَّةٌ حِجابِ القلبِ، ومُوصَلَةٌ إليه مِنَ الجَزَعِ بِمِقْدَارِ ما تَفْعَلُ حَرَكَةُ الوَجْهِ في ضِدِّ هذا، والإِشارةُ بالعينِ والتَّبَسُّمُ في مَوَاطِنِ المُوَافَقَةِ^(٢).

والوداعُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ، أَحَدُهُما لا يَتِمَكَّنُ فِيهِ إِلَّا بالنَّظَرِ والإِشارةِ والثَّاني يَتِمَكَّنُ فِيهِ بالعِناقِ والمُلازِمَةِ، ورُبَّما لَعَلَّهُ^(٣) كانَ لا يُمْكِنُ قَبْلَ ذَلِكَ البَتَّةَ، مَعَ تَجَاوُرِ المَحالِّ وإمكانِ التَّلَاقِي. ولهذا تَمَنَّى بَعْضُ الشُّعراءِ البَيْنَ ومَدَحُوا يَوْمَ النِّوَى؛ وما ذاكَ بِحَسَنِ ولا بِصَوَابٍ ولا بِالْأَصِيلِ مِنَ الرَّأْيِ. فَمَا يَفِي سُرورُ سَاعَةٍ بِحُزْنِ سَاعَاتٍ، فكيفَ إذا كانَ البَيْنُ أَيَّاماً وشُهُوراً ورُبَّما أَعواماً؟ وهذا سوءٌ مِنَ النَّظَرِ

(١) يقضي السياق المسجّع أن يقول: «الآجال» جمع الأجل، أي نهاية العمر. ولكنه عدل إلى «الأوجال» جمع وَجَل، الفزع والخوف الشديد. على القياس لا السمع والورود أي: لم نسمع «أوجال» جمعاً للوجل... (انظر اللسان: وجل).

(٢) هنا تنتهي الفقرة كما حَقَّقَهَا د. عباس (ص ٢٢٠). وفي التونسية (ص ١٤٨) ومعظم الطُّبَعات يستمر الكلام ويتصل إلى الفقرة الثانية على هذا النحو: «والإِشارةُ بالعينِ والتَّبَسُّمُ في مَوَاطِنِ المُوَافَقَةِ والوداعِ يَنْقَسِمُ (أو تَنْقَسِمُ) قِسْمَيْنِ...». وهي قراءة غامضة لما فيها من اضطراب وتداخل...

(٣) لا نفهم كيف جمع صيغتين بمعنى واحد. «ربَّما» و«لعل» وكلتاها تفيد الإمكان والاحتمال القليل...!

وَمُعْوجٌ مِنَ الْقِيَاسِ ؛ وَإِنَّمَا أَثْنَيْتُ عَلَى النَّوَى فِي شِعْرِي تَمَنِّيًّا
لِرُجُوعِ يَوْمِهَا ، فَيَكُونُ فِي كُلِّ يَوْمٍ لِقَاءً وَوَدَاعٌ ، عَلَى أَنْ
تَحْتَمِلَ مَضَضَ هَذَا الْأَسْمِ الْكَرِيهِ ؛ وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَمْضِي مِنَ
الْأَيَّامِ الَّتِي لَا التَّقَاءَ فِيهَا ، فَحِينَئِذٍ يَرْغَبُ الْمُحِبُّ مِنْ يَوْمِ
الْفِرَاقِ لَوْ أَمَكَّنَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ .

وَفِي الصَّنْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْوَدَاعِ أَقُولُ شِعْرًا مِنْهُ :

[من البسيط]

تَنُوبُ عَنْ بَهْجَةِ الْأَنْوَارِ بِهَجْتِهِ
كَمَا تَنُوبُ عَنِ النَّيِّرَانِ أَنْفَاسِي
وَفِي الصَّنْفِ الثَّانِي مِنَ الْوَدَاعِ أَقُولُ شِعْرًا مِنْهُ :

[من البسيط]

وَجْهٌ تَخِرُّ لَهُ الْأَنْوَارُ سَاجِدَةً
وَالْوَجْهَ تَمَّ فَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدْ
دِفْءٌ وَشَمْسُ الضُّحَى بِالْجَدْيِ نَازِلَةٌ
وَبَارِدٌ نَاعِمٌ وَالشَّمْسُ فِي الْأَسَدِ
ومنه :

يَوْمُ الْفِرَاقِ لَعَمْرِي لَسْتُ أَكْرَهُهُ
أَضْلًا وَإِنْ شَتَّ شَمَلَ الرُّوحِ عَنْ جَسَدِي ^(١)
فَفِيهِ عَانَقْتُ مَنْ أَهْوَى بِلا جَزَعٍ
وَكَانَ مِنْ قَبْلِهِ إِنْ سِيلَ لَمْ يَجِدْ

(١) شَتَّ يَوْمُ الْفِرَاقِ شَمَلَ الرُّوحِ عَنْ جَسَدِي : (بمعنى فَرَّقَ) ، وَتُقْرَأُ : شَتَّ شَمَلَ

الرُّوحِ بِمَعْنَى بَعَدَ وَتَفَرَّقَ . فَالْفِعْلُ «شَتَّ» لَا زِمَ وَمُتَعَدٌّ .

أَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ [عَيْنِي] وَعَبْرَتُهَا^(١)

يَوْمَ الْوَصَالِ لِيَوْمِ الْبَيْنِ ذُو حَسَدٍ

وهل هَجَسَ في الأفكارِ، أو قامَ في الظُّنونِ، أَشْنَعُ وَأَوْجَعُ
من هَجَرَ عِتَابٍ وَقَعَ بَيْنَ مُحِبِّينَ، ثُمَّ فَجَأَتْهُمَا النُّوَى قَبْلَ حُلُولِ
الصُّلْحِ وَانْجِلَالِ عُقْدَةِ الْهَجْرَانِ، فقاما إلى الْوَدَاعِ وقد نُسِيَ
الْعِتَابُ، وجاءَ ما طَمَّ على^(٢) الْقَوَى وأَطَارَ الْكَرَى؛ وفيهِ أَقُولُ
شِعْراً، منه:

[من الطويل]

وَقَدْ سَقَطَ الْعَتَبُ الْمُقَدَّمُ وَامْحَى

وَجَاءَتْ جُيُوشُ الْبَيْنِ تَجْرِي وَتُسْرِعُ

وَقَدْ ذَعَرَ الْبَيْنُ الصُّدُودَ فِرَاعَهُ

فَوَلَّى فَمَا يُدْرِي لَهُ الْيَوْمَ مَوْضِعُ

كَذِيبٍ خَلَا بِالصَّيْدِ حَتَّى أَظْلَهُ^(٣)

هَزَبٌ لَهُ مِنْ جَانِبِ الْغِيلِ^(٤) مَطْلَعُ

لَيْنٍ سَرَّنِي فِي طَرْدِهِ الْهَجْرُ إِنَّنِي

لِلْإِبْعَادِ عَنِّي الْحَبِيبَ لَمْوَجَعُ

(١) في طبعة عباس: «دمعي وعبرتها»، ويُفهم منه أَنَّ الدَّمْعَ دمعُ الشاعرِ والعبرةُ

عبرةُ المحبوبِ، وإلا فما معنى اجتماعِ الدَّمْعِ والعبرة؟ وما بُتِّناه وَرَدَ في ط.

التونسية بإضافة [عَيْنِي] من الْمُحَقِّق (ص ١٤٩).

(٢) في طبعة عباس: «طَمَّ عَن» (ص ٢٢٢)، وفي سواها: «على» وهي أَوْجَهُ.

وَطَمَّ الشَّيْءُ: كَثُرَ حَتَّى عَظُمَ أو عَمَّ، وَطَمَّ عَلَيْهِ: عَمَرَهُ وَعَظَاهُ. (الوسيط/
طَمَّ).

(٣) في ط. التونسية: «أَضْلَهُ» (ص ١١٩).

(٤) الغِيلُ: موضعُ الأسدِّ. والهَزَبُ: الأسدُّ الكاسِرُ.

ولا بُدَّ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ بَعْضِ رَاحَةٍ
وفي غِبِّهَا ^(١) الْمَوْتُ الْوَحْيُ ^(٢) الْمُصْرَعُ

وأَعْرِفْ مَنْ أَتَى لِيُودِّعَ مَحْبُوبَهُ يَوْمَ الْفِرَاقِ فَوَجَدَهُ قَدْ فَاتَ،
فَوَقَّفَ عَلَى آثَارِهِ سَاعَةً، وَتَرَدَّدَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، ثُمَّ
انْصَرَفَ كَثِيباً مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ، كَاسِفَ الْبَالِ، فَمَا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ
حَتَّى اعْتَلَّ وَمَاتَ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإِنَّ لِلْبَيْنِ فِي إِظْهَارِ السَّرَائِرِ الْمَطْوِيَّةِ عَمَلاً عَجَباً؛ وَلَقَدْ
رَأَيْتُ مَنْ كَانَ حُبُّهُ مَكْتُوماً، وَبِمَا يَجِدُ فِيهِ مُسْتَتِراً، حَتَّى وَقَعَ
حَادِثُ الْفِرَاقِ، فَبَاحَ الْمَكْنُونُ وَظَهَرَ الْخَفِيُّ. وفي ذلك أقولُ
قِطْعَةً مِنْهَا:

[من المتقارب]

بَذَلْتُ مِنَ الْوُدِّ مَا كُنْتُ قَبْلُ
مَنْعَتْ وَأَعْطَيْتَنِيهِ جُزَافاً
وَمَا لِي بِهِ حَاجَةٌ عِنْدَ ذَاكَ
وَلَوْ جُدْتَ قَبْلُ بَلَغْتَ الشَّغَافَا
وَمَا يَنْفَعُ الطَّبَّ عِنْدَ الْحِمَامِ
وَيَنْفَعُ قَبْلَ الرَّدَى مَنْ تَلَا فَي ^(٣)

(١) قرأها المستشرق برشيه «غييها»، ومحقق ط. التونسية، «غيها» (ص ١٤٩).
وما أثبتناه قراءة عباس (ص ٢٢٢).

(٢) في ط. التونسية: «الوحي» (ص ١٤٩). والوحي: العجل المُسرِع. أمَّا
الوحي فممن معانيه التي يمكن أن تلائم السياق: ما ليس فيه خير... ولعلَّ
استخدام الكلمة بالحاء المهملة أصوب هنا.

(٣) في ط. التونسية: «تكافا» (ص ١٥٠).

وأقول :

[من الكامل]

الآن إذ حلَّ الفراق وجذت لي
بحففي حُبَّ كنت تُبدي بخله
قد زدّني^(١) في حسرتي أضعافها
ويحي فهاً كان هذا قبله

ولقد أذكرني هذا، أني خطبت^(٢) في بعض الأزمان، مودةً
رجل من وزراء السلطان أيام جاهه، فأظهر بعض الامتسالك، فتركته
حتى ذهب أيامه، وانقضت دولته؛ فأبدي لي من المودة والأخوة
غير قليل، فقلت:

[من الطويل]

بذلت لي الإعراض والدهر مُقبل
وتبذل لي الإقبال والدهر مُعرض
وتبسطني إذ ليس ينفع بسطكم
فهاً أبحت البسط إذ كنت تقبض

٦ - ثم بين الموت وهو القوت، وهو الذي لا يرجى له إياب،
وهو المصيبة الحالة. وهو قاصمة الظهر، وداهية الدهر، وهو
الويل^(٣)، وهو المعطي على ظلمة الليل، وهو قاطع كل
رجاء، ومأجبي كل طمع، والمؤيس^(٤) من اللقاء. وهنا

(١) في معظم الطبعات: «فزدني».

(٢) في معظم الطبعات: «حطيت في بعض الأزمان بمودة رجل». وما أثبتناه
بقراءة عباس أصوب.

(٣) قرأها بعضهم: «الليل».

(٤) المؤيس: المحدث يأساً. وأيس منه، أيساً، وإياساً: يئس وانقطع رجاءه.
(الوسيط/أس).

حَارَتِ الْأَلْسُنُ، وَانْجَدَمَ^(١) حَبْلُ الْعِلَاجِ، فَلَا حِيلَةَ إِلَّا الصَّبْرُ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً. وَهُوَ أَجَلٌ^(٢) مَا يُبْتَلَى بِهِ الْمُجِيبُونَ، فَمَا لِمَنْ دُهِيَ بِهِ إِلَّا النَّوْخُ وَالْبُكَاءُ إِلَى أَنْ يَتَلَفَ أَوْ يَمَلَّ؛ فَهُوَ^(٣) الْقَرْحَةُ الَّتِي لَا تُنْكَأ، وَالْوَجَعُ الَّذِي لَا يَفْنَى، وَهُوَ الْعَمُّ الَّذِي يَتَجَدَّدُ عَلَى قَدَرِ بَلَاءٍ مَنِ اعْتَمَدَتْهُ فِي الثَّرَى^(٤)، وَفِيهِ أَقُولُ:

[من مشطور المديد]^(٥)

كُلُّ بَـيِّنٍ وَاقِعٍ
فَمُرْجَى لَمْ يَفُتْ
لَا تُعْجَلُ^(٦) قَنَطاً
لَمْ يَفُتْ مَنْ لَمْ يَمُتْ
وَالَّذِي قَدْ مَاتَ فَالـ
يَأْسُ عَنْهُ قَدْ ثُبُتْ

وقد رأينا مَنْ عَرَضَ لَهُ هَذَا كَثِيراً.

وَعَنِّي أَخْبِرْكَ أَنِّي أَحَدُ مَنْ دُهِيَ بِهِذِهِ الْفَادِحَةِ، وَتُعْجَلَتْ لَهُ هَذِهِ الْمُصِيبَةُ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ كَلْفاً، وَأَعْظَمَهُمْ حُبّاً بِجَارِيَةٍ لِي، كَانَتْ فِيهَا خَلا اسْمُهَا «نُعْم»^(٧). وَكَانَتْ أَمْنِيَّةَ الْمُتَمَنِّي، وَغَايَةَ

(١) انْجَدَمَ: انْقَطَعَ. (٢) أَجَلٌ، مِنَ الْأَمْرِ الْجَلَلِ، وَهُوَ الْعَظِيمِ.

(٣) بَعْضُ الطَّبَعَاتِ: «فَهْي».

(٤) فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «عَلَى قَدَرِ بَلَاءٍ مِنْ اعْتَمَدَتْهُ». بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ (ص ١٥١).

وَالْتِمَتَةُ: «فِي الثَّرَى» مَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي طَبْعَةِ عَبَّاسٍ (ص ٢٢٣) وَالطَّبْعَةُ الْمَصْرِيَّةُ (ص ١٢٣).

(٥) وَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ أَنَّ الْأَبْيَاتَ مِنْ مَجْزُوءِ الْمَدِيدِ. وَالصَّحِيحُ: مَشْطُورُهُ.

(٦) قَرَأَ د. مَكِّي فِي ط. الْمَصْرِيَّةِ: «لَا تُعْجَلُ» بِفَتْحِ الْجِيمِ الْمَشْدُودَةِ. (ص ١٢٣).

(٧) سَبَقَ ذِكْرُ «نُعْم» هَذِهِ فِي مَوْضِعٍ سَابِقٍ - انْظُرِ الْمَقْدَمَةَ - ص ١٩.

الحُسْنِ خَلْقًا وَخُلُقًا، وَمُوَافَقَةً لِي، وَكُنْتُ أَبَا عُدْرَهَا^(١)، وَكُنَّا
قَدْ تَكَافَأْنَا الْمَوَدَّةَ، فَفَجَعَتْنِي بِهَا الْأَقْدَارُ، وَاخْتَرَمَتْهَا اللَّيَالِي وَمَرُّ
النَّهَارِ، وَصَارَتْ ثَالِثَةُ التُّرَابِ وَالْأَحْجَارِ، وَسِنِّي حِينَ وَفَاتِهَا
دُونَ الْعِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَتْ هِيَ دُونِي فِي السِّنِّ، فَلَقَدْ أَقَمْتُ
بَعْدَهَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ لَا أَتَجَرَّدُ عَنْ ثِيَابِي، وَلَا تَفْتُرُ لِي دَمْعَةً، عَلَى
جُمُودِ عَيْنِي وَقِلَّةِ إِسْعَادِهَا؛ وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ مَا سَلَوْتُ حَتَّى
الْآنَ، وَلَوْ قَبْلَ فِدَاءٍ لَفَدَيْتُهَا بِكُلِّ مَا أَمْلِكُ مِنْ تَالِدٍ وَطَارِفٍ،
وَبِبَعْضِ أَعْضَاءِ جِسْمِي الْعَزِيزَةِ عَلَيَّ، مُسَارِعًا طَائِعًا، وَمَا طَابَ
لِي عَيْشٌ بَعْدَهَا، وَلَا نَسِيتُ ذِكْرَهَا، وَلَا أَنْسَتْ بِسَوَاهَا، وَلَقَدْ
عَفَوْتُ حُبِّي لَهَا عَلَى كُلِّ مَا قَبْلَهُ، وَحَرَمَ مَا كَانَ بَعْدَهُ؛ وَمِمَّا قُلْتُ
فِيهَا:

[من الطويل]

مُهَذَّبَةٌ بِيضَاءُ كَالشَّمْسِ إِنْ بَدَتْ
وَسَائِرُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ^(٢) نُجُومٌ
أَطَارَ هَوَاهَا الْقَلْبَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ
فَبَعْدَ وَقُوعِ ظِلٍّ وَهُوَ يَحُومُ

وَمِنْ مَرَاتِي فِيهَا قَصِيدَةٌ مِنْهَا:

[من الطويل]

كَأَنِّي لَمْ آتَسْ بِالْفَاطِكِ الَّتِي
عَلَى عُقَدِ الْأَلْبَابِ هُنَّ نَوَافِثُ^(٣)

(١) أبو عذرهما: أَوَّلُ مَنْ افْتُضَّهَا.

(٢) رَبَّاتِ الْحِجَالِ: النِّسَاءُ. وَالْحِجَالُ جَمْعُ حَجَلَةٍ وَهِيَ بَيْتٌ كَالْقُبَّةِ يُزَيَّنُ بِالثِّيَابِ
وَالْأَسْبِرَةِ وَالسُّتُورِ، وَفِيهِ تَكُونُ الْعُرُوسُ. (اللسان/حجل).

(٣) نَوَافِثُ: جَمْعُ نَافِثَةٍ وَهِيَ السَّاحِرَةُ. وَفِي الْبَيْتِ تَلْمِيحٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿... وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الْفَلَق: ٣].

ولم أتَحَكَّمْ في الأمانِي كَأَنَّنِي
لِإِفْرَاطِ مَا حُكِّمْتُ فِيهِنَّ عَابِثُ

ومنها:

وَيُبْدِينَ إِعْرَاضاً وَهَنَّ أَوَالِفُ^(١)
وَيُقْسِمُنَ فِي هَجْرِي وَهَنَّ حَوَانِثُ^(٢)

وأقول أيضاً في قصيدة أخطب فيها ابن عمي أبا المغيرة عبد
الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم بن غالب^(٣)، وأقرضه
فأقول:

[من الطويل]

قِفَا فَاسْأَلَا الْأَطْلَالَ أَيْنَ قَطِينُهَا؟
أَمَرْتُ عَلَيْهَا بِالْبَلَى الْمَلَوَانِ^(٤)؟
عَلَى دَارِسَاتٍ مُقْفِرَاتٍ^(٥) عَوَاطِلِ
كَأَنَّ الْمَغَانِي^(٦) فِي الْخَفَاءِ مَعَانِي
وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَيِّ الْأَمْرَيْنِ أَشَدُّ: الْبَيْنُ أَمْ الْهَجْرُ؟ وَكِلَاهُمَا

(١) أوالف: ج ألفة: الأنسة المحبة.

(٢) حوانث: جمع حائنة، وحيث في يمينه: لم يبر فيه، وأثم.

(٣) عبد الوهاب بن أحمد (أبو المغيرة): ابن عم مؤلف الطوق. ورد اسمه في
«جذوة المقتبس»: عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن
حزم بن المغيرة، وزير كاتب، من المقدمين في الأدب والشعر والبلاغة.
توفي حوالي سنة (٤٢٠هـ). جذوة المقتبس: ق ٢/ص ٤٦١.

(٤) الملوان: الليل والنهار.

(٥) ورد في ط. التونسية: «مقفزات» بالزاي، ولعله خطأ مطبعي. والعوطل: الخالية.

(٦) المغاني: جمع مغنى، المنازل والديار. والخفاء: المتطأطيء من الأرض.

مُرتَقَى صَعْبٍ، وَمَوْتُ أَحْمَرٍ، وَبَلِيَّةٌ سَوْدَاءُ، وَسَنَةٌ شَهْبَاءُ، وَكُلٌّ يَسْتَبْشِعُ مِنْ هَذَيْنِ مَا ضَادَّ طَبْعَهُ، فَأَمَّا ذُو النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ الْأَنْوَفُ، الْحَنَانَةُ الْأَلُوفُ^(١)، الثَّابِتَةُ عَلَى الْعَهْدِ، فَلَا شَيْءَ يَعْدِلُ عِنْدَهُ مُصِيبَةُ الْبَيْنِ، لِأَنَّهُ أَتَى قَصْدًا، وَتَعَمَّدَتْهُ النَّوَائِبُ عَمْدًا، فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يُسَلِّي نَفْسَهُ؛ وَلَا يُصَرِّفُ^(٢) فِكْرَتَهُ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي إِلَّا وَجَدَ بَاعِثًا عَلَى صَبَابَتِهِ^(٣) وَمُحَرِّكَاً لِأَشْجَانِهِ، وَعِلَّةً لِأَلَمِهِ^(٤)، وَحُجَّةً لَوْجَدِهِ، وَخَاضًا عَلَى الْبُكَاءِ عَلَى الْفِه. وَأَمَّا الْهَجْرُ فَهُوَ دَاعِيَةُ السُّلُو، وَرَائِدُ الْإِقْلَاعِ.

وَأَمَّا ذُو النَّفْسِ التَّوَّاقَةِ الْكَثِيرَةِ التُّزُوعِ وَالتَّطَّلُعِ، الْقَلُوقِ الْعَزُوفِ، فَالْهَجْرُ دَاوُهُ وَجَالِبُ حَنْفِهِ. وَالْبَيْنُ لَهُ مَسْلَاةٌ وَمَسْأَةٌ.

وَأَمَّا أَنَا فَالْمَوْتُ عِنْدِي أَسْهَلُ مِنَ الْفِرَاقِ، وَمَا الْهَجْرُ إِلَّا جَالِبٌ لِلْكَمَدِ فَقَطْ، وَيُوشِكُ أَنْ دَامَ أَنْ يُحْدِثَ إِيْغَارًا^(٥)، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من المتقارب]

وَقَالُوا ارْتَحِلْ فَلَعَلَّ السُّلُو
يَكُونُ وَتَرْغَبُ أَنْ تَرْغَبَهُ

(١) ورد في معظم الطبعات: «فَأَمَّا ذُو النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ الْأَنْوَفُ، الْحَنَانَةُ الْأَلُوفُ...». وقد أخذت بقراءة عباس لوجهاتها (ص ٢٢٥).

(٢) قرأها بعضهم: «يُصَرِّفُ».

(٣) «صَبَابَتُهُ» في جميع الطبعات ما عدا: مكي الذي قرأها: «صَبَابَتُهُ» (بضم الصاد) (ص ١٢٥). وَالصَّبَابَةُ: الشُّوقُ أَوْ رَقَّتُهُ، وَحَرَارَتُهُ. أَمَّا «الصُّبَابَةُ» (بالضم) فَهِيَ الْبَقِيَّةُ الْقَلِيلَةُ مِنَ الْمَاءِ. (الوسيط/ صَبَّ).

(٤) في بعض الطبعات: «وَعَلَيْهِ لَا لَهُ» بَدَلَ «وَعِلَّةً لِأَلَمِهِ».

(٥) في معظم الطبعات: «إِضْرَارًا»، وَالْإِيْغَارُ هُنَا يَحْمِلُ - عَلَى الْمَجَازِ - مَعْنَى الْإِغَاظَةِ وَإِحْدَاثِ الْكَرَاهِيَةِ، وَأَصْلُهُ: أَنْ تُسَخَّنَ الْحَجَارَةُ وَتُحْرَقَ ثُمَّ تُلْقَى فِي الْمَاءِ لِتُسَخِّنَهُ (اللسان/ وَغَر).

فَقُلْتُ الرَّدَى لِي قَبْلَ السُّلُو
وَمَنْ يَشْرَبُ السُّمَّ عَنْ تَجْرِبَتِهِ؟!
وَأَقُولُ:

[من المضارع]

سَبَبِي مُهَجَّبِي هَوَاهُ
وَأَوْدَتْ بِهِ هَاهَا نَوَاهُ
كَأَنَّ الْغَرَامَ ضَائِفٌ
وَرُوحِي غَادَا قِرَاهُ

ولقد رأيت مَنْ يَسْتَعْجِلُ^(١) هَجَرَ مَحْبُوبِهِ، ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين، وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق. وهذا وإن لم يكن عندي من المذاهب المرضية؛ فهو حجة قاطعة على أن البين أصعب من الهجر، وكيف لا، وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين. ولم أجد أحداً في الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر، إنما يأخذ الناس أبداً الأسهل، ويتكلفون الأهون. وإنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودّة، لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله، وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها؛ ولعل ما تخوفوه لا يكون، وليس من يتعجل المَكْرُوه - وهو على غير يقين مما يتعجل - بحكيم، وفيه أقول شعراً منه:

[من الخفيف]

لَبَسَ الصَّبُّ لِلصَّبَابَةِ بَيْنًا
لَيْسَ مَنْ جَانِبَ الْأَحِبَّةِ مِنَّا

(١) في معظم الطبعات: «يستعمل» وقرأها عباس «يستعجل» وهي أصوب للسياق.

كَغْنِيَّ يَعْيشُ عَيْشَ فَاقِرٍ
خَوْفَ فَقْرٍ وَفَقْرُهُ قَدْ أَبْنَأَ^(١)

وَأَذْكُرُ لَابِنَ عَمِّي أَبِي الْمُغِيرَةَ، فِي هَذَا الْمَعْنَى^(٢) - مِنْ أَنَّ الْبَيْنَ
أَضْعَبُ مِنَ الصَّدِّ - أَبْيَاتًا مِنْ قَصِيدَةٍ خَاطَبَنِي بِهَا وَهُوَ ابْنُ سَبْعَةِ عَشَرَ
عَامًا أَوْ نَحْوَهَا، وَهِيَ:

[من مجزوء الكامل]

أَجْرِزْتَ أَنْ أَزِفَ الرَّحِيلُ
وَوَلَّهْتَ أَنْ نُصَّ الدَّمِيلُ^(٣)
كَأَنَّ: مُصَابُكَ فَادِحٌ
وَأَجَلٌ: فِرَاقُهُمْ جَلِيلٌ
كَذَبَ الْأَلَى زَعَمُوا بِأَنَّ
الصَّدَّ مَرْتَعُهُ وَبِيلُ^(٤)
لَمْ يَعْرِفُوا كُنْهَ الْغَلِيلِ
لِ- وَقَدْ تُحْمَلُ الْحُمُولُ^(٥)

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «أَمِنًا». وَهَذَا مَعْنَى شَائِعٍ. لَعَلَّ أَبْرَزَ مِنْ قَالَ فِيهِ أَبُو
الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي:

وَمَنْ يَنْفَقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ
يَنْظُرُ دِيَوَانَهُ بِشَرْحِ الْبَرْقُوقِيِّ: ج ٢/ص ٢٥٥. وَ(أَبْنُ) أَعْيَا وَأَرْهَقَ. وَلَعَلَّهُ أَرَادَ
هَذَا الْفِعْلَ «أَبَانَ» مَعَ ضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ (نَا) بِمَعْنَى: أَوْضَحْنَا وَبَيَّنَّا.

(٢) فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ: «وَأَذْكُرُ لَابِنَ عَمِّي أَبِي الْمُغِيرَةَ هَذَا الْمَعْنَى» وَهُوَ لَا يَسْتَقِيمُ.
(٣) نُصَّ فَلَانِ الدَّابَّةِ: اسْتَحَثَّهَا شَدِيدًا. وَالذَّمِيلُ هُوَ السَّيْرُ السَّرِيعُ لِلنَّاقَةِ. وَذَمَلٌ
الْبَعِيرُ: ذَمُولًا، وَذَمِيلًا، وَذَمَلَانًا: سَارَ سَيْرًا سَرِيعًا لِينًا. (الْوَسِيطُ/ ذَمَلٌ).
(٤) وَبِيلٌ: شَدِيدٌ وَوَحِيمٌ.

(٥) الْغَلِيلُ، شِدَّةُ الْعَطَشِ وَحَرَارَتِهِ. وَالْمَعْنَى هُنَا مُجَازِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى شِدَّةِ الشَّوْقِ
وَحُرْقَةِ الْفِرَاقِ.

وَالْحُمُولُ: الرُّوَاحِلُ الَّتِي عَلَيْهَا أَحْمَالُ الرِّكَبِ وَالْأَحْبَةِ.

أَمَّا الْفِرَاقُ فَإِنَّهُ
لِلْمَوْتِ إِنْ أَهْوَى دَلِيلُ
ولي في هذا المعنى قصيدة مَطَوَّلَةٌ أَوَّلُهَا:
[من الكامل]
لا مِثْلَ يَوْمِكَ ضُحْوَةَ التَّنْعِيمِ
(١) فِي مَنْظَرٍ حَسَنِ وَفِي تَنْعِيمٍ
قَدْ كَانَ ذَاكَ الْيَوْمُ نُذْرَةً عَاقِرٍ
(٢) وَصَوَابَ خَاطِئَةٍ وَوُلْدَ عَقِيمٍ
أَبَامَ بَرْقِ الْوَضَلِ لَيْسَ بِخُلْبٍ
(٣) عِنْدِي وَلَا رَوْضِ الْهَوَى بِهَشِيمٍ
مِنْ كُلِّ غَانِيَةٍ تَقُولُ ثُدِيَّهَا
(٤) سِيرِي أَمَامَكَ وَالْإِزَارَ أَقِيمِي

(١) هذا البيت مُخْتَلَفٌ جداً في قراءته وتأويله، ولم تتَّفَقْ عليه طبعتان، فقرأ د. عباس:

«لا مِثْلَ يَوْمِكَ ضُحْوَةَ التَّنْعِيمِ فِي مَنْظَرٍ حَسَنِ وَفِي تَنْعِيمٍ»
على اعتبار «لا» نافيةً للجنس بعمل إن. وضحوة: ظرف زمني منصوب.
والتنعيم (الأولى) هنا: اسم مكان. والثانية بمعنى النعمة (ينظر رسائل ابن
حزم بتحقيق د. عباس: (٢٢٧/١).
وقرأ د. مكي: «لا مِثْلُ يَوْمِكَ ضُحْوَةُ التَّنْعِيمِ...» (ص ١٢٦).
وقرأ د. القاسمي: «لا مِثْلُ يَوْمِكَ ضُحْوَةُ...» (ص ١٥٤).
ووردت «التنعيم» الثانية في معظم الطباعات: «التنعيم» بالغين المعجمة.
ولبت البيت يستحق كل هذا العناء...

(٢) العَاقِرُ من النساء والرجال: من لا ينجب وَلِداً. ومثله: «العقيم» للرجل.
(٣) الخُلْبُ: السحاب يومضُ بَرْقُهُ حتى يَرْجِي مَطَرَهُ، ثم يُخْلَفُ ويتقشع، ويُشَبَّه به مَنْ يَعِدُ وَلَا يُنْجِزُ، وما هو خَادِعٌ مُزَيَّفٌ. والهشيم: اليابس المهشوم المَتَكَسِّرُ.
(٤) الثُّدِي: جمع ثُدِي. والإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن. وقوله:
«أَقِيمِي» مِنْ: أَقَامَ: وَأَقَامَ الشَّيْءَ (عنه) أَزَالَهُ، و(عليه): أَدَامَهُ.

ما بي سوى تلك العيون وليس في
 بُرئي سواها في الورى بزعيم
 مثل الأفاعي ليس في شيء سوى
 أجسادها إبراء لذغ سليم^(١)

والبين أبكى الشعراء على المعاهد، فأدروا على الرسوم
 الدُموع، وسقوا الديار ماء الشوق، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها،
 فأعولوا واتحَبوا، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا.

ولقد أخبرني بعض الوراد من قُرطبة - وقد استخبرته عنها - أنه
 رأى دورنا ببلاط مُغيث، في الجانب الغربي منها، وقد امحَتْ
 رسومها، وطُمِسَتْ أعلامها، وخفيت معاهدُها، وغيرَها البلى،
 وصارت صحارى^(٢) مُجْدَبَةٌ بعد العُمران، وفيافي موحِشة بعد
 الأُنس، وخرائب مُنْقَطَعَةٌ بعد الحُسن، وشعاباً مُفْرَعَةٌ^(٣) بعد الأمن،
 ومأوى للذئاب، ومعازف للغيلان، وملاعب للجان، ومكامن
 للوحوش، بعد رجال كالليوث، وخرائد كالدمى^(٤)، تفيض لديهم
 النعم الفاشية. تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا^(٥)، فكان

(١) السليم: مَنْ لدغته الأفعى، والمُشرف على الهلاك.

(٢) صحارى، وصحاري. وجمع الصحراء: الصَّحَارَى، والصَّحَارِي. (اللسان/صحَر).

(٣) «مُفْرَعَةٌ» بقراءة د. عباس، وفي بعض الطبقات: «مُفْرَعَةٌ» و«مُفْرَعَةٌ».

(٤) الخرائد: جمع خريدة وأصلها: اللؤلؤة التي لم تُثَقَّب. ويستعمل المعنى للفتنة العذراء البكر اللينة الحَيَّة. (الوسيط/خرَد).

(٥) «تَفَرَّقُوا أيادي سبا»: سبا وسبا: اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن، ويضرب بهم المثل في التفرق، لأنهم لَمَّا غَرِقَ مكانهم وذهبت جناتهم تبددوا في البلاد، فأخذت كل طائفة منهم طريقاً. (الوسيط/سَبَا).

تلك المحارِبِ^(١) المُنْمَقَّة، والمقاصير^(٢) المُزَيَّنة، التي كانت تُشْرِقُ إشراقَ الشَّمْسِ، وَيَجْلُو الهُمومَ حُسْنُ مَنْظَرِهَا، حِينَ شَمَلَهَا الخَرَابُ، وَعَمَّهَا الهَدْمُ، كأَفْوَهِ السَّبَاعِ فَاغِرَّةً، تُؤْذِنُ بَفَنَاءِ الدُّنْيَا، وَتُرِيكَ عَوَاقِبَ أَهْلِهَا، وَتُخَبِّرُكَ عَمَّا يَصِيرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ تَرَاهُ قَائِمًا فِيهَا، وَتَزْهَدُ فِي طَلِبِهَا بَعْدَ أَنْ طَالَمَا زَهَدْتَ فِي تَرْكِهَا، وَتَذَكَّرْتَ أَيَّامِي بِهَا وَلَدَاتِي^(٣) وشُهُورَ صِبَايَ لَدَيْهَا، مَعَ كَوَاعِبِ^(٤) إِلَى مِثْلِهِنَّ صَبَا الحَلِيمِ، وَمَثَلْتُ لِنَفْسِي كَوْنَهُنَّ تَحْتَ الشَّرَى، وَفِي الْآفَاقِ^(٥) النَّائِيَةِ وَالتَّوَاحِيِ الْبَعِيدَةِ، وَقَدْ فَرَّقَتْهُنَّ يَدُ الْجَلَاءِ، وَمَزَقَّتُهُنَّ أَكْفُ النَّوَى؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ بِصَرِي فَنَاءُ تِلْكَ النَّصْبَةِ^(٦) بَعْدَمَا عَلِمْتُهُ مِنْ حُسْنِهَا وَغَضَارَتِهَا، وَالْمَرَاتِبِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي نَشَأْتُ فِيهَا^(٧) لَدَيْهَا، وَخِلَاءُ تِلْكَ الْأَفْنِيَةِ^(٨) بَعْدَ تَضَائِقِهَا بِأَهْلِهَا، وَأَوْهَمْتُ سَمْعِي صَوْتَ

(١) المحارِب: جمع محراب. والمحراب: الغرفة، وصدر البيت، ومقام الإمام من المسجِد. (الوسيط/ حَرْب).

(٢) المقاصير: جمع مقصورة، وهي حُجْرَةٌ خَاصَةٌ مَفْصُولَةٌ عَنِ الحُجُرِ المجاورة فوق الطبقة الأرضية (الوسيط/ قَصْر).

(٣) ورد في ط. التونسية: «ولَدَاتِي فِيهَا» (ص ١٥٥). وفي أعمال الأعلام: «وصباية لداتي بها» - ص ١٠٧.

(٤) الكواعب: ج كاعب: الفتاة وقد نَهَدَ ثديها.

(٥) في ط. التونسية: «الآثار النائية» (ص ١٥٥) وكذلك في معظم الطبوعات، ومنهم من قرأ: «الديار».

(٦) يقرأ محقق ط. التونسية: «وُخِيِّلَ إِلَيَّ بِصَرِي فَنَاءُ تِلْكَ [النصبة]» (ص ١٥٥).

والتَّصْبَةُ: تدل هنا على المكان المرفوع المقام، وَنَصَبَ الشَّيْءَ أَقَامَهُ وَرَفَعَهُ. وَإِذَا قُرِئَتْ: «التَّصْبَةُ» فهي السارية. (اللسان/ نصب).

(٧) معظم الطبوعات: «فيما لديها». وما أثبتناه قراءة المستشرق برشيه وتابَعَهُ فِيهَا د. عباس.

(٨) الأفنية: جمع فناء، وهو السَّاحَةُ فِي الدَّارِ أَوْ بِجَانِبِهَا.

الصَّدَى والهَام^(١) عليها، بعدَ حَرَكَه تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي رُبِّتْ بَيْنَهُمْ فِيهَا، وَكَانَ لَيْلُهَا تَبْعاً لِنَهَارِهَا فِي انْتِشَارِ سَاكِنِهَا وَالتِّقَاءِ عُمَارِهَا؛ فَعَادَ نَهَارُهَا تَبْعاً لَلَّيْلِهَا فِي الْهُدُوءِ وَالِاسْتِيحَاشِ؛ فَأَبْكِي عَيْنِي، وَأَوْجَعَ قَلْبِي، وَقَرَعَ صَفَاةَ كَبِدِي^(٢)، وَزَادَ فِي بَلَاءِ لُبِّي، فَقُلْتُ شِعْراً مِنْهُ:

[من الطويل]

لَئِنْ كَانَ أَظْمَانَا فَقَدْ طَالَمَا سَقَى
وَإِنْ سَاءَنَا فِيهَا فَقَدْ طَالَمَا سَرَا^(٣)

(١) الصَّدَى والهَام: اسمان لطائر خرافي زعم العرب أنه يخرج من هامة القتيل (رأسيه)، ويظل يقول: «اسقوني اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. ومن معانيهما أيضاً: البومة. (الوسيط/ صِدْي وهام).

(٢) الصَّفَاة: لُغَةً: صَخْرَةٌ مَلْسَاء، وقول ابن حزم «قَرَعَ صَفَاةَ كَبِدِي». من قول العرب «مَا تُقَرِّعُ لَهُ صَفَاةً»: أَي لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ بِسُوءٍ. وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تُقَرِّعْ لَهُمْ صَفَاةً» (اللسان/ صفا).

(٣) اكْتَفَى نَاسِخَ الْمَخْطُوطَةِ بِإِيرَادِ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنْ عَشْرِينَ بَيْتاً أَنْشَدَهَا ابْنُ حَزْمٍ فِي رِثَاءِ قَرْطُبَةٍ، وَوَصَفَ مَا حَلَّ بِدِيَارِهَا مِنْ نَكَبَاتٍ عَلَى يَدِ الْبَرْبَرِ. وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَبْيَاتُ كَامِلَةً مَعَ نَصِّ نَثْرِي بَلِيغٍ فِي كِتَابِ أَعْمَالِ الْأَعْلَامِ لِابْنِ الْخَطِيبِ، وَأَثْبَتَهَا د. عَبَّاسٌ مُلْحَقَةً بِنَصِّ طُوقِ الْحَمَامَةِ، فِيمَا أورد د. مكي أبياتاً سبعة منها وَعَلَّقَ فِي الْحَاشِيَةِ بِقَوْلِهِ:

«اكتفى ناسخ مخطوطة الطوق بالبيت السادس منها فحسب، وجئت بها كاملة، على نحو ما أوردها ابن الخطيب». ويبدو أن الطبعة (المغربية) التي اعتمدها مكي من «أعمال الأعلام» اكتفت بهذه الأبيات السبعة، فيما أوردت الطبعة البيروتية التي اعتمدها د. عباس بتحقيق ليفي بروفنسال الأبيات العشرين كلها. وهذا الانتخاب من قبل الناسخ يؤكد مجدداً أن أشعار ابن حزم في هذه الرسالة هي في الأصل أكثر بكثير مما وصلنا. تنظر رسائل ابن حزم بتحقيق د. عباس ١/ ١١. وانظر كذلك ما ورد في مقدمة هذا الكتاب - ص ٤٤ - ٤٦.

وَالْبَيْنُ يُؤَلِّدُ الْحَيْنَ وَالْأَهْتِيَا جَ وَالتَّذْكَرُ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

[من البسيط]

لَيْتَ الْغُرَابَ يُعِيدُ الْيَوْمَ لِي فَعَسَى
يَبِينُ بَيْنُهُمْ ^(١) عَنِّي فَقَدْ وَقَفَا
أَقُولُ وَاللَّيْلُ قَدْ أَرْخَى أَجَلَّتَهُ ^(٢)
وَقَدْ تَأَلَّى ^(٣) بِأَلَا يَنْقُضِي ، فَوَفَى
وَالنَّجْمُ قَدْ حَارَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ فَمَا
يَمْضِي وَلَا هُوَ لِلتَّغْوِيرِ ^(٤) مُنْصَرِفَا
تَخَالُهُ مَخْطِئاً أَوْ خَائِفاً وَجَلّاً
أَوْ رَاقِباً مَوْعِداً أَوْ عَاشِقاً دَنْفَا ^(٥)

-
- (١) في معظم الطباعات: «بَيْنُهُمْ» ما عدا: التُّونِسِيَّةُ: «بَيْنُهُمْ» (ص ١٥٦).
(٢) أَجَلَّتَهُ؛ مفردُها جلال، وهو الغطاء، وذلك على غير ما شرحه محقق ط.
التونسية الذي أورد أن الْمُفْرَدَ هو «الْجَلُّ» بتشديد اللام المفتوحة: الشراع
(ص ١٥٦). والصحيح أن جمع «الْجَلِّ» هو الْجُلُول. ولا علاقة لهذا بمعنى
البيت، وحسبنا أن نذكر قول امرئ القيس في معلقته: «وليل كموج البحر
أرخی سدولهُ» ونقارنه بما ورد في بيت ابن حزم هذا.
(٣) تَأَلَّى: حَلَفَ.
(٤) التَّغْوِير: الغروب.
(٥) ورد في ط. التونسية: «دَنْثَا» ولعله خطأ مطبعي.

نص رثاء قرطبة لابن حزم

كما ورد في كتاب «أعمال الأعلام» لابن الخطيب (*)

وممَّن رثى قرطبة أيضاً، من وجوه أهلها وأرباب النعم المؤثَّلة بها، وأكثرَ التفجُّع على دياره منها، لما استولى الخرابُ عليها عند فرارِ البرابرِ عنها، الفقيه الأديبُ أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن سعيد ابن حزم، ابنُ وزيرِ آلِ عامرِ الأكبر. فإني وَجَدْتُ بخطِّه في خبرِ ذِكْرِهِ قال:

وقفتُ على أطلالِ منازلنا، بحومةِ بلاطِ مُغيثٍ من الأرباضِ الغربيَّة، ومنازلِ البرابرِ المُستباحةِ عندَ مُعاودةِ قرطبة. فرأيتها قد مَحَتْ رُسُومُها، وطُمِسَتْ أعلامُها، وخفيتْ معاهدُها، وَغَيَّرَهَا البلي؛ فصارتْ صحارى مُجْدِبَةً بعدَ العُمران، وَفَيَافِي مُوحِشَةً بعدَ الأنس، وآكاماً مُشوَّهةً بعدَ الحُسن، وخرائبٌ مُفْرِعَةٌ بعدَ الأمن، وَمَاوِيَّ لِلذئابِ، وَمَلَاعِبَ لِلجانِّ، وَمَغَانِي لِلغِيلانِ، وَمَكَامِينَ للوحوشِ، وَمَخَابِي لِلصوصِ، بعدَ طُولِ غُيَانِها برجالِ كالسيوفِ،

(*) «تاريخ إسبانيا الإسلامية» أو كتاب «أعمال الأعلام» فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» لابن الخطيب - تحقيق وتعليق: إ. ليفي برونفسال - دار المكشوف - بيروت - ط ١ - ١٩٥٦ - ص ١٠٦. وقد أثبتنا النصَّ كاملاً، في موضعه المناسب من الرسالة، فيما ورد في ط. د. عباس ملحاً في آخر الرسالة، وفي سواها مجتزأً ناقصاً. أمَّا التعليق على النصِّ فقد ورد معظمه في حواشي الصفحة السابقة، فلم نجد حاجةً لتكراره.

وَفُرْسَانٍ كَاللِّيُوثِ، تَفِيضُ لَدَيْهِمُ النَّعْمُ الْفَاشِيَّةُ، وَتَعْصُ مِنْهُمْ بَكْشَرَةُ الْقَطِينِ الْحَاشِيَّةُ، وَتُكْنَسُ فِي مَقَاصِيرِهِمْ ظُبَاءُ الْأَنْسِ الْفَاتِنَةِ تَحْتَ زَبْرَجٍ مِنْ غَضَارَةِ الدُّنْيَا تُذَكِّرُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ؛ حَالُ الدَّهْرِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ طُولِ النَّصْرَةِ؛ فَبَدَّدَ شَمْلَهُمْ حَتَّى سَارُوا فِي الْبِلَادِ أَيَادِي سَبَا، تَنْطِقُ عَنْهُمْ الْمَوْعِظَةُ. فَكَأَنَّ تِلْكَ الْمَحَارِبَ الْمُنْمَقَةَ، وَالْمَقَاصِيرَ الْمُرَشَّقَةَ، الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ كَبْرُوقِ السَّمَاءِ إِشْرَاقًا وَبِهْجَةً، يَقَيِّدُ حُسْنُهَا الْأَبْصَارَ، وَيَجْلِي مَنْظَرُهَا الْهُمُومَ، كَأَنَّ لَمْ تُغْنِ بِالْأَمْسِ، وَلَا حَلَّتْهَا سَادَةُ الْأَنْسِ، قَدْ عَبَثَ بِهَا الْخِرَابُ، وَعَمَّهَا الْهَدْمُ؛ فَأَصْبَحَتْ أَوْحَشَ مِنْ أَفْوَاهِ السَّبَاعِ فَاعِرَةً، تُؤْذِنُ بِفَنَاءِ الدُّنْيَا، وَتُريكَ عَوَاقِبَ أَهْلِهَا، وَتُخْبِرُكَ عَمَّا يَصِيرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا قَدْ بَقِيَ مَثَلًا فِيهَا، وَتُزْهِدُكَ فِيهَا.

وَكَرَزْتُ النَّظَرَ، وَرَدَّدْتُ الْبَصَرَ، وَكِدْتُ أُسْتَطَارُ حَزَنًا عَلَيْهَا، وَتَذَكَّرْتُ أَيَّامَ نَشَاتِي فِيهَا، وَصَبَابَةَ لِدَاتِي بِهَا؛ مَعَ كَوَاعِبِ غَيْدٍ، إِلَى مِثْلِهِنَّ يَصْبُو الْحَلِيمُ! وَمَثَلْتُ لِنَفْسِي انْطَوَاءً هُنَّ بِالْفَنَاءِ، وَكَوْنَهُنَّ تَحْتَ الثَّرَى، إِثْرَ تَقَطُّعِ جَمْعِنَا بِالتَّفَرُّقِ وَالْجَلَاءِ فِي الْآفَاقِ النَّائِيَةِ، وَالتَّوَاحِي الْبَعِيدَةِ؛ وَصَدَّقْتُ نَفْسِي عَنْ فَنَاءِ تِلْكَ الْقَصْبَةِ، وَأَنْصَدَاعِ تِلْكَ الْبَيْضَةِ بَعْدَ مَا عَهْدْتُهُ مِنْ حُسْنِهَا وَنَضَارَتِهَا وَزَبْرَجِهَا وَغَضَارَتِهَا، وَنُضُوتِهِ بِفِرَاقِهَا مِنَ الْحَالِ الْحَسَنَةِ، وَالْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ، الَّتِي رَفَلْتُ فِي حُلِّهَا نَاشِئًا فِيهَا، وَأَرَعَيْتُ سَمْعِي صَوْتَ الصَّدَى وَالْبُومِ زَاقِيًا بِهَا، بَعْدَ حَرَكَاتِ تِلْكَ الْجَمَاعَةِ الْمُتَنَصِّدَةِ بِعَرَصَاتِهَا، الَّتِي كَانَ لَيْلُهَا تَبْعًا لِنَهَارِهَا، فِي انْتِشَارِهَا بِسُكَّانِهَا، وَالتَّقَاءِ عُمَارِهَا؛ فَعَادَ نَهَارُهَا تَبْعًا لَلَّيْلِهَا فِي الْهُدُوءِ وَالِاسْتِيحَاشِ، وَالْخُفُوتِ وَالْإِخْفَاشِ. فَأَبْكِي ذَلِكَ عَيْنِي عَلَى جُمُودِهَا، وَقَرَعَ [صَفَاءً] كَبْدِي

على صلابتها؛ وهاج بلايلي على تكاثرها، وحركني للقول على بُوِّ
طبعي؛ فقلتُ:

[من الطويل]

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنَا وَغُودِرَتْ
خِلاءَ من الأهلينَ مَوْحِشَةً قَفُورًا
تراها كأن لم تَغْنِ بِالْأَمْسِ بَلْقَعًا
ولا عُمِرَتْ من أهلها قبلنا دَهْرًا
فيا دارُ لم يُفْزِرْكَ مِنَّا اخْتِيارُنا
ولو أنَّا نَسْطِيعُ كُنْتَ لَنَا قَبْرًا
ولَكنَّ أَقْداراً من اللّهِ أَنْفَذَتْ
تُدَمِّرُنا طَوْعاً لِمَا حَلَّ أَوْ قَهْرًا
ويا خيرَ دارٍ قد تُرِكَتِ حَمِيدَةً
سَقَتْكَ الغَوادي ما أَجَلَ وما أَسْرًا
ويا مُجْتَلَى تلك البساتينِ حَقًّا
رياضُ قَواريرٍ غَدَتْ بَعْدَنا غَبْرًا
ويا دَهْرُ بَلَّغْ ساكِنيها تَحِيَّتي
ولو سَكُنُوا المَروينَ أو جاوزوا النُّهْرَ
فصبراً لَسَطُوا الدَّهْرَ فيهِم وَحُكْمُهُ
وإن كان طَعْمُ الصَّبْرِ مُسْتَثْقَلًا مَرًّا
لئن كان أَظْمَانا فَقَدْ طَالَ ما سَقَى
وإن ساءَنا فيها فَقَدْ طَالَ ما سَرَا
وَأَيُّتُها الدَّارُ الحَبِيبَةُ لا يَرُمُ
ربوعَكَ جَوْنُ المَزنِ يَهْمِي بها القَطْرَا

كَأَنَّكَ لَمْ يَسْكُنْكَ غَيْدٌ وَأَنْسُ
وَصِيدُ رِجَالٍ أَشَبَّهُوا الْأَنْجَمَ الزُّهْرَا
تَفَانَوْا وَبَادُوا وَاسْتَمَرَّتْ نَوَاهُْمُ
لِمَثَلِهِمْ أَسْكَبْتُ مُقْلَتِي الْعَبْرَا
سَنْصَبِرُ بَعْدَ الْيُسْرِ لِلْعُسْرِ طَاعَةً
لَعَلَّ جَمِيلَ الصَّبْرِ يُعْقِبُنَا يُسْرَا
وَإِنِّي وَلَوْ عَادَتْ وَعُدْنَا لَعَهْدِهَا
فَكَيْفَ بِمَنْ مِنْ أَهْلِهَا سَكَنَ الْقَبْرَا
وَيَا دَهْرُنَا فِيهَا مَتَى أَنْتَ عَائِدٌ
فَنَحْمَدُ مِنْكَ الْعَوْدَ إِنْ عُدْتَ وَالْكَرَا
فَيَا رَبَّ يَوْمٍ فِي ذَرَاهَا وَلَيْلَةٍ
وَصَلْنَا هُنَاكَ الشَّمْسَ بِاللَّهِوِ وَالْبَدْرَا
فَوَا جِسْمِي الْمُضْنَى وَوَا قَلْبِي الْمُغْرَى
وَوَا نَفْسِي الشَّكْلَى وَوَا كَيْدِي الْحَرَا!
وَيَا هُمْ مَا أَعْدَى وَيَا شَجْوُ مَا أَبْرَا
وَيَا وَجْدُ مَا أَشْجَى وَيَا بَيْنُ مَا أَفْرَا
وَيَا دَهْرُ لَا تَبْعُدْ وَيَا عَهْدُ لَا تَحُلْ
وَيَا دَمْعُ لَا تَجْمَدْ وَيَا سُقْمُ لَا تَبْرَا
سَأَنْدُبُ ذَاكَ الْعَهْدَ مَا قَامَتِ الْحَضْرَا
عَلَى النَّاسِ سَقْفًا وَاسْتَقَلَّتْ بِنَا الْعَبْرَا

٢٥

بابُ القنوع

وَلَا بُدَّ لِلْمُحِبِّ، إِذَا حُرِمَ الْوَصْلَ، مِنَ الْقُنُوعِ بِمَا يَجِدُ، وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَمُتَعَلِّلاً لِلنَّفْسِ، وَشَغْلاً لِلرَّجَاءِ، وَتَجْدِيداً لِلْمُنَى، وَبَعْضَ الرَّاحَةِ.

وَهُوَ مَرَاتِبُ عَلَى قَدْرِ الْإِصَابَةِ وَالتَّمَكُّنِ.

فَأَوَّلُهَا الزِّيَارَةُ، وَإِنَّهَا لِأَمَلٌ مِنَ الْأَمَالِ، وَمِنْ سِرِّيٍّ مَا يَسْنَحُ فِي الدَّهْرِ، مَعَ مَا تُبْدِي مِنَ الْخَفَرِ وَالْحَيَاءِ، لِمَا يَعْلَمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِمَّا فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ.

وَهِيَ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَزُورَ الْمُحِبُّ مَحْبُوبَهُ، وَهَذَا الْوَجْهُ وَاسِعٌ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي أَنْ يَزُورَ الْمَحْبُوبُ مُحِبَّهُ. وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى غَيْرِ النَّظَرِ وَالْحَدِيثِ الظَّاهِرِ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الطويل]

فَإِنْ تَنَأَّ عَنِّي بِالْوَصَالِ فَإِنِّبِي
سَأَرْضَى بِلَحْظِ الْعَيْنِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ وَصْلُ
فَحَسْبِي أَنْ أَلْقَاكَ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى ضِعْفَ ذَا مِنْكَ لِي قَبْلُ
كَذَا هِمَّةُ الْوَالِي تَكُونُ رَفِيعَةً
وَيَرْضَى خِلَاصَ النَّفْسِ إِنْ وَقَعَ الْعَزْلُ

وَأَمَّا رَجْعُ السَّلَامِ وَالْمُخَاطَبَةُ، فَأَمَلٌ مِنَ الْآمَالِ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ لِي:

[من الطويل]

فَهَا أَنَا ذَا أَخْفِي وَأُقْنَعُ رَاضِيًا
بِرَجْعِ سَلَامٍ إِنْ تَيَسَّرَ فِي الْحِينِ
فَإِنَّمَا هَذَا لِمَنْ يَنْتَقِلُ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى مَا هُوَ أَذْنَى مِنْهَا. وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ الْمَخْلُوقَاتُ فِي جَمِيعِ الْأَوْصَافِ عَلَى قَدْرِ إِضَافَتِهَا إِلَى مَا هُوَ فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا. وَإِنِّي لِأَعْلَمُ مَنْ كَانَ يَقُولُ لِمَحْبُوبِهِ: عِدْنِي وَاكْذِبْ، فُنُوعًا بِأَنْ يُسَلِّيَ نَفْسَهُ فِي وَعْدِهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ صَادِقٍ. فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ:

[من الكامل]

إِنْ كَانَ وَضَلَّكَ لَيْسَ فِيهِ مَطْمَعٌ
وَالْقُرْبُ مَمْنُوعٌ فَعِدْنِي وَاكْذِبْ
فَعَسَى التَّعَلُّلُ بِالتَّقَائِكَ مُمَسِّكٌ
لِحَيَاةِ قَلْبٍ بِالضُّدُودِ مُعَذِّبٌ
فَلَقَدْ يُسَلِّي الْمُبْجِدِينَ إِذَا رَأَوْا
فِي الْأَفْقِ يَلْمَعُ ضَوْءُ بَرْقٍ خُلِبِ
وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ رَأَيْتُهُ وَرَأَاهُ غَيْرِي مَعِي، أَنَّ رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِي جَرَحَهُ مَنْ كَانَ يُحِبُّهُ بِمُدْيَةٍ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَهُوَ يُقْبَلُ مَكَانَ الْجَرْحِ وَيَنْدُبُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ:

[من المتقارب]

يَقُولُونَ شَجَّكَ مَنْ هَمَّتْ فِيهِ
فَقُلْتُ لِعَمْرِي مَا شَجَّنِي

وَلَكِنْ أَحَسَّ دَمِي قُرْبَهُ
فَطَارَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَنْثَنِ
فِيَا قَاتِلِي ظَالِمًا مُحْسِنًا
فَدَيْتُكَ مِنْ ظَالِمٍ مُحْسِنٍ
وَمِنَ الْقُنُوعِ أَنْ يَسِرَّ الْإِنْسَانُ وَيَرْضَى بِبَعْضِ آلَاتِ مَحْبُوبِهِ، وَإِنَّ
لَهُ مِنَ النَّفْسِ لَمَوْعَةً حَسَنًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا مَا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْنَا، مِنْ ارْتِدَادِ يَعْقُوبَ بِصِيرًا حِينَ شَمَّ قَمِيصَ يَوْسُفَ عَلَيْهِمَا
السَّلَامُ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من السريع]

لَمَّا مَنَعْتَ الْقُرْبَ مِنْ سَيِّدِي
وَلَجَّ فِي هَجْرِي وَلَمْ يُنْصَفِ
صِرْتُ بِإِبْصَارِي أَثْوَابَهُ
أَوْ بَعْضَ مَا قَدِمَسَهُ أَكْتَفِي
كَذَاكَ يَعْقُوبُ نَبِيَّ الْهُدَى
إِذْ شَفَّهُ الْحُزْنَ عَلَى يَوْسُفَ
شَمَّ قَمِيصًا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ
وَكَانَ مَكْفُوفًا فَمِنْهُ شُفِي
وَمَا رَأَيْتُ قَطُّ مُتَعَاشِقَيْنِ، إِلَّا وَهَمَا يَتَهَادِيَانِ خُصَلَ الشَّعْرُ
مُبَخَّرَةً بِالْعَنْبَرِ، مَرْشُوشَةً بِمَاءِ الْوَرْدِ، وَقَدْ جُمِعَتْ فِي أَصْلِهَا
بِالْمُضْطَكِي^(١) وَبِالشَّمْعِ الْأَبْيَضِ الْمُصَفَّى. وَلُفَّتْ فِي تَطَارِيفِ

(١) «المضطكى: نوع من العلوك: رومي، دخیل». ويلفظ في لهجتنا العامية
«المسكى». «ودواء مضطك: خلط بالمضطكى». (لسان العرب: [ضطك]
٤٥٥/١٠).

الوشى والخز وما أشبه ذلك، لتكون تذكراً عند البين .
وأما تهادي المساويك^(١) بعد مضغها، والمضطكى إثر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حُظر عليهما اللقاء. وفي ذلك أقول قطعة منها:

[من الطويل]

أرى ريقها ماء الحياة تيقناً
على أنها لم تبق لي في الهوى حشاً

خبر

وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر^(٢)، أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غاية في الجمال. فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر إليه، فلما أبعد، أتت إلى المكان الذي قد أثر فيه مشيه، فجعلت تُقبله وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله. وفي ذلك أقول قطعة، أولها:

[من الطويل]

يلومونني في لثم موطئ خُفهِ^(٣)
ولو علموا عاد الذي لام يحسد

(١) واحداً: مساوك، معروف.

(٢) سليمان بن أحمد الشاعر: ذكرت المصادر عدداً ممن حملوا هذا الاسم من معاصري ابن حزم، وجُلُّهم من العلماء والرواة، ولم تقترن ترجمة أيٍّ منهم بصفة الشاعر، مما يجعلنا لا نقطع بشيء حوله.

(٣) في الأصل، وفي معظم الطبوعات: «يلومونني في موطئ خُفهِ خطأ». وما أثبتناه قراءة عباس.

فِيَا أَهْلَ أَرْضٍ لَا تَجُودُ سَحَابُهَا
 خُذُوا بِوَصَائِي تَسْتَقِلُّوا وَتُحْمَدُوا
 خُذُوا مِنْ تُرَابٍ فِيهِ مَوْضِعٌ وَطِئُهُ
 وَأُضْمِنُ أَنَّ الْمَحَلَّ عَنْكُمْ يُبَعَّدُ
 فَكُلُّ تُرَابٍ وَقَعَ فِيهِ رَجُلُهُ
 فَذَاكَ صَعِيدٌ طَيِّبٌ لَيْسَ يُجْحَدُ
 كَذَلِكَ فِعْلُ السَّامِرِيِّ ^(١) وَقَدْ بَدَأَ
 لِعَيْنِيهِ مِنْ جَبْرِيلَ إِثْرُ مَمَجَّدُ
 فَصَيَّرَ جَوْفَ الْعَجَلِ مِنْ ذَلِكَ الثَّرَى
 فَقَامَ لَهُ مِنْهُ خُورٌ مُمَدَّدُ
 وَأَقُولُ:

[من الطويل]

لَقَدْ بُورِكَتْ أَرْضٌ بِهَا أَنْتَ قَاطِنُ
 وَبُورِكَ مَنْ فِيهَا وَحَلَّ بِهَا السَّعْدُ
 فَأَحْجَارُهَا دُرٌّ وَسَعْدَانُهَا وَرَدُ
 وَأَمْوَاهُهَا شَهْدٌ وَتُرْبَتُهَا نَدُ ^(٢)

وَمِنْ الْقُنُوعِ الرِّضَا بِمَزَارِ الطَّيِّفِ، وَتَسْلِيمِ الْخِيَالِ. وَهَذَا إِنَّمَا
 يَحْدُثُ عَنْ ذِكْرِ لَا يُفَارِقُ، وَعَهْدٍ لَا يَحُولُ، وَفَكْرٍ لَا يَنْقُضِي. فَإِذَا

(١) السامري: رجل من بني إسرائيل، ومن قوم كانوا يعبدون العجل، فوقع
 بأرض مصر فدخل بدين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة
 البقر. وقيل كان جاراً لموسى، آمن به وخرج معه. (انظر شرح القرطبي
 ج ١١/ ٢٣٣ - ٢٣٤) وانظر «لسان العرب» [سمر] ٣٨٠/ ٤.

(٢) سعدانها: السعدان: نوع من الشوك. والتد: عود يتبخر به. وقيل: العنبر.

نَامَتِ الْعُيُونُ وَهَدَأَتْ الْحَرَكَاتُ سِرَى الطَّيْفُ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

[من البسيط]

زَارَ الْخِيَالَ فَتَى طَالَتْ صَبَابَتُهُ
عَلَى احْتِفَاطٍ مِنَ الْحُرَّاسِ وَالْحَفَظَةِ
فَبِتُّ فِي لَيْلَتِي جَذْلَانِ مُبْتَهَجاً
وَلَذَّةِ الطَّيْفِ تُنْسِي لَذَّةَ الْيَقْظَةِ
وَأَقُولُ :

[من الطويل]

أَتَى طَيْفٌ نَعْمٌ ^(١) مَضْجَعِي بَعْدَ هَذَاةٍ
وَلِئَلِ سُلْطَانٍ وَظِلٍّ مُمَدَّدٍ
وَعَهْدِي بِهَا تَحْتَ الثَّرَابِ مُقِيمَةً
وَجَاءَتْ كَمَا قَدْ كُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَعْهَدُ
فَعُدْنَا كَمَا كُنَّا وَعَادَ زَمَانُنَا
كَمَا قَدْ عَهِدْنَا قَبْلُ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
وَلِلشَّعْرَاءِ فِي عِلَّةِ مَزَارِ الطَّيْفِ أَقَاوِيلُ بَدِيعَةٌ ، بَعِيدَةُ الْمَرَمَى ،
مُخْتَرَعَةٌ ، كُلُّ سَبَقٍ إِلَى مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي . فَأَبُو إِسْحَاقُ بْنُ سَيَّارِ
النِّظَامِ ^(٢) ، رَأْسُ الْمُعْتَزِلَةِ ، جَعَلَ عِلَّةَ مَزَارِ الطَّيْفِ ، خَوْفَ الْأَرْوَاحِ مِنَ
الرَّقِيبِ الْمُرَقَّبِ ، عَلَى بَهَاءِ الْأَبْدَانِ . وَأَبُو تَمَّامٍ حَبِيبُ بْنُ أَوْسِ
الطَّائِي ^(٣) جَعَلَ عِلَّتَهُ أَنَّ نِكَاحَ الطَّيْفِ لَا يُفْسِدُ الْحُبَّ ، وَنِكَاحَ الْحَقِيقَةِ

(١) نعم : جارية ابن حزم التي أحبها وماتت في سنٍّ مُبَكَّرَةٍ ، وَكَانَ لِمَوْتِهَا وَقْعٌ كَبِيرٌ فِي
نَفْسِهِ . وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ سَابِقَةٍ - انظر حديثه عنها في ص ٢٧٦ .

(٢) أبو إسحاق بن سيار النِّظَامُ : سبق تعريفه في حاشية سابقة - ص ٧٧ .

(٣) أبو تمام حبيب بن أوس الطائي : الشاعر العباسي المعروف .

يُفْسِدُهُ^(١). وَالْبُحْثَرِيُّ^(٢) جَعَلَ عِلَّةَ إِقْبَالِهِ اسْتِضَاءَتَهُ بِنَارٍ وَجَدِهِ، وَعِلَّةَ زَوَالِهِ خَوْفَ الْعَرَقِ فِي دُمُوعِهِ. وَأَنَا أَقُولُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُمَثِّلَ شِعْرِي بِأَشْعَارِهِمْ - فَلَهُمْ فَضْلُ التَّقَدُّمِ وَالسَّابِقَةِ؛ وَإِنَّمَا نَحْنُ لَا قُطُونَ وَهُمْ الْحَاصِدُونَ، وَلَكِنْ اقْتِدَاءً بِهِمْ وَجَرِيًّا فِي مِيدَانِهِمْ وَتَتَبُعًا لِطَرِيقَتِهِمُ الَّتِي نَهَجُوا وَأَوْضَحُوا - أَبْيَاتًا بَيَّنَّتْ فِيهَا مَزَارَ الطِّيفِ، مُقَطَّعة: [من الوافر]

أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ إِدْرَاكِ طَرْفِي
وَأُشْفِقُ أَنْ يُذِيبَكَ لَمَسُ كَفِّي
فَأُمْتَنِعُ اللَّقَاءَ حِذَارَ هَذَا
وَأَعْتَمِدُ التَّلَاقِي حِينَ أَغْفِي
فَرُوحِي، إِنْ أَنَمَ بِكَ ذُو انْفِرَادٍ
مِنَ الْأَعْضَاءِ مُسْتَتِرٌ وَمَخْفِي
وَوَصَلَ الرُّوحُ الْطَفْ فَيْكَ وَقَعَا
مِنَ الْجِسْمِ الْمَوَاصِلِ أَلْفَ ضِعْفٍ

(١) يرى د. عباس أن هذا إشارة إلى قول أبي تمام، من قصيدة يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة:

عَدَّتْ مَغْتَدَى الْعُضْبَى وَأَوْصَتْ خِيَالَهَا بِهِجْرَانِ نَضُو الْعَيْسِ نَضُو الْخِرَائِدِ
وَقَالَتْ: نِكَاحُ الْحَبِّ يُفْسِدُ شَكْلَهُ وَكَمْ نَكَحُوا حَبًّا وَلَيْسَ بِفَاسِدِ
ديوان أبي تمام - شرح الخطيب التبريزي - تحقيق: محمد عبده عزام - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٩ - مج ٢/ ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) البحتري: الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة، الشاعر العباسي المعروف. وفي شعره قرابة ثلاثمائة بيت في وصف الطيف، أتى في بعضها على ذكر زيارة الطيف في الدجى واستضاءة الحبيب له، مع ذكر العبرات والدُموع. ولم نقع على الأبيات التي أشار ابن حزم إلى معناها بحرفيتها. ينظر: ديوانه - بتحقيق حسن كامل الصيرفي - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٧ - مج ٥ - فهرس ما قاله في الطيف - ص ٢٨٤١.

وحالَ المَزُورِ في المَنامِ ينقسمُ أقساماً أربعةً :

أحدها مُحبٌّ مَهْجُورٌ، قد تَطاولَ عَمُهُ، ثُمَّ رَأَى في هَجَعَتِهِ، أَنَّ حَبِيبَهُ وَصَلَهُ، فَسَرَّ بِذلِكَ وَابْتَهَجَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ فَأَسِيفَ وَتَلَهَّفَ، حَيْثُ عَلِمَ أَنَّ ما كانَ فِيهِ أَمَانِي النَّفْسِ وَحَدِيثُهَا. وفي ذلك أَقولُ :

[من الخفيف]

أنتَ في مَشْرِقِ النَّهَارِ بَخِيلٌ
وَإِذَا اللَّيْلُ جُنَّ، كُنْتَ كَرِيمَا
تَجْعَلُ الشَّمْسَ مِنْكَ لِي عِوَضاً هَيَّ
هَآتِ! ماذا الفِعَالُ مِنْكَ قَويما
زارني طيفُكَ البَعِيدُ فيأتي
وَاصِلًا لِي وَعائِداً وَنَديما
غَيرَ أَنِّي مَنَعَتَنِي مِنْ تَمَامِ العَيدِ
شَ لَكِنْ أَبَحْتَ لِي التَّشَمِيمَا
فَكَأَنِّي مِنْ أَهْلِ الأَعْرَافِ لا الفِرِّ
دَوَسِ دَارِي ولا أَخافُ الجَحِيمَا

والثَّاني مُحبٌّ مواصِلٌ، مُشَفِّقٌ مِنْ تَغْيِيرِ يَقَعٍ، قد رَأَى في وَسَنِهِ أَنَّ حَبِيبَهُ يَهْجُرُهُ فَاهْتَمَّ لِذلِكَ هَمًّا شَدِيدًا، ثُمَّ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ، فَعَلِمَ أَنَّ ذلِكَ باطلٌ، وَبعضٌ وَسَاوَسِ الإِشْفَاقِ.

والثَّالثُ مُحبٌّ داني الدِّيارِ، يَرى أَنَّ التَّنَائِيَّ قَدْ فَدَحَهُ، فَيَكْتَرِثُ وَيُوجَلُّ، ثُمَّ يَنْتَبَهُ، فيذهبُ ما بِهِ، وَيَعُودُ فَرِحًا. وفي ذلك أَقولُ قِطْعَةً، مِنْهَا :

[من الطويل]

رَأَيْتُكَ في نَوْمِي كَأَنَّكَ راحِلٌ
وَقُمْنَا إلى التَّوَدِيعِ والدَّمَعِ هَامِلٌ

وَزَالَ الْكَرَى عَنِّي وَأَنْتَ مُعَانِقِي
وَعَمِّي، إِذْ عَايَنْتُ ذَلِكَ، زَائِلُ
فَجَدَدْتُ تَعْنِيْقًا وَضَمًّا كَأَنِّي
عَلَيْكَ مِنَ الْبَيْنِ الْمُفَرَّقِ، وَاجِلُ

وَالرَّابِعُ مُحِبُّ نَائِي الْمَزَارِ، يَرَى أَنَّ الْمَزَارَ قَدْ دَنَا، وَالْمَنَازِلَ قَدْ
تَصَاقَبَتْ ^(١)، فِيرْتَاخُ وَيَأْنَسُ إِلَى فَقْدِ الْأَسَى، ثُمَّ يَقُومُ مِنْ سِنَّتِهِ ^(٢)
فِيرَى أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ صَحِيحٍ، فَيَعُودُ إِلَى أَشَدِّ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْعَمِّ،
وَقَدْ جَعَلْتُ فِي بَعْضِ قَوْلِي عِلَّةَ النَّوْمِ، الطَّمَعُ فِي طَيْفِ الْخِيَالِ،
فَقُلْتُ:

[من البسيط]

طَافَ الْخِيَالُ عَلَى مُسْتَهْتَرٍ كَلِفِ
لَوْلَا ارْتِقَابُ مَزَارِ الطَّيْفِ لَمْ يَنْمِ
لَا تَعَجَّبُوا إِذْ سَرَى وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ
فَنُورُهُ مُذْهَبٌ فِي الْأَرْضِ لِلظَّلَمِ

وَمِنَ الْقُنُوعِ أَنْ يَفْنَعَ الْمُحِبُّ بِالنَّظَرِ إِلَى الْجُدْرَانِ، وَرُؤْيَا
الْحَيْطَانِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى مَنْ يُحِبُّ، وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ.
وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبُو الْوَلِيدِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ إِسْحَاقَ الْخَازِنِ ^(٣)
(رَحِمَهُ اللَّهُ)، عَنْ رَجُلٍ جَلِيلٍ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ بِمَثَلِ هَذَا.

(١) تصاقبت المنازل: دنا بعضها من بعض.

(٢) السَّنَةُ: التَّعَاسُ وَهُوَ مَبْدَأُ النَّوْمِ (اللسان/وسن).

(٣) أبو الوليد أحمد بن محمد بن إسحاق الخازن: من أصحاب ابن حزم
ومعاصريه الوزير محمد بن إسحاق وقد سبقت ترجمته، وقوله هنا: «رحمه
الله» يرجح أن يكون المذكور من جيل سابق، مما دفع بعض المحققين إلى
اعتباره أبا للوزير الإسحاق المذكور، وهذا على سبيل التخمين لا اليقين.

ومن القُنُوع أن يرتاح المُحِبُّ، إلى أن يرى مَنْ رأى مَحَبُّوهُ،
ويَأْتَسَّ بِهِ، وَمَنْ أَتَى مِنْ بِلَادِهِ، وهذا كثيرٌ. وفي ذلك أقول:

[من الطويل]

تَوَحَّشَ مِنْ سُكَّانِهِ فَكَأَنَّهُمْ
مَسَاكِينُ عَادٍ أَعْقَبَتْهُ ثَمُودُ

ومِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ آيَاتٌ لِي، مُوجِبُهَا أَنِي تَنَزَّهْتُ أَنَا
وَجَمَاعَةٌ مِنْ إِخْوَانِي، مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالشَّرَفِ، إِلَى بُسْتَانٍ لِرَجُلٍ
مِنْ أَصْحَابِنَا؛ فَجَلْنَا سَاعَةً، ثُمَّ أَفْضَى بِنَا الْفُعودُ، إِلَى مَكَانٍ دُونَهُ
يُتَمَنَّى. فَتَمَدَّدْنَا فِي رِيَاضٍ أَرِيضَةٍ^(١)، وَأَرْضٍ عَرِيضَةٍ، لِلْبَصَرِ فِيهَا
مُنْفَسَحٌ، وَلِلنَّفْسِ لَدَيْهَا مَسْرَحٌ، بَيْنَ جَدَاوِلَ تَطَرُّدِ كَأْبَارِيْقِ اللَّجَيْنِ،
وَأَطْيَارِ تَعَرُّدِ بِالْحَانِ تَزْرِي^(٢)، بِمَا أَبْدَعَهُ مَعْبَدٌ وَالْغَرِيضُ^(٣)، وَثِمَارِ
مُهَذَّلَةٍ قَدْ ذُلَّتْ لِلْأَيْدِي، وَدَنَتْ لِلْمُتَنَاوِلِ، وَظِلَالِ مُظَلَّةٍ تُلَاحِظُنَا
الْشَّمْسُ مِنْ بَيْنِهَا، فَتَتَصَوَّرُ بَيْنَ أَيْدِينَا كُرْقَاعِ الشُّطْرَنْجِ، وَالثِّيَابِ

(١) رِيَاضُ أَرِيضَةٍ: كَثِيرَةُ النَّبْتِ (اللسان/أرض).

(٢) تَزْرِي: مِنْ زَرَى، وَتُزْرِي مِنْ أَزْرَى: تَحْتَقِرُ.

(٣) مَعْبِدُ وَالْغَرِيضُ: مَغْنِيَانِ مَشْهُورَانِ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ مَعْبِدُ بْنُ وَهْبٍ، أَبُو عَبَادِ
الْمَدَنِيِّ، نَابِغَةُ الْغَنَاءِ الْعَرَبِيِّ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ. نَشَأَ فِي الْمَدِينَةِ، وَلَمَّا ظَهَرَ
نُبُوغُهُ فِي الْغَنَاءِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ كِبَرَاءُ الْمَدِينَةِ. ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الشَّامِ فَاتَّصَلَ بِأَمْرَائِهَا
وَارْتَفَعَ شَأْنُهُ. كَانَ أَدِيبًا فَصِيحًا. وَعَاشَ طَوِيلًا إِلَى أَنْ انْقَطَعَ صَوْتُهُ. تَوَفَّى
سَنَةَ (١٢٦هـ). وَلَهُ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ فِي «أَغَانِي» الْأَصْفَهَانِيِّ خَاصَّةً. أَعْلَامُ
الزَّرَكَلِيِّ: مَج ٧/ص ٢٦٤. وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ الْغَرِيضُ عَبْدُ الْمَلِكِ، مِنْ مَوْلَدِي
الْبَرْبَرِ، وَمِنْ أَشْهُرِ الْمَغْنِينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ أَحْذَقَهُمْ فِي صِنَاعَةِ
الْغَنَاءِ. سَكَنَ مَكَّةَ، وَغَتَّى سُكَيْنَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ. وَكَانَ يَضْرِبُ بِالْعُودِ، وَيَنْقُرُ
بِالْدَفِ. كُنِيَّتُهُ أَبُو يَزِيدَ أَوْ أَبُو مَرْوَانَ. وَلَقِبَ «الْغَرِيضُ» لَجَمَالِهِ وَنَضَارَةِ
وَجْهِهِ. تَوَفَّى سَنَةَ (٩٥هـ). الْأَعْلَامُ مَج ٤/ص ١٥٦.

الْمُدَبَّجَةِ^(١)؛ وماء عَذْبٍ يُوجِدُكَ حَقِيقَةَ طَعْمِ الْحَيَاةِ، وأنهار مُتَدَقِّقَةٍ
تَسَابُ كِبُطُونِ الْحَيَاتِ، لها خَرِيرٌ يَقُومُ وَيَهْدَأُ، ونَوَاوِيرُ^(٢) مُوْنَقَةٍ،
مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ، تُصَفِّقُهَا الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ النسيم، وهواءٌ سَجْسَجٌ^(٣)،
وأخلاقٌ جُلَّاسٌ تَفُوقُ كُلَّ هَذَا، في يوم ربيعِيّ ذِي شَمْسٍ ظَلِيلَةٍ،
تَارَةً يُعْطِيهَا الْعَيْمُ الرَّقِيقُ، والمُزْنُ اللَّطِيفُ، وتَارَةً تَتَجَلَّى، فهي
كالعذراءِ الْخَفِيرَةِ، وَالْخَرِيدَةِ الْخَجَلَةِ، تتراءى لعاشِقِهَا مِنْ بَيْنِ
الْأَسْتَارِ، ثُمَّ تَغِيبُ فِيهَا، حَذَرَ عَيْنِ مُرَاقِبَةٍ. وكان بعضُنَا مُطْرِقًا كَأَنَّهُ
يَحَادِثُ أُخْرَى، وذلك لِسِرِّ كَانَ لَهُ. فَعَرَضَ لِي بِذَلِكَ، وتَدَاعَبْنَا
حِينًا، فَكَلَّمْتُ أَنْ أَقُولَ عَلَى لِسَانِهِ شَيْئًا فِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ بِدِيهَةٍ، وما
كُتِبَوا إِلَّا مَنْ تَذَكَّرَهَا بَعْدَ انْصِرَافِنَا، وهي:

[من الطويل]

وَلَمَّا تَرَوْحْنَا بِأَكْنَافِ^(٤) رَوْضَةٍ
مُهَذَّلَةِ الْأَفْنَانِ فِي تَرْبِهَا النَّدَى
وَقَدْ ضَحِكْتَ أَنْوَارُهَا وَتَضَوَّعَتْ
أَسَاوِرُهَا فِي ظِلِّ فَيٍّ مُمَدَّدٍ
وَأَبَدَتْ لَنَا الْأَطْيَارُ حُسْنَ صَرِيفِهَا
فَمِنْ بَيْنِ شَاكِ شَجْوَةٍ، وَمُغَرَّدٍ
وَلِلْمَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَصَرِّفٍ
وَلِلْعَيْنِ مُرْتَادٍ هُنَاكَ وَلِلْيَدِ

(١) المدبجة: المزركشة المزخرفة (الوسيط/ دبح).

(٢) نواوير: جمع نواره: الزهرة (الوسيط/ نور).

(٣) هواء سَجْسَج: معتدل طيب. (اللسان/ سَجْسَج).

(٤) أكناف: جمع كنف: الكنف جانب الشيء.

وما شئت من أخلاق أروع ماجد
 كريم السجايا، للفخار مُشيد
 تنغص عندي كل ما قد وصفته
 ولم يهنني إذ غاب عني سيدي
 فيا ليتني في السجن وهو معانقي
 وأنتم معاً في قصر دار المجدد^(١)
 فمن رام منا أن يبدل حاله
 بحال أخيه أو بملك مخلد
 فلا عاش إلا في شقاء ونكبة
 ولا زال في بؤس وخزي مُردد
 فقال هو ومن حضر: آمين! آمين!

وهذه الوجوه التي عددت وأوردت في حقائق القناعة، هي
 الموجودة في أهل المودة، بلا تزيّد ولا إعياء.

وللشعراء فن من القنوع أرادوا فيه إظهار عريضهم، وإبانة
 اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرامي البعيدة، وكلّ قال على
 قدر قوة طبعه، إلا أنه تحكّم باللسان، وتشدّق في الكلام،
 واستطال بالبيان، وهو غير صحيح في الأصل. فمنهم من قنع بأن
 السماء تظله هو ومحبوبه، والأرض تقللهما. ومنهم من قنع
 باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما، وأشباه هذا. وكلّ مُبادر
 إلى احتواء الغاية في الاستقصاء، وإحراز قصب السبق في التدقيق.
 ولي في هذا المعنى قول لا يمكن لمتعقب أن يجد بعده متناً ولا،

(١) قصر دار المجدد: قصر عظيم من مجموعة قصور الزهراء، أمر ببنائه عبد
 الرحمن الناصر. ينظر: «نفح الطيب»: ج ٢/ ص ١١ وما بعدها.

ولا وراءه مكاناً، مع تبييني عِلَّةَ قُرْبِ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ، وهو:

[من الطويل]

وقالوا: بعيدٌ، قُلْتُ حَسْبِي بَأْتُهُ
مَعِيَ فِي زَمَانٍ لَا يُطِيقُ مَحِيداً
تَمُرُّ عَلَيَّ الشَّمْسُ مِثْلَ مُرُورِهَا
بِهِ كُلَّ يَوْمٍ يَسْتَنْيرُ جَدِيداً
فَمَنْ لَيْسَ بَيْنِي فِي الْمَسِيرِ وَبَيْنَهُ
سَوَى قَطْعِ يَوْمٍ، هَلْ يَكُونُ بَعِيداً؟
وَعِلْمُ إِلَهِ الْخَلْقِ يَجْمَعُنَا مَعاً
كَفَى ذَا التَّدَانِي، مَا أُرِيدُ مَزِيداً

فَبَيَّنْتُ كَمَا تَرَى، أَنِّي قَانِعٌ بِالاجْتِمَاعِ مَعَ مَنْ أَحَبُّ فِي عِلْمِ اللَّهِ،
الَّذِي السَّمَوَاتُ وَالْأَفْلَاكُ وَالْعَوَالِمُ كُلُّهَا، وَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ لَا
تَنْفَصِلُ مِنْهُ وَلَا تَتَجَزَّأُ فِيهِ، وَلَا يَشُدُّ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ. ثُمَّ اقْتَصَرْتُ مِنْ
عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ فِي زَمَانٍ، وَهَذَا أَعْمُ مِمَّا قَالَهُ غَيْرِي فِي إِحَاطَةِ
الَّيْلِ وَالتَّهَارِ، وَإِنْ كَانَ الظَّاهِرُ وَاحِداً فِي الْبَادِي إِلَى السَّامِعِ؛ لِأَنَّ كُلَّ
الْمَخْلُوقَاتِ وَاقِعَةٌ تَحْتَ الزَّمَانِ. وَإِنَّمَا الزَّمَانُ اسْمٌ مَوْضُوعٌ لِمُرُورِ
السَّاعَاتِ، وَقَطْعِ الْفَلَكَ وَحَرَكَاتِهِ وَأَجْرَامِهِ^(١)، وَاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ مُتَوَلِّدَانِ
عَنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا، وَهُمَا مُتَنَاهِيَانِ فِي بَعْضِ الْعَالَمِ الْأَعْلَى؛
وَلَيْسَ هَكَذَا الزَّمَانُ. فَإِنَّهُمَا بَعْضُ الزَّمَانِ. وَإِنْ كَانَ لِبَعْضِ الْفَلَسَفَةِ
قَوْلٌ: «إِنَّ الظِّلَّ مُتَمَادٍ»، فَهَذَا يُخْطِئُهُ الْعِيَانُ، وَعِلَلُ الرَّدِّ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ
لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهَا، ثُمَّ بَيَّنْتُ أَنَّهُ، وَإِنْ كَانَ فِي أَفْصَى الْمَعْمُورِ مَنْ

(١) الأجرام: واحدها جِزْم وهو الجسم السماوي.

المَشْرِقِ، وأنا في أَقْصَى المَعْمُورِ مِنَ المَغْرِبِ، وهذا طُولُ السُّكْنَى، فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مَسَافَةُ يَوْمٍ، إِذِ الشَّمْسُ تَبْدُو فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي أَوَّلِ المَشَارِقِ، وَتَغْرُبُ فِي آخِرِ النَّهَارِ فِي آخِرِ المَغَارِبِ.

وَمِنَ القُنُوعِ فَضْلُ أَوْرَدِهِ، وَأَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَمِنْ أَهْلِهِ، وَأَحْمَدُهُ عَلَى مَا عَرَفَ نَفْسَنَا مِنْ مُنَافَرَتِهِ؛ وَهُوَ أَنْ يَضِلَّ العَقْلُ جُمْلَةً، وَتَفْسُدَ القَرِيحَةُ، وَيُتْلَفَ التَّمْيِيزُ، وَيَهْوَنَ الصَّعْبُ، وَتَذْهَبَ الغَيْرَةُ، وَتُعْدَمَ الْأَنْفَةُ، فِيرْضَى الْإِنْسَانُ بِالمُشَارَكَةِ فِيمَنْ يُحِبُّ، وَقَدْ عَرَضَ هَذَا لِقَوْمٍ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنَ الْبَلَاءِ. وَهَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا مَعَ كَلْبِيَّةٍ فِي الطَّبْعِ، وَسُقُوطٍ مِنَ العَقْلِ الَّذِي هُوَ عِيَارٌ عَلَى مَا تَحْتَهُ، وَضَعْفٍ حَسٍّ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا كُلَّهُ حُبٌّ شَدِيدٌ مُعَمٌّ. فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ، وَتَلَاحَقَتْ بِمَزَاجِ الطَّبَائِعِ، وَدُخُولِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، نَتَجَ بَيْنَهُمَا هَذَا الطَّبْعُ الْحَسِيسُ، وَتَوَلَّدَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ الرَّذَلَةُ، وَقَامَ مِنْهَا هَذَا الْفِعْلُ الْمَقْدُورُ الْقَبِيحُ. وَأَمَّا رَجُلٌ مَعَهُ أَقْلٌ هِمَّةٍ وَأَيْسَرٌ مُرُوءَةٍ، فَهَذَا مِنْهُ أَبْعَدُ مِنَ الثَّرْيَا، وَلَوْ مَاتَ وَجَدًّا وَتَقَطَّعَ حُبًّا، وَفِي ذَلِكَ أَقْوَلُ زَارِيًا^(١) عَلَى بَعْضِ المُسَامِحِينَ فِي هَذَا الْفَصْلِ:

[من الطويل]

رَأَيْتُكَ رَحْبَ الصَّدْرِ تَرْضَى بِمَا أَتَى
وَأَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْ تَلِينَ وَتَسْمَحَا
فَحِظُّكَ مِنْ بَعْضِ السَّوَانِي^(٢) مُفْضَلٌ
عَلَى أَنْ يَجُوزَ الْمَلِكُ^(٣) مِنْ أَصْلِهَا الرِّحَى

(١) الزاري، من زرى: حفر. ومثلها: اُزْدَرَى...

(٢) السَّوَانِي: السانية: العَرَبُ: والعَرَبُ: الدلو العظيمة.

(٣) الْمَلِكُ: ما يُمْلِكُ وَيُتَصَرَّفُ بِهِ (بفتح الميم وكسرها).

وَعُضُوْ بِعِيْرٍ فِيْهِ فِي الْوَزْنِ ضِعْفٌ مَا
 تُقَدِّرُهُ فِي الْجَدِي فَاَعْصِ الَّذِي لَحَا
 وَلَعِبُ الَّذِي تَهْوَى بِسَيْفِيْنِ مُعْجَبٌ
 فَكُنْ نَاحِيَاً فِي نَحْوِهِ كَيْفَمَا نَحَا

٢٦

بابُ الضنى

ولا بُدَّ لكلِّ مُحِبٍّ صادقِ المَوَدَّةِ، مَمْنُوعِ الوَصْلِ، إمَّا بَبَيْنٍ،
 وإمَّا بِهِجْرٍ، وإمَّا بِكِتْمَانٍ واقعٍ لِمُعْنَى^(١)، مِنْ أَنْ يُوَوَّلَ إِلَى حَدِّ
 السَّقَامِ وَالضَّنَى وَالنُّحُولِ. وَرَبِّمَّا أَضْجَعَهُ ذَلِكَ، وَهَذَا الْأَمْرُ كَثِيرٌ
 جِدًّا، مَوْجُودٌ أَبَدًا. وَالْأَعْرَاضُ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْمَحَبَّةِ غَيْرُ الْعِلَلِ الْوَاقِعَةِ
 مِنْ هَجَمَاتِ الْعِلَلِ، وَيُمَيِّزُهَا الطَّبِيبُ الْحَادِقُ، وَالْمُتَفَرِّسُ النَّاقِذُ.
 وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

[من الوافر]

يَقُولُ لِي الطَّبِيبُ، بغيرِ عِلْمٍ:
 «تَدَاوَيْ فَاَنْتَ يَا هَذَا عَلِيلٌ»
 وَدَائِي لَيْسَ يَذْرِيه سَوَائِي
 وَرَبِّ قَادِرٌ مَلِكٌ جَلِيلٌ
 أَكْثَمُهُ وَيَكْشِفُهُ شَهِيْقٌ
 يُلَازِمُنِي وَإِطْرَاقٌ طَوِيلٌ
 وَوَجْهٌ، شَاهِدَاتِ الْحُزْنِ فِيهِ
 وَجِسْمٌ كَالْخِيَالِ، ضَنْ نَحِيلٌ

(١) غير مضبوطة في سائر الطبقات، ويمكن أن تقرأ: «لِمُعْنَى» (بالفتح) ولا معنى لها في السياق بهذه القراءة... ويجوز أن تقرأ: «لِمُعْنَى» من المعاناة...

وَأَثَبْتُ مَا يَكُونُ الْأَمْرُ يَوْمًا
 بِإِلَاشِكَ، إِذَا صَحَّ الدَّلِيلُ
 فَقُلْتُ لَهُ: أَبْنُ^(١) عَنِّي قَلِيلًا
 فَلَا، وَاللَّهِ، تَعْرِفُ مَا تَقُولُ
 فَقَالَ: أَرَى نُحُولًا زَادَ جِدًّا
 وَعَلَّيْتُكَ الَّتِي تَشْكُو، ذُبُولُ
 فَقُلْتُ لَهُ: الذُّبُولُ تَعِلُ^(٢) مِنْهُ الـ
 جَوَارِحُ، وَهِيَ حُمَى تَسْتَحِيلُ
 وَمَا أَشْكُو، لَعَمْرُ اللَّهِ، حُمَى
 وَإِنَّ الْحَرَ فِي جِسْمِي قَلِيلُ
 فَقَالَ: أَرَى التَّفَاتَا وَارْتِقَابًا
 وَأَفْكَارًا، وَصَمْتًا لَا يَزُولُ
 وَأَحْسَبُ أَنَّهَا «السَّودَاءُ»^(٣) فَاَنْظُرْ
 لِنَفْسِكَ إِنَّهَا عَرَضٌ ثَقِيلُ
 فَقُلْتُ لَهُ: كَلَامُكَ ذَا، مُحَالُ
 فَمَا لِلدَّمَعِ مِنْ عَيْنِي يَسِيلُ؟
 فَأَطْرَقَ بَاهِتًا مِمَّا رَأَى
 أَلَا فِي مِثْلِ ذَا بُهْتِ التَّبِيلُ
 فَقُلْتُ لَهُ: دَوَائِي مِنْهُ دَائِي
 أَلَا فِي مِثْلِ ذَا ضَلَّتْ عُقُولُ

(١) أَبْنُ: ابتعد. ومعناها أيضًا: إكشِفْ وَاْمَحْ هَذَا الْكَمْدَ!

(٢) سبق تفسير العَلَلِ والعَلُّ.

(٣) السوداء: مرض يصيب الطحال له آثار نفسية.

وَشَاهِدُ مَا أَقُولُ يُرَى عِيَاناً
فُرُوعُ النَّبْتِ إِنْ عُكِسَتْ أَصُولُ
وَتَرِيقُ الْأَفَاعِي لَيْسَ شَيْءٌ
سِوَاهُ بُرِّءٍ مَا لَدَعْتُ كَفِيلُ

وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ بَقِيٍّ الْحَجَرِيُّ^(١)، وَكَانَ حَكِيمَ
الطَّبْعِ عَاقِلاً فَهِيماً، عَنْ رَجُلٍ مِنْ شِوْخِنَا، لَا يُمَكِّنُ ذِكْرَهُ، أَنَّهُ كَانَ
بِبَغْدَادَ فِي خَانٍ مِنْ خَانَاتِهَا، فَرَأَى ابْنَةً لَوَكِيلَةِ الْخَانِ، فَأَحْبَبَهَا
وَتَزَوَّجَهَا. فَلَمَّا خَلَا بِهَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ بِكُراً، وَهُوَ قَدْ تَكَشَّفَ
لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَرَاغَهَا كِبَرُ أَيْرِهِ، فَفَرَّتْ إِلَى أُمِّهَا وَتَفَادَتْ مِنْهُ. فَرَامَ
بِهَا كُلَّ مَنْ حَوَالَيْهَا أَنْ تُرَدَّ إِلَيْهِ؛ فَأَبَتْ وَكَادَتْ أَنْ تَمُوتَ، فَفَارَقَهَا
ثُمَّ نَدِمَ. وَرَامَ أَنْ يُرَاجِعَهَا فَلَمْ يُمْكِنْهُ، وَاسْتَعَانَ بِالْأَبْهَرِيِّ^(٢) وَغَيْرِهِ،
فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى حِيلَةٍ فِي أَمْرِهِ، فَاخْتَلَطَ عَقْلُهُ، وَأَقَامَ فِي
الْمَارِسْتَانِ يُعَانِي مَدَّةً طَوِيلَةً، حَتَّى نَفَى^(٣) وَسَلَا وَمَا كَادَ. وَلَقَدْ كَانَ
إِذَا ذَكَرَهَا يَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَشْعَارِي الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ، مِنْ صِفَةِ
الْثُحُولِ مُفَرَّقاً، مَا اسْتَعْنَيْتُ بِهِ عَنْ أَنْ أَذْكَرَ هُنَا مِنْ سِوَاهَا شَيْئاً
خَوْفَ الْإِطَالَةِ. وَاللَّهُ الْمَعِينُ وَالْمُسْتَعَانُ.

(١) أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ بَقِيٍّ الْحَجَرِيُّ: أشارت المصادر إلى أبيه: بَقِيٍّ بْنِ مَخْلَدٍ،
وَوُورِدَ ذِكْرُهُ فِي تَرْجُمَةِ أَبِيهِ عَرَضاً. يَنْظُرُ: «تَارِيخُ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ» لِابْنِ
الْفَرَضِيِّ: ج ١/ص ١٧٠.

(٢) الْأَبْهَرِيُّ: هَذَا أَحَدُ فَهْوَاءِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ فِقْهِهِ مِنْهُمْ يَحْمِلُ
هَذِهِ النِّسْبَةَ. فَلَا نَدْرِي أَيُّهُمْ قَصَدَ ابْنُ حَزْمٍ فِي حَدِيثِهِ.

(٣) نَفَى: دَخَلَ طُورَ النِّقَاهَةِ وَهُوَ الْإِبْلَالُ مِنَ الْمَرَضِ.

وَرَبَّمَا تَرَقَّتْ إِلَى أَنْ يُغْلَبَ الْمَرْءُ عَلَى عَقْلِهِ، وَيُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَهْنِهِ فَيُوسَّوْسُ.

خبر

وَإِنِّي لَأَعْرِفُ جَارِيَةً مِنْ ذَوَاتِ الْمَنَاصِبِ وَالْجَمَالِ وَالشَّرَفِ مِنْ بَنَاتِ الْقَوَادِ. وَقَدْ بَلَغَ بِهَا حُبُّ فَتَى مِنْ إِخْوَانِي جَدًّا، مِنْ أَبْنَاءِ الْكُتَّابِ، مَبْلَغَ هَيْجَانِ الْمَرَارِ^(١) الْأَسْوَدِ، وَكَادَتْ تَخْتَلِطُ. وَاشْتَهَرَ الْأَمْرُ وَشَاعَ جَدًّا حَتَّى عَلِمْنَاهُ. عَلِمَهُ الْأَبَاعِدُ، إِلَى أَنْ تُدَوَّرَكَتْ بِالْعِلَاجِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَوَلَّدُ عَنْ إِدْمَانِ الْفِكْرِ، فَإِذَا غَلَبَتِ الْفِكْرَةُ، وَتَمَكَّنَ الْخَلْطُ السَّودَاوِيُّ، خَرَجَ الْأَمْرُ عَنْ حَدِّ الْحُبِّ إِلَى حَدِّ الْوَلِهِ وَالْجُنُونِ. وَإِذَا أُغْفِلَ التَّدَاوِي فِي الْأَوَّلِ، إِلَى الْمُعَانَةِ، قَوِيَ جَدًّا، وَلَمْ يُوجَدْ لَهُ دَوَاءٌ سِوَى الْوِصَالِ. وَمِنْ بَعْضِ مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من الخفيف]

قَدْ سَلَبْتَ الْفُؤَادَ مِنْهَا اخْتِلَاسًا
أَيُّ خَلْقٍ يَعْيشُ دُونَ فُؤَادٍ؟
فَأَغْنِهَا بِالْوَصْلِ تَحْيٍ شَرِيفًا
وَتَفُزْ بِالثَّوَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ
وَأَرَاهَا تَعْتَاضُ إِنْ دَامَ هَذَا
مِنْ خَلَاخِيلِهَا حُلَى الْأَقْيَادِ
أَنْتَ حَقًّا مُتَيِّمُ الشَّمْسِ حَتَّى
عَشَّقُهَا بَيْنَ ذَا الْوَرَى لَكَ بَادِ

(١) المرار: المرارة هنة لازقة بالكبد وهي التي تُمرئ الطعام. تكون لكل ذي روح إلا النعام والإبل (اللسان/مرر). وهي أحد أخلاط البدن بمعنى المزاج.

خبر

وحدَّثني جعفر مولى أحمد بن محمد بن حدير^(١)، المعروف بالبليبي^(٢): أن سبب اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن حدير، وذهاب عقله، اعتلاقه بجارية لأخيه، فمَنَعَهَا مِنْهُ وباعها لغيره، وما كان في إخوته مثله ولا أتم أدباً مِنْهُ.

وأخبرني أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبي عبدة^(٣)، أن سبب جنون يحيى بن محمد بن أحمد بن عباس بن أبي عبدة، بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً، كانت أمه باعَها وزهبت إلى إنكاحه من بعض العامريّات.

فهذان رجلان جليان مشهوران فقدَا عقولَهما واختَلَطَا، وصارا في القيود والأغلال. فأما مروان فأصابته ضربةٌ مُخطئةٌ يوم دخول البربر قُرْبَةً وانتهاهم لها^(٤)؛ فتوفي (رحمه الله). وأما يحيى بن محمد، فهو حيٌّ على حالته المذكورة، في حين كتابتي لرسالتي هذه، وقد رأيتُه أنا مراراً، وجالسته في القصر قبل أن يُمْتَحَنَ بهذه المِحْنَةِ. وكان أستاذي وأستاذهُ:

(١) أحمد بن محمد بن حدير: ذكرته المصادر من وزراء عبد الرحمن الناصر وقادته.

(٢) البليبي: قرأها عباس «البليبي» نسبة إلى «البليبة» Bellena.

(٣) محمد بن عباس بن أبي عبدة: لم أهتم إلى ترجمته، ولا إلى ترجمة مولاة أبي العافية، وإن كانت المصادر قد أشارت إلى آل أبي عبدة. ومنهم عدد من القادة والوزراء.

(٤) ذكر الفاسمي: «وانتهاهم إليها»، ثم قال: «لعل الأقرب إلى المعنى أن يكون أصلها: «وانتهاهم لها». ويبدو أنه أصوب، لذلك أثبتناه، وأثبتته د. عباس في طبعته.

الفقيه أبو الخيار اللُّغَوِيُّ^(١) . وكان يَحْيَى ، لَعَمْرِي ، حُلُواً من
الْفِتْيَانِ نبِيلاً .

وَأَمَّا مَنْ دُونَ هَذِهِ الطَّبَقَةِ ، فَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهُمْ كَثِيراً ، وَلَكِنْ لَمْ
نُسَمِّهِمْ لِحَفَائِهِمْ . وَهَذِهِ دَرَجَةٌ إِذَا بَلَغَ الْمَشْغُوفُ إِلَيْهَا ، فَقَدْ انْبَتَّ^(٢)
الرَّجَاءُ وَانْصَرَمَ الطَّمَعُ ، فَلَا دَوَاءَ لَهُ بِالْوَصْلِ وَلَا بغيرِهِ ؛ إِذْ قَدْ
اسْتَحْكَمَ الْفَسَادُ فِي الدِّمَاغِ ، وَتَلَفَتِ الْمَعْرِفَةُ ، وَتَغَلَّبَتِ الْآفَةُ . أَعَاذَنَا
اللَّهُ مِنَ الْبَلَاءِ بِطَوْلِهِ^(٣) وَكَفَانَا الثَّقَمَ بِمَنِّهِ .

(١) أبو الخيار اللغوي: مسعود بن سليمان بن مفلت: فقيه عالم زاهد، مال إلى الاختيار والقول بالظاهر. وكان أحد شيوخ ابن حزم مؤلف رسالة الطوق. ينظر: «جذوة المقتبس»: ق ٢/ص ٥٥٨.

(٢) انْبَتَّ: انقطع.

(٣) الطُول: طال عليه طَوَلاً: أَفْضَلَ وَأَنْعَمَ. أي أعاذنا الله بفضله ونعمه! ..

٢٧

بابُ السُّلُوِّ

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ أَوَّلٌ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ آخِرٍ، حَاشَا نَعِيمَ
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ بِالْجَنَّةِ لِأَوْلِيَائِهِ وَعَذَابِهِ بِالنَّارِ لِأَعْدَائِهِ. وَأَمَّا
 أَعْرَاضُ ^(١) الدُّنْيَا فَنَافِذَةٌ ^(٢) فَإِنَّهُ وَزَائِلَةٌ مُضْمَحِلَّةٌ، وَعَاقِبَةُ كُلِّ حُبٍّ
 إِلَى أَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا اخْتِرَامُ مَنِيَّةٍ ^(٣) وَإِمَّا سُلوُ حَادِثٍ. وَقَدْ تَجِدُ
 النَّفْسَ تَغْلِبُ عَلَيْهَا بَعْضُ الْقَوَى الْمُصَرِّفَةُ مَعَهَا فِي الْجَسَدِ. فَكَمَا
 نَجِدُ نَفْسًا تَرْفُضُ الرِّاحَاتِ وَالْمَلَادَّ، لِلْعَمَلِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى،
 وَلِلزَّهَادَةِ ^(٤) فِي الدُّنْيَا، حَتَّى تُشْتَهِرَ بِالزُّهْدِ، فَكَذَلِكَ نَجِدُ نَفْسًا
 تَنْصَرِفُ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي لِقَاءِ شَكْلِهَا لِلْأَنَفَةِ الْمُسْتَحْكِمَةِ الْمُنَافِرَةِ ^(٥)
 لِلْعَدْرِ، أَوْ اسْتِمْرَارِ سَوْءِ الْمُكَافَأَةِ فِي الضَّمِيرِ. وَهَذَا أَصَحُّ السُّلُوِّ.
 وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِ هَذَيْنِ الشَّيْئَيْنِ فَلَيْسَ إِلَّا مُذْمُومًا.

(١) الأَعْرَاضُ: جَمْعُ عَرَضٍ: وَهُوَ مَا يَطْرَأُ وَيَزُولُ، وَمَتَاعُ الدُّنْيَا قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ
 (اللسان/ عرض).

(٢) أَثْبَتَهَا الْقَاسِمِيُّ «نَافِذَةً»، وَالْأَصُوبُ «نَافِذَةً» بِالْدَالِ الْمَهْمَلَةِ.

(٣) اخْتِرَامُ مَنِيَّةٍ: حُلُولُ الْمَوْتِ.

(٤) بَعْضُ الطَّبَعَاتِ أَثْبَتَتْهَا «الرِّبَاءُ» كَالْقَاسِمِيِّ وَالطَّاهِرِ أَحْمَدَ مَكِّي، أَمَّا عَبَّاسٌ
 فَأَثْبَتَهَا «كَرَهُ» وَهِيَ بَعِيدَةٌ فِي الرِّسْمِ الْكِتَابِيِّ. وَفَضَّلْنَا «الزَّهَادَةَ» الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا
 الْقَاسِمِيُّ فِي جَدُولِ تَصَوُّبَاتِهِ فِي نَهَايَةِ الْكِتَابِ. وَمَعْنَاهَا: الزُّهْدُ.

(٥) يَرْجِحُ الْقَاسِمِيُّ «الْمُنَافِقَةَ» عَلَى الرِّغْمِ مِنْ أَنَّهُ أَثْبَتَ «الْمُنَافِرَةَ». وَالْمُنَافِرَةُ أَقْرَبُ
 إِلَى رُوحِ النَّصِّ التَّرَاثِيِّ وَإِلَى لُغَةِ ابْنِ حَزْمٍ. وَشَكْلُهَا: مِثْلُهَا وَشَبِيهَهَا.

وَالسُّلُو الْمُتَوَلَّدُ مِنَ الْهَجْرِ وَطَوْلِهِ، إِنَّمَا هُوَ كَالْيَاسِ يَدْخُلُ عَلَى النَّفْسِ مِنْ بُلُوغِهَا إِلَى أَمَلِهَا، فَيَقْتُرُ نَزَاعُهَا وَلَا تَقْوَى رَغْبَتُهَا. وَلِي فِي ذِمِّ السُّلُو قَصِيدَةٌ مِنْهَا:

[من الطويل]

إِذَا مَا رَنْتَ فَالْحَيِّ مَيِّتٌ بِلَحْظِهَا
وإن نَطَقْتُ، قُلْتُ السَّلَامُ رِطَابُ
كَأَنَّ الْهَوَى ضَيْفٌ أَلَمَ بِمُهْجَتِي
فَلَحْمِي طَعَامٌ وَالنَّجِيعُ شَرَابٌ^(١)

ومنها:

صَبُورٌ عَلَى الْأَزْمِ^(٢) الَّذِي الْعِزُّ خَلَفَهُ
وَلَوْ أَمْطَرَتْهُ بِالْحَرِيقِ سَحَابُ
جَزُوعٍ مِنَ الرَّاحَاتِ إِنْ أَنْتَجَتْ لَهُ
خُمُولًا وَفِي بَعْضِ النَّعِيمِ عَذَابُ
وَالسُّلُو فِي التَّجَرِبَةِ الْجَمِيلَةِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ:

سُلُو طَبِيعِي، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالنَّسِيَانِ. يَخْلُو بِهِ الْقَلْبُ وَيَفْرَغُ بِهِ الْبَالُ. وَيَكُونُ الْإِنْسَانُ كَأَنَّهُ لَمْ يُحِبَّ قَطُّ. وَهَذَا الْقِسْمُ رُبَّمَا لَحِقَ صَاحِبَهُ الدَّمُ، لِأَنَّهُ حَادِثٌ عَنْ أَخْلَاقٍ مَذْمُومَةٍ، وَعَنْ أَسْبَابٍ غَيْرِ مُوجِبَةٍ اسْتِحْقَاقِ النَّسِيَانِ. وَسَتَأْتِي مُبَيِّنَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَرَبَّمَا لَمْ تَلَحَّظْهُ اللَّائِمَةُ لِعُذْرِ صَحِيحٍ.

وَالثَّانِي سُلُو طَبِيعِي، [يَكُونُ عَنْهُ]^(٣) قَهْرُ النَّفْسِ، وَهُوَ الْمُسَمَّى

(١) النجيع: الدم الأحمر القاني.

(٢) الأزْم: الشدة والضيق (الوسيط/أزم).

(٣) زادها القاسمي ليستقيم المعنى.

بالتَّصَبُّرِ، فترى المرءَ يُظهِرُ التَّجَلُّدَ، وفي قلبه أشدُّ لدغاً من وَخْزِ الإِشْفَى^(١)، ولكنه يرى «بعض الشر أهون من بعض»^(٢)، أو يُحَاسِبُ نَفْسَهُ بِحُجَّةٍ لَا تُصَرِّفُ وَلَا تُكْسِرُ. وهذا قِسْمٌ لَا يُذَمُّ آتِيهِ، وَلَا يُلَامُ فَاعِلُهُ، لَأَنَّهُ لَا يَحْدُثُ إِلَّا عَنْ عَظِيمَةٍ، وَلَا يَقَعُ إِلَّا عَنْ فَادِحَةٍ؛ إِمَّا لِسَبَبٍ لَا يَصْبِرُ عَلَى مِثْلِهِ الْأَحْرَارُ، وَإِمَّا لَخَطْبٍ لَا مَرَدَّ لَهُ، تَجْرِي بِهِ الْأَقْدَارُ. وَكَفَاكَ مِنَ الْمَوْصُوفِ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِنَاسٍ، لَكِنَّهُ ذَاكِرٌ، وَذُو حَنِينٍ وَاقِفٌ عَلَى الْعَهْدِ، وَمُتَجَرِّعٌ مَرَارَاتِ الصَّبْرِ. وَالْفَرْقُ الْعَامِيُّ بَيْنَ الْمُتَصَبِّرِ وَالتَّاسِي، أَنَّكَ تَرَى الْمُتَصَبِّرَ، وَإِنْ أَبَدَى غَايَةَ الْجَلْدِ، وَأَظْهَرَ سَبَبَ مَحْبُوبِهِ، وَالتَّحَامُلَ عَلَيْهِ^(٣)، لَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من الطويل]

دَعُونِي وَسَبِّ لِحَبِيبٍ فَإِنِّي
وإن كُنْتُ أَبْدِي الْهَجَرَ لَسْتُ مُعَادِيَا

(١) الإِشْفَى: المخرز (اللسان/ شفي) قرأها القاسمي «الاشفى».

(٢) قوله: «بعض الشر أهون من بعض» من أمثال العرب المعروفة، يضرب عند

ظهور شَرِّينَ بينهما تفاوت. «موسوعة أمثال العرب» ليعقوب: ج ٣/ ص ٣٣١.

وأصل المثل منسوب إلى طرفة بن العبد في قوله:

أبَا مَنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَقِ بِعِضْنَا حَنَانِيكَ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنَ مِنْ بَعْضِ

ينظر ديوانه - طبعة المجمع بدمشق - ص ١٧٢.

وقيل إِنَّ أصله يعود إلى شعر لأبي خراش الهذلي، وهو قوله:

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةٍ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ وَبَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنَ مِنْ بَعْضِ

وعروة: أخوه، وخراش: ابنه. وبعض الشر أهون من بعض: لم يقتل

معاً. ينظر ديوان الهذليين - دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٤٨ - القسم

الثاني - ص ١٥٧.

(٣) في طبقات أخرى: «التَّحْمُلُ». واللسان يفضل التحامل (اللسان/ حمل).

وَلَكِنْ سَبَّيْ لِلْحَبِيبِ كَقَوْلِهِمْ:

«أَجَادَ فَلَقَّاهُ إِلَهُ الدَّوَاهِيَا!»^(١)

وَالنَّاسِي ضِدُّ هَذَا. وَكُلُّ هَذَا فَعَلَى قَدْرِ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ، وَإِجَابَتِهَا وَامْتِنَاعُهَا، وَقُوَّةُ تَمَكُّنِ الْحُبِّ مِنَ الْقَلْبِ أَوْ ضَعْفِهِ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ - وَسَمَّيْتُ السَّالِي فِيهِ الْمُتَصَبِّرَ - قِطْعَةً مِنْهَا:

[من الكامل]

نَاسِي الْأَحِبَّةِ غَيْرُ مَنْ يَسْلُوهُمْ

حُكْمُ الْمُقْصِرِ غَيْرُ حُكْمِ الْمُقْصِرِ

مَا قَاهِرٌ لِلنَّفْسِ عَدْلٌ مُجِيبُهَا^(٢)

مَا الصَّابِرُ الْمَطْبُوعُ كَالْمُتَصَبِّرِ

وَالْأَسْبَابُ الْمَوْجِبَةُ لِلْسَّلْوِ الْمُتَقَسِّمُ هَذِينَ الْقِسْمَيْنِ كَثِيرَةٌ، وَعَلَى حَسَبِهَا، وَبِمَقْدَارِ الْوَاقِعِ مِنْهَا، يُعَذَّرُ السَّالِي أَوْ يُذَمُّ.

● فَمِنْهَا الْمَلَلُ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ مَنْ كَانَ سَلْوُهُ عَنْ مَلَلٍ، فَلَيْسَ حُبُّهُ حَقِيقَةً، وَالْمُتَسِّمُ بِهِ صَاحِبُ دَعْوَى زَائِفَةٍ؛ وَإِنَّمَا هُوَ طَالِبٌ لَذَّةٍ وَمُبَادِرٌ شَهْوَةٍ. وَالسَّالِي مِنْ هَذَا الْوَجْهِ نَاسٌ مَذْمُومٌ.

● وَمِنْهَا الْاسْتِبْدَالُ، وَهُوَ، وَإِنْ كَانَ يُشَبِّهُ الْمَلَلَ، فَفِيهِ مَعْنَى زَائِدٌ، وَهُوَ بِذَلِكَ الْمَعْنَى أَقْبَحُ مِنَ الْأَوَّلِ وَصَاحِبُهُ أَحَقُّ بِالذَّمِّ.

● وَمِنْهَا حَيَاءٌ مُرَكَّبٌ يَكُونُ فِي الْمُحِبِّ، يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّعْرِضِ بِمَا يَجِدُ، فَيَتَطَاوَلُ الْأَمْرُ، وَتَتَرَاخَى الْمُدَّةُ، وَيَبْلَى جَدِيدُ

(١) إشارة إلى الاستحسان، وهو من قبيل التحبب يُعَبَّرُ عَنْهُ بِلَفْظٍ وَمَعْنَى مُتَعَاكِسِينَ، كَقَوْلِهِمْ: «قَاتِلْهُ اللَّهُ مَا أَسخَاهُ!».

(٢) قرأها القاسمي:

«ما قاصر للنفس غير مجيبها»

وهي قراءة لا تؤذي المراد.

المَوَدَّةَ، وَيَحْدُثُ السُّلُوءَ. وَهَذَا وَجْهٌ، إِنْ كَانَ السَّالِي عَنْهُ نَاسِيًا فَلَيْسَ بِمُنْصِفٍ، إِذْ مِنْهُ جَاءَ سَبَبُ الْجِرْمَانِ؛ وَإِنْ كَانَ مُتَصَبِّرًا فَلَيْسَ بِمَلُومٍ، إِذْ أَثَرُ الْحَيَاءِ عَلَى لِدَّةِ نَفْسِهِ. وَقَدْ وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْبِدَاءُ مِنَ التَّفَاقُ»^(١).

وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُطَرِّفٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ مَالِكٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ صَفْوَانَ الزَّرْقِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ رُكَانَةَ، يَرْفَعُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ دِينٍ خُلُقٌ، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»^(٢).

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المَحَبِّ. وابتدأوها من قِبَلِهِ، وَالذَّمُّ لاصِقٌ بِهِ فِي نِسْيَانِهِ لِمَنْ يُحِبُّ.

ثم منها أسباب أربعة هُنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَحْبُوبِ وَأصلها عنده.

● فمنها الهَجْرُ؛ وقد مرَّ تَفْسِيرُ وَجْهِهِ. وَلَا بُدَّ لَنَا أَنْ نوردَ مِنْهُ شَيْئًا فِي هَذَا الْبَابِ يُوَافِقُهُ.

وَالهَجْرُ إِذَا تَطَاوَلَ، وَكَثُرَ الْعِتَابُ، وَاتَّصَلَتِ الْمُفَارَقَةُ، يَكُونُ بَابًا إِلَى السُّلُوءِ، وَلَيْسَ مَنْ وَصَلَكَ ثُمَّ قَطَعَكَ لِغَيْرِكَ، مِنْ بَابِ الهَجْرِ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ الْعَدْرُ الصَّحِيحُ^(٣). وَلَا مَنْ مَالَ إِلَى غَيْرِكَ دُونَ أَنْ

(١) الحديث وارد في أغلب كتب الصحاح (البخاري، إيمان: ٥٧ - ٥٩). وورد بلفظ مشابه في «مسند الإمام أحمد» ج ٢/ص ٥٦.

(٢) ورد الحديث في «الموطأ» لمالك بن أنس - صَحَّحَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ: مُحَمَّدٌ فُؤَادُ عَبْدِ الْبَاقِي - المكتبة الثقافية - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٩ - ج ٢ - كتاب حسن الخلق - باب الحياء - الحديث رقم ٩/ص ٩٠٥.

(٣) لفظ «الصحيح» هنا، غير مناسب للغدر، وربما هي الصريح، وهي ترد في مواضع أخرى من النص بهذا اللفظ.

يَتَقَدَّمَ لَكَ مَعَهُ صَلَّةٌ، مِنَ الْهَجَرِ أَيْضاً فِي شَيْءٍ. إِنَّمَا ذَلِكَ هُوَ التَّفَارُّ.
 وَسَيَقُوعُ الْكَلَامُ فِي هَذَيْنِ الْفَصْلَيْنِ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. لَكِنَّ
 الْهَجَرَ مِمَّنْ وَصَلَكَ ثُمَّ قَطَعَكَ لِتَنْقِيلِ وَاشٍ، أَوْ لِدَنْبٍ وَاقِعٍ، أَوْ
 لَشَيْءٍ قَامَ فِي النَّفْسِ، وَلَمْ يَمِلْ إِلَى سِوَاكَ، وَلَا أَقَامَ أَحَدًا غَيْرَكَ
 مُقَامَكَ. وَالنَّاسِي فِي هَذَا الْفَصْلِ مِنَ الْمُحِبِّينَ، مَلُومٌ دُونَ سَائِرِ
 الْأَسْبَابِ الْوَاقِعَةِ مِنَ الْمَحْبُوبِ؛ لِأَنَّهُ لَا تَقَعُ حَالَةٌ تُقِيمُ الْعُذْرَ فِي
 نِسْيَانِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ عَنِ التَّذَكُّرِ وَيُوجِبُ عَهْدَ الْأَلْفَةِ؛ وَلَكِنْ
 السَّالِي عَلَى جِهَةِ التَّصَبُّرِ وَالتَّجَلُّدِ هَاهُنَا، مَعْذُورٌ، إِذْ رَأَى الْهَجَرَ
 مُتَمَادِيًا، وَلَمْ يَرِ لِلْوَصَالِ عِلَامَةً، وَلَا لِلْمُرَاجَعَةِ دَلَالَةً. وَقَدْ اسْتَجَارَ
 كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُسَمُّوا هَذَا الْمَعْنَى عُذْرًا، إِذْ ظَاهِرُهُمَا وَاحِدٌ،
 وَلَكِنْ عَلَيَّهِمَا مُخْتَلِفَتَانِ. فَلِذَلِكَ فَرَّقْنَا بَيْنَهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ. وَأَقُولُ
 فِي ذَلِكَ شِعْرًا، مِنْهُ:

[من الطويل]

فَكُونُوا كَمَنْ لَمْ أَدْرِ قَطُّ فَإِنِّي
 كَأَخَرٍ، لَمْ تَذَرُوا وَلَمْ تَصِلُوهُ
 أَنَا كَالصَّدَى، مَا قَالَ كُلُّ أَجِيبُهُ
 فَمَا شِئْتُمُوهُ الْيَوْمَ فَاغْتَمِدُوهُ
 وَأَقُولُ أَيْضًا قِطْعَةً، ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ قُلْتُهَا وَأَنَا نَائِمٌ، وَاسْتَيْقَظْتُ
 فَأَضَفْتُ إِلَيْهَا الْبَيْتَ الرَّابِعَ:

[من الوافر]

أَلَا لِلَّهِ دَهْرٌ كُنْتُ فِيهِ
 أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ رُوحِي وَأَهْلِي
 فَمَا بَرَحْتُ يَدُ الْهَجْرَانِ حَتَّى
 طَوَاكَ بَنَانُهَا طَيَّ السَّجِلِّ

سَقَانِي الصَّبْرَ هَجْرُكُمْ كَمَا قَدْ
 سَقَانِي الْحُبَّ وَصَلُّكُمْ بِسَجَلٍ^(١)
 وَجَدْتُ الْوَصْلَ أَضْلَ الْوَجْدِ حَقًّا
 وَطُؤْلَ الْهَجْرِ أَضْلًا لِلتَّسْلِي
 وَأَقُولُ أَيْضًا قِطْعَةً مِنْهَا:

[من مجزوء الكامل]

لَوْ قِيلَ لِي مِنْ قَبْلِ ذَا
 أَنَّ سَوْفَ تَسْأَلُونِ مَنْ تَوَدُّ
 لَحَلَفْتُ أَلْفَ قَسَامَةٍ^(٢):
 «لَا كَانَ ذَا أَبَدٍ الْأَبَدُ»
 وَإِذَا طَوِيلَ الْهَجْرُ مَا
 مَعَهُ مِنَ السُّلُوفِ بَدُ
 لِّلَّهِ هَجْرُكَ إِنَّهُ
 سَاعَ لِبُرِّي مُجْتَهِدُ
 فَالآنَ أَعْجَبُ لِلْسَّلْ
 وَوَكُنْتُ أَعْجَبُ لِلْجَلْدِ
 وَأَرَى هَوَاكَ كَجَمْرَةٍ
 تَحْتَ الرَّمَادِ لَهَا مَدَدُ

(١) السَّجَلُ: الدلو العظيمة المملوءة أو التي فيها ماء قل أو كثير.

(٢) القَسَامَةُ: أن يُقْسِمَ خمسون رجلاً من قوم أنهم أحد أفرادهم بالقتل دون معرفة القاتل، ببراءتهم من القتل، فتسقط التهمة عن الجميع (الوسيط/ قسم).

وأقول:

[من الكامل]

كَانَتْ جَهَنَّمُ فِي الْحَشَا مِنْ حُبِّكُمْ
فَلَقَدْ أَرَاهَا نَارَ إِبْرَاهِيمَ^(١)

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قبل المحبوب،
فالمُتَصَبِّرُ مِنَ النَّاسِ فِيهَا غَيْرُ مَذْمُومٍ. لِمَا سَنُورِدُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي
كُلِّ فَصْلٍ مِنْهَا.

فَمِنْهَا نِفَارٌ يَكُونُ فِي الْمَحْبُوبِ، وَانْزَوَاءٌ قَاطِعٌ لِلْأَطْمَاعِ.

خبر

وَإِنِّي لِأُخْبِرَكَ عَنِّي، أَتَى أَلْفَتْ فِي أَيَّامِ صِبَايَ أَلْفَةَ الْمَحَبَّةِ،
جَارِيَةً نَشَأْتُ فِي دَارِنَا، وَكَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِنْتُ سِتَّةَ عَشَرَ
عَاماً، وَكَانَتْ غَايَةً فِي حُسْنِ وَجْهِهَا وَعَقْلِهَا وَعَقَافِهَا، وَطَهَارَتِهَا
وَخَفَرِهَا وَدِمَائَتِهَا؛ عَدِيمَةً الْهَزَلِ، مَنِيْعَةً الْبَذَلِ، بَدِيعَةُ الْبِشْرِ، مُسْبِلَةٌ
السَّتْرِ، فَقِيْدَةُ الدَّامِ^(٢)، قَلِيلَةُ الْكَلَامِ، مَعْضُوضَةٌ الْبَصْرِ، شَدِيدَةُ
الْحَذَرِ، نَقِيَّةٌ مِنَ الْعُيُوبِ، دَائِمَةُ الْقُطُوبِ، حُلُوةُ الْإِعْرَاضِ،
مَطْبُوعَةٌ الْإِنْقِبَاضِ، مَلِيحَةُ الصُّدُودِ، رَزِينَةُ الْقُعُودِ، كَثِيرَةُ الْوَقَارِ،
مُسْتَلَذَّةُ النَّفَارِ، لَا تُوجِّهُ الْأَرَاغِي^(٣) نَحْوَهَا، وَلَا تَقِفُ الْمَطَامِعِ
عَلَيْهَا، وَلَا مَعْرَسٌ لِلْأَمَلِ لَدَيْهَا. فَوَجَّهَهَا جَالِبُ كُلِّ الْقُلُوبِ،
وَحَالُهَا طَارِدٌ مِنْ أُمِّهَا^(٤). تَزْدَانُ فِي الْمَنْعِ وَالْبُخْلِ، مَا لَا يَزْدَانُ

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم عليه السلام ومحاولة الكفار إحراقه بنار كانت برداً
وسلاماً عليه.

(٢) الدَّامُ: العيب. (٣) الأراجي: الآمال.

(٤) أُمُّهَا: قصدها، ومال إليها.

غَيْرُهَا بِالسَّمَاخَةِ وَالْبَذْلِ. مَوْقُوفَةٌ عَلَى الْجِدِّ فِي أَمْرِهَا، غَيْرَ رَاغِبَةٍ فِي اللّٰهُو، عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تُحَسِّنُ الْعُودَ إِحْسَانًا جَيِّدًا. فَجَنَحَتْ إِلَيْهَا وَأَحْبَبَتْهَا حُبًّا مُفْرِطًا شَدِيدًا، فَسَعَيْتُ عَامِينَ أَوْ نَحْوَهُمَا أَنْ تُجِيبَنِي بِكَلِمَةٍ، وَأَسْمَعَ مِنْ فِيهَا لَفْظَةً، غَيْرَ مَا يَقَعُ فِي الْحَدِيثِ الظَّاهِرِ إِلَى كُلِّ سَامِعٍ، بِأَبْلَغِ السَّعْيِ، فَمَا وَصَلْتُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ الْبَتَّةَ.

فَلَعَهْدِي بِمُصْطَنَعٍ ^(١) كَانَ فِي دَارِنَا لِبَعْضٍ مَا يُصْطَنَعُ لَهُ فِي دُورِ الرُّؤَسَاءِ، تَجَمَّعَتْ فِيهِ دَخَلْتُنَا وَدَخَلَهُ أَخِي (رَحِمَهُ اللّٰهُ) مِنَ النِّسَاءِ، وَنِسَاءٍ فِتْيَانِنَا، وَمَنْ لَا ثَبَنًا مِنْ خَدَمِنَا، مِمَّنْ يَخْفُ مَوْضِعُهُ، وَيَلْطَفُ مَحَلُّهُ؛ فَلَبِثْنَا صَدْرًا مِنَ النَّهَارِ، ثُمَّ تَنَقَّلْنَا إِلَى قَصَبَةٍ كَانَتْ فِي دَارِنَا، مُشْرِفَةٍ عَلَى بُسْتَانِ الدَّارِ، وَيُطَّلَعُ مِنْهَا عَلَى جَمِيعِ قُرُوبَةِ وَفُحُوصِهَا ^(٢) مُفْتَحَةِ الْأَبْوَابِ، فَصِرْنَا نَنْظُرُنَ مِنْ خِلَالِ الشَّرَاجِبِ ^(٣) وَأَنَا بَيْنَهُنَّ. فَإِنِّي لِأَذْكُرُ أَنِّي كُنْتُ أَقْصِدُ نَحْوَ الْبَابِ الَّذِي هِيَ فِيهِ أُنْسًا بِقُرْبِهَا، مُتَعَرِّضًا لِلدُّنُوِّ مِنْهَا، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَرَانِي فِي جَوَارِهَا، فَتَتَرَكُ ذَلِكَ الْبَابَ، وَتَقْصِدُ غَيْرَهُ فِي لُطْفِ الْحَرَكَةِ، فَاتَّعَمَدْتُ أَنَا الْقَصْدَ إِلَى الْبَابِ الَّذِي صَارَتْ إِلَيْهِ، فَتَعَوَّدْتُ إِلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْفِعْلِ مِنَ الرِّوَالِ إِلَى غَيْرِهِ.

وَكَانَتْ قَدْ عَلِمْتُ كَلْفِي بِهَا، وَلَمْ يَشْعُرْ سَائِرُ النِّسَوَانِ بِمَا نَحْنُ

(١) المصطنع: الوليمة أو المأدبة (اللسان/ صنع).

(٢) فحوص: الفحوص ما يحيط بالمدينة كالسوار من بساتين ودور (اللسان/ فحص).

(٣) الشراحيب: لم يرد ذكره في المعاجم القديمة، ويبدو أنه من ألفاظ العامة، ومعناه: «الشبابيك» أو الطاقات، وهي فتحات في الخشب ذات أشكال مربعة أو مزخرفة. ذكره البستاني في «محيط المحيط». ينظر: «محيط المحيط»/ المعلم بطرس البستاني - مكتبة لبنان - بيروت - ١٩٨٣ - شرح/ ص ٤٥٨.

فِيهِ، لَأَنْتَهُنَّ كُنَّ عَدَدًا كَثِيرًا؛ وَإِذْ كُلُّهُنَّ يَتَنَقَّلْنَ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ لِسَبَبِ الْإِطْلَاعِ مِنْ بَعْضِ الْأَبْوَابِ عَلَى جِهَاتٍ لَا يُطْلَعُ مِنْ غَيْرِهَا عَلَيْهَا. وَاعْلَمْ أَنَّ قِيَاةَ النِّسَاءِ فِيمَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِنَّ أَنْفَذَ مِنْ قِيَاةٍ مَدْلَجٍ فِي الْأَثَارِ ^(١).

ثُمَّ نَزَلْنَ إِلَى الْبُسْتَانِ، فَرَغِبَ عَجَائِزُنَا وَكَرَائِمُنَا إِلَى سَيِّدَتِهَا فِي سَمَاعِ غَنَائِهَا، فَأَمَرَتْهَا، فَأَخَذَتِ الْعُودَ وَسَوَّتُهُ بِخَفَرٍ وَخَجَلٍ، لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهِ، وَإِنَّ الشَّيْءَ يَتَضَاعَفُ حُسْنُهُ فِي عَيْنِ مُسْتَحْسِنِهِ؛ ثُمَّ انْدَفَعَتْ تُعْنِي بِأَبْيَاتِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ ^(٢)، حَيْثُ يَقُولُ:

[من البسيط]

إِنِّي طَرَبْتُ إِلَى شَمْسٍ إِذَا غَرَبَتْ
كَانَتْ مَغَارِبُهَا ^(٣) جُوفَ الْمَقَاصِيرِ ^(٤)
شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ فِي خَلْقٍ جَارِيَةٍ
كَأَنَّ أَعْطَافَهَا ^(٥) طَيُّ الطَّوَامِيرِ ^(٦)

(١) قِيَاةٍ مَدْلَجٍ فِي الْأَثَارِ: مَدْلَجٌ: رَجُلٌ كَنَانِي كَانَ مَشْهُورًا بِالْقِيَاةِ؛ وَالْقِيَاةُ تَتَّبِعُ الْأَثَرَ...

(٢) الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْحَنْفِيِّ الْيَمَامِيُّ، أَبُو الْفَضْلِ، شَاعِرٌ عَبَّاسِي رَقِيقٌ، نَشَأَ بِبَغْدَادَ. خَالَفَ الشُّعْرَاءَ فِي طَرِيقَتِهِمْ، فَلَمْ يَمْدَحْ وَلَمْ يَهْجُ، بَلْ كَانَ شَعْرُهُ كُلُّهُ غَزَلًا. وَاشْتَهَرَ بِحُبِّهِ لِفُوزِ الْتِي أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَعْرِهِ. تَوَفِيَ بِبَغْدَادَ سَنَةَ (١٩٢هـ). الْأَعْلَامُ: مَج ٣/ ص ٢٥٩.

(٣) فِي الدِّيَوَانِ: «مُشَارِقُهَا».

(٤) الْمَقَاصِيرُ: جَمْعٌ مَقْصُورَةٌ: الدَّارُ الْوَاسِعَةُ الْمَحْصَنَةُ، أَوْ حِجْرَةٌ مِنْ حِجْرَاتِهَا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا صَاحِبُهَا.

(٥) فِي الدِّيَوَانِ: «كَأَنَّمَا كَشَحُهَا».

(٦) الطَّوَامِيرُ: الطَّامُورُ: الصَّحِيفَةُ.

لَيْسَتْ مِنَ الْإِنْسِ إِلَّا فِي مُنَاسَبَةٍ
 وَلَا مِنَ الْجِنَّ إِلَّا فِي التَّصَاوِيرِ
 فَالْوَجْهُ جَوْهَرَةٌ، وَالْجِسْمُ عِبْهَرَةٌ^(١)
 وَالرَّيْحُ عَنْبَرَةٌ وَالْكُلُّ مِنْ نُورٍ^(٢)
 كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو فِي مَجَاسِدِهَا
 تَخْطُو عَلَى الْبَيْضِ أَوْ حَذَّ الْقَوَارِيرِ^(٣)
 فَلَعَمْرِي لَكَانَ الْمَضْرَابُ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَى قَلْبِي، وَمَا نَسِيتُ
 ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَا أَنْسَاهُ إِلَى يَوْمٍ مُفَارَقَتِي الدُّنْيَا. وَهَذَا أَكْثَرُ مَا
 وَصَلْتُ إِلَيْهِ مِنَ التَّمَكُّنِ مِنْ رُؤْيَيْتِهَا وَسَمَاعِ كَلَامِهَا، وَفِي ذَلِكَ
 أَقُولُ:

[من الخفيف]

لَا تَلْمَهَا عَلَى النَّفَارِ وَمَنْعِ الدِّ
 وَضَلِ مَا هَذَا لَهَا بِنَكِيرِ
 هَلْ يَكُونُ الْهَلَالُ غَيْرَ بَعِيدِ
 أَوْ يَكُونُ الْغَزَالُ غَيْرَ نَفُورِ

(١) عبهرة: العبْهَرَة من النساء التي تجمع الحسن في الجسم والخُلُق. وقيل: الرقيقة البشرية، الناصعة البياض، السمينة الممتلئة.

(٢) الريح: يقصد بها: رائحتها. وورد البيت في ديوان العباس:

فَالْجِسْمُ مِنْ لَوْلُؤٍ وَالشَّعْرُ مِنْ ظُلْمٍ وَالنَّشْرُ مِنْ مِسْكَةٍ وَالْوَجْهُ مِنْ نُورٍ

(٣) تخطو: في الديوان: «تمشي». في مجاسدها: في وصالها.

والمجاسد: ما يلي الجسد من الثياب. مفردة: مجسد. وحذ القوارير:

في الديوان: خضر القوارير. تنظر أبيات العباس بن الأحنف في ديوانه:

شرح وتحقيق: د. عاتكة الخزرجي - دار الكتب المصرية - القاهرة -

١٩٥٤ - ص ١١٣.

وأقول:

[من الوافر]

مَنْعَتِ جَمَالَ وَجْهِكَ مُقْلَتِيَا
وَلَفْظُكَ قَدْ ضَنْنَتْ بِهِ عَلِيَا
أَرَاكِ نَذَرْتَ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً
فَلَسْتُ تُكَلِّمِينَ الْيَوْمَ حَيَا
وَقَدْ غَنَيْتِ لِلْعَبَّاسِ^(١) شِعْراً
هَنِيئاً ذَا الْعَبَّاسِ هَنِيئاً
فَلَوْ يَلْقَاكَ عَبَّاسٌ لِأُضْحَى
لِـ«فُوزٍ»^(٢) قَالِيَا وَبِكُمْ شَجِيَا

ثُمَّ انتقل الوزير أبي، رَحِمَهُ اللهُ، من دُورنا المُحَدَّثَةِ بالجانبِ الشَّرْقِيِّ، مِنْ قُرْطُبَةٍ فِي رَبْضِ الرَّاهِرَةِ، إِلَى دُورنا الْقَدِيمَةِ فِي الْجَانِبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ قُرْطُبَةٍ بِبِلَاطِ مُغِيثِ^(٣) فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ قِيَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ بِالْخِلَافَةِ^(٤)؛ وَانْتَقَلْتُ أَنَا بِانْتِقَالِهِ،

(١) العباس: هو العباس بن الأحنف، سبقت ترجمته.

(٢) «فوز» هذه محبوبة العباس بن الأحنف، وقد أكثر من ذكرها في شعره. ومنه قوله:

فيا حزني لنفسي بعد «فوز» ويا طول اغترابي وانفرادي

(٣) بلاط مغيث: من أحياء قرطبة ومواقعها في الجانب الغربي منها.

(٤) محمد المهدي: محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي، أبو الوليد، أمير بيت الملك بالأندلس. ولد سنة (٣٦٦هـ). خرج على هشام بن الحكم (المؤيد بالله) الأموي بقرطبة سنة (٣٩٩هـ). وبايعه الناس فَتَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ بِاللَّهِ. وَمَلَكَ قُرْطُبَةَ، فَحَبَسَ (المؤيد) فِي الْقَصْرِ، ثُمَّ أَظْهَرَ أَنَّهُ مَاتَ. وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ انْتَقَضَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ الْحَكَمِ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ، فَهَرَبَ الْمَهْدِيُّ إِلَى طَلِيْطَلَةَ، وَجَمَعَ أَنْصَاراً، وَعَادَ إِلَى قُرْطُبَةَ فَاسْتَوْلَى =

وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمرٍ أوجبت ذلك. ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد^(١) بالنكبات وباعتداء أرباب دولته؛ وامتحننا بالاعتقال، والترقيب والإغرام الفادح، والاستتار، وأرزمت الفتنة^(٢)، وألقت باعها، وعمت الناس وخصصنا، إلى أن توفي أبي الوزير (رحمه الله) ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة.

واتصلت بنا تلك الحال بعده، إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا، فرأيتها، وقد ارتفعت الواعية^(٣)، قائمة في المآتم، وسط النساء في جملة البواكي والنوادي؛ فلقد أثارَتْ وجداً دفيناً، وحركت ساكناً، وذكّرني عهداً قديماً، وحباً تليداً، ودهراً ماضياً، وزمناً عافياً، وشهوراً خوالي، وأخباراً بوالي، ودهوراً فواني، وأياماً قد ذهبَتْ، وأثاراً قد دثرت، وجددت أحزاني، وهيجت بلابلي^(٤). على أنني كنت في ذلك النهار مرزاً^(٥)، مصاباً من وجوه، وما كنت نسيْتُ، ولكن زاد الشجى، وتوقدت اللوعة،

= عليها وجدد البيعة لنفسه، إلى أن دخل عليه جماعة من الغلمان فأسروه، وأخرجوا (المؤيد) فأجلسوه مجلس الخلافة، وأحضروا محمد المهدي هذا بين يديه فأمر بقتله. وكان ذلك سنة (٤٠٠هـ).

(١) هشام المؤيد: سبقت ترجمته.

(٢) أرزمت الفتنة: اشتد أوارها واشتعل فتيلها. والإرزام: صوت الناقة، واشتداد صوت الرعد (اللسان/رزم).

(٣) الواعية: الصراخ على الميت (الوسيط/وعى).

(٤) البالبل: شدة الهم والوسواس، مفردها «البَلْبَل» و«البَلْبَالَةُ» (الوسيط/بلبل).

(٥) مرزاً: مصابٍ برزءٍ، وهو المصيبة.

وَتَأْكَدُ الْحُزْنَ، وَتَضَاعَفَ الْأَسْفُ، وَاسْتَجَلَبَ الْوَجْدُ مَا كَانَ مِنْهُ
كَامِنًا فَلَبَّاهُ مُجِيبًا. فَقُلْتُ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من الطويل]

يُبَكِّي لِمَيِّتٍ مَاتَ وَهُوَ مُكْرَمٌ
وَلَلْحَيِّ أُولَى بِالْدُمُوعِ الذَّوَارِفِ
فِيَا عَجَبًا مِنْ أَسْفٍ لِأَمْرٍ ثَوِيٍّ
وَمَا هُوَ لِلْمَقْتُولِ ظُلْمًا بِأَسْفٍ

ثُمَّ ضَرَبَ الدَّهْرُ ضَرْبَانَهُ، وَأَجْلَيْنَا عَنْ مَنَازِلِنَا، وَتَغَلَّبَ عَلَيْنَا
جُنْدُ الْبَرِّيرِ. فَخَرَجْتُ عَنْ قُرْطُبَةَ أَوَّلِ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ،
وَوَغِبْتُ عَنْ بَصْرِي بَعْدَ تِلْكَ الرُّوْيَةِ الْوَاحِدَةِ، سَنَةً أَعْوَامَ وَأَكْثَرَ، ثُمَّ
دَخَلْتُ قُرْطُبَةَ فِي شَوَالِ سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ؛ فَتَزَلْتُ عَلَى بَعْضِ
نَسَائِنَا فَرَأَيْتُهَا هُنَاكَ، وَمَا كِدْتُ أَنْ أَمِيزَهَا حَتَّى قِيلَ لِي: «هَذِهِ
فُلَانَةٌ» وَقَدْ تَغَيَّرَ أَكْثَرُ مَحَاسِنِهَا، وَذَهَبَتْ نَضَارَتُهَا، وَفَنِيَتْ تِلْكَ
الْبَهْجَةُ، وَغَاضَ ذَلِكَ الْمَاءَ الَّذِي كَانَ يُرَى كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ،
وَالْمِرَاةِ الْهِنْدِيَّةِ. وَذُبِلَ ذَلِكَ النُّوَّارُ الَّذِي كَانَ الْبَصَرُ يَقْصِدُ نَحْوَهُ
مُتَنَوِّرًا، وَيَرْتَادُ فِيهِ مُتَخَيِّرًا، وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ مُتَحَيِّرًا. فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا
الْبَعْضُ الْمُنْبِيُّ عَنِ الْكُلِّ، وَالْخَبَرُ الْمُخْبِرُ عَنِ الْجَمِيعِ؛ وَذَلِكَ لِقَلَّةِ
اهْتِبَالِهَا^(١) بِنَفْسِهَا، وَعُدْمِهَا الصِّيَانَةِ الَّتِي كَانَتْ تُغْذِي بِهَا أَيَّامَ
دَوْلَتِنَا، وَامْتِدَادِ ظِلِّنَا؛ وَلِتَبَدُّلِهَا فِي الْخُرُوجِ فِيمَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْهُ، مِمَّا
كَانَتْ تُصَانُ وَتُرْفَعُ عَنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ. وَإِنَّمَا النِّسَاءُ رِيَاحِينَ مَتَى لَمْ
تُعَاهَدْ نَقَصَتْ، وَبَنِيَّةٌ مَتَى لَمْ يُهْتَبَلْ بِهَا اسْتِهْدَمَتْ. وَلِذَلِكَ قَالَ مَنْ

(١) تَهْتَبَلُ بِنَفْسِهَا: تَتَشَغَلُ بِشُغْلِهَا وَتَهْتَمُ بِنَفْسِهَا (اللسان/هبل).

قال: «إِنَّ حُسْنَ الرَّجَالِ أَصْدَقُ صِدْقًا، وَأَثْبَتُ أَصْلًا، وَأَعْتَقُ جُودَةً، لِيَصْبِرَ عَلَى مَا لَوْ لَقِيَ بَعْضُهُ وَجْهَ النِّسَاءِ لَتَغَيَّرَتْ أَشَدَّ التَّغْيِيرِ، مِثْلُ الْهَجِيرِ وَالسَّمُومِ^(١) وَالرِّيَّاحِ، وَاخْتِلَافِ الْهَوَاءِ، وَعَدَمِ الْكِئِ^(٢)». وَإِنِّي لَوُ نِلْتُ مِنْهَا أَقْلَ وَصَلٍ، وَأَنِسْتُ لِي بَعْضُ أَنْسٍ، لَخَوْلَطْتُ طَرِبًا، أَوْ لَمِثْتُ فَرَحًا؛ وَلَكِنَّ هَذَا النَّفَارَ الَّذِي صَبَّرَنِي وَأَسْلَانِي.

وهذا الوجه من أسباب السُّلُو، وصاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم، إذ لم يقع تثبت يُوجب الوفاء، ولا عهد يقتضي المحافظة، ولا سلف ذمام، ولا فرط تصادف يلام تضييعه ونسيانه. ● ومنها جفاء يكون من المحبوب، فإذا أفرط فيه وأسرف، وصادف من المحب نفساً لها بعض الأنفة والعزة، تسلى. وإذا كان الجفاء يسيراً متقطعاً، أو دائماً أو كبيراً منقطعاً، احتمل وأغضي عليه؛ حتى إذا كثر ودَام، فلا بقاء عليه. ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا.

● ومنها الغدر، وهو الذي لا يحتمله أحد، ولا يغضي عليه كريم، وهو المسألة حقاً. ولا يلام السالي عنه على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً؛ بل اللائمة لائحة بمن صبر عليه. ولولا أن القلوب بيد مقلبيها، لا إله إلا هو، ولا يكلف المرء صرف قلبه ولا

(١) السَّمُوم: الرياح الحارة تهب غالباً بمصر في شهر أيار (مايو) وتكون غالباً بالنهار.

(٢) الكِئ: الكنان، والكِئ: كل ما يردُّ الحرَّ والبرد من الأبنية والغيران ونحوها (الوسيط/كن).

إِحَاطَةً اسْتِحْسَانِهِ، لَوْلَا ذَاكَ، لَقُلْتُ: إِنَّ الْمُتَصَبِّرَ فِي سُلُوءِهِ مَعَ
الْعَدْرِ، يَكَادُ أَنْ يَسْتَحِقَّ الْمَلَامَةَ وَالتَّعْنِيفَ. وَلَا أَدْعَى إِلَى السُّلُوءِ عِنْدَ
الْحُرِّ النَّفْسِ، [وذي]^(١) الْحَفِيزَةَ، وَالسَّرِيَّ السَّجَايَا، مِنَ الْعَدْرِ.
فَمَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا ذَنِيءُ الْمُرُوءَةِ، خَسِيسُ النَّفْسِ، نَذُلُ الْهِمَّةِ،
سَاقِطُ الْأَنْفَةِ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من الوافر]

هَوَاكَ فَلَسْتُ أَقْرَبُهُ، غُرُورُ
وَأَنْتَ لِكُلِّ مَنْ يَأْتِي سَرِيرُ
وَمَا إِنْ تَصْبِرِينَ عَلَى حَبِيبٍ
فَحَوْلُكَ مِنْهُمْ عَدَدٌ كَثِيرُ
فَلَوْ كُنْتُ الْأَمِيرَ لِمَا تَعَاطَى
لِقَاءَكَ خَوْفَ جَمْعِهِمُ الْأَمِيرُ
رَأَيْتُكَ كَالْأَمَانِيِّ مَا عَلَى مَنْ
يُلِمُّ بِهَا وَلَوْ كَثُرُوا غُرُورُ
وَلَا عَنْهَا لِمَنْ يَأْتِي دِفَاعُ
وَلَوْ حَشَدَ الْأَنَامَ لَهَا^(٢) نَفِيرُ

● ثُمَّ سَبَبُ ثَامِنٍ، وَهُوَ لَا مِنَ الْمُحِبِّ وَلَا مِنَ الْمَحْبُوبِ،
وَلَكِنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ الْيَأْسُ. وَفُرُوعُهُ ثَلَاثَةٌ:

إِمَّا مَوْتُ، وَإِمَّا بَيْنٌ لَا يَرْجَى مَعَهُ أَوْبَةٌ، وَإِمَّا عَارِضٌ يَدْخُلُ عَلَى
الْمُتَحَابِّينَ بَعْلَةً الْمُحِبِّ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا وَثِقَ الْمَحْبُوبُ فَيَغَيِّرُهَا. وَكُلُّ

(١) أضاف القاسمي: [وذي] وإهماً أَنَّ هناك نقصاً، والمعنى يصحُّ بإسقاطها
بإتباع «الحفيظة» نعتاً للنفس.

(٢) في ط عباس «لهم».

هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر. وعلى المحب النّاسي في هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من العضاضة والدم واستحقاق اسم اللوم والعذر، غير قليل، وإنّ لليأس لعملاً في النفوس عجيباً. وتلجأ لحرّ الأكباد كبيراً. وكلّ هذه الوجوه المذكورة أولاً وآخرأ، فالتأني فيها واجب، والتربص على أهلها حسن، فيما يمكن فيه التأني، ويصحّ لديه التربص. فإذا انقطعت الأطماع، وانحسمت الآمال، فحينئذ يقوم العذر.

وللشعراء فنّ من الشعر يذمّون فيه الباكي على الدمن، ويثنون على المثابر على اللذات، وهذا يدخل في باب السلو. ولقد أكثر الحسن بن هانئ في هذا الباب، واقتخر به، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالعذر الصريح في أشعاره، تحكماً بلسانه واقتداراً على القول. وفي مثل هذا أقول شعراً، منه:

[من الخفيف]

خَلَّ هذا وبادِرِ الدَّهْرَ وارْحَلْ
 فِي رِياضِ الرُّبَا مَطِيَّ الْعُقَارِ ^(١)
 وَاخْذُهَا بِالْبَدِيعِ مِنْ نَعَمَاتِ الدَّ
 عُودِ كَيْمًا تَحْتَ بِالْمِزْمَارِ
 إِنَّ خَيْرًا مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى الدَّ
 رِ وَقُوفُ الْبَنَانِ بِالْأَوْتَارِ
 وَبَدَا النَّرْجِسُ الْبَدِيعُ كَصَبِّ
 حَائِرِ الطَّرْفِ مَائِلًا كَالْمَدَارِ

(١) العُقَار: الحُمْر. والعُقَار من كل شيء: خيازه.

لُونُهُ لَوْنُ عَاشِقٍ مُسْتَهَامٍ
وَهُوَ لَا شَكَّ هَائِمٌ بِالْبَهَارِ^(١)

وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ نَسِيَانٌ مَا دَرَسَ لَنَا طَبْعاً، وَمَعْصِيَةَ اللَّهِ بِشُرْبِ الرَّاحِ لَنَا خُلُقاً، وَكَسَادُ الْهِمَّةِ لَنَا صِفَةً؛ وَلَكِنْ حَسْبُنَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً فِي الشُّعْرَاءِ: ﴿الَّذِينَ أَنْهَمَ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَتَاهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥، ٢٢٦].

فَهَذِهِ شَهَادَةُ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ لَهُمْ، وَلَكِنْ شُدُودُ الْقَائِلِ لِلشَّعْرِ عَنْ مَرْتَبَةِ الشَّعْرِ خَطَأً. وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْأَيَّاتِ أَنَّ ضَنَى الْعَامِرِيَّةِ إِحْدَى كِرَائِمِ الْمُظَفَّرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ، كَلَّفَتْني صَنْعَتَهَا فَأَجَبْتُهَا، وَكُنْتُ أَجْلِهَا، وَلَهَا فِيهَا صَنْعَةٌ فِي طَرِيقَةِ التَّشْيِيدِ وَالْبَسِيطِ رَائِقَةٌ جِدًّا. وَلَقَدْ أَنْشَدْتُهَا بَعْضَ إِخْوَانِي مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ، فَقَالَ سُورُوا بِهَا: يَجِبُ أَنْ تَوْضَعَ هَذِهِ فِي جَمَلَةٍ عَجَابِ الدُّنْيَا.

فَجَمِيعُ فُصُولِ هَذَا الْبَابِ كَمَا تَرَى ثَمَانِيَّةٌ: مِنْهَا ثَلَاثَةٌ هِيَ مِنَ الْمُحِبِّ، اثْنَانِ مِنْهَا يُذَمُّ السَّالِي فِيهِمَا، عَلَى كُلِّ وَجْهِ، وَهُمَا الْمَلَلُ وَالِاسْتِبْدَالُ، وَوَاحِدٌ مِنْهَا يُذَمُّ السَّالِي فِيهِ وَلَا يُذَمُّ الْمُتَصَبِّرُ، وَهُوَ الْحَيَاءُ كَمَا قَدَّمْنَا. وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَحْبُوبِ، مِنْهَا وَاحِدٌ يُذَمُّ النَّاسِي فِيهِ وَلَا يُذَمُّ الْمُتَصَبِّرُ، وَهُوَ الْهَجْرُ الدَّائِمُ. وَثَلَاثَةٌ لَا يُذَمُّ السَّالِي فِيهَا عَلَى أَيْ وَجْهِ كَانَ نَاسِياً أَوْ مُتَصَبِّراً، وَهِيَ النَّفَارُ وَالْجَفَاءُ وَالْغَدْرُ. وَوَجْهُ ثَامِنٌ وَهُوَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْيَأْسُ إِمَّا بِمَوْتٍ أَوْ بَيْنٍ، أَوْ آفَةٍ تُزْمِنُ. وَالْمُتَصَبِّرُ فِي هَذِهِ مَعْدُورٌ.

(١) الْبَهَارُ: كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٍ مُنِيرٍ، وَجَنَسَ مِنَ النَّبَاتِ طِيبِ الرِّيحِ، يَنْبِتُ فِي الرَّبِيعِ وَيُقَالُ لَهُ: الْعَرَارُ (الْوَسِيطُ/بَهْر).

وعتني أَخْبِرَكَ أَنِّي جُبِلْتُ عَلَى طَبِيعَتَيْنِ لَا يُهْنِنُنِي مَعَهُمَا عَيْشٌ أَبَدًا، وَإِنِّي لِأَبْرُمُ بِحَيَاتِي بِاجْتِمَاعِهِمَا، وَأَوْدُ التَّثَبُّتَ مِنْ نَفْسِي أحياناً لِأَقْفِدَ مَا أَنَا بِسَبَبِهِ مِنَ النَّكَدِ مِنْ أَجْلِهِمَا، وَهُمَا: وَفَاءٌ لَا يَشُوبُهُ تَلَوُّنٌ، قَدْ اسْتَوَتْ فِيهِ الْحَضْرَةُ وَالْمَغِيبُ، وَالْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ، تُوَلِّدُهُ الْأُلْفَةُ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ بِهَا نَفْسِي عَمَّا دَرَيْتُهُ، وَلَا تَتَطَلَّعُ إِلَى عَدَمِ مَنْ صَحِبْتُهُ. وَعِزَّةٌ نَفْسٍ لَا تَقَرُّ عَلَى الضَّيْمِ، مُهْتَمَّةٌ لِأَقْلٍ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنْ تَغْيِيرِ الْمَعَارِفِ، مُؤَثِّرَةٌ لِلْمَوْتِ عَلَيْهِ. فِكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ السَّجِّيَّتَيْنِ تَدْعُو إِلَى نَفْسِهَا. وَإِنِّي لِأَجْفَى فَأَحْتَمِلُ، وَأَسْتَعْمِلُ الْإِنَاءَةَ الطَّوِيلَةَ، وَالتَّلَوْمَ^(١) الَّذِي لَا يَكَادُ يُطِيقُهُ أَحَدٌ، فَإِذَا أَفْرَطَ الْأَمْرُ، وَحَمِيتْ نَفْسِي تَصَبَّرْتُ، وَفِي الْقَلْبِ مَا فِيهِ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من البسيط]

لِي خِلَتَانِ إِذَا قَانِي الْأَسَى جُرْعاً
وَنَغْصاً عَيْشَتِي وَاسْتَهْلَكَ جَلْدِي
كِلْتَاهُمَا تَطْبِينِي نَحْوَ جَبَلَتِهَا
كَالصَّيْدِ يَنْشُبُ بَيْنَ الذُّبِّ وَالْأَسَدِ
وَفَاءٌ صَدَقَ فَمَا فَارَقْتُ ذَا مِقَّةٍ
فَزَالَ حُزْنِي عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبَدِ
وَعِزَّةٌ لَا يَحُلُّ الضَّيْمُ سَاحَتَهَا
صَرَامَةً فِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْوَلَدِ

ومما يُشَبِّهُ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ مِنْهُ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِي كُنْتُ أَحْلَلْتُهُ مِنْ نَفْسِي مَحَلَّهَا، وَأَسْقَطْتُ الْمَوْوَنَةَ بَيْنِي

(١) التَّلَوْمُ: تَلَوَّمَ فِي الْأَمْرِ: تَمَكَّثَ وَانْتَظَرَ. (الوسيط/لوم).

وَبَيْنَهُ، وَأَعَدَّدْتُهُ ذُخْرًا وَكَنْزًا، وَكَانَ كَثِيرَ السَّمْعِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ، فَدَبَّ
 [ذَوُو] ^(١) النَّمِيمَةِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ. فَحَاكُوا لَهُ وَأَنْجَحَ سَعْيُهُمْ عِنْدَهُ،
 فَانْقَبَضَ عَمَّا كُنْتُ أَعْهَدُهُ، فَتَرَبَّصْتُ عَلَيْهِ ^(٢) مُدَّةً فِي مِثْلِهَا أَوْبُ
 الْغَائِبِ، وَرَضَى الْعَاتِبِ، فَلَمْ يَزِدْ إِلَّا انْقِبَاضًا فَتَرَكَتُهُ وَحَالَهُ.

(١) إضافة من القاسمي.

(٢) تَرَبَّصْتُ عَلَيْهِ: أَي تَلَبَّثْتُ. وَلَمْ يُعَدِّهَا أَيَّ مَعْجَمٍ بِ«عَلَى»، فَهِيَ إِمَّا مُتَعَدِّيَةٌ
 بِالْبَاءِ (تَرَبَّصَ بِهِ) وَإِمَّا مُتَعَدِّيَةٌ بِنَفْسِهَا.

٢٨

بابُ المَوْتِ

وَرَبِّمَا تَزَايِدَ الْأَمْرُ، وَرَقَّ الطَّبْعُ، وَعَظُمَ الْإِشْفَاقُ، فَكَانَ سَبَبًا
لِلْمَوْتِ، وَمَفَارِقَةِ الدُّنْيَا. وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَنَارِ: «مَنْ عَشَقَ فَعَفَّ
فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ». وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً، مِنْهَا:

[من الوافر]

فَإِنْ أَهْلِكَ هَوَى أَهْلِكَ شَهِيداً
وَإِنْ تَمُنُّنْ بَقِيْتُ قَرِيرَ عَيْنٍ
رَوَى هَذَا لَنَا قَوْمٌ ثِقَاتٌ
ثَوُوا بِالصَّدْقِ عَنْ جَرَحٍ وَمَيْنٍ^(١)

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبُو السَّرِيِّ عَمَارُ بْنُ زِيَادٍ صَاحِبُنَا^(٢) عَمَّنْ
يَثِقُ بِهِ، أَنَّ الْكَاتِبَ ابْنَ قُرْزَمَانَ^(٣) امْتَحَنَ بِمَحَبَّةِ أَسْلَمَ بْنِ عَبْدِ

(١) المين: الكذب (اللسان/مان).

(٢) عَمَارُ بْنُ زِيَادٍ: مِنْ مَعَاصِرِي ابْنِ حَزْمٍ وَأَصْدِقَائِهِ. سَبَقَ ذَكَرَهُ فِي الْبَابَيْنِ
الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ عَشَرَ وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَى تَرْجُمَةٍ وَافِيَةٍ لَهُ.

(٣) ابْنُ قُرْزَمَانَ: يَدُلُّ سِيَاقُ الْقِصَّةِ عَلَى أَنَّهُ أَحْمَدُ بْنُ كَلِيبِ التَّحَوِيِّ: أَدِيبٌ شَاعِرٌ
أَنْدَلُسِيٌّ، اشْتَهَرَ بِشِعْرِهِ فِي «أَسْلَمَ»، وَكَانَ قَدْ أَفْرَطَ فِي حُبِّهِ حَتَّى أَذَاهُ ذَلِكَ
إِلَى مَوْتِهِ. وَتَذَكَّرَ الْمَصَادِرُ فِي تَفْصِيلِ ذَلِكَ قِصَّةَ طَوِيلَةٍ مِنْهَا أَنَّ ابْنَ كَلِيبٍ هَذَا
كَانَ يَقُولُ فِي «أَسْلَمَ» أَشْعَاراً خَفِيَّةً، ثُمَّ ذَاعَتْ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْمَغْنِينِ، فَلَمَّا
شَاعَ ذَلِكَ اسْتَحَى «أَسْلَمَ» وَانْقَطَعَ عَنِ الظُّهُورِ، فَتَحِيلَ ابْنُ كَلِيبٍ لِلْقَائِنِ، إِذْ
جَاءَهُ لَيْلاً فِي زِيٍّ فَلَاحَ يَبِيعُ الدِّجَاجَ، وَكَلَّمَهُ، فَتَعَرَفَ عَلَيْهِ أَسْلَمُ، فَتَرَكَهُ =

العزیز^(١)، أخي الحاجب هاشم بن عبد العزیز^(٢). وكان أسلم غاية في الجمال، حتى أضجعه لما به وأوقعه في أسباب المنيّة. وكان أسلم كثير الإلمام به والزياره له، ولا علم له بأنه أصل دائه، إلى أن توفي أسفاً ودنفاً.

قال المخبر: «فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته، فتأسف وقال: هلا أعلمتني؟ فقلت: ولم؟ قال: كنت والله أزيد في صلته وما أكاد أفارقه، فما علي في ذلك ضرر»^(٣). وكان أسلم

= ودخل داره كارهاً لما جرى، فمرض ابن كليب عقيب ذلك لما استمر على عدم رؤيته، ولما حضرته الوفاة أنشد أبياتاً (مذكورة في ترجمته) طلب إبلاغها إلى أسلم، وفارق الحياة بعدها، فبقي أسلم زائراً لقبره، حتى في يوم مطير لا يكاد أحد أن يمشي فيه. ينظر: «جذوة المقتبس»: ج ١/ ص ٢٢٢ وما بعدها. وكذلك «معجم الأدباء» لياقوت: تحقيق د. عمر فاروق الطباع - مؤسسة المعارف - بيروت - ط ١ - ١٩٩٩ - المجلد الثاني - ص ٧٥.

(١) أسلم بن عبد العزيز: هو أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبد العزيز، أبو الحسن، كان ينتسب إلى بيت جليل من بيوت قرطبة، وكان شاعراً أديباً، له كتاب معروف في أغاني «زرياب». وقد مرّت قصته مع أحمد بن كليب في الحاشية السابقة. «جذوة المقتبس»: ج ١/ ص ٢٢٦ - ٢٦٧ على التوالي.

(٢) هاشم بن عبد العزيز بن هاشم (أبو خالد): وردت ترجمته في كتاب «المغرب في حلى المغرب» لمؤلفيه الستة، وفيها أن أصله من موالى عثمان بن عفان بالبيرة، وكان ذا قدر ونفوذ عند سلطان الأندلس محمد بن عبد الرحمن، حتى صيره أخصّ وزرائه. كان تيّاهاً ملأ الصدور من بغضه. ولمّا مات محمد وولي ابنه المنذر بن محمد - وكان قد امتلأ صدره عليه غيظاً - قتله شرّ قتلة. فيما ذكر صاحب الجذوة أنه أخو أسلم بن عبد العزيز القاضي، وأنه مذكور بفضل وأدب. يُنظر: «المغرب في حلى المغرب» بتحقيق شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - دون تاريخ - ج ٢/ ص ٩٤. و«جذوة المقتبس»: ج ٢/ ص ٥٨١.

(٣) تذكر القصة الواردة في «جذوة المقتبس» وبعض المصادر شيئاً آخر مفاده أنّ =

هذا مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ الْبَارِعِ وَالتَّفَنُّنِ، مَعَ حَظٍّ مِنَ الْفِقْهِ وَافِرٍ، وَذَا بَصَارَةٍ فِي الشَّعْرِ. وَلَهُ شِعْرٌ جَيِّدٌ، وَلَهُ مَعْرِفَةٌ بِالْأَغَانِي وَتَصَرُّفُهَا، وَهُوَ صَاحِبٌ تَأْلِيفٍ فِي طَرَائِقِ غِنَاءِ زُرْيَابٍ^(١) وَأَخْبَارِهِ، وَهُوَ دِيوَانٌ عَجِيبٌ جَدًّا. وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقًا وَخُلُقًا، وَهُوَ وَالِدُ أَبِي الْجَعْدِ^(٢) الَّذِي كَانَ سَاكِنًا بِالْجَانِبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ قُرْطُبَةٍ^(*).

= أسلم كان قد امتنع عن زيارة ابن كليب رغم اشتداد مرضه وإلحاحه في طلبه، استحياءً وتبرُّماً من انشراح أمره معه. البصارة (بالفتح) مصدر (بَصُرَ) أي البصيرة، وهي الرؤية الحكيمة.

(١) زرياب (المغني المشهور): علي بن نافع، أبو الحسن، الملقب بزرياب، مولى المهدي العباسي، نابغة الموسيقى في زمنه. كان شاعراً مطبوعاً، حسن الصوت، عالماً بالفنون، عارفاً بأحوال الملوك، أخذ الغناء ببغداد عن إسحاق الموصلي وغيره، وسافر إلى الشام ومنها إلى الأندلس، فأقام بقرطبة، وتوفي فيها حوالي سنة (٢٣٠هـ). ينظر الأعلام: مج ٥/ ص ٢٨.

(٢) أبو الجعد: هذه كنية القاضي أسلم بن عبد العزيز، ولكن حديث ابن حزم هنا يدل على أنها تخصُّ أحد أحفاد القاضي أسلم، من أبناء أسلم بن أحمد الذي مرَّت قصته مع ابن كليب النحوي الكاتب.

(*) ينبغي هنا الاحتراز في قراءة هذه الحكاية، فلا ينصرف ذهن القارئ إلى أحدٍ مِمَّنْ اشتهر باسم «ابن قزمان» في الأندلس، وهما اثنان: أولهما (أبو بكر) محمد عبد الملك بن عيسى بن قزمان القرطبي الأندلسي الوزير الكاتب المتوفى سنة (٥٠٨هـ). والثاني: هو ابن قزمان الشاعر والزَّجَّال المشهور، محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى (أبو بكر)، وهو ابن أخ الوزير الكاتب المذكور، وقد سُمِّي الشاعر الزَّجَّال هذا بابن قزمان الأصغر، تمييزاً له عن عمه الوزير، وتوفي سنة (٥٥٥هـ)، وهذا يظهر أن أيّاً من هذين القزمانين لم يعاصر ابن حزم المتوفى سنة (٤٥٦هـ) بل جاء بعده، وبذلك لا صلة لأَيٍّ منهما بمضمون الخبر.

وإذا كانت كتب الأدب والتراجم قد ذكرت قصة «أحمد بن كليب» النحوي الكاتب مع من سمَّاه ابن حزم «أسلم بن عبد العزيز»، فإنَّ ترجمة ابن =

وَأَنَا أَعْلَمُ جَارِيَةً كَانَتْ لِبَعْضِ الرُّؤَسَاءِ فَعَزَفَ عَنْهَا لِشَيْءٍ بَلَغَهُ

= كليب لم تقترن في أي من المصادر التي بين أيدينا باسم «ابن قزمان» الذي ذكره ابن حزم. وهذا يثير التساؤل حول هوية ابن قزمان هذا؟

يضاف إلى ذلك أن أسلم بن عبد العزيز المذكور في قصة «الطوق» هو كما ذكرته المصادر أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبد العزيز (أبو الحسن)، حفيد القاضي أسلم بن عبد العزيز (أبو الجعد)، وقصته مع ابن كليب تختلف في بعض تفاصيلها عما أورده ابن حزم في هذا الباب، إضافة إلى أن ابن حزم يذكر من القرائن عن أسلم ما يكاد يوهم بأنه يقصد به أسلم بن عبد العزيز بن هاشم (أبا الجعد) قاضي الجماعة بقرطبة المتوفي سنة (٣١٠هـ). إذ يذكر أن له أخاً اسمه هاشم بن عبد العزيز بن هاشم، وهو ما تؤكد المصادر التي ترجمت لأسلم وهاشم. (جدوة المقتبس: ج ١/ ص ٢٦٧ - ج ٢/ ص ٥٨١). فإذا تذكرنا أن ابن كليب: توفي سنة (٤٢٦هـ)، وأن أسلم المذكور في حكايته معه قد عاش بعده وزار قبره، أدركنا أن لا صلة للقاضي أسلم بن عبد العزيز (ت ٣١٠هـ) بهذه الحادثة كلها، بدليل أن ابن حزم يورد في نهاية الحكاية من الأوصاف ما ينطبق على شخصية أسلم بن أحمد بن سعيد: حفيد القاضي أسلم المذكور، من حيث معرفته بالأغاني وتأليفه حول زرياب.

ولعل هذا اللبس الذي تثيره القصة لدى القارئ عائد إلى شيء من التشابه في الأسماء والكنى بين القاضي أسلم وبعض أحفاده ممن عاشوا في قرطبة، لكن ما يبقى مثيراً للتساؤل هو الاختلاف في تفاصيل قصة أسلم وعاشقه بين ابن حزم وبقية المصادر، فهل نحن إزاء قصتين مختلفتين تخص أولاهما القاضي أسلم بن عبد العزيز مع من سماه صاحب الطوق بابن قزمان؟ إذ تذكر المصادر بعض من حمل هذا الاسم أو ما شابهه (ابن قزلمان)؟ من معاصري القاضي أسلم الذي يذكر ابن حزم أسفه على موت ابن قزمان (أو قزلمان) وأنه كان على استعداد لزيارته وصلته قبل موته. أما القصة الثانية فتخص أسلم بن أحمد مع أحمد بن كليب، وفيها ما يشير إلى امتناع أسلم عن زيارة عاشقه المشرف على الموت. هذا أمر لا يمكننا أن نقطع به دون مزيد من الثبوت، وحسبنا أننا أثّرنا انتباه القارئ إليه.

في جهتها لم يكن يُوجبُ السُّخْطَ، فَبَاعَهَا. فَجَزَعَتْ لِدَلِكْ جَزَعًا شَدِيدًا، وما فَارَقَهَا التُّحُولُ وَالْأَسْفُ، ولا بَانَ عَنْ عَيْنِهَا الدَّمْعُ إِلَى أَنْ سَلَتْ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ مَوْتِهَا. وَلَمْ تَعِشْ بَعْدَ خُرُوجِهَا عَنْهُ، إِلَّا أَشْهُرًا لَيْسَتْ بالكثيرة. وَلَقَدْ أَخْبَرْتَنِي عَنْهَا امْرَأَةٌ أَثِقُ بِهَا، أَنَّهَا لَقِيَتْهَا وَهِيَ قَدْ صَارَتْ كَالْخِيَالِ نُحُولًا وَرِقَّةً، فَقَالَتْ لَهَا: «أَحْسَبُ هَذَا الَّذِي بِكَ مِنْ مَحَبَّتِكَ لِفُلَانٍ؟» فَتَنَفَّسَتِ الصُّعْدَاءُ وَقَالَتْ: «وَاللَّهِ لَا نَسِيْتُهُ أَبَدًا وَإِنْ كَانَ جَفَانِي بِلا سَبَبٍ». وما عاشت بعدَ هذا القولِ إِلَّا يَسِيرًا.

وأنا أَخْبَرُكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَخِي ^(١) (رَحِمَهُ اللَّهُ) وَكَانَ مُتَزَوِّجًا بِعَاتِكَةَ بِنْتِ قَنْدٍ، صَاحِبِ الثَّغْرِ الْأَعْلَى أَيَّامَ الْمَنْصُورِ أَبِي عَامِرٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ بْنِ أَبِي عَامِرٍ، وَكَانَتْ الَّتِي لَا مَرَمَى وَرَاءَهَا فِي جَمَالِهَا وَكَرِيمِ خِلَالِهَا، وَلَا تَأْتِي الدُّنْيَا بِمِثْلِهَا فِي فِضَائِلِهَا. وَكَانَا فِي حَدِّ الصَّبَا وَتَمَكَّنَ سُلْطَانِهِ، تُغَضِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا قَدْرَ لَهَا، فَكَانَا، لَمْ يَزَالَا فِي تَغَاظِبٍ وَتَعَاتِبٍ مَدَّةَ ثَمَانِيَةِ أَعْوَامٍ؛ وَكَانَتْ قَدْ شَفَّهَا ^(٢) حُبُّهُ وَأَضْنَاهَا الْوَجْدُ فِيهِ، وَأَنْحَلَهَا شِدَّةَ كَلْفِهَا بِهِ، حَتَّى صَارَتْ كَالْخِيَالِ الْمُتَوَسِّمِ دَنْفًا ^(٣)، لَا يُلْهِيْهَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ، وَلَا تُسَرُّ مِنْ أَمْوَالِهَا، عَلَى عَرَضِهَا وَتَكَاثُرِهَا، بِقَلِيلٍ وَلَا

(١) أبو بكر أخو المؤلف. وقند هذا من موالى عبد الرحمن الناصر وقادته المعروفين، وكان له بنت جميلة تسمى عاتكة، تزوجها أبو بكر، الأخ الأكبر لأبي محمد علي بن حزم صاحب الطوق. وتوفي أبو بكر في سن مبكرة بالطاعون حوالي سنة (٤٠١هـ). ينظر: «موسوعة تاريخ الأندلس» للدكتور حسين مؤنس: ج ٢/ ص ٣٨٠.

(٢) شَفَّهَا: أَنْحَلَهَا.

(٣) الدنف: المرض الشديد المودي إلى الموت.

كثير، إذا فاتها اتَّفَاقُهُ مَعَهَا وسَلَامَتُهُ لَهَا، إلى أن تُوفِّي أخي (رَحِمَهُ اللَّهُ) في الطَّاعُونَ الواقع بِقَرْطَبَةِ في شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ إِحْدَى وأَرْبَعَمِائَةٍ، وهو ابن اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً، فما انفَكَتْ مُنْذُ بَانَ عَنْهَا، مَنِ السَّقَمِ الدَّخِيلِ، والمَرَضِ والدُّبُولِ، إلى أن ماتَتْ بَعْدَهُ بَعَامٍ في اليَوْمِ الَّذِي أَكْمَلَ هُوَ فِيهِ تَحْتَ الأَرْضِ عَاماً.

وَلَقَدْ أَخْبَرْتَنِي عَنْهَا أُمُّهَا وَجَمِيعُ جَوَارِيهَا، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ بَعْدَهُ: «ما يُقَوِّي صَبْرِي وَيُمْسِكُ رَمَقِي في الدُّنْيَا سَاعَةً وَاحِدَةً بَعْدَ وَفَاتِهِ، إِلَّا سُرُورِي وَتَيَقُّنِي أَنَّهُ لَا يَضُمُّهُ وامْرَأَةٌ مَضْجَعُ أَبَدًا، فَقَدْ أَمِنْتُ هَذَا الَّذِي مَا كُنْتُ أَتَخَوَّفُ غَيْرَهُ، وَأَعْظَمُ آمَالِي اليَوْمَ اللِّحَاقُ بِهِ».

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلُهَا وَلَا مَعَهَا امْرَأَةٌ غَيْرُهَا، وَهِيَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهَا غَيْرُهُ، فَكَانَ كَمَا قَدَّرْتُ. غَفَرَ اللَّهُ لَهَا وَرَضِيَ عَنْهَا.

وَأَمَّا خَبَرُ صَاحِبِنَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ التَّمِيمِيِّ، المعروفِ بِابْنِ الطُّبْنِيِّ^(١)، فَإِنَّهُ كَانَ (رَحِمَهُ اللَّهُ) كَأَنَّهُ قَدْ خُلِقَ الْحُسْنُ عَلَى مِثَالِهِ، أَوْ خُلِقَ مِنْ نَفْسٍ كُلِّ مَنْ رَأَهُ. لَمْ أَشَاهِدْ لَهُ مِثْلاً حُسْناً وَجَمَالاً، وَخُلُقاً وَعِفَّةً، وَتَصَاوُنًا^(٢) وَأَدَباً،

(١) ابْنِ الطُّبْنِيِّ: مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْجِمَانِيِّ السَّعْدِيِّ الطُّبْنِيِّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، هَكَذَا أوردَهُ صَاحِبُ «جَدْوَةِ الْمُقْتَبَسِ»، وَذَكَرَ أَنَّ نَسَبَهُ يَرْجِعُ إِلَى تَمِيمٍ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَدَبٍ وَشَعْرٍ وَرِيَاسَةٍ وَجَلَالَةٍ، وَذَكَرَ أَيْبَاتِهِ الَّتِي أوردَهَا ابْنُ حَزَمٍ فِي هَذَا الْبَابِ مَعَ اخْتِلَافٍ طَفِيفٍ فِي تَرْتِيبِهَا. تَنْظُرُ: «جَدْوَةُ الْمُقْتَبَسِ» ج ١/ ص ١٦١.

(٢) التَّصَاوُنُ - وَقَدْ اسْتَعْمَدَهَا ابْنُ حَزَمٍ كَثِيراً - هِيَ الْحَصَانَةُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمُنْكَرِ...

وفَهْمًا وحِلْمًا، ووفاءً وسُؤْدُدًا، وطَهارةً وكرمًا ودَمائَةً وحِلَاوَةً،
ولَباقَةً وإِغْضَاءً، وعَقْلًا ومُرُوءَةً، ودينًا ودِرَايةً، وحِفْظًا للقرآن
والحدِيثِ والنَّحو واللُّغَةِ؛ وشاعراً مُفْلِحًا، حَسَنَ الخَطِّ، وَبَلِغًا
مُفَنِّنًا، مَعَ حَظٍّ صَالِحٍ مِنَ الكَلَامِ والجَدَلِ. وكانَ من غِلْمانِ أَبِي
القَاسِمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ الْأَزْدِيِّ^(١) أَسْتَاذِي فِي هَذَا
الشَّانِ، وكانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ^(٢) اثْنَا عَشَرَ عَامًا فِي السَّنِّ. وَكُنْتُ
أَنَا وَهُوَ، مُتَقَارِبَيْنِ فِي الْأَسْنَانِ، وَكُنَّا أَلْيَقَيْنِ لَا نَفْتَرِقُ،
وَخِدْنَيْنِ^(٣) لَا يَجْرِي الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَّا صَفَاءً، إِلَى أَنْ أَلَقْتُ الْفِتْنَةَ
جِرَانَهَا وَأَرْخَتُ عَزَالِيهَا^(٤)، وَوَقَعَ انْتِهَابُ جُنْدِ الْبَرْبَرِ مَنَازِلَنَا فِي
الْجَانِبِ الْعَرَبِيِّ بِقُرْطُبَةٍ، وَنَزُولُهُمْ فِيهَا. وَكَانَ مَسْكَنُ أَبِي عَبْدِ
اللَّهِ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ بِبَلَاطٍ مُغِيثٍ^(٥). وَتَقَلَّبْتُ بَيْنَ الْأُمُورِ
إِلَى الْخُرُوجِ عَنْ قُرْطُبَةٍ وَسُكْنَى مَدِينَةِ الْمَرِيَّةِ^(٦)، فَكُنَّا نَنْتَهَادِي

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي: سبقت ترجمته.

(٢) في ط د. عباس: «بينه وبين أبيه»، وإذا حاكمنا المسألة في منطقنا المعاصر نجد أن «أخيه» أصح لأن ابن اثني عشرة سنة لا يمكن أن يكون له ولد. أما إذا حاكمناها في ضوء مذهب ابن حزم الذي يحدثنا عن سن البلوغ في التاسعة، فطبيعي أن يتزوج (الصبي) في الحادية عشرة وينجب في الثانية عشرة ويكون «بينه وبين أبيه» صحيحاً.

(٣) الخِذْنُ: الصَّدِيقُ، والصَّدِيقُ فِي السَّرِّ. (اللسان/خذن).

(٤) عَزَالِيهَا: الْعِزْلَاءُ: مَصَبُ الْمَاءِ، وَالْجَمْعُ الْعِزَالِي، وَفِي الْحَدِيثِ «أُرْسِلَتْ السَّمَاءُ عِزَالِيهَا» كَثَرُ مَطَرُهَا «اللسان/عزل» وَأَرْخَتُ الْفِتْنَةَ عِزَالِيهَا: أَرْخَتُ بِوَأَيْلِ سَيِّئَاتِهَا.

(٥) بَلَاطُ مُغِيثٍ: وَرَدَ ذَكَرُهُ سَابِقًا فِي صَفْحَةِ ٣٠٣ الْحَاشِيَةِ (١).

(٦) الْمَرِيَّةُ عُرِفَ بِهَا مَرَارًا، مَدِينَةٌ فِي الْأَنْدَلُسِ.

النَّظْمَ والنَّثَرَ كَثِيراً. وَآخِرُ مَا خَاطَبَنِي بِهِ رِسَالَةٌ فِي دَرَجِهَا هَذِهِ
الْأَبْيَاتُ :

[من الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ حَبْلِ وَدُكَ هَلْ يُمِ
سِي جَدِيداً لَدَيَّ غَيْرَ رَثِيثٍ
وَأُرَانِي أَرَى مُحَيَّيَاكَ يَوْماً
وَأُنَاجِيكَ فِي بَلَاطٍ مُغِيثٍ
فَلَوْ أَنَّ الدِّيَارَ يُنْهَضُهَا الشَّو
قُ، أَتَاكَ الْبَلَاطُ كَالْمُسْتَغِيثِ
وَلَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ تَسْطِيعُ سَيْراً
سَارَ قَلْبِي إِلَيْكَ سَيْرَ الْحَثِيثِ
كُنْ كَمَا شِئْتَ لِي، فَإِنِّي مُحِبٌّ
لَيْسَ لِي غَيْرَ ذِكْرِكُمْ مِنْ حَدِيثِ
لَكَ عِنْدِي، وَإِنْ تَنَاسَيْتَ، عَهْدُ
فِي صَمِيمِ الْفُؤَادِ غَيْرُ نَكِيثِ
فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، إِلَى أَنْ انْقَطَعَتْ دَوْلَةُ بَنِي مَرْوَانَ^(١)، وَقُتِلَ
سُلَيْمَانُ الظَّافِرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ^(٢)، وَظَهَرَتْ دَوْلَةُ الطَّالِبِيَّةِ^(٣)، وَبُوعِ

(١) بنو مروان: بنو أمية الذين أقاموا دولتهم في الأندلس.

(٢) سليمان الظافر: سبقت ترجمته، وهو سليمان بن الحكم الخليفة الأموي الأندلسي. ثار عليه قائده علي بن حمود، وقتله سنة (٤٠٧هـ). وانقطع بمقتله ذكر دولة بني أمية في الأندلس سبع سنوات.

(٣) دولة الطالبية: نسبة إلى صُلْبِ علي بن أبي طالب، وقد أنشأها قائدان من جند سليمان هما الأخوان القاسم وعلي، ابنا حمود بن ميمون ويرجع نسبهما إلى الحسن بن علي بن أبي طالب.

عليُّ بنُ حمودِ الحَسَنِيِّ^(١)، المُسمَّى بالنَّاصِرِ، بالخِلافَةِ، وَغَلَبَ على قُرُطْبَةَ وتملَّكها، واستمرَّ في قتالِهِ إيَّها بجيوشِ المُتَغَلِّبِينَ والثُّوَارِ في أَقْطَارِ الأَنْدَلُسِ.

وفي إثرِ ذلكِ نَكَبَنِي خَيْرَانُ صَاحِبُ المَرِيَّةِ^(٢)؛ إِذْ نَقَلَ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ البَاغِينَ، وقد انتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ، عني وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، صَاحِبِي^(٣) أَنَا نَسْعَى فِي القِيَامِ بِدَعْوَةِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ، فاعْتَقَلْنَا عِنْدَ نَفْسِهِ أَشْهُرًا، ثُمَّ أَخْرَجْنَا على جَهَةِ التَّغْرِيبِ، فَصَرْنَا إلى حِصْنِ القَصْرِ^(٤)، وَلَقَيْنَا صَاحِبَهُ أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُذَيْلِ التَّجِيبِيِّ، المعروفُ بِابْنِ المُقْفَلِ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ

(١) علي بن حمود الحسني: هو القائد المذكور في الحاشية السابقة، واسمه علي بن حمود بن ميمون بن أحمد الإدريسي الحسني العلوي، الملقب بالناصر لدين الله: أول ملوك الدولة الحسنية الحمودية بقرطبة ولد سنة (٣٥٤هـ). كان من جملة أجناد سليمان بن الحكم الأموي (الظافر)، وولاه سليمان مدينتي سبتة وطنجة، فجمع أنصاره وزحف بهم إلى قرطبة، فدخلها بعد قتال، وقبض على سليمان بن الحكم وأبيه الحكم بن سليمان فقتلها في يوم واحد، وتلقب بالناصر لدين الله، واستتب له الأمر عامين غير شهرين، إذ خرج عليه الموالي وقتلوه سنة (٤٠٨هـ) ينظر: «جدوة المقتبس»: ج ١/ص ٤٩ وما بعدها، وأعلام الزركلي: مج ٤/ص ٢٨٤.

(٢) خيران صاحب المريّة: سبقت ترجمته - ص ٢٤٤ الحاشية (٥).

(٣) محمد بن إسحاق: لعنه محمد بن إسحاق المهلب، أبو بكر الإسحاق الوزير، صاحب ابن حزم، وقد سبق ذكره وترجمته في أواخر الباب الثاني من الرسالة - ص ٦٢.

(٤) حصن القصر: ورد في بعض المصادر «جبل القصر»، يقع إلى الجنوب الغربي من إشبيلية، وهو من المعازل المذكورة في المصادر التاريخية والجغرافية الأندلسية. ذكره الإدريسي في «نزهة المشتاق» - عالم الكتب - بيروت - ط ١ - ١٩٨٩ مج ٢/ص ٥٣٧.

شُهُوراً فِي خَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ، وَبَيَّنَّ خَيْرَ أَهْلِ وَجِيرَانٍ، وَعِنْدَ أَجَلِ النَّاسِ هِمَّةً، وَأَكْمَلَهُمْ مَعْرُوفاً، وَأَتَمَّهُمْ سَيَادَةً، ثُمَّ رَكِبْنَا الْبَحْرَ قَاصِدِينَ بِلَنْسِيَّةٍ^(١) عِنْدَ طُهورِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُرتَضَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ^(٢)، وَسَاكِنَاهُ بِهَا. فَوَجَدْتُ بِلَنْسِيَّةَ أَبَا شَاكِرٍ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مَوْهَبِ الْقُبْرِيِّ، صَدِيقَنَا^(٣)، فَنَعَى إِلَيَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطُّبْنِيِّ^(٤)، وَأَخْبَرَنِي بِمَوْتِهِ (رَحِمَهُ اللَّهُ). ثُمَّ أَخْبَرَنِي بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَيَّةٍ^(٥) الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُرَادِيِّ^(٦)، وَأَبُو عَمْرٍو أَحْمَدُ بْنُ مُحَرِّزٍ^(٧)، أَنَّ أَبَا بَكْرَ الْمُصْعَبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْدِيَّ^(٨)،

(١) بِلَنْسِيَّة Valencia: مدينة مشهورة بالأندلس شرق قرطبة، وصفها ياقوت بأنها برية بحرية، ذات أشجار وأنهار، وعُرِفَتْ قديماً باسم مدينة التراب، كانت عاصمة مملكة بلنسية الإسلامية القديمة، وهي اليوم عاصمة مقاطعة بلنسية الإسبانية، على البحر الأبيض المتوسط. ينظر: «معجم البلدان لياقوت»: ج ١/ ص ٥٨١. وموسوعة المورد للبعليكي: مج ١/ ص ٢٤٢.

(٢) المرتضى عبد الرحمن بن محمد: سبقت ترجمته - ص ١٢١.

(٣) أبو شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبري: سبقت ترجمته في نهاية الباب الرابع - ص ١٠٥ الحاشية (٣).

(٤) أبو عبد الله بن الطنبني: سبقت ترجمته قبل قليل.

(٥) مُدَيَّة: مُصْعَر مُدَّة.

(٦) القاضي أبو الوليد يونس بن محمد المرادي: مرَّ ذكره سابقاً.

(٧) أبو عمرو أحمد بن محرز: لم أجد ترجمته.

(٨) المصعب بن عبد الله الأزدي (أبو بكر): هذا ولد (ابن الفرضي) صاحب «تاريخ علماء الأندلس». وردت ترجمته في «جذوة المقتبس» وهو مصعب بن عبد الله بن محمد بن يوسف، وعرف بابن الفرضي مثل أبيه. أديب مُحدثٌ إخباري شاعر. ذُكِرَ أنه عاش إلى ما بعد سنة (٤٤٠هـ). «جذوة المقتبس»: ج ٢/ ص ٥٦٣. أمَّا أبوه مؤلف كتاب «تاريخ علماء الأندلس» فهو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي. وترجمته في «جذوة المقتبس»: ج ١/ ص ٣٩٦.

المَعْرُوفَ بَابِنِ الْفَرَضِيِّ، حَدَّثَهُمَا، وَكَانَ وَالِدُ الْمُضْعَبِ هَذَا، قَاضِي بَلَنْسِيَّةَ أَيَّامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيِّ، وَكَانَ الْمُضْعَبُ لَنَا صَدِيقاً وَأَخاً وَأَيْلِفاً أَيَّامَ طَلَبِنَا الْحَدِيثَ عَلَى وَالِدِهِ وَسَائِرِ شُيُوخِ الْمُحَدِّثِينَ بِقُرْطُبَةٍ، قَالَا: «قَالَ لَنَا الْمُضْعَبُ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطُّبْنِيِّ عَنْ سَبَبِ عِلَّتِهِ، وَهُوَ قَدْ نَحَلَ وَخَفِيَتْ مُحَاسِنُ وَجْهِهِ بِالضَّنَى، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَيْنٌ، جَوْهَرُهَا الْمُخْبِرُ عَنْ صِفَاتِهَا السَّالِفَةِ. وَصَارَ يَكَادُ أَنْ يُطَيِّرَهُ النَّفْسُ، وَقُرْبَ مِنَ الْأَنْحَنَاءِ، وَالشَّجَا^(١)» بَادٍ عَلَى وَجْهِهِ، وَنَحْنُ مُنْفَرِدَانِ، فَقَالَ لِي: نَعَمْ؛ أَخْبَرَكُ أَنِّي كُنْتُ عَلَى بَابِ دَارِي بِغَدِيرِ ابْنِ الشَّمَّاسِ^(٢) فِي حِينَ دُخُولِ عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ قُرْطُبَةَ^(٣)، وَالْجِيُوشُ وَارِدَةٌ عَلَيْهَا مِنَ الْجِهَاتِ تَسَارِبُ، فَرَأَيْتُ فِي جُمْلَتِهِمْ فَتًى، لَمْ أَقْدِرْ أَنْ لِلْحُسْنِ صُورَةً قَائِمَةً، حَتَّى رَأَيْتُهُ، فَعَلَبَ عَلَى عَقْلِي وَهَامَ بِهِ لُبِّي؛ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ لِي: هَذَا فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ، مِنْ سُكَّانِ جِهَةِ كَذَا، نَاحِيَةِ قَاصِيَةٍ عَنْ قُرْطُبَةَ بَعِيدَةِ الْمَآخِذِ. فَيَسَّسْتُ مِنْ رُؤْيَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَعَمْرِي يَا أَبَا بَكْرٍ لَا فَارِقَنِي حُبُّهُ أَوْ يُورِدَنِي رَمْسِي».

فَكَانَ كَذَلِكَ، وَأَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ الْفَتَى وَأَذْرِيهِ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ، لَكِنِّي أَضْرَبْتُ عَنْ اسْمِهِ. لِأَنَّهُ قَدْ مَاتَ، وَالتَّقَى كِلَاهُمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. عَفَا اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ.

هَذَا، عَلَى أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَكْرَمَ اللَّهُ نُزُلَهُ، مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَهٌ^(٤)

(١) الشَّجَا: الحزن.

(٢) غدير ابن الشَّمَّاس: حَيٌّ مِنْ أَحْيَاءِ قُرْطُبَةِ الْقَدِيمَةِ.

(٣) عَلِيٌّ بْنُ حَمُودٍ: سَبَقَ ذَكَرَهُ.

(٤) أَتَسْأَلُ: هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَقْرَأَ: «لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ قَطُّ؟» مَعَ التَّنْبِهِ إِلَى أَنَّ الْمَذْكُورَ

كَانَ يَكْنَى بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ؟!

قُطْ، وَلَا فَارَقَ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى، وَلَا وَطِئَ حَرَاماً قُطْ، وَلَا قَارَفَ مُنْكَرًا، وَلَا أَتَى مِنْهَا عَنْهُ يُخْلُ بِدِينِهِ وَمُرُوءَتِهِ، وَلَا قَارَضَ ^(١) مِنْ جَفَا عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ فِي طَبَقَتِنَا مِثْلَهُ.

فَلَمْ أَقْدَمْ شَيْئاً عَلَى قَصْدِ أَبِي عمرو القاسمِ بْنِ يَحْيَى التَّمِيمِيِّ ^(٢) أَخِي [أبي] عَبْدِ اللَّهِ (رَحِمَهُ اللَّهُ). فَسَأَلْتُهُ عَنْ حَالِهِ وَعَزِيَّتِهِ عَنْ أَخِيهِ، وَمَا كَانَ أَوْلَى بِالْتَّعْزِيَةِ عَنْهُ مِثِّي؛ ثُمَّ سَأَلْتُهُ عَنْ أَشْعَارِهِ وَرَسَائِلِهِ، إِذْ كَانَ الَّذِي عِنْدِي مِنْهُ قَدْ ذَهَبَ بِالنَّهَبِ، فِي السَّبَبِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ، فَأَخْبَرَنِي عَنْهُ: أَنَّهُ لَمَّا قَرُبَتْ وَفَاتُهُ، وَأَيَّقَنَ بِحُضُورِ الْمَنِيَّةِ، وَلَمْ يَشْكُ فِي الْمَوْتِ، دَعَا بِجَمِيعِ شِعْرِهِ وَبِكُتُبِي الَّتِي كُنْتُ خَاطِبْتُهُ أَنَا بِهَا، فَقَطَّعَهَا كُلَّهَا ثُمَّ أَمَرَ بِدَفْنِهَا. قَالَ أَبُو عمرو: «فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَخِي، دَعَهَا تَبَقْ» ^(٣). فَقَالَ: إِنِّي أَقَطُّعُهَا، وَأَنَا أَدْرِي أَنِّي أَقَطُّعُ فِيهَا أَدَباً كَثِيراً، وَلَكِنْ لَوْ كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ^(٤) بَعَيْنِي حَاضِراً لَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ تَكُونُ عِنْدَهُ تَذَكُّرٌ لِمَوَدَّتِي، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ أَيَّ الْبِلَادِ أَضْمَرْتُهُ وَلَا أَحْيٍ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟» وَكَانَتْ نَكْبَتِي اتَّصَلَتْ

(١) المقارضة: العمل بالمثل، شراً يَشْرُ بِشَرٍّ أَوْ إِسَاءَةً بِإِسَاءَةٍ.

(٢) أبو عمرو القاسم بن يحيى التميمي: ذكرت كنيته في «جذوة المقتبس»: أبو عمر، وهو القاسم بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمي الجعاني، أديب شاعر، من أهل بيت أدب وعلم. «جذوة المقتبس»: ج ٢/ص ٥٣٠ وكلمة [أبي] ساقطة من جميع الطباعات وقد أضافها د. عباس - ص ٢٦٣.

(٣) عند القاسمي: «تبقى» غير مجزومة. والصنعة النحوية المباشرة تقتضي جَزَمَهَا، ويجوز عدم الجزم على الحال بمعنى دعها باقية، وهو التقدير الأكثر دقة والأقرب إلى المعنى.

(٤) أبو محمد: ابن حزم صاحب «طوق الحمامة».

بِهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ مُسْتَقَرِّي، وَلَا إِلَى مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرِي. فَمِنْ مَرَاثِي
لَهُ قَصِيدَةٌ، مِنْهَا:

[من المتقارب]

لِئِنْ سَتَرْتُكَ بُطُونُ اللَّحُودِ
فَوَجَدِي بَعْدَكَ لَا يَسْتَتِرُ
قَصَدْتُ دِيَارَكَ قَصْدَ الْمَشُوقِ
وَلِلدَّهْرِ فِينَا كُرُورٌ وَمَرُ
فَأَلْفَيْتُهَا مِنْكَ قَفْرًا خَلَاءَ
فَأَسْكَبْتُ عَيْنِي عَلَيْكَ الْعَبْرُ

وَحَدَّثَنِي أَبُو الْقَاسِمِ الْهَمْدَانِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ) قَالَ: كَانَ مَعَنَا بِبَغْدَادَ
أَخٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَحْمَدَ بْنِ دَحُونِ الْفَقِيهِ^(١)، الَّذِي عَلَيْهِ
مَدَارُ الْفُتْيَا بِقَرْطَبَةَ، وَكَانَ أَعْلَمَ مِنْ أَخِيهِ وَأَجَلَ مِقْدَارًا، مَا كَانَ فِي
أَصْحَابِنَا بِبَغْدَادَ مِثْلُهُ، وَأَنَّهُ اجْتَازَ يَوْمًا بِدَرْبِ قُطْنَةَ، فِي زُقَاقٍ لَا
يُنْفِذُ. فَدَخَلَ فِيهِ، فَرَأَى فِي أَقْصَاهُ جَارِيَةً وَاقِفَةً مَكْشُوفَةَ الْوَجْهِ،
فَقَالَتْ لَهُ: يَا هَذَا، إِنَّ الدَّرْبَ لَا يُنْفِذُ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَهَامَ بِهَا.
قَالَ: وَانْصَرَفَ إِلَيْنَا فَتَرَايَدَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا، وَخَشِيَ الْفِتْنَةَ، فَخَرَجَ إِلَى
الْبَصْرَةِ، فَمَاتَ بِهَا عَشَقًا (رَحِمَهُ اللَّهُ)، وَكَانَ فِيهَا ذِكْرٌ مِنَ
الصَّالِحِينَ.

حكاية

لَمْ أَزَلْ أَسْمَعُهَا عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ، أَنَّ رَجُلًا أُنْدَلُسِيًّا بَاعَ

(١) أحمد بن دحون الفقيه: هو عبد الله بن أحمد بن دحون (الأموي)، وكنيته
(أبو محمد)، من أهل قرطبة، فقيه حافظ على مذهب مالك. كانت وفاته
سنة (٤٣١هـ). «الصلة» لابن بشكوال: ج ٢/ ص ٤١١.

جَارِيَّةً، كَانَ يَجِدُ بِهَا وَجْداً شَدِيداً، لِفَاقَةِ أَصَابَتِهِ، مِنْ رَجُلٍ ^(١) مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَلَمْ يَظُنْ بَائِعُهَا أَنَّ نَفْسَهُ تَتَّبِعُهَا ذَلِكَ التَّبَعُ، فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَ الْمُشْتَرِي، كَادَتْ نَفْسُ الْأَنْدَلُسِيِّ تَخْرُجُ، فَأَتَى إِلَى الَّذِي ابْتَاعَهَا مِنْهُ، وَحَكَّمَهُ فِي مَالِهِ أَجْمَعُ وَفِي نَفْسِهِ، فَأَبَى عَلَيْهِ، فَتَحَمَّلَ عَلَيْهِ بِأَهْلِ الْبَلَدِ، فَلَمْ يُسَعِفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ. فَكَادَ عَقْلُهُ أَنْ يَذْهَبَ، وَرَأَى أَنْ يَتَصَدَّى إِلَى الْمَلِكِ، فَتَعَرَّضَ لَهُ وَصَاحَ، فَسَمِعَهُ، فَأَمَرَ بِادْخَالِهِ، وَالْمَلِكُ قَاعِدٌ فِي عُلْيَةِ لَهُ مُشْرِفَةٌ عَالِيَةٌ، فَوَصَلَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخْبَرَهُ بِقِصَّتِهِ وَأَسْتَرْحَمَهُ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ، فَزَقَّ لَهُ الْمَلِكُ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الرَّجُلِ الْمُبْتَاعِ، فَحَضَرَ، فَقَالَ لَهُ: «هَذَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، وَهُوَ كَمَا تَرَاهُ. وَأَنَا شَفِيعُهُ إِلَيْكَ»، فَأَبَى الْمُبْتَاعُ وَقَالَ: «أَنَا أَشَدُّ حُبًّا لَهَا مِنْهُ، وَأَخْشَى أَنْ صَرَفْتُهَا إِلَيْهِ أَنْ أَسْتَغِيثَ بِكَ غَدًا، وَأَنَا فِي أَسْوَأِ مِنْ حَالَتِهِ»، فَعَرَّضَ لَهُ الْمَلِكُ وَمَنْ حَوَالِيهِ، مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَأَبَى وَلَجَّ وَاعْتَذَرَ بِمَحَبَّتِهِ لَهَا، فَلَمَّا طَالَ الْمَجْلِسُ وَلَمْ يَرَوْا مِنْهُ الْبَتَّةَ جُنُوحاً إِلَى الْإِسْعَافِ، قَالَ لِلْأَنْدَلُسِيِّ: «يَا هَذَا، مَا لَكَ بِيَدِي أَكْثَرُ مِمَّا تَرَى، وَقَدْ جَهَدْتُ لَكَ بِأَبْلَغِ سَعْيٍ، وَهُوَ تَرَاهُ يَعْتَذِرُ بِأَنَّهُ فِيهَا أَحَبُّ مِنْكَ، وَأَنَّهُ يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ شَرًّا مِمَّا أَنْتَ فِيهِ؛ فَاصْبِرْ لِمَا قَضَى اللَّهُ عَلَيْكَ». فَقَالَ لَهُ الْأَنْدَلُسِيُّ: «فَمَا لِي بِبَيْدِكَ حِيلَةٌ؟» قَالَ لَهُ: «وَهَلْ هَاهُنَا غَيْرُ الرَّغْبَةِ وَالْبَذْلِ؟ مَا أَسْتَطِيعُ لَكَ أَكْثَرَ».

فَلَمَّا يَتَسَّ الْأَنْدَلُسِيُّ مِنْهَا، جَمَعَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَأَنْصَبَ مِنْ أَعْلَى الْعُلْيَةِ إِلَى الْأَرْضِ، فَارْتَاعَ الْمَلِكُ وَصَرَخَ، فَابْتَدَرَ الْعِلْمَانُ مِنْ أَسْفَلٍ، فَقَضِيَّ أَنَّهُ لَمْ يَتَأَذَّ فِي ذَلِكَ الْوُقُوعِ كَبِيرَ أَذًى، فَصُعِدَ بِهِ إِلَى

(١) باع: يتعدى بنفسه وبحرف الجر (من)، ويؤدي المعنى ذاته (اللسان/باع).

الْمَلِكِ، فَقَالَ: «مَاذَا أَرَدْتَ بِهَذَا؟» فَقَالَ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، لَا سَبِيلَ لِي إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَهَا»، ثُمَّ هَمَّ أَنْ يَرْمِيَ نَفْسَهُ ثَانِيَةً، فَمُنِعَ. فَقَالَ الْمَلِكُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، قَدْ ظَهَرَ وَجْهُ الْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ» ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَى الْمُشْتَرِي فَقَالَ: «يَا هَذَا، إِنَّكَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ أَوْدُ لَهَا مِنْهُ، وَتَخَافُ أَنْ تَصِيرَ فِي مِثْلِ حَالِهِ» فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنَّ صَاحِبَكَ هَذَا أَبْدَى عُنوانَ مَحَبَّتِهِ، وَقَذَفَ بِنَفْسِهِ يُرِيدُ الْمَوْتَ، لَوْلا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَقَاهُ، فَأَنْتَ قُمْ فَصَحِّحْ حُبَّكَ، وَتَرَامَ مِنْ أَعْلَى هَذِهِ الْقَصَبَةِ كَمَا فَعَلَ صَاحِبُكَ، فَإِنْ مِتَّ فَبِأَجْلِكَ، وَإِنْ عِشْتَ كُنْتَ أَوْلَى بِالْجَارِيَةِ، إِذْ هِيَ فِي يَدِكَ، وَيَمْضِي صَاحِبُكَ عَنْكَ، وَإِنْ أَبَيْتَ نَزَعْتُ الْجَارِيَةَ مِنْكَ رَغْماً وَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ». فَتَمَنَّعَ ثُمَّ قَالَ: «أَتَرَامِي». فَلَمَّا قَرَّبَ مِنَ الْبَابِ وَنَظَرَ إِلَى الْهُوِيِّ تَحْتَهُ، رَجَعَ الْقَهْقَرَى. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «هُوَ وَاللَّهِ مَا قُلْتُ» فَهَمَّ ثُمَّ نَكَلَ، فَلَمَّا لَمْ يُقَدِّمْ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «لَا تَتَلَاعَبْ بِنَا! يَا غُلْمَان!، خَذُوا بِيَدَيْهِ وَارْمُوا بِهِ إِلَى الْأَرْضِ». فَلَمَّا رَأَى الْعَزِيمَةَ قَالَ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ طَابَتْ نَفْسِي بِالْجَارِيَةِ». فَقَالَ لَهُ: «جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا». فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ، وَدَفَعَهَا إِلَى بَائِعِهَا، وَانْصَرَفَا.

٢٩

بَابُ قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يُطِيعُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَيَعْصُونَ عُقُولَهُمْ، وَيَتَّبِعُونَ^(١) أَهْوَاءَهُمْ، وَيَرْفُضُونَ أَدْيَانَهُمْ، وَيَتَجَنَّبُونَ مَا حَضَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَرَتَبَهُ فِي الْأَلْبَابِ السَّلِيمَةِ، مِنَ الْعَفَّةِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي، وَمُقَارَعَةِ^(٢) الْهَوَى؛ وَيُخَالِفُونَ اللَّهَ رَبَّهُمْ، وَيُؤَافِقُونَ إِبْلِيسَ فِيمَا يُحِبُّهُ، مِنَ الشَّهْوَةِ الْمُعْطَبَةِ^(٣)؛ فَيُؤَاقِعُونَ الْمَعْصِيَةَ فِي حُبِّهِمْ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، رَكَّبَ فِي الْإِنْسَانِ طَبِيعَتَيْنِ مُتَضَادَّتَيْنِ :

إِحْدَاهُمَا لَا تُشِيرُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا تَحْضُ إِلَّا عَلَى حَسَنٍ، وَلَا يَتَصَوَّرُ فِيهَا إِلَّا كُلُّ أَمْرٍ مَرْضِيٍّ، وَهِيَ الْعَقْلُ، وَقَائِدُهُ الْعَدْلُ.

وَالثَّانِيَةُ: ضِدُّ لَهَا، لَا تُشِيرُ إِلَّا إِلَى الشَّهَوَاتِ، وَلَا تَقُودُ إِلَّا إِلَى الرَّدَى، وَهِيَ النَّفْسُ، وَقَائِدُهَا الشَّهْوَةُ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وَكُنَى بِالْقَلْبِ عَنِ الْعَقْلِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَبَّ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنُ وَرَيْتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] وَخَاطَبَ أُولَى الْأَلْبَابِ.

فَهَاتَانِ الطَّبِيعَتَانِ قُطْبَانِ فِي الْإِنْسَانِ، وَهُمَا قُوتَانِ مِنْ قُوَى

(٢) قرأ بعضهم: «مفارقة».

(١) وتقرأ: «ويتبعون».

(٣) المعطبة: المهلكة.

الجَسَدِ الفَعَالِ بِهِمَا، وَمَطَرَحَانِ مِنْ مَطَارِحِ شَعَاعَاتِ هَذَيْنِ
الْجَوْهَرَيْنِ الْعَجِيبَيْنِ، الرَّفِيعَيْنِ الْعُلُويَيْنِ. ففِي كُلِّ جَسَدٍ مِنْهُمَا حَظُّهُ
عَلَى قَدَرٍ مُقَابَلَتِهِ لِهَمَّا فِي تَقْدِيرِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ، تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ،
حِينَ خَلَقَهُ وَهَيَّأَهُ. فَهُمَا يَتَقَابَلَانِ أَبَدًا وَيَتَنَارَعَانِ دَآبًّا، فَإِذَا غَلَبَ
الْعَقْلُ النَّفْسَ ارْتَدَعَ الْإِنْسَانُ. وَقَمَعَ عَوَارِضُهُ الْمَدْخُولَةَ وَأَسْتَضَاءَ
بَنُورِ اللَّهِ، وَاتَّبَعَ الْعَدْلَ؛ وَإِذَا غَلَبَتِ النَّفْسُ الْعَقْلَ عَمِيَتِ الْبَصِيرَةُ،
وَلَمْ يَتَّضِحْ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَعَظُمَ الْإِلْتِبَاسُ، وَتَرَدَّى فِي
هُوَّةِ الرَّذَى، وَمَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ^(١)، وَبِهَذَا حَسُنَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَوَجَبَ
الْاِكْتِمَالُ، وَصَحَّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَاسْتُحِقَّ الْجَزَاءُ.

وَالرُّوحُ وَاصِلٌ بَيْنَ هَاتَيْنِ الطَّبِيعَتَيْنِ، وَمُوصِلٌ^(٢) مَا بَيْنَهُمَا،
وَحَامِلٌ الْإِلْتِقَاءَ بِهِمَا. وَإِنَّ الْوُقُوفَ عِنْدَ حَدِّ الطَّاعَةِ لَمَعْدُومٌ، إِلَّا مَعَ
طُولِ الرِّيَاضَةِ، وَصِحَّةِ الْمَعْرِفَةِ، وَنَفَازِ التَّمْيِيزِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ اجْتِنَابُ
التَّعَرُّضِ لِلْفِتَنِ، وَمُدَاخَلَةُ النَّاسِ جُمْلَةً، وَالْجُلُوسُ فِي الْبُيُوتِ؛
وَبِالْحَرِيِّ أَنْ تَقَعَ السَّلَامَةُ الْمَضْمُونَةُ، أَوْ يَكُونَ الرَّجُلُ حَصُورًا^(٣) لَا
أَرْبَ لَهُ فِي النِّسَاءِ، وَلَا جَارِحَةَ لَهُ تُعِينُهُ عَلَيْهِنَّ. وَقَدِيمًا وَرَدَ: «مَنْ
وُقِيَ^(٤) شَرَّ لَفْلَقِهِ وَقَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ، فَقَدْ وُقِيَ شَرَّ الدُّنْيَا بِحَذَائِرِهَا».
وَاللَّقْلُقُ: اللِّسَانُ. وَالْقَبْقَبُ: الْبَطْنُ. وَالذَّبْذَبُ: الْفَرْجُ^(٥).

(١) الْهَلَكَةُ: مَا يَسْقُطُ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ. (الوسيط/هَلَكَ).

(٢) مُوصِلٌ، وَمُوصِلٌ.

(٣) حَصَرَ عَنِ الشَّيْءِ: امْتَنَعَ عَنْهُ عَجْزًا، فَهُوَ حَصُورٌ. وَالْحَصُورُ أَيْضًا: الْمَمْتَنَعُ
عَنِ الْانْغِمَاسِ فِي الشَّهَوَاتِ. (الوسيط/حَصَرَ).

(٤) فِي ط. التَّوْنِسِيَّةِ: «وُقِيَ». وَانْظُرِ النَّصَّ كَمَا وَرَدَ فِي (لِسَانِ الْعَرَبِ/لَقِيَ).

(٥) الْأَلْفَاظُ: الثَّلَاثَةُ: «الَلَّقْلُقُ»، وَالْقَبْقَبُ، وَالذَّبْذَبُ» وَرَدَ شَرْحُهَا فِي (لِسَانِ
الْعَرَبِ/مَادَّةُ لَقِيَ).

ولقد أَخْبَرَنِي أَبُو حَفْصِ الْكَاتِبِ^(١)، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ رَوْحِ بْنِ زِنْبَاعٍ، الْجَذَامِيُّ^(٢)، أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الْمَتَسِّمِينَ بِاسْمِ الْفِقْهِ، مِنْ أَهْلِ الرَّوَايَةِ الْمَشَاهِيرِ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ: «الْقَبْبُ: الْبَطِيخُ»!

وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ مَسْرَّةٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي دُلَيْمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَضَّاحٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ: «مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ اثْنَتَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا بَيْنَ لِحْيَتَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ».

وَإِنِّي لَأَسْمَعُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُ: «الْوَفَاءُ فِي قَمْعِ الشَّهَوَاتِ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ»، فَأَطِيلُ الْعَجَبَ مِنْ ذَلِكَ. وَإِنْ لِي قَوْلًا لَا أَحُولُ عَنْهُ: الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي الْجُنُوحِ إِلَى هَذَيْنِ الشَّيْئَتَيْنِ سَوَاءٌ، وَمَا رَجُلٌ عَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ بِالْحُبِّ، وَطَالَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ مِنْ مَانِعٍ، إِلَّا وَقَعَ فِي شَرِّكَ الشَّيْطَانِ، وَاسْتَهْوَتْهُ الْمَعَاصِي، وَاسْتَفْزَهُ الْحِرْصُ، وَتَعَوَّلَهُ^(٣) الطَّمَعُ. وَمَا امْرَأَةٌ دَعَاها رَجُلٌ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا وَأَمَكَّنَتْهُ، حَتَّمًا مَقْضِيًّا، وَحُكْمًا نَافِذًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ الْبَيَّةَ.

(١) أبو حفص: أحمد بن محمد بن أحمد بن برد، أبو حفص الكاتب، شاعر بليغ، صاحب رسائل معروفة. ذكرت المصادر شيئاً عن صلته بابن حزم وأوردت بعض شعره. «جدوة المقتبس» ج ١/ ص ١٨٤.

(٢) روح بن زنباع الجذامي: هو روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، (أبو زرع)، أمير فلسطين، وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها. له أخبار مع عبد الملك بن مروان وغيره. توفي سنة (٨٤هـ). الأعلام: ج ٣/ ص ٣٤.

(٣) تَعَوَّلَهُ: أَضْلَعَهُ وَأَهْلَكَهُ.

ولقد أخبرني ثقة صدق^(١) من إخواني، من أهل التمام في الفقه والكلام والمعرفة، ذو صلابة في دينه، أنه أحب جارية نبيلة، أديبة ذات جمال بارع، قال: «فعرضت لها فنفرت، ثم عرضت فأبت، فلم يزل الأمر يطول، وحُبها يزيد، وهي لا تطيع البتة، إلى أن حملني فرط حبي لها مع عمى الصبا^(٢)، على أن نذرت أنني متى نلت منها مرادي أن أتوب إلى الله توبة صادقة». قال: «فما مرت الأيام والليالي حتى أدعنت بعد شماس^(٣) ونفار». فقلت له: «أبا فلان، وفيت بعهدك؟»، فقال: «إي والله»، فضحكت.

وذكرت بهذه الفعلة، ما لم يزل يتداول في أسماعنا، من أن في بلاد البربر التي تجاور أندلسنا، يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد، أن يتوب إلى الله، فلا يمنع من ذلك. ويُنكرون على من تعرض له بكلمة، ويقولون له: «أتحرم رجلاً مسلماً التوبة؟».

قال: «ولعهدي بها تبكي وتقول: والله لقد بلغتني مبلغاً ما خطر قط لي بهال، ولا قدرت أن أجيب إليه أحداً».

ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة، أعني الصلاح، غلطاً بعيداً. والصحيح في حقيقة تفسيرها، أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت،

(١) قرأها د. عباس: «ثقة صدق» (ص ٢٧٠).

(٢) في ط. التونسية: «الصبي» (ص ١٩٧).

(٣) الشماس: الأنفة والإباء.

وَإِذَا قُطِعَتْ عَنْهَا الذَّرَائِعُ أَمْسَكَتْ. وَالْفَاسِدَةُ هِيَ الَّتِي إِذَا ضُبِطَتْ لَمْ تَنْضَبِطْ، وَإِذَا حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُسَهِّلُ الْفَوَاحِشَ، تَحَيَّلَتْ فِي أَنْ تَتَوَصَّلَ إِلَيْهَا بِضُرُوبٍ مِنَ الْحِيلِ.

وَالصَّالِحُ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ لَا يُدَاخِلُ أَهْلَ الْفُسُوقِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَى الْمَنَازِلِ الْجَالِبَةِ لِلْأَهْوَاءِ، وَلَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى الصُّورِ الْبَدِيعَةِ التَّرْكِيبِ. وَالْفَاسِقُ مَنْ يُعَاشِرُ أَهْلَ النَّقْصِ، وَيَنْشُرُ بَصَرَهُ إِلَى الْوُجُوهِ الْبَدِيعَةِ الصَّنْعَةِ، وَيَتَصَدَّى لِلْمَشَاهِدِ الْمُؤْذِيَةِ، وَيُحِبُّ الْخَلَوَاتِ الْمُهْلِكَاتِ.

وَالصَّالِحَانِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ كَالنَّارِ الْكَامِنَةِ فِي الرَّمَادِ، لَا تَحْرُقُ مَنْ جَاوَرَهَا إِلَّا بِأَنْ تُحْرَكَ، وَالْفَاسِقَانِ كَالنَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ تَحْرُقُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَأَمَّا امْرَأَةٌ مُهْمَلَةٌ وَرَجُلٌ مُتَعَرِّضٌ، فَقَدْ هَلَكََا وَتَلَفَا. وَلِهَذَا حُرِّمَ عَلَى الْمُسْلِمِ الْإِلْتِدَادُ بِسَمَاعِ نَعْمَةِ امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ. وَقَدْ جُعِلَتِ النَّظَرَةُ الْأُولَى لَكَ وَالْأُخْرَى عَلَيْكَ. وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَأَمَّلَ امْرَأَةً وَهُوَ صَائِمٌ حَتَّى يَرَى حَجَمَ عَظَامِهَا فَقَدْ أَفْطَرَ». وَإِنْ فِيمَا وَرَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْهَوَى بِنَصِّ التَّنْزِيلِ لَشَيْئاً مُقْنِعاً، وَفِي إِيقَاعِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، أَعْنِي «الْهَوَى» اسْماً عَلَى مَعَانٍ، وَفِي اسْتِيقَاقِهَا عِنْدَ الْعَرَبِ دَلِيلٌ عَلَى مَيْلِ النُّفُوسِ ^(١) وَهُوِّيَّهَا ^(٢) إِلَى هَذِهِ الْمَقَامَاتِ. وَإِنَّ الْمُتَمَسِّكَ عَنْهَا مُقَارِعٌ لِنَفْسِهِ مُحَارِبٌ لَهَا.

(١) ورد في معظم الطبوعات: «واشتقاقها عند العرب، وذلك دليل على ميل النفوس...» وقد أخذنا بقراءة عباس.

(٢) التونسية: «وهويتها» (ص ١٩٨).

وشيءٌ أَصِفُهُ لَكَ^(١) تَرَاهُ عَيْنَانَا، وَهُوَ أَنِّي مَا رَأَيْتُ قَطُّ امْرَأَةً فِي مَكَانٍ تُحِسُّ أَنَّ رَجُلًا يَرَاهَا، أَوْ يَسْمَعُ حِسَّهَا، إِلَّا أَحْدَثَتْ حَرَكََةً فَاضِلَةً، كَانَتْ عَنْهَا بِمَعْزِلٍ^(٢)، وَأَتَتْ بِكَلَامٍ زَائِدٍ، كَانَتْ عَنْهُ فِي عُثْيَةٍ، مُخَالَفَيْنِ لِكَلَامِهَا وَحَرَكَتِهَا قَبْلَ ذَلِكَ؛ وَرَأَيْتُ التَّهَمَّ^(٣) لِمَخَارِجِ لَفْظِهَا، وَهَيْئَةِ تَقَلُّبِهَا، لَائِحًا فِيهَا، ظَاهِرًا عَلَيْهَا، لَا خَفَاءَ بِهِ. وَالرَّجَالُ كَذَلِكَ إِذَا أَحْسَوْا بِالنِّسَاءِ. وَأَمَّا إِظْهَارُ الزَّيْنَةِ وَتَرْتِيبُ الْمَشْيِ، وَإِيقَاعُ الْمُزَاجِ^(٤) عِنْدَ خُطُورِ الْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ، وَاجْتِيَازِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ، فَهَذَا أَشْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. وَقَالَ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. فَلَوْلَا عِلْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِرِقَّةِ إِغْمَاضِهِنَّ فِي السَّعْيِ لِإِيصَالِ حُبِّهِنَّ إِلَى الْقُلُوبِ، وَلُطْفِ كَيْدِهِنَّ فِي التَّحِيلِ لِاسْتِجْلَابِ الْهَوَى، لَمَا كَشَفَ اللَّهُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى الْبَعِيدِ الْغَامِضِ. الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ مَرْمَى، وَهَذَا حَدُّ التَّعَرُّضِ. فَكَيْفَ بِمَا دُونَهُ؟

وَلَقَدْ أَطْلَعْتُ مِنْ سِرِّ مُعْتَقِدِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي هَذَا عَلَى أَمْرِ عَظِيمٍ. وَأَصْلُ ذَلِكَ، أَنِّي لَمْ أَحْسِنُ قَطُّ بِأَحَدٍ ظَنًّا فِي هَذَا الشَّانِ، مَعَ غَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ رُكِبْتُ بِهَا.

(١) التونسية: «وتراه عياناً» (ص ١٩٨).

(٢) قرأ د. عباس: «كانت بمعزل» بحذف «عنها».

(٣) التَّهَمُّ: التَّحَسُّسُ والتَّدْقِيقُ، وَتَهَمُّ الشَّيْءِ: تَحَسُّسُهُ بِمَعْنَى الْعِنَايَةِ بِهِ.

(٤) كَذَا فِي جَمِيعِ الطَّبْعَاتِ. إِلَّا د. عَبَّاسُ الَّذِي قَرَأَ: «وَاصْطِنَاعُ الْمَرْحِ»

(ص ٢٧١).

وَحَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ رِفَاعَةَ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الْقَاسِمِ بْنُ سَلَامٍ عَنْ شُيُوخِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْغَيْرَةُ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

فَلَمْ أَزَلْ بَاحِثًا عَنْ أَخْبَارِهِمْ، كَاشِفًا عَنْ أَسْرَارِهِمْ، وَكُنَّ قَدْ أَنْسَنَ مِنِّي بِكُتْمَانٍ، فَكُنَّ يُطْلِعُنِي عَلَى غَوَامِضِ أُمُورِهِمْ؛ وَلَوْلَا أَنْ أَكُونُ مُتَّبَهًا عَلَى عَوْرَاتٍ يُسْتَعَاذُ بِاللَّهِ مِنْهَا، لَأَوْرَدْتُ مِنْ تَبْهِيهِمْ فِي السَّرِّ، وَمَكْرِهِمْ فِيهِ، عَجَائِبُ تُذْهِلُ الْأَلْبَابَ.

وَإِنِّي لَا عَرَفُ هَذَا وَأَتَقْنُهُ^(٢)، وَمَعَ هَذَا يَعْلَمُ اللَّهُ، وَكَفَى بِهِ عَلِيمًا، أَنِّي بَرِيءُ السَّاحَةِ، سَلِيمُ الْأَدِيمِ، صَحِيحُ الْبَشَرَةِ، نَقِيُّ الْحُجْزَةِ^(٣). وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ، أَجَلَ الْأَقْسَامِ، أَنِّي مَا حَلَلْتُ مِتْرِي عَلَى فَرْجِ حَرَامٍ قَطُّ، وَلَا يُحَاسِبُنِي رَبِّي بِكَبِيرَةِ الزَّنا، مُذْ عَقَلْتُ إِلَى يَوْمِي هَذَا. وَاللَّهِ الْمَحْمُودُ عَلَى ذَلِكَ، وَالْمَشْكُورُ فِيمَا مَضَى، وَالْمُسْتَعَصَمُ فِيمَا بَقِيَ.

حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَحَّافٍ الْمُعَاوِرِيُّ^(٤)، وَإِنَّهُ لَأَفْضَلُ قَاضٍ رَأَيْتُهُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ

(١) الحديث: «الغيرة من الإيمان» وارد في «مسند الإمام أحمد»: ج ٢/ص ٢٣٥ -

٣٠١ - ٤٣٨ على التوالي وتجدد كذلك في صحيح مسلم.

(٢) كذا في معظم الطبقات، وقرأ د. عباس: «وَأَتَقْنُهُ» (ص ٢٧٢).

(٣) الْحُجْزَةُ: موضع شدة الإزار من الوسط، وموضع التكة من السراويل. وقوله:

«نَقِيُّ الْحُجْزَةِ» دليل التّعفف، ويقال: «رجل طيب الْحُجْزَةُ»: عفيف.

(الوسيط/ حَجَزَ).

(٤) ثمة اختلاف بين الطبقات في إيراد اسم هذا القاضي، أورده مكّي: «أبو عبد

الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جَحَّافٍ المعافري» (ص ١٦٥). فيما =

إِبْرَاهِيمَ الطَّلَبِيَّ عَنِ الْقَاضِي بِمَضَرٍ بَكْرِ بْنِ الْعَلَاءِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] أَنَّ لِبَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيهِ قَوْلًا، وَهُوَ أَنَّ الْمُسْلِمَ يَكُونُ مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ، مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ الَّتِي هِيَ مَنْ أَعْظَمَ النِّعَمِ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْمُفْتَرَضِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ اجْتِنَابُهُ وَاتِّبَاعُهُ.

وَكَانَ السَّبَبُ فِيمَا ذَكَرْتُهُ، أَنِّي كُنْتُ وَقْتُ تَأْجِجِ نَارِ الصَّبَا، وَشِرَّةِ الْحَدَاثَةِ ^(١)، وَتَمَكُّنِ غَرَارَةِ ^(٢) الْفُتُوَّةِ، مَقْصُورًا ^(٣)، مُحْظَرًا عَلَيَّ بَيْنَ رُقَبَاءَ وَرُقَائِبَ، فَلَمَّا مَلَكَتُ نَفْسِي وَعَقِلْتُ، صَحِبْتُ أَبَا عَلِيٍّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ الْفَاسِيَّ ^(٤) فِي مَجْلِسِ أَبِي الْقَاسِمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي يَزِيدٍ الْأَزْدِيِّ ^(٥) شَيْخِنَا وَأُسْتَاذِي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ أَبُو عَلِيٍّ الْمَذْكُورُ عَاقِلًا عَامِلًا، عَالِمًا، مِمَّنْ تَقَدَّمَ فِي الصَّلَاحِ، وَالتُّسْكِ الصَّحِيحِ [و] الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ^(٦)، وَالْاجْتِهَادِ لِلْآخِرَةِ،

= ورد في طبعة عباس: «أبو عبد الرحمن عبد الله ابن...» (ص ٢٧٢). وفي التونسية مماثلاً لرواية مكي مع اختلاف وحيد هو «جحف» بدل «جحف» (ص ١٩٩). وله ترجمة في «جذوة المقتبس» حيث ورد اسمه: «عبد الله بن عبد الرحمن بن الجحف المعافري» القاضي. وفي ترجمته إشارة إلى ذكر ابن حزم له وشهادته في صحة دينه وعقله. توفي قريباً من سنة (٤٠٠هـ). «جذوة المقتبس» ج ٢/ ص ٤١٤.

(١) شِرَّةُ الْحَدَاثَةِ: حِدَّةُ سِنِ الشَّبَابِ وَنَشَاطِهَا. وَيُقَالُ: «لِلشَّبَابِ شِرَّةٌ».

(٢) الْغَرَارَةُ: الْغَفْلَةُ مَعَ حَدَاثَةِ السَّنِ.

(٣) مَقْصُورًا: مُحْبُوسًا يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْآخَرِينَ.

(٤) الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْفَاسِي: سَبَقَ ذَكَرَهُ وَتَرْجَمْتُهُ - ص ٢١٨.

(٥) عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي يَزِيدٍ الْأَزْدِي: مَرَّ ذَكَرَهُ وَتَرْجَمْتُهُ - ص ٢١٧.

(٦) قَرَأَ عَبَّاسٌ: «وَفِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا» (ص ٢٧٣)، وَمَكِّي: «فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا» (ص ١٦٦).

وَأَخَذْنَا بِقِرَاءَةِ د. الْقَاسِمِيِّ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ.

وَأَحْسَبُهُ كَانَ حَصُوراً^(١) لَأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ امْرَأَةً قَطُّ، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ جُمْلَةً، عِلْماً وَعَمَلاً وَدِيناً وَوَرَعاً؛ فَتَفَعَّلَنِي اللَّهُ بِهِ كَثِيراً، وَعَلِمْتُ مَوْقِعَ الْإِسَاءَةِ^(٢)، وَفُتِحَ الْمَعَاصِي. وَمَاتَ أَبُو عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي طَرِيقِ الْحَجِّ.

وَلَقَدْ ضَمَّنِي الْمَبِيتُ لَيْلَةً، فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ، عِنْدَ امْرَأَةٍ مِنْ بَعْضِ مَعَارِفِي، مَشْهُورَةٍ بِالصَّالِحِ وَالْخَيْرِ وَالْحَزْمِ، وَمَعَهَا جَارِيَةٌ مِنْ بَعْضِ قَرَابَاتِهَا، مِنَ اللَّاتِي قَدْ ضَمَّتْهَا مَعِيَ النِّشَاءُ فِي الصُّبَا، ثُمَّ غَبْتُ عَنْهَا أَعْوَاماً كَثِيراً. وَكُنْتُ تَرَكْتُهَا حِينَ أَعَصَرْتُ^(٣)؛ وَوَجَدْتُهَا قَدْ جَرَى عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الشَّبَابِ، فَنَاضَ وَأَنَسَابَ، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهَا يَنَابِيعُ الْمَلَاَحَةِ، فَتَرَدَّدَتْ وَتَحَيَّرَتْ، وَطَلَعَتْ فِي سَمَاءٍ وَجْهِهَا نُجُومُ الْحُسْنِ، فَأَشْرَقَتْ وَتَوَقَّدَتْ، وَأُنْبَعَثَتْ فِي حَدِيثِهَا أَزَاهِيرُ الْجَمَالِ، فَتَمَّتْ وَاعْتَمَّتْ^(٤)، فَأَتَتْ كَمَا أَقُولُ:

[من البسيط]

خَرِيدَةٌ صَاغَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ نُورٍ
جَلَّتْ مَلَاَحَتُهَا عَنْ كُلِّ تَقْدِيرٍ
لَوْ جَاءَنِي عَمَلِي فِي حُسْنِ صُورَتِهَا
يَوْمَ الْحِسَابِ وَيَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ

(١) حَصُوراً: سبق شرحه في صفحة ٣٢٨ الحاشية (٣).

(٢) في ط. التونسية: «وعلمت [منه] موقع الإساءة» بإضافة: «منه» من المحقق (ص ٢٠٠).

(٣) أعصرت الفتاة: بلَّغَتْ شَبَابَهَا وَأَذْرَكَتْ.

(٤) أَعْتَمَّتْ: اِعْتَمَّ السَّابُّ: تَمَّ وَطَالَ، وَالنَّبْتُ: تَمَّ طَوْلُهُ وَظَهَرَ نَوْرُهُ. (الوسيط/ عم).

لَكُنْتُ أَحْظَى عِبَادِ اللَّهِ كُلَّهُمْ^(١)

بِالْجَنَّتَيْنِ، وَقُرْبِ الْخُرَدِ الْحُورِ

وكانت من أهل بيت صباحة^(٢)، وقد ظهرت على صورة^(٣) تُعْجِزُ الوُصَافَ. وقد طبق وصف شبابها قرطبة^(٤)، فبت عندها ثلاث ليالٍ متواليّة، ولم تُحْجَبْ عَنِّي، على جاري العادة في التّربية، فلعمري، لقد كاد قلبي أن يصبو، ويثوب إليه مرفوض الهوى، ويعاوده منسي الغزل. ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار، خوفاً على لبي أن يزدهيه الاستحسان. ولقد كانت هي، وجميع أهلها، ممن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون العوائل. وفي ذلك أقول:

[من مجزوء الكامل]

لَا تُتْبِعِ النَّفْسَ الْهَوَى

وَدَعْ التَّعَرُّضَ لِلْمَحَنِ

إِبْلِيسُ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ

وَالْعَيْنُ بَابٌ لِلْفِتَنِ

وأقول:

[من المجتث]

وَقَائِلِ لِي: هَذَا

ظَنُّ يَزِيدُكَ غَيًّا

(١) ضبطت في ط. مكّي: «كلهم» وهو خطأ مطبعي غالباً. وفي ط. التونسية: «كلهم».

(٢) الصّباحة: الجمال، وصبح الوجه صباحة: أشرق وجمل. (الوسيط/صبح).

(٣) في سائر الطبعات: «على صورة». وفي ط. د. عباس: «وقد ظهرت منها صورة» (ص ٢٧٤). وفي ط. التونسية: «وقد ظهرت منه صورة» (ص ٢٠١).

(٤) طبق وصف شبابها قرطبة: عم وانتشر واشتهر.

فَقُلْتُ: دَعْ عَنْكَ لَوْمِي،

أَلَيْسَ إِبْلِيسُ حَيًّا؟

وما أوردَ اللهُ تعالى علينا مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ، وداودَ ابنِ إِيشِي^(١) رُسُلَ اللهِ عليهمُ السَّلَامُ، إِلَّا لِيُعَلِّمَنَا نُفُصَانَنَا وَفَاقَتَنَا إِلَى عِصْمَتِهِ، وَأَنَّ بُنْيَانَنَا مَدْخُولُهُ ضَعِيفَةٌ. فَإِذَا كَانَا صَلَّيَ اللهُ عليهما، وَهُمَا نَبِيَّانِ رُسُولَانِ، أَبْنَاءُ أَنْبِيَاءِ رُسُلٍ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ نُبُوَّةٍ وَرِسَالَةٍ، مُتَكَرِّرَيْنِ^(٢) فِي الْحِفْظِ، مَعْمُوسَيْنِ فِي الْوَلَايَةِ، مَحْفُوفَيْنِ بِالْكِلاَةِ^(٣)، مُؤَيَّدَيْنِ بِالْعِصْمَةِ، لَا يُجْعَلُ لِلشَّيْطَانِ عليهما سَبِيلٌ، وَلَا يَفْتَحُ لَوْسُواسِهِ نَحْوَهُمَا طَرِيقٌ، وَبَلَاغًا حَيْثُ نَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا فِي قَرَانِهِ الْمُنْزَلِ، بِالْجِبَلَةِ الْمُوَكَّلَةِ^(٤)، وَالطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ، وَالْخَلْقَةِ الْأَصِيلَةِ، لَا يَتَعَمَّدُ الْخَطِيئَةَ وَلَا الْقَصْدَ إِلَيْهَا، إِذِ النَّبِيُّونَ مُبَرَّرُونَ مِنْ كُلِّ مَا خَالَفَ طَاعَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنَّهُ اسْتَحْسَانٌ طَبِيعِيٌّ فِي النَّفْسِ لِلصُّورِ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصِفُ نَفْسَهُ بِمَلِكِهَا^(٥)، وَيَتَعَاطَى ضَبْطَهَا، إِلَّا بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ؟!

وَأَوَّلُ دَمٍ سُفِكَ فِي الْأَرْضِ دَمُ^(٦) أَحَدِ أَنْبِيَاءِ آدَمَ. عَلَى سَبَبِ

(١) كذا في جميع الطبوعات. ما عدا عباس الذي قرأه: «يَشِي» لوروده «يَسِي» (بالسين المهملة) في العهد القديم. (ص ٢٧٤).

(٢) كذا في جميع الطبوعات، ما عدا د. عباس الذي قرأها: «مُكَرَّمَيْنِ» (ص ٢٧٥).

(٣) الكلاءة: الرعاية والحفظ.

(٤) قرأها عباس: «المَوْصَلَةُ» خلافاً لجميع الطبوعات (ص ٢٧٥).

(٥) وتقرأ: «بِمَلِكِهَا» و«بِمَلِكِهَا» مثلثة الميم (الوسيط/ مَلَكٌ).

(٦) ورد عند مكِّي وعباس ومعظم الطبوعات: «فَدَمٌ». وأخذنا بقرأة القاسمي في ط. التونسية بحذف الفاء.

الْمُنَافَسَةِ فِي النِّسَاءِ. وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:
 «بَاعِدُوا بَيْنَ أَنْفَاسِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ». وَهَذِهِ أَمْرَاءُ مِنَ الْعَرَبِ تَقُولُ،
 وَقَدْ حَبِلَتْ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لَهَا حِينَ سُئِلَتْ: «مَا بَبْطُنِكَ يَا هِنْدُ؟»
 فَقَالَتْ: «قُرْبُ الْوَسَادِ، وَطُولُ السَّوَادِ»^(١). وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا،
 منه :

[من الرمل]

لَا تَلَمَّ مَنْ عَرَّضَ النَّفْسَ لِمَا
 لَيْسَ يُرْضِي غَيْرَهُ عِنْدَ الْمَحَنِ
 لَا تُقَرِّبْ عَرْفَجًا^(٢) مِنْ لَهَبٍ
 وَمَتَى قَرَّبْتَهُ قَامَتْ دُخْنُ
 لَا تُصَرِّفْ ثِقَّةً فِي أَحَدٍ
 فَسَدَ النَّاسُ جَمِيعًا وَالزَّمَنُ
 خُلِقَ النَّسْوَانُ لِلْفَحْلِ كَمَا
 خُلِقَ الْفَحْلُ بِلَا شَكٍّ لَهْنُ
 كُلُّ شَكْلٍ يَتَشَهَّى شَكْلَهُ
 لَا تَكُنْ عَنْ أَحَدٍ تَنْفِي الظَّنِّ
 صِفَةُ الصَّالِحِ مَنْ إِنْ صُنَّتْهُ
 عَنْ قَبِيحٍ أَظْهَرَ الطَّوْعَ الْحَسَنُ
 وَسِوَاهُ مَنْ إِذَا ثَقَّفَتْهُ
 أَعْمَلَ الْحِيلَةَ فِي خَلْعِ الرَّسَنِ

(١) وردت الحكاية بتغيير طفيف في كتاب «الحيوان» للجاحظ: ج ١/ ص ١٦٩.

(٢) العَرْفَجُ والعَرْفُجُ: ضَرْبٌ مِنَ النَّبَاتِ وَاحِدَتُهُ: «عَرْفَجَةٌ»، طيب الريح، وله زهرة صفراء، سريع الاشتعال بالنار، ولهبه شديد الحمرة... (اللسان/ عرفج).

وإِنِّي لَأَعْلَمُ فِتْنَى مِنْ أَهْلِ الصَّيَانَةِ، قَدْ أُولِعَ بِهِوَى لَهُ؛ فَاجْتَارَ
بَعْضُ إِخْوَانِهِ فُوجِدَهُ قَاعِدًا مَعَ مَنْ يُحِبُّ، فَاسْتَجْلَبَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ،
فَأَجَابَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِامْتِثَالِ الْمَسِيرِ بَعْدَهُ، فَمَضَى دَاعِيَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ،
وَانْتَظَرَهُ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِ التَّرْبُصُ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ اجْتَمَعَ بِهِ
دَاعِيَهُ، فَعَدَّدَ عَلَيْهِ وَأَطَالَ لَوْمَهُ عَلَى إِخْلَافِهِ مَوْعِدَهُ، فَاعْتَذَرَ وَوَرَّى.
فَقُلْتُ أَنَا لِلَّذِي دَعَاهُ: «أَنَا أَكْشِفُ عُذْرَهُ صَحِيحًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ إِذْ يَقُولُ: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا جُمَلُنَا أُوْزَارًا مِنْ زِينَةِ
الْقُورِ﴾ [طه: ٨٧]. فَضَحِكَ مَنْ حَضَرَ. وَكُلَّفْتُ أَنْ أَقُولَ فِي ذَلِكَ
شَيْئًا فَقُلْتُ:

[من الطويل]

وَجَرَحُكَ لِي جُرْحُ جُبَارٍ^(١) فَلَا تَلُمُ
وَلَكِنْ جُرَحَ الْحُبِّ غَيْرُ جُبَارٍ
وَقَدْ صَارَتِ الْخِيلَانُ وَسْطَ بَيَاضِهِ
كَتَيْلُوفَرٍ حَفَّتْهُ رَوْضُ بَهَارٍ^(٢)
وَكَمْ قَالَ لِي مَنْ مِتُّ وَجَدًا بِحُبِّهِ
مَقَالَةَ مَحْلُولِ الْمَقَالَةِ زَارِي

(١) الجُبَار: الِهْدَرُ، يقال: ذهب دمه جُبَارًا، أي: لا قَوْدَ فِيهِ وَلَا دِيَّةَ (اللسان/ جَبَر).

(٢) الخيلان: جمع خالٍ، وهو شامة أو علامة سوداء في البدن (الوسيط/ خال).
والتَيْلُوفَرُ والتَيْلُوفَرُ والتَيْلُوفَرُ: ضَرْبٌ مِنَ النَّبَاتَاتِ الْمَائِيَةِ وَالرِّيَاحِينَ الَّتِي تَنْبَتُ
فِي الْمِيَاهِ الرَّكَادَةِ، يَطُولُ بِحَسَبِ عُمُقِ الْمَاءِ، وَهُوَ مُعَرَّبٌ عَنِ الْفَارْسِيَّةِ
وَمَعْنَاهُ: «نَيْلِي الرِّيَاش» (الوسيط/ النيلوفر). و«معجم المعربات الفارسية»
للألتونجي (نيلوفر/ ١٨٢). والبهار هو العَرَار: زهر طيب الريح، ينبت أيام
الربيع. (الوسيط/ بهر).

وقد كَثُرَتْ مِنِّي إِلَيْهِ مَطَالِبُ
 أُلْحُ عَلَيْهِ تَارَةً وَأُدَارِي :
 أَمَا فِي التَّوَائِي ^(١) مَا يُبَرِّدُ غُلَّةَ ^(٢)
 وَيُذْهِبُ شَوْقًا فِي ضُلُوعِكَ سَارِي
 فَقُلْتُ لَهُ : لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ
 عَادَاةَ جَارٍ فِي الْأَنَامِ لِجَارٍ
 وَقَدْ يَتَرَاى الْعَسْكَرَانِ لَدَى الْوَعَى
 وَبَيْنَهُمَا لِلْمَوْتِ سُبُلُ بَوَارٍ ^(٣)

ولي كَلِمَتَانِ ^(٤) ، قُلْتُهُمَا مُعَرِّضًا ، بَلْ مُصَرِّحًا بِرَجُلٍ مِنْ
 أَصْحَابِنَا كُنَّا نَعْرِفُهُ كُلَّنَا ^(٥) ، مِنْ أَهْلِ الطَّلَبِ وَالْعِنَايَةِ وَالْوَرَعِ ،
 وَقِيَامِ اللَّيْلِ ، وَاقْتِفَاءِ أَثَارِ الشُّسَاكِ ، وَسُلُوكِ مَذَاهِبِ الْمُتَصَوِّفِينَ
 الْقَدَمَاءِ ، بَاحِثًا مُجْتَهِدًا ، وَقَدْ كُنَّا نَتَجَنَّبُ الْمَزَاحَ بِحَضْرَتِهِ ، فَلَمْ
 يَمُضِ الزَّمَنُ ، حَتَّى مَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَفَتَكَ ^(٦) بَعْدَ لِبَاسِ
 الشُّسَاكِ ، وَمَلَكَ إِبْلِيسَ مِنْ خُطَامِهِ ^(٧) ، فَسَوَّلَ لَهُ الْغُرُورَ ، وَزَيَّنَ

(١) كذا في جميع الطبوعات (دون ضبط) ، ما عدا عباس الذي قرأ : «التَّدَانِي»
 (ص ٢٧٦) . ولم أستطع الجزم بحقيقة المراد ، فهل قَصَدَ : «التَّوَائِي» من
 الالتواء ، وهو الانثناء والانعطاف ؟ أم التَّوَائِي ، وهو ما لم أجد له ذكراً في
 المعاجم بل وجدت : «التَّوَيُّ» بمعنى الهلاك والضياع والخسارة وهو معنًى
 بعيد عن سياق البيت . . . ؟ (اللسان : توا) .

(٢) الغُلَّةُ : شِدَّةُ العطش وحرارته .

(٣) في جميع الطبوعات : «سُبُلُ بَوَارٍ» ما عدا التونسية : «سَيْلُ بَوَارٍ» . والبوار : الهلاك .

(٤) كلمتان : قصيدتان . (٥) في ط . عباس : بحذف «كُلْنَا» .

(٦) فَتَكَ : مَجَّنَ ، وَرَكَبَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ نَفْسُهُ غَيْرَ مُبَالٍ .

(٧) الْخُطَامُ : الزَّمَامُ ، وَمَا وَضَعَ عَلَى خُطَامِ الْجَمَلِ لِيَقَادَ بِهِ . وَمَلَكَ إِبْلِيسَ مِنْ
 خُطَامِهِ : انْقَادَ لَهُ . (الوسيط/ خَطَمَ) .

له الوَيْلَ والثُّبُورُ^(١)، وَأَجْرَهُ رَسَنَهُ^(٢) بَعْدَ إِبَائِهِ. وَأَعْطَاهُ نَاصِيَّتَهُ بَعْدَ شِمَاسٍ^(٣)، فَخَبَّ فِي طَاعَتِهِ وَأَوْضَعَ^(٤)، وَاشْتَهَرَ^(٥)، بَعْدَ مَا ذَكَرْتُهُ، فِي بَعْضِ الْمَعَاصِي الْقَبِيحَةِ الْوَضِرَةِ^(٦)، وَلَقَدْ أَطْلُتُ مَلَامَتَهُ، وَتَشَدَّدْتُ فِي عَذْلِهِ، إِذْ أَعْلَنَ بِالْمَعْصِيَةِ بَعْدَ اسْتِتَارٍ؛ إِلَى أَنْ أَفْسَدَ ذَلِكَ ضَمِيرَهُ عَلَيَّ، وَخَبَّتْ نَيْتُهُ لِي، وَتَرَبَّصَ بِي دَوَائِرَ السُّوءِ. وَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا يُسَاعِدُهُ بِالْكَلَامِ اسْتِجْرَارًا إِلَيْهِ، فَيَأْتِسُّ بِهِ، وَيُظْهِرُ لَهُ عِدَاوَتِي؛ إِلَى أَنْ أَظْهَرَ اللَّهُ سَرِيرَتَهُ؛ فَعَلِمَهَا الْبَادِي وَالْحَاضِرُ^(٧)، وَسَقَطَ مِنْ عُيُونِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَقْصِدًا لِلْعُلَمَاءِ وَمُنْتَابًا لِلْفَضَلَاءِ، وَرُدُّلَ عِنْدَ إِخْوَانِهِ جُمْلَةً. أَعَادَنَا اللَّهُ مِنَ الْبَلَاءِ، وَسَتَرْنَا فِي كِفَايَتِهِ، وَلَا سَلَبْنَا مَا بَنَا مِنْ نِعْمَتِهِ. فَيَا سَوْءَاتَاهُ لِمَنْ بَدَأَ بِالِاسْتِقَامَةِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْخِذْلَانَ يَحِلُّ بِهِ، وَأَنَّ الْعِصْمَةَ سَتْفَارِقُهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَا أَشْنَعَ هَذَا وَأَفْظَعَهُ! لَقَدْ دَهَمَتُهُ إِحْدَى بَنَاتِ الْحَرَسِ^(٨)، وَأَلْقَتْ عَصَاهَا بِهِ أَمْ طَبَقِي^(٩)، مَنْ كَانَ لِلَّهِ أَوْلَا

(١) الثُّبُورُ: الهلاك.

(٢) أَجْرَهُ رَسَنَهُ: بمعنى سَلَّمَهُ زَمَامَ أَمْرِهِ، وَانْقَادَ لَهُ.

(٣) الشَّمَاسُ: الْإِبَاءُ وَالرَّفُضُ وَالْمَعَانِدَةُ.

(٤) خَبَّ: أَسْرَعَ، وَمِنْ مَعَانِيهَا: أَفْسَدَ وَخَدَعَ. وَقَوْلُهُ: «أَوْضَعَ» وَرَدَ كَذَلِكَ فِي

جَمِيعِ الطَّبَعَاتِ بِمَعْنَى أَفْسَدَ وَأَسْرَعَ. إِلَّا أَنَّ مُحَقِّقَ ط. التُّونِسِيَّةِ انْفَرَدَ

بِقِرَاءَتِهِ: وَ«أَوْضَعَ» (ص ٢٠٤).

(٥) اشْتَهَرَ وَاشْتَهَرَ: لَغْتَان.

(٦) الْوَضِرَةُ: مِنَ الْوَضَرِ وَهُوَ الْوَسْخُ وَالذَّرَنُ.

(٧) الْبَادِي وَالْحَاضِرُ: سَبَقَ شَرْحُهُمَا. وَيَقْصِدُ هُنَا: الْجَمِيعَ.

(٨) الْحَرَسُ هُوَ الدَّهْرُ، وَقَوْلُهُمْ بَنَاتُ الدَّهْرِ: هُمُومُهُ وَمَصَائِبُهُ. (اللسان/حرس).

(٩) الطَّبَقُ: الشِّدَّةُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: وَقَعَ فُلَانٌ فِي بَنَاتِ طَبَقٍ إِذَا وَقَعَ فِي الْأَمْرِ

الشَّدِيدِ. وَأَمْ طَبَقَ لَهَا الْمَعْنَى نَفْسَهُ. (اللسان/طبق).

ثُمَّ صَارَ لِلشَّيْطَانِ آخِرًا، وَمِنْ إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ :

[من البسيط]

أَمَّا الْغُلَامُ فَقَدْ حَانَتْ فَضِيحَتُهُ
وَأَنَّهُ كَانَ مَسْتُورًا فَقَدْ هَتِكَ
مَا زَالَ يَضْحَكُ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى عَجَبًا
فَالآنَ كُلُّ جَهُولٍ مِنْهُ قَدْ ضَحِكَ
إِلَيْكَ لَا تَلْحُ صَبًا هَائِمًا كَلِفًا
يَرَى التَّهْتُكَ فِي دِينِ الْهَوَى نُسْكًَا^(١)
قَدْ كَانَ دَهْرًا يَعَانِي النُّسْكَ مُجْتَهِدًا
يُعَدُّ فِي نُسْكِهِ كُلُّ امْرِئٍ مُسْكًَا^(٢)
ذُو مَخْبَرٍ^(٣) وَكِتَابٍ لَا يُفَارِقُهُ
نَحْوُ الْمُحَدَّثِ يَسْعَى حَيْثُ مَا سَلَكَ
فَاعْتَاظَ مِنْ سُمْرِ أَقْلَامِ بَنَانٍ فَتَى
كَأَنَّهُ مِنْ لُجَيْنٍ صَيَغَ أَوْ سُبِكََا^(٤)

(١) لحا: يلحو لحوًا: لام وعذَل. والصَّبُّ: المشتاق. والهائم: من شَغِفَ حُبًا، والكَلِفُ: الرَّجُلُ العاشق المولع. وكلها صفات للحُبِّ والعشاق.

(٢) سقط هذا البيت من الطَّبْعَةِ الثُّونِيسِيَّةِ، وورد في بقية الطبعات مع اختلاف في قافيته. فقرأها بعضهم: «نُسْكا» و«نهكا» و«حسكا». وقد أخذنا بقراءة عباس: «مُسْكا» بمعنى (بخيل) لمناسبتها لمعنى البيت: «أي أَنَّ كُلَّ امْرِئٍ إِذَا قِيسَ إِلَى نُسْكَهَ عُدَّ مُقْصَرًا». تنظر «رسائل ابن حزم» بتحقيق د. عباس: (١/ ٢٧٧).

(٣) كذا في جميع الطبعات، ما عدا عباس الذي انفرد بقراءتها: «مِخْبَرٌ» وهي قراءة حسنة، لولا قول ابن حزم: «لا يفارقه» عن الكتاب وحده، ولو قصد المِخْبَرُ والكتاب قال: «لا يفارقانه». والمَخْبَرُ: خِلَافُ الْمُنْظَرِ. يقال طَابَقَ مَخْبَرُهُ مُنْظَرَهُ. (الوسيط/ خَبَر).

(٤) الْبَنَانُ: أطراف الأصابع، واحده بَنَانَةٌ. (الوسيط/ بَنَ). اللَّجَيْنُ: الفضة.

يا لائمي سَفَهَا فِي ذَاكَ قَلٍّ ^(١) فَلَمْ
تَشْهَدْ جَبِينَيْنِ يَوْمَ الْمُلتَقَى اشْتَبَكَا
دَعْنِي وَوَرْدِي فِي الْآبَارِ أَطْلُبُهُ
إِلَيْكَ عَنِّي، كَذَا لَا أَبْتَغِي الْبِرْكَ
إِذَا تَعَفَّفْتَ عَفَّ الْحُبُّ عَنْكَ وَإِنْ
تَرَكْتَ يَوْمًا فَإِنَّ الْحُبَّ قَدْ تَرَكََا
وَلَا تَحُلْ مِنَ الْهَجْرَانِ مُنْعَقِدًا
إِلَّا إِذَا مَا حَلَلْتَ الْأُزْرَ وَالتَّكَا ^(٢)
وَلَا تُصَحِّحْ لِلسُّلْطَانِ مَمْلَكَةً
أَوْ تُدْخِلِ الْبَرْدُ عَنْ إِنْفَاذِهِ السَّكَا ^(٣)
وَلَا بَغِيرِ كَثِيرِ الْمَسْحِ يَذْهَبُ مَا
يَعْلُو الْحَدِيدَ مِنَ الْأَصْدَاءِ إِنْ سُبِكََا

وكانَ هذا المَذْكُورُ من أصحابنا قد أَحْكَمَ الْقِرَاءَاتِ إِحْكَامًا
جَيِّدًا، وَاخْتَصَرَ كِتَابَ الْأَنْبَارِيِّ ^(٤) فِي الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ اخْتِصَارًا

(١) قرأها عباس: «قَدْكَ» بخلاف جميع الطبعات (ص ٢٧٧) وهي بمعنى: يكفيك.

(٢) التَّكُّ: واحدها: تَكَّة، وهي رباط السراويل (لسان العرب: تكك).

(٣) لم تضبط جميع الطبعات - بصورة سليمة - البيتين:

وَلَا تَحُلْ.....

وَلَا تُصَحِّحْ.....

وفي معنى البيت الثاني منهما، غموض والتباس.

(٤) الأنباري: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار (أبو بكر) الأنباري، النحوي

المعروف. ولد ببغداد سنة (٢٧١هـ)، وكان يؤدب أولاد الخليفة الراضي. له عدة

كتب لغوية ورسائل منشورة. توفي سنة (٣٢٨هـ). وإشارة ابن حزم هنا تخص

كتابه «إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزَّ وجلَّ» وهو مطبوع في جزأين

بتحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان - مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٧١.

حَسَنًا، أُعْجِبَ بِهِ مَنْ رَأَاهُ مِنَ الْمُقَرَّرِينَ . وَكَانَ دَائِبًا عَلَى طَلَبِ الْحَدِيثِ وَتَفْقِيدِهِ، وَالْمُتَوَلِّيَ لِقِرَاءَةِ مَا يَسْمَعُهُ عَلَى الشُّيُوخِ الْمُحَدِّثِينَ، مُثَابِرًا عَلَى النَّسْخِ مُجْتَهِدًا بِهِ، فَلَمَّا امْتَحَنَ بِهَذِهِ الْبَلِيَّةِ مَعَ بَعْضِ الْغُلَمَانِ، رَفَضَ مَا كَانَ مُعْتَنِيًا بِهِ وَبَاعَ أَكْثَرَ كُتُبِهِ، وَاسْتَحَالَ اسْتِحَالَةً كُلِّيَّةً، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ . وَقُلْتُ فِيهِ كَلِمَةً وَهِيَ التَّالِيَةُ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ مِنْهَا فِي أَوَّلِ خَبَرِهِ ثُمَّ تَرَكْتُهَا .

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ إِسْحَاقَ الرَّائِدِي^(١) فِي كِتَابِ «الَلْفِظِ وَالْإِصْلَاحِ» أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سَيَّارِ النَّظَّامِ^(٢) رَأَسَ الْمَعْتَزِلَةَ، مَعَ غُلُوِّ طَبَقَتِهِ فِي الْكَلَامِ، وَتَمَكُّنِهِ وَتَحَكُّمِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ، تَسَبَّبَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ فَتَى نَصْرَانِيٍّ عَشِيقِهِ، بِأَنْ وَضَعَ لَهُ كِتَابًا فِي تَفْضِيلِ الثَّلَاثِ عَلَى التَّوْحِيدِ . فَيَا غَوْنَاهُ!! عِيَاذَكَ يَا رَبِّ مِنْ تَوَلُّجِ الشَّيْطَانِ وَوُقُوعِ الْخِذْلَانِ .

وَقَدْ يَعْظُمُ الْبَلَاءُ، وَتَكَلُّبُ الشَّهْوَةِ، وَيَهُونُ الْقَبِيحُ، وَيَرِقُّ الدِّينُ، حَتَّى يَرْضَى الْإِنْسَانُ فِي جَنْبِ وَصُولِهِ إِلَى مَرَادِهِ بِالْقَبَائِحِ وَالْفَضَائِحِ، كَمَا مَدَّاهُمْ^(٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى الْأَزْدِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْجَزِيرِيِّ^(٤)؛

(١) الراوندي: أحمد بن يحيى بن إسحاق، أبو الحسين الراوندي، أو ابن الراوندي نسبة إلى «راوند» من قرى أصفهان. فيلسوف مجاهر بالإلحاد، من سكان بغداد، نسبت إليه مجالس ومناظرات كلامية قبل أن يتزندق، كتبه كثيرة لم يصل شيء منها. ومات برحبة مالك بن طوق بين الرقة وبغداد سنة (٢٩٨هـ). وقيل: صلبه أحد السلاطين ببغداد. الأعلام: مج ١/ ص ٢٦٨. أما كتابه المشار إليه بعنوان «اللفظ والإصلاح» فلم يرد ذكره في المصادر والفهارس المعروفة.

(٢) إبراهيم بن سيَّار (النَّظَّام): مرَّت ترجمته في موضع سابق - ص ٧٧.

(٣) ويمكن أن نُقرأ: «كَمَا مَدَّاهُمْ عَبْدُ اللَّهِ...» لَكِنَّ مَا أَثْبَتَاهُ فِي الْمَتْنِ أَفْضَلُ.

(٤) ابن الجزيري: سبق ذكره ولم نجد ترجمته.

فَإِنَّهُ رَضِيَ بِإِهْمَالِ دَارِهِ، وَإِبَاحَةِ حَرِيمِهِ، وَالتَّعْرِضِ بِأَهْلِهِ، طَمَعًا فِي
الْحُصُولِ عَلَى بُغْيَتِهِ مِنْ فَتَى كَانَ عَاقِبَتُهُ - نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالِ، وَنَسْأَلُهُ
الْحَيَاةَ، وَتَحْسِينَ آثَارِنَا، وَإِطَابَةَ أَخْبَارِنَا - حَتَّى لَقَدْ صَارَ الْمِسْكِينُ
حَدِيثًا نَعْمُرُ بِهِ الْمَحَافِلُ، وَتُصَاغُ فِيهِ الْأَشْعَارُ، وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ
الدِّيُوثَ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّذْيِثِ^(١)، وَهُوَ التَّسْهِيلُ. وَمَا بَعْدَ تَسْهِيلِ مَنْ
تَسَمَّحَ نَفْسُهُ بِهَذَا الشَّانِ تَسْهِيلٌ؛ وَمِنْهُ بَعِيرٌ مُدَيِّثٌ. أَيْ: مُذَلِّلٌ. وَلَعَمْرِي
إِنَّ الْعَبِيرَةَ لَتَوْجَدُ فِي الْحَيَوَانَ بِالْخُلُقَةِ، فَكَيْفَ وَقَدْ أَكْدَتْهَا عِنْدَنَا الشَّرِيعَةُ؟
وَمَا بَعْدَ هَذَا مُصَابٌ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ هَذَا الْمَذْكُورَ مَسْتَوْرًا إِلَى أَنْ
اسْتَهْوَاهُ الشَّيْطَانُ، وَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ. وَفِيهِ يَقُولُ عِيسَى بْنُ مُحَمَّدٍ
ابْنِ مَجْمَلٍ الْخَوْلَانِيُّ^(٢):

[من الكامل]

يَا جَاعِلًا إِخْرَاجَ حُرِّ نَسَائِهِ
شَرَكًا لَصَيْدِ جَاذِرٍ^(٣) الْغِرْلَانِ

(١) الدِّيُوثُ، والتَّذْيِثُ: دَاثَ فُلَانٌ يَدِيثُ دَيْثًا: لَانَ وَسَهَّلَ، وَفَقَدَ الْعَبِيرَةَ
وَالْخَجَلَ، فَهُوَ دِيُوثٌ (دون تشديد). وَدَيَّثَ فُلَانٌ تَدْيِثًا: كَانَ دِيُوثًا
(بالتشديد): لَيِّنَ الشَّيْءَ وَسَهَّلَهُ، وَالدِّيُوثُ مِنَ الرِّجَالِ: الْقَوَادُ عَلَى أَهْلِهِ،
وَالَّذِي لَا يَغَارُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَخْجَلُ (الوسيط/داث).

(٢) عِيسَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مَجْمَلٍ الْخَوْلَانِيُّ: ذَكَرْتَهُ الطَّبَعَةُ التُّونِسِيَّةُ:
«عِيسَى... بْنُ مَجْمَلٍ الْخَوْلَانِيُّ». وَكَذَلِكَ د. مَكِّي الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ عَلَى
تَرْجُمَةٍ لَهُ. فِيمَا ضَبَطَهُ د. عَبَّاسٌ كَمَا أوردناه فِي الْمَتْنِ، وَاهْتَدَى إِلَى تَرْجُمَتِهِ فِي
«جَذْوَةِ الْمُقْتَنِسِ» لِلْحَمِيدِيِّ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ أَدِيبًا تَاجِرًا شَاعِرًا، مِنْ أَهْلِ قَرْطَبَةٍ.
وَأورد بعض أشعاره وأشار إلى ذكر ابن حزم له. الجذوة: ج ٢/ص ٤٧٤.

(٣) الْجَوْدَرُ: بَفَتْحِ الذَّالِ وَضَمِّهَا: وَلَدَ الْبَقَرَةِ الْوَحْشِيَّةِ، وَجَمْعُهُ جَاذِرٌ، وَالْكَلِمَةُ
فَارْسِيَّةُ الْأَصْلِ (الوسيط/الجودر).

إِنِّي أَرَى شَرَكَاءَ يُمَرِّقُ ثُمَّ لَا
تَحْظَى بِغَيْرِ مَذَلَّةِ الْحَرَمَانِ
وَأَقُولُ أَنَا أَيْضاً:

[من الطويل]

أَبَاحَ أَبُو مَرَوَانَ حُرَّ نِسَائِهِ
لِيَبْلُغَ مَا يَهْوَى مِنَ الرَّشَاءِ^(١) الْفَرْدِ
فَعَانَبْتُهُ الدُّيُوثُ فِي قُبْحِ فِعْلِهِ
فَأَنْشَدَنِي إِنْشَادَ مُسْتَبْصِرٍ جَلْدِ^(٢) :
«لَقَدْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ الْمُنَى غَيْرَ أَنَّي
يُعَيِّرُنِي قَوْمِي بِإِدْرَاكِهَا وَحْدِي»^(٣)

وَأَقُولُ أَيْضاً:

[من المتقارب]

رَأَيْتُ الْجَزِيرِيَّ فِيمَا يُعَانِي
قَلِيلَ الرَّشَادِ كَثِيرَ السَّفَاهِ
يَبِيعُ وَيَبْتَاعُ عَرَضاً بِعَرَضٍ
أُمُورٌ وَجَدَكَ ذَاتَ اشْتِبَاهِ
وَيَأْخُذُ مِمَّا بِإِعْطَاءِ هَاءٍ
أَلَا هَكَذَا فَلْيَكُنْ ذُو النَّوَاهِي^(٤)

(١) الرَّشَاءُ: ولد الطَّبِيَّةِ إِذَا قَوِيَ وَتَحَرَّكَ وَمَشَى مَعَ أُمِّهِ. وجمعه: أرشاء. ولعل في البيت إشارة إلى ميل ابن الجزيري إلى بعض الغلمان.

(٢) في بعض الطبعات: «مستهتر صلد».

(٣) البيت وارد على سبيل التضمنين، وليس من شعر ابن حزم، وقد وجده د. عباس في الجزء الأول من الذخيرة لابن بَسَام دون نسبة إلى قائله.

(٤) النَّوَاهِي: جمع الناهية: وهي المرأة للرجل تنهاه عن سواها. ولا أدري إذا كان المراد هنا بالنواهي: «النَّهْيُ» وهي جمع «النَّهْيَةِ» بمعنى العقل، وذلك لقوله: «ذو النَّوَاهِي» على سبيل السُّخْرِيَّةِ؟ وقوله: «ويأخذ ميماً بإعطاء هاءٍ» =

وَيُبَدِّلُ أَرْضاً تُغْذِّي النَّبَاتَ
بِأَرْضٍ تَحْفُ بِشَوْكِ الْعِضَاءِ^(١)
لَقَدْ خَابَ فِي تَجْرِهِ ذُو ابْتِياعٍ
مَهَبَّ الرِّيحِ بِمَجْرَى الْمِيَاهِ
ولقد سَمِعْتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِصْمَةِ كَمَا
يُسْتَعَادُّ بِهِ مِنَ الْخِذْلَانِ.

ومما يُشَبِّهُ هَذَا، أَنِّي أَذْكُرُ أَنِّي^(٢) كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ إِخْوَانٌ
لَنَا، عِنْدَ بَعْضِ مَيَاسِيرِ أَهْلِ بَلَدِنَا؛ فَرَأَيْتُ بَيْنَ بَعْضِ مَنْ حَضَرَ،
وَبَيْنَ مَنْ كَانَ بِالْحَضْرَةِ أَيْضاً، مِنْ أَهْلِ صَاحِبِ الْمَجْلِسِ، أَمْرًا
أَنْكَرْتُهُ، وَعَمَزًا اسْتَبَشَعْتُهُ، وَخَلَوَاتِ الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ. وَصَاحِبُ
الْمَجْلِسِ كَالْغَائِبِ أَوْ النَّائِمِ، فَنَبَّهْتُهُ بِالتَّعْرِيزِ فَلَمْ يَنْتَبِهْ، وَحَرَكْتُهُ
بِالتَّصْرِيحِ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ، فَجَعَلْتُ أَكْرُرُ عَلَيْهِ بَيْنَيْنِ قَدِيمَيْنِ لَعَلَّهُ يَفْطِنُ.
وهما هذان:

[من الخفيف]

إِنَّ إِخْوَانَهُ الْمُقِيمِينَ بِالْأَمْرِ
سِ اتَّوَالِ الزُّنَاءِ لَا لِلْغِنَاءِ

= يدخل في باب الكناية والإشارة إلى بعض ما يُسْتَفْهِجُ ذَكَرَهُ. ونرجح أنه أراد:
«... بإعطاء صا» كما ورد في المنتخب من كُنَايَاتِ الْأَدْبَاءِ...» للْقَاضِي
الْجَرَجَانِي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٤ - ص ٣٨.
(١) حَفَّتِ الْأَرْضُ، خُفُوفًا: يَسَّرَ بِقُلُوبِهَا. وَحَفَّ الشَّيْءُ الشَّيْءَ: اسْتَدَارَ حَوْلَهُ
وَأَخَذَ بِهِ (الْوَسِيطُ/ حَفَّ). وَالْعِضَاءُ: كُلُّ شَجَرٍ لَهُ شَوْكٌ صَغُرَ أَوْ كَبُرَ،
وَوَاحِدَتُهُ عِضَاهَةٌ. (الْوَسِيطُ/ عَضَّة).

(٢) يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَارَةُ: «وَأَذْكُرُ مِمَّا يَشَبِّهُ هَذَا أَنِّي كُنْتُ...» وَذَلِكَ تَجْنِبًا
لِتَكَرُّارِ «أَنِّي».

قَطَعُوا أَمْرَهُمْ وَأَنْتَ حِمَارٌ
مُوقِرٌ^(١) مِنْ بِلَادَةٍ وَغَبَاءٍ

وَأَكْثَرْتُ مِنْ إِنْشَادِهِمَا^(٢)، حَتَّى قَالَ لِي صَاحِبُ الْمَجْلِسِ: «قَدْ
أَمْلَلْتَنَا مِنْ سَمَاعِهِمَا فَتَفَضَّلْ بِتَرْكِهِمَا أَوْ إِنْشَادِ غَيْرِهِمَا». فَأَمْسَكْتُ
وَأَنَا لَا أَدْرِي، أَغَافِلُ هُوَ أَمْ مُتَعَاظِلٌ؟ وَمَا أَذْكَرُ أَنِّي عُدْتُ إِلَى ذَلِكَ
الْمَجْلِسِ بَعْدَهَا. فَقُلْتُ فِيهِ قِطْعَةً مِنْهَا:

[من الخفيف]

أَنْتَ لَا شَكَّ أَحْسَنُ النَّاسِ ظَنًّا
وَيَقِينًا وَنِيَّةً وَضَمِيرًا
فَانْتَبِهْ إِنْ بَعْضَ مَنْ كَانَ بِالْأَمْرِ
سِجِّيسَ جَلِيسًا لَنَا يُعَانِي كَبِيرًا
لَيْسَ كُلُّ الرُّكُوعِ فَاعِلٌ، صَلَاةٌ
وَلَا كُلُّ ذِي لِحَازٍ بَصِيرًا

وَحَدَّثَنِي ثَعْلَبُ بْنُ مُوسَى الْكِلَازَانِيُّ^(٣) قَالَ: «حَدَّثَنِي
سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ^(٤) الشَّاعِرُ قَالَ: حَدَّثَتْنِي امْرَأَةٌ اسْمُهَا هِنْدٌ، كُنْتُ
رَأَيْتُهَا فِي الْمَشْرِقِ، وَكَانَتْ قَدْ حَجَّتْ خَمْسَ حَجَّاتٍ، وَهِيَ مِنْ

(١) موقر: وَقَرَّتْ أَدُنْ فَلَانٍ أَوْ وَقَرَّتْ: ثَقُلَ سَمْعُهَا، وَصَمَّتْ. وَوَقَرَّتِ الدَّابَّةُ: أَصَابَ حَافِرَهَا حَجَرٌ أَوْ غَيْرُهُ فَتَكَبَّهَ. وَأَوْقَرَ الدَّابَّةُ: حَمَلَهَا حِمْلًا ثَقِيلًا. وَلَعْلٌ: الْمَقْصُودُ فِي الْبَيْتِ: «حِمَارٌ يَحْمِلُ الْبِلَادَةَ وَالْغَبَاءَ».

(٢) فِي مَعْظَمِ الطَّبَعَاتِ «إِنْشَادِهِنَّ»، وَلَعَلَّهُ تَصْحِيفٌ مِنَ النَّاسِخِ.

(٣) ثَعْلَبُ بْنُ مُوسَى الْكِلَازَانِيُّ: لَمْ أَجِدْ تَرْجُمَتَهُ.

(٤) سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ (الشَّاعِرُ): تَذَكَّرَ الْمَصَادِرَ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ حَمَلُوا هَذَا الْاسْمَ، وَبَعْضُهُمْ مِمَّنْ سَكَنُوا قَرْطُبَةَ، وَعَاصَرُوا ابْنَ حَزْمَ وَلَكِنَّا لَا نَجُزِمُ أَبْيَهُمُ الْمَقْصُودُ فِي حَدِيثِهِ.

الْمُتَعَبِّدَاتِ الْمُجْتَهِدَاتِ، قَالَ سُلَيْمَانُ: فَقَالَتْ لِي: يَا بَنُ (١) أَخِي، لَا تُحْسِنِ الظَّنَّ بِامْرَأَةٍ قَطُّ، فَإِنِّي أَخْبَرُكَ عَنْ نَفْسِي بِمَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: رَكِبْتُ الْبَحْرَ مُنْصَرِفَةً مِنَ الْحَجِّ، وَقَدْ رَفَضْتُ الدُّنْيَا، وَأَنَا خَامِسَةُ خَمْسِ نِسْوَةٍ، كُلُّهُنَّ قَدْ حَجَجْنَ، وَصِرْنَا فِي مَرْكَبٍ فِي بَحْرِ الْقُلْزُومِ (٢)، وَفِي بَعْضِ مَلَا حِي السَّفِينَةِ رَجُلٌ مُضْمَرُ الْخَلْقِ، مَدِيدُ الْقَامَةِ، وَاسِعُ الْأَكْتَافِ، حَسَنُ التَّرْكِيبِ، فَرَأَيْتُهُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ، قَدْ أَتَى إِلَى إِحْدَى صَوَاحِبِي فَوَضَعَ إِحْلِيلَهُ فِي يَدِهَا وَكَانَ ضَخْمًا جِدًّا. فَأَمَكَّنْتُهُ فِي الْوَقْتِ مِنْ نَفْسِهَا. ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهِنَّ كُلُّهُنَّ فِي لَيَالٍ مُتَوَالِيَاتٍ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرِي (٣)، تَعْنِي نَفْسَهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا تَنْتَقِمَنَّ مِنْكَ (٤)، فَأَخَذْتُ مُوسَى وَأَمْسَكْتُهَا بِيَدِي. فَأَتَى فِي اللَّيْلِ عَلَى جَارِي عَادَتِهِ. فَلَمَّا فَعَلَ كَفَعْلِهِ فِي سَائِرِ اللَّيَالِي سَقَطَتْ الْمَوْسَى عَلَيْهِ، فَارْتَاعَ وَقَامَ لِيَنْهَضَ. قَالَتْ: فَأَشْفَقْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ، وَقَدْ أَمْسَكْتُهُ: لَا زِلْتَ أَوْ آخِذٌ نَصِيبِي مِنْكَ. قَالَتْ الْعَجُوزُ: فَقَضَى وَطَرَهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ (٥).

(١) وردت في جميع الطبوعات: «يا ابن أخي» والصواب حذف همزة الوصل من (ابن).

(٢) بحر القُلْزُوم: هذه تسمية قديمة للبحر الأحمر الذي يمتد من مدينة السويس إلى باب المندب وخليج عدن، فاصلاً إفريقية عن شبه جزيرة العرب. وتصله بالبحر الأبيض المتوسط قناة السويس. تنظر: موسوعة المورد: مج ١/ ص ٢٠٣.

(٣) في جميع الطبوعات: «غيرها» وكأن الحديث عاد يجري على لسان الراوي (سليمان)، ولكن كيف يقول «غيرها» ثم يضيف: «تعني نفسها»، فهذه الإضافة تدل على أن الحكاية ما زالت تجري على لسان المرأة، ولعلَّ إيرادها بضمير الغائب جاء على سبيل التلطيف.

(٤) في ط. التونسية: [منها] وهي مضافة من المحقق. وفي سواها: «منه».

(٥) في ط. التونسية: «واستغفر الله» يعني الرجل الملاح.

وإنَّ للشُّعْرَاءِ مِنْ لُطْفِ التَّعْرِیْضِ عَنِ الْكِنَايَةِ لَعَجَبًا. وَمِنْ بَعْضِ ذَلِكَ قَوْلِي حَيْثُ أَقُولُ:

[من الطويل]

أَتَانِي وَمَاءُ الْمُزْنِ فِي الْجَوِّ يُسْفِكُ
كَمْخَضِ لَجِينِ إِذْ يَمْدُ وَيُسْبِكُ
هَلَالُ الدِّيَاجِي انْحَطَّ مِنْ جَوِّ أَفْقِهِ
فَقُلْ فِي مُحَبِّ نَالٍ مَا لَيْسَ يُدْرِكُ
وَكَانَ الَّذِي إِنْ كُنْتُ لِي عَنْهُ سَائِلًا
فِمَالِي جَوَابٌ غَيْرَ أَنِّي أَضْحَكُ
لِفَرْطِ سُرُورِي خَلَّتْنِي عَنْهُ نَائِمًا
فَيَا عَجَبًا مِنْ مُوقِنٍ يَتَشَكَّكُ
وَأَقُولُ أَيْضًا قِطْعَةً مِنْهَا:

[من البسيط]

أَتَيْتَنِي وَهَلَالُ الْجَوِّ مُطْلِعُ
قُبَيْلِ فَرْعِ النَّصَارَى لِلنَّوَاقِيسِ
كَحَاجِبِ الشَّيْخِ عَمَّ الشَّيْبُ أَكْثَرُهُ
وَأَخْمَصُ^(١) الرَّجُلِ فِي لُطْفٍ وَتَقْوِيسِ
وَلَاخَ فِي الْأَفْقِ قَوْسُ اللَّهِ مُكْتَسِبًا
مِنْ كُلِّ لَوْنٍ كَأَذْنَابِ الطَّوَاوِيسِ
وإنَّ فِيمَا يَبْدُو إِلَيْنَا مِنْ تَعَادِي الْمُتَوَاصِلِينَ، فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ

(١) وَأَخْمَصُ: بِكَسْرِ آخِرِهِ عَلَى الْإِتْبَاعِ لـ «حَاجِبٍ» بِتَقْدِيرِ: «كَحَاجِبٍ... وَكَأَخْمَصٍ...». وَمَنْ قَرَأَ «وَأَخْمَصُ» فَذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ وَالْإِنْقِطَاعِ عَنْ صَدْرِ الْبَيْتِ.

تَعَالَى بَعْدَ الْأُلْفَةِ، وَتَدَابُرِهِمْ بَعْدَ الْوِصَالِ، وَتَقَاطُعِهِمْ بَعْدَ الْمَوَدَّةِ، وَتَبَاغُضِهِمْ بَعْدَ الْمَحَبَّةِ، وَاسْتِحْكَامِ الضَّعَائِنِ، وَتَأَكُّدِ السَّخَائِمِ ^(١) فِي صُدُورِهِمْ، لِكَاشِفَانَا هَيَاءً، لَوْ صَادَفَ عُقُولاً سَلِيمَةً، وَآرَاءَ نَافِذَةً وَعَزَائِمَ صَحِيحَةً. فَكَيْفَ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِمَنْ عَصَاهُ مِنَ التَّكَالِ الشَّدِيدِ، يَوْمَ الْحِسَابِ، وَفِي دَارِ الْجَزَاءِ، وَمِنْ الْكَشْفِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا^(٢)﴾ تَذْهُلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(٣) [الحج: ٢]. جَعَلَنَا اللَّهُ مِمَّنْ يَفُوزُ بِرِضَاهُ وَيَسْتَحِقُّ رَحْمَتَهُ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً كَانَتْ مَوَدَّتُهَا فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَعَهْدَتْهَا أَصْفَى مِنَ الْمَاءِ، وَالْطَّفَ مِنَ الْهَوَاءِ، وَأَثَبَتْ مِنَ الْجِبَالِ، وَأَقْوَى مِنَ الْحَدِيدِ^(٤)، وَأَشَدَّ امْتِزَاجاً مِنَ اللَّوْنِ فِي الْمُلُونِ، وَأَنْفَذَ اسْتِحْكَاماً مِنَ الْأَعْرَاضِ فِي الْأَجْسَامِ، وَأَضْوَأَ مِنَ الشَّمْسِ، وَأَصَحَّ مِنَ الْعَيَانِ، وَأَثَقَبَ مِنَ النَّجْمِ، وَأَصْدَقَ مِنْ كُذْرِ الْقَطَا، وَأَعْجَبَ مِنَ الدَّهْرِ، وَأَحْسَنَ مِنَ الْبِرِّ^(٥)،

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ: «وَتَحْكُمُ السَّخَائِمِ». وَالسَّخَائِمُ: جَمْعُ سَخِيمَةٍ وَهِيَ الْحِقْدُ وَالضَّغِينَةُ (الوسيط/ سَخَمَ).

(٢) سَقَطَ لَفْظُ «تَرَوْنَهَا» مِنْ طَبِيعَتِي الْقَاسِمِي وَعَبَّاسٍ.

(٣) وَرَدَ فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ: «أَصْلَبَ مِنَ الْحَدِيدِ» تَنْظُرُ: «جَمْهَرَةُ الْأَمْثَالِ» لِلْعَسْكَرِيِّ (١/ ٥٦٧)، وَ«الدَّرَّةُ الْفَاخِرَةُ» لِلْأَصْبَهَانِيِّ: (١/ ٢٦٣)، وَ«مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ» لِلْمِيدَانِيِّ (١/ ٤١٦).

(٤) مُعْظَمُ مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ ابْنِ حَزْمٍ فِي هَذِهِ الْفَقْرَةِ هُوَ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَمِنْهَا: «أَصْفَى مِنَ الْمَاءِ» وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَثَلُ فِي «جَمْهَرَةِ الْأَمْثَالِ» لِلْعَسْكَرِيِّ (١/ ٥٦٧)، وَ«الدَّرَّةُ الْفَاخِرَةُ» لِلْأَصْبَهَانِيِّ (١/ ٢٦٣) وَ«مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ» لِلْمِيدَانِيِّ =

وَأَجْمَلَ مِنْ وَجْهِ أَبِي عامِرٍ^(١)، وَالَّذَ مِنْ الْعَافِيَةِ، وَأَخْلَى مِنْ
الْمُنَى^(٢) وَأَذْنَى مِنْ النَّفْسِ، وَأَقْرَبَ مِنَ النَّسَبِ، وَأَرْسَخَ مِنْ
النَّفْسِ فِي الْحَجَرِ. ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَأَيْتُ تِلْكَ الْمَوَدَّةَ قَدْ
اسْتَحَالَتْ عَدَاوَةً أَفْظَعَ مِنَ الْمَوْتِ، وَأَنْفَذَ مِنَ السَّهْمِ، وَأَمَرَ مِنَ
السَّقَمِ، وَأَوْحَشَ مِنْ زَوَالِ النِّعَمِ^(٣)، وَأَفْبَحَ مِنْ حُلُولِ النَّقَمِ^(٤)،

= ١٧ / ٤١٧ المثل رقم ٢١٩١. وورد في معناه «أَرَقُّ مِنَ الْمَاءِ» و«أَرَقُّ مِنَ
الْهَوَاءِ». وورد المثل: «أُتِبْتُ مِنَ الْجِبَالِ» فِي «الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ»: (٢) /
٦٦٤، وَهُوَ مُؤَلَّدٌ. وَالْمَثَلُ «أَضْوَأُ مِنَ الشَّمْسِ» وَارِدَ فِي «الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ»
(١ / ٢٧٨)، وَمِمَّا يِقَارِبُهُ فِي الْمَعْنَى: «أَضْوَأُ مِنَ الصَّبْحِ» وَ«أَضْوَأُ مِنَ
الْفَجْرِ»، وَ«أَضْوَأُ مِنْ نَهَارٍ». أَمَّا قَوْلُهُ: «أَصَحَّ مِنَ الْعِيَانِ» فَلَمْ أَجِدْ لَهُ
ذِكْرًا فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ، بَلْ وَجَدْتُ: «أَصَحُّ مِنْ غَيْرٍ» وَهُوَ الْجِمَارُ، وَلَا
أَدْرِي إِذَا كَانَ فِيْمَا نَصَّ عَلَيْهِ «الطُّوقُ» شَيْءٌ مِنَ التَّصْحِيفِ. وَقَوْلُهُ:
«أَثْقَبَ مِنَ النِّجْمِ» لَمْ يَرِدْ فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ بِحَرْفِيَّتِهِ؛ وَإِنْ أَوْرَدْتَ أَمْثَالَ
عَدِيدَةً عَنِ النِّجْمِ. وَقَوْلُهُ: «أَصْدَقُّ مِنْ كُدْرِ الْقَطَا» مِنَ الْمَثَلِ: «أَصْدَقُّ
مِنْ قِطَاةٍ أَوْ: مِنَ الْقَطَا» وَالْكَدْرُ: جَمْعُ أَكْدَرٍ، وَكَدَرَ الْقَطَا: ضَرَبَ مِنْهَا
غُبْرَ الْأَلْوَانِ، رُقُشُ الظُّهُورِ، صُغِرَ الْخُلُوقِ. (الْوَسِيطُ/ كَدَرَ). وَقَوْلُهُ:
«أَعْجَبَ مِنَ الدَّهْرِ» لَمْ يَرِدْ مَثَلًا، وَإِنَّمَا وَرَدَ فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ: «أَبْقَى
وَأَجْنَى وَأَطُولُ وَأَعْدَى مِنَ الدَّهْرِ». وَقَوْلُهُ: «أَحْسَنَ مِنَ الْبِرِّ» يَشَابُهُ الْمَثَلُ
الْقَائِلُ: «أَهْنَأُ مِنَ الْبِرِّ»: «الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ»: (٢) / ٤٤٣.

(١) أَبُو عامِرٍ هُنَا: أَحَدُ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَامِرِيَّةِ، أَوْ هُوَ ابْنُ أَبِي عامِرٍ
صَدِيقُ ابْنِ حَزْمٍ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ سَابِقَةٍ، وَأَشَارَ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ
وَحُسْنِهِ الْفَائِقِ - ص ٢٢٠.

(٢) وَرَدَ فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ قَوْلُهُمْ: «أَخْلَى مِنْ نَيْلِ الْمُنَى»: «مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ»: (١) /
٢٢٩.

(٣) فِي الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُؤَلَّدَةِ: «أَوْحَشَ مِنْ زَوَالِ النِّعْمَةِ»: «الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ»: (٢) /
٤٤٨.

(٤) وَرَدَ فِي «الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ» الْمَثَلُ: «أَوْحَشَ مِنْ حُلُولِ النَّقْمَةِ»: (٢) / ٤٤٤.

وَأَمْضَى مِنْ عُقْمِ الرِّيحِ^(١)، وَأَضَرَّ مِنَ الْحُمَقِ، وَأَذْهَى مِنْ عَلَبَةِ
الْعَدُوِّ، وَأَشَدَّ مِنَ الْأَسْرِ^(٢)، وَأَقْسَى مِنَ الصَّخْرِ^(٣)، وَأَبْعَضَ مِنْ
كَشْفِ الْأَسْتَارِ، وَأَنَأَى مِنَ الْجَوَازِ^(٤)، وَأَصْعَبَ مِنْ مُعَانَةِ السَّمَاءِ،
وَأَكْبَرَ مِنَ السُّمِّ الزُّعَافِ^(٥)، وَمَا لَا يَتَوَلَّدُ مِثْلُهُ عَنِ الدُّحُولِ
وَالْتَرَاتِ^(٦)، وَقَتْلِ الْآبَاءِ وَسَبِي الْأُمَهَاتِ. وَتِلْكَ عَادَةُ اللَّهِ فِي أَهْلِ
الْفِسْقِ الْقَاصِدِينَ سِوَاهُ، الْأَمِينِ غَيْرَهُ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:
﴿يَوَلِّيَ لِيَتَنَّى لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾^(٧)
[الفرقان: ٢٨، ٢٩].

- (١) قالت العرب في أمثالها: «أَمْضَى مِنَ الرِّيحِ». ورد في «جمهرة الأمثال»:
(٢/٢٢٧)، و«الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ» (٢/٣٨٣). و«مجمع الأمثال»: (٢/٣٢٦).
ويقال: «ريح عقيم»: لم تأت بمطر. (الوسيط/عَقْمَ).
(٢) ليس في أمثال العرب: «أَشَدَّ مِنَ الْأَسْرِ» بل ورد عندهم: «أَشَدَّ مِنْ أَسَدٍ أَوْ
مِنَ الْأَسَدِ» «جمهرة الأمثال»: (١/٥٣٨). ولعلَّ التغيير - هنا - عائد إلى
تَصَرُّفِ ابن حزم وميله إلى التَّقْنِينِ الْأُسْلُوبِيِّ...
(٣) هذا من أمثال العرب المعروفة، وهو وارد في «جمهرة الأمثال»: (٢/١١٥)،
و«الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ» (٢/٣٥١) و«مجمع الأمثال»: (٢/١٢٩) وسواها من
المصادر بتغيير طفيف في نَصِّهِ.
(٤) في أمثال العرب: «أَنَأَى مِنَ الْكَوَاكِبِ»: «جمهرة الأمثال»: (٢/٢٩٨)،
و«الدُّرَّةُ الْفَاخِرَةُ»: (٢/٣٩١)، و«مجمع الأمثال»: (٢/٣٥٧).
(٥) أصل القول هو المثل: «أَقْتُلْ مِنَ السُّمِّ»: جمهرة الأمثال: (٢/١١٥)،
والدرة الفاخرة: (٢/٣٥١)، و«مجمع الأمثال»: (٢/١٢٩).
(٦) هكذا قرأ مكِّي وعباس. فيما انفرد القاسمي بالقراءة: «النحول والترات»
(ص/٢١٠). وهي قراءة لا وَجْهَ لَهَا مِنَ الصَّوَابِ. والدُّحُولُ: مفردُهَا الدُّحُلُ
وهو الجُفْدُ والثَّارُ. (الوسيط/الدُّحُلُ). والترات: جمع التَّرة من: وَتَرَ، يَتَرُ،
وَتَرًا، وَتَرَةً، تدل على القتل والثَّار وإدراك الآخرين بمكروه كنهبهم
وغزوهم. (الوسيط/وَتَرَ).
(٧) وردت الآية في جميع الطبقات ناقصة: «يَأْلِيَتْنِي بِسِقُوطِ وَيُلَيْتِي»، وما ورد =

فَيَجِبُ عَلَى اللَّيْبِ، الاستِجَارَةُ بِاللَّهِ مِمَّا يُورِطُ فِيهِ الْهَوَى. فهذا خَلْفٌ، مَوْلَى يَوْسُفَ بْنِ قَمْقَامٍ الْقَائِدِ الْمَشْهُورِ^(١)، كَانَ أَحَدَ الْقَائِمِينَ مَعَ هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ النَّاصِرِ^(٢)، فَلَمَّا أُسِرَ هِشَامٌ وَقُتِلَ، وَهَرَبَ الَّذِينَ وَازَرُوهُ، فَرَّ خَلْفٌ فِي جُمْلَتِهِمْ وَنَجَا. فَلَمَّا أَتَى الْقِسْطَلَاتِ^(٣)، لَمْ يُطِيقِ الصَّبْرَ عَنْ جَارِيَةٍ كَانَتْ لَهُ بِقُرْطُبَةَ فَكَّرَ رَاجِعًا. فَظَفَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيُّ^(٤)، فَأَمَرَ بِصَلْبِهِ. فَلَعَهْدِي بِهِ مَصْلُوبًا فِي الْمَرْجِ عَلَى النَّهْرِ الْأَعْظَمِ^(٥)، وَكَانَهُ الْقُنْفُذُ مِنَ النَّبْلِ^(٦).

= أعلاه هو نص الآية الثامنة والعشرين، وجزء من الآية التاسعة والعشرين من سورة الفرقان، وتماؤها: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

(١) يوسف بن قمقام: يدل حديث ابن حزم على أن يوسف هذا كان من أتباع هشام بن سليمان وأنصاره، ولم أستطع التحقق من شخصيته، رغم حديث ابن حزم عن شهرته.

(٢) هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، من أمراء بني أمية في الأندلس، ناصره البربر ضد محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) وبايعوه ولقبوه «الرشيد» إلا أن المهدي استعان عليه بأهل قرطبة فانهزم البربر، وأسير هشام وحُملَ إلى المهدي، فضرب عنقه سنة (٣٩٩هـ).
الأعلام: مج ٨/ ص ٨٦.

(٣) القِسْطَلَات: ورد في المصادر الأندلسية ذكر «قسطة» و«قسطلونة» و«قسطيلة» ولم نجد «القسطلات» بحرفيتها.

(٤) المهدي: سبقت ترجمته - ص ١٢١.

(٥) المرج: ذكر الإدريسي في «نزهة المشتاق» أنه موضع بين إشبيلية وقرطبة تكثر فيه معادن الفضة. ينظر: مج ٢/ ص ٥٧٤. ولعله «مرج فريش» (بكسر الفاء والراء المشددة) كما ورد في «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين البغدادى: تحقيق علي محمد البجاوي - دار المعرفة - بيروت - ط ١ - ١٩٥٥ - ج ٣/ ص ١٢٥٥. أما النهر الأعظم فهو نهر قرطبة المعروف بالنهر الكبير.

(٦) النبل: السهام: أراد بها شوك القنفذ الحاد.

وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَزِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
اللَيْثِ ^(١) (رَحِمَهُ اللَّهُ) أَنَّ سَبَبَ هُرُوبِهِ إِلَى مَحَلَّةِ الْبَرْبَرِ، أَيَّامَ تَحَوُّلِهِمْ
مَعَ سُلَيْمَانَ الظَّافِرِ ^(٢) إِنَّمَا كَانَ لِجَارِيَةٍ يَكْلَفُ بِهَا، تَصَيَّرَتْ عِنْدَ
بَعْضِ مَنْ كَانَ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَلَقَدْ كَادَ أَنْ يَتْلَفَ فِي تِلْكَ
السَّفَرَةِ.

وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب ^(٣)، فإنما
شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر، الذي
يَسْتَوِي فِي فَهْمِهِ الْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ، فَكَيْفَ مِنَ الْعِصْمَةِ الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا
مَنْ ضَعُفَتْ بَصِيرَتُهُ!.

وَلَا يَقُولَنَّ امْرُؤٌ: «خَلَوْتُ»؛ فَهُوَ وَإِنْ انْفَرَدَ، فَبِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ
مِنْ عِلَامِ الْغُيُوبِ الَّذِي ^(٤) ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾
[غافر: ١٩] و﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخَفَى﴾ [طه: ٧]. و﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ
مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ^(٥)

(١) محمد بن عبد الرحمن بن الليث: ورد ذكره سابقاً.

(٢) سليمان الظافر: سبق ذكره وترجمته - ص ١٢٠.

(٣) قصد بقوله: «هذان الفصلان»: حادثتي خلف (المصلوب)، وأبو بكر الذي
كاد يتلف في سبيل الهوى، فالحادثتان تدلان على ما يمكن أن يقود إليه
الهوى من الهلاك، وإن كانتا لا تقعان في باب قبح المعصية الذي يتحدث
عنه ابن حزم.

(٤) وردت «الذي» في ط. التونسية وط عباس من ضمن الآية، وهو خطأ. ووقع
في ط. التونسية خطأ في تخريج الآيات. (ص ٢١١)، ولم ينبه عليه د.
القاسمي في جدول تصويباته.

(٥) ورد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جزءاً من الآية السادسة من
سورة الحديد، وتمام الآية: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ =

[الحديد: ٦] وَهُوَ ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(١). و﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]. وقال: و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَنْتَلَى الْمَتَلَقَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ - ١٨].

وَلْيَعْلَمِ الْمُسْتَخْفُ بِالْمَعَاصِي، الْمُتَكِلُّ عَلَى التَّسْوِيفِ، الْمُعْرِضُ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، أَنَّ إبليسَ كَانَ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ. فَلِمَعَصِيَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَعَتْ مِنْهُ اسْتَحَقَّ لَعْنَةُ الْأَبَدِ، وَعَذَابُ الْخُلْدِ، وَصِيرَ شَيْطَانًا رَجِيمًا، وَأُبْعِدَ عَنْ رَفِيعِ الْمَكَانِ^(٢). وَهَذَا آدَمُ ﷺ، بِذَنْبٍ وَاحِدٍ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى شَقَاءِ الدُّنْيَا وَنَكْدِهَا. وَلَوْلَا أَنَّهُ تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ، وَتَابَ عَلَيْهِ، لَكَانَ مِنَ الْهَالِكِينَ. أَفْتَرَى^(٣) هَذَا الْمُعْتَرِّ بِاللَّهِ رَبِّهِ، وَبِمَلَائِكَتِهِ لِيَزْدَادَ إِثْمًا، يَظُنُّ أَنَّهُ أَكْرَمُ عَلَى خَالِقِهِ مِنْ أَبِيهِ آدَمَ الَّذِي خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسَجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ خَلْقِهِ عِنْدَهُ؟ أَوْ عِقَابُهُ أَعَزُّ عَلَيْهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ

= وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وورد لفظ الآية مقارباً في سورة آل عمران: ١١٩ - ١٥٤، والمائدة: ٧، والأنفال: ٤٣، وهود: ٥، ولقمان: ٢٣، وفاطر: ٣٨، والزمر: ٧، والشورى: ٢٤، والتغابن: ٤، والملك: ١٣.

(١) ورد قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ جزءاً من الآية الثالثة والسبعين من سورة الأنعام. وتامم الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾. وورد لفظ الآية أيضاً في سورة التوبة: ٩٤ - ١٠٥، والرعد: ٩، والمؤمنون: ٩٢، والسجدة: ٦، والزمر: ٤٦، والحشر: ٢٢، والجمعة: ٨، والتغابن: ١٨.

(٢) قرأها د. عباس: «رفع المقام» (ص ٢٨٥).

(٣) ورد في ط عباس: «افتري»، ولكنه أورد «المعتري» منصوبةً، مما يرجح أنه أراد «أفترى» ووقع خطأ في الطباعة.

إِيَّاهُ؟ كَلَّا، وَلَكِنَّ اسْتِعْذَابَ التَّمَنِّيِّ وَاسْتَيْطَاءَ مَرْكَبِ الْعَجْزِ، وَسُخْفَ الرَّأْيِ قَائِدَةٌ أَصْحَابُهَا إِلَى الْوَبَالِ وَالْخِزْيِ ^(١). وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رُكُوبِ الْمَعْصِيَةِ زَاجِرٌ مِنْ نَهْيِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا حَامٍ مِنْ غَلِيظِ عِقَابِهِ، لَكَانَ فِي قَبِيحِ الْأَخْذِوثَةِ عَنْ صَاحِبِهِ، وَعَظِيمِ الظُّلْمِ الْوَاقِعِ فِي نَفْسِ فَاعِلِهِ، أَعْظَمُ مَانِعٍ، وَأَشَدُّ رَادِعٍ، لِمَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ، وَاتَّبَعَ سَبِيلَ الرُّشْدِ. فَكَيْفَ وَاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ^(٢) يُضْعَفُ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخَلَّدُ فِيهِ مَهَكًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

حَدَّثَنَا الْهَمْدَانِيُّ ^(٣) فِي مَسْجِدِ الْعُمَرِيِّ ^(٤)، بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ قُرْطُبَةَ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ شُبُويَه ^(٥) وَأَبُو إِسْحَاقَ الْبَلْخِيُّ بِخُرَاسَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وائِلٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَرْحَبِيلَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ، وَهُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «قَالَ رَجُلٌ: يَا

(١) الْوَبَالُ: هُنَا: سُوءُ الْعَاقِبَةِ. وَالْخِزْيُ: الْهَلَاكُ وَالْبَلِيَّةُ.

(٢) الْأَثَامُ: هُوَ الْإِثْمُ، وَفِي الْآيَةِ: «يَلْقَى أَثَامًا»: يَلْقَى جِزَاءَ الْإِثْمِ. (الْوَسِيطُ/ أَثْمٌ).

(٣) سَبَقَ ذَكَرَهُ.

(٤) وَرَدَ فِي طِ مَكِّي: «الْقَمَرِي» (ص ١٧٦) إِلَّا أَنَّهُ أَشَارَ إِلَى اِحْتِمَالِ كَوْنِهَا تَصْحِيفًا عَنْ «الْعُمَرِي»، لِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ فِي مَسَاجِدِ قُرْطُبَةَ مَا يَحْمِلُ اسْمَ «الْقَمَرِي»، وَوَجَدَ فِيهَا مَسْجِدَ يَحْمِلُ اسْمَ «الْعُمَرِي». وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ هِيَ الرَّاجِحَةُ فِي رَأْيِ الْقَاسِمِيِّ وَعَبَّاسٍ وَالْمُسْتَشْرِقِينَ غُومَسَ وَبِرُوفِنْسَالِ.

(٥) ابْنُ شُبُويَه: وَرَدَ فِي جَمِيعِ الطَّبَعَاتِ خَطًّا: «ابْنُ سَبُويَه». وَصَحَّحَهُ د. عَبَّاسٌ، وَضَبَطَهُ، وَتَرْجَمَ لَهُ (ص ٢٨٦). وَهُوَ فُقَيْهٌ مُحَدِّثٌ.

رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ. قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ^(١). فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [النور: ٢].

حَدَّثَنَا الْهَمْدَانِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْبَلْخِيِّ وَابْنِ شَبُويه عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُونُسَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ عَقِيلِ، عَنْ ابْنِ شِهَابِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ الْمَخْزُومِيِّينَ، وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفِ الزَّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي، وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٢). وَبِالسَّنَدِ الْمَذْكُورِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ عَنْ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ عَقِيلِ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «أَتَى رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَبُكَ جُنُونٌ؟ قَالَ:

(١) الحديث: ورد الحديث مع الآية التالية له في «مسند الإمام أحمد»: ج ١/ ص ٣٨٠ - ٣٨١ - ٤٣٤ - ٤٦٢ على التوالي. وتجدده أيضاً في صحيح مسلم، وصحيح البخاري.

(٢) الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن» أورده البخاري في صحيحه. ينظر: «إرشاد الساري...» للقسطلاني: مج ١٠/ ص ٦ - ٧.

لا. قال: فهل أحصنت؟ قال: نعم. فقال النبي ﷺ: اذهبوا به فارجموه^(١).

قال ابن شهاب: «فأخبرني من سمع جابراً بن عبد الله قال: كنت فيمن رجمه، فرجمناه بالمصلّى، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرّة^(٢) فرجمناه».

حدثنا أبو سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع بقرطبة، عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر النحاس عن سعيد بن بشر، عن عمرو بن رافع عن منصور عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد، وتغريب^(٣) سنة؛ والثيب بالثيب جلد مائة والرجم^(٤)». فيا لشنعة ذنب أنزل الله وحيه مبيناً بالتشهير بصاحبه، والعنف بفاعله، والتشديد لمقتربه؛ وتشدد في ألا يُرجم إلا بحضرة أوليائه عقوبة

(١) الحديث: «... اذهبوا به فارجموه»: ورد في مسند الإمام أحمد: ج ٢/ ص ٤٥٣. ثم: ج ٥/ ص ٨٦.

(٢) الحرّة: اسم موضع قريب من المدينة.

(٣) التغريب: النفي والإبعاد، وقيل: الطلاق. وفي الحديث: «أن رجلاً قال له: إن امرأتي لا ترد يد لامس فقال: غريبها». أي أبعدھا، يريد الطلاق. (اللسان/ غرب). وينظر لمزيد من التفصيل: «الموسوعة الفقهية» ج ١٣ - ص ٤٦ - (تغريب).

(٤) الثيب: المرأة غير العذراء، والمتزوجة، وقصد بقوله: الثيب بالثيب: الرجل والمرأة المحصنين. وورد الحديث في «صحيح مسلم» بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - ج ٣ - كتاب الحدود - باب حد الزنى - الحديث رقم ١٢٩٠/١٢ - ص ١٣١٦.

رَجْمِهِ^(١). وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ إِجْمَاعًا لَا يَنْقُضُهُ إِلَّا مُلْحِدٌ، أَنَّ الزَّائِي الْمُحْصَنَ عَلَيْهِ الرَّجْمُ حَتَّى يَمُوتَ.

فَيَا لَهَا قَتْلَةً مَا أَهْوَلَهَا، وَعُقُوبَةً مَا أَفْظَعَهَا، وَأَشَدَّ عَذَابِهَا وَأَبْعَدَهَا مِنَ الْإِرَاحَةِ وَسُرْعَةِ الْمَوْتِ!!

وَطَوَائِفُ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ وَابْنُ رَاهَوِيَّةٍ وَدَاوُدُ وَأَصْحَابُهُ، يَرَوْنَ عَلَيْهِ مَعَ الرَّجْمِ جَلْدَ مِائَةٍ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَثَابِتِ^(٢) السُّنَّةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِعْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِأَنَّهُ رَجَمَ امْرَأَةً مُحْصَنَةً فِي الزَّنَى بَعْدَ أَنْ جَلَدَهَا مِائَةً. وَقَالَ: جَلَدْتُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَرَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ^(٣). وَالْقَوْلُ بِذَلِكَ لَزِمَ لِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ، لِأَنَّ زِيَادَةَ الْعَذْلِ فِي الْحَدِيثِ مَقْبُولَةٌ.

وَقَدْ صَحَّ فِي اجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ الْمَنْقُولُ بِالْكَافَّةِ، الَّذِي يَضْحَبُهُ الْعَمَلُ عِنْدَ كُلِّ فِرْقَةٍ، وَفِي أَهْلِ كُلِّ نِحْلَةٍ مِنْ نِحْلِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، حَاشَا طَائِفَةً يَسِيرَةٌ مِنَ الْخَوَارِجِ لَا يُعْتَدُّ بِهِمْ، أَنَّهُ لَا يَجِلُّ دَمُ أَمْرِي مُسْلِمٍ إِلَّا بِكُفْرِ بَعْدَ إِيْمَانٍ، أَوْ نَفْسٍ بِنَفْسٍ، أَوْ بِمُحَارَبَةٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، يُشْهَرُ فِيهَا سَيْفُهُ وَيَسْعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، مُقْبِلًا غَيْرَ مُذِيرٍ، وَبِالزَّنَى بَعْدَ الْإِحْصَانِ. فَإِنَّ حَدَّ مَا جَعَلَ اللَّهُ مَعَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمُحَارَبَتِهِ وَقَطْعِ حُجَّتِهِ فِي الْأَرْضِ وَمُنَابَذَتِهِ دِينَهُ: لَجُرْمٍ

(١) عبارة «عقوبة رجمه» وردت في ط. التونسية، وط. مكّي ومعظم الطبقات، وسقطت من طبعة عباس (ص ٢٨٧).

(٢) «ثابت السنة» هكذا وردت في ط عباس، وقرأها القاسمي ومكي: «ثبات».

(٣) ورد تفصيل الحادثة وقول عليّ في: «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» للقسطلاني (ج ١٠/٦ - ٧).

كَبِيرٌ وَمَعْصِيَةٌ شَنْعَاءُ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿إِنْ تَحْتَبَرُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلَكُمْ﴾ [النساء : ٣١] . و﴿الَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثِيرَ أَلِئِنَّهُمْ وَالْفَوَاحِشُ إِلَّا أَلَمُّ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم : ٣٢] . وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ اخْتَلَفُوا فِي تَسْمِيَّتِهَا ، فَكُلُّهُمْ مُجْمِعٌ ، مَهْمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْهَا ، أَنَّ الزَّنَى يُقَدَّمُ فِيهَا ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يُوعِدِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ ، بِالنَّارِ بَعْدَ الشُّرْكِ ، إِلَّا فِي سَبْعَةِ ذُنُوبٍ ، وَهِيَ الْكِبَائِرُ : الزَّنَى أَحَدُهَا ، وَقَدْفُ الْمُحْصَنَاتِ أَيْضاً مِنْهَا ، مَنْصُوصاً ذَلِكَ كُلُّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَا يَجِبُ الْقَتْلُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، إِلَّا فِي الذُّنُوبِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَقَدَّمُ ذِكْرُهَا . فَأَمَّا الْكُفْرُ مِنْهَا فَإِنْ عَادَ صَاحِبُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، أَوْ بِالذِّمَّةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُرْتَدًّا ، قُبِلَ مِنْهُ ، وَدُرِيَ عَنْهُ الْمَوْتُ . وَأَمَّا الْقَتْلُ ، فَإِنْ قُبِلَ الْوَلِيُّ الدِّيَّةَ فِي قَوْلِ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ ، أَوْ عَفَا فِي قَوْلِ جَمِيعِهِمْ ، سَقَطَ عَنِ الْقَاتِلِ الْقَتْلُ بِالْقِصَاصِ . وَأَمَّا الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ ، فَإِنْ تَابَ صَاحِبُهُ ، قُبِلَ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ ، هُدِرَ عَنْهُ الْقَتْلُ . وَلَا سَبِيلَ فِي قَوْلِ أَحَدٍ مُؤَالِفٍ أَوْ مُحَالِفٍ فِي تَرْكِ رَجْمِ الْمُحْصَنِ ، وَلَا وَجْهَ لِرَفْعِ الْمَوْتِ عَنْهُ الْبَتَّةَ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى شُنْعَةِ الزَّنَى مَا حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عِيسَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى ، عَنْ أَبِيهِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى ، عَنْ اللَّيْثِ بْنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ : «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَصَابَ فِي زَمَانِهِ نَاساً مِنْ هَذِيلٍ ، فَخَرَجَتْ جَارِيَةٌ مِنْهُمْ فَاتَّبَعَهَا رَجُلٌ يُرِيدُهَا عَنْ نَفْسِهَا ،

فَرَمَتْهُ بِحَجَرٍ فَقَضَتْ كَبِدَهُ. فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا قَتِيلُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا يُودَى ^(١) أَبَدًا.

وما جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَرْبَعَةَ شُهُودٍ، وَفِي كُلِّ حُكْمٍ شَاهِدَيْنِ، إِلَّا حَيَاطَةً مِنْهُ أَلَّا تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي عِبَادِهِ، لِعِظَمِهَا وَشُنْعَتِهَا وَقُبْحِهَا. وَكَيْفَ لَا تَكُونُ شَنِيعَةً وَمَنْ قَذَفَ بِهَا أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، أَوْ أُخْتَهُ الْمُسْلِمَةَ دُونَ صِحَّةِ عِلْمٍ أَوْ تَيَقُّنٍ مَعْرِفَةٍ، فَقَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنَ الْكِبَائِرِ اسْتَحَقَّ عَلَيْهَا النَّارَ غَدًا، وَوَجَبَ عَلَيْهِ بَنَصُ التَّنْزِيلِ أَنْ تُضْرَبَ بِشَرَّتِهِ ثَمَانِينَ سَوْطًا ^(٢). وَمَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرَى أَلَّا يُؤْخَذَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ حَدٌّ بِالتَّعْزِيزِ دُونَ التَّضْرِيحِ إِلَّا فِي قَذْفٍ!

وَبِالسَّنَدِ الْمَذْكُورِ عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أُمِّهِ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُجْلَدَ الرَّجُلُ، قَالَ لِأَخْرَ: «مَا أَبِي بَزَانٍ وَلَا أُمِّي بَزَانِيَّةٌ».

وَفِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ وَبِإِجْمَاعٍ مِنَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا دُونَ خِلَافٍ مِنْ أَحَدٍ نَعْلَمُهُ، أَنَّهُ إِذَا قَالَ رَجُلٌ لِأَخْرَ: «يَا كَافِرُ، أَوْ يَا قَاتِلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ»، لَمَّا وَجَبَ عَلَيْهِ حَدٌّ، احْتِيَاطًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا تُثَبَّتَ ^(٣) هَذِهِ الْعَظِيمَةُ فِي مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ.

(١) لَا يُودَى: لَا تَدْفَعُ لَهُ دِيَّةً.

(٢) وَرَدَ فِي ط. التُّونِسِيَّةِ: «صَوْتًا» (ص ٢١٦)؟

(٣) فِي ط. مَكِّي: «يُثَبَّت» (ص ١٨٠) وَعِنْدَهَا تَكُونُ الْقِرَاءَةُ «أَلَّا يُثَبَّتَ هَذِهِ الْعَظِيمَةُ».

وَمِنْ قَوْلِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضاً، أَنَّهُ لَا حَدَّ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا وَالْقَتْلُ يُغْنِي عَنْهُ وَيُنْسخُهُ، إِلَّا حَدَّ الْقَذْفِ فَإِنَّهُ، إِنْ وَجَبَ عَلَى مَنْ قَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ، حَدٌّ ثُمَّ قُتِلَ^(١). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٤، ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]. وَرَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْغَضَبُ وَاللَّعْنَةُ الْمَذْكُورَانِ فِي اللَّعَانِ إِنَّهُمَا مُوجِبَتَانِ»^(٢).

حَدَّثَنَا الْهَمْدَانِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي الْغَيْثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَبَّاتِ. قَالُوا: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ،

(١) ورد قول مالك في «المدونة في الفقه المالكي» (ج ٦/ص ٢١٢).

(٢) اللَّعْنَةُ لَعْنَةُ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ مِنَ الْخَيْرِ، وَقِيلَ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ الْخَلْقِ السَّبَبُ؛ وَفِي الْأَصْطِلَاحِ: «إِذَا قَذَفَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ أَوْ رَمَاهَا بِرَجُلٍ أَنَّهُ زَنَى بِهَا». وَقَوْلُهُ ﷺ: «مُوجِبَتَانِ» مَعْنَاهُ أَنْ يُقْسَمَ الزَّوْجُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ عَلَى صَدَقَةِ فِي قَذْفِ زَوْجَتِهِ بِالزَّنَى، وَالْخَامِسَةُ بِاسْتِحْقَاقِهِ لَعْنَةَ اللَّهِ إِنْ كَانَ كَاذِبًا، وَبِذَا يَبْرَأُ مِنْ حَدِّ الْقَذْفِ، ثُمَّ تَقْسَمُ الزَّوْجَةُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ عَلَى كَذْبِهِ، وَالْخَامِسَةُ بِاسْتِحْقَاقِهَا غَضَبَ اللَّهِ إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَتَبْرَأُ مِنْ حَدِّ الزَّنَى. (اللسان والوسيط/لَعَنَ) وَلَمْ يَزِدْ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي أَحْكَامِهِ تَنْظُرُ: «الْمَوْسُوعَةُ الْفَقْهِيَّةُ»: وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ - الْكُوَيْتِ - مَطْبَاعُ دَارِ الصَّفْوَةِ - ١٤ - ١٩٩٥ - ج ٣٥ - ص ٢٤٦ - لِعَانِ.

والتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذَفَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
المُؤْمِنَاتِ^(١).

وإن في الزنى من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين
الأزواج الذي عظم الله أمره، ما لا يهون على ذي عقل، أو من له
أقل خلق^(٢). ولولا مكان هذا العنصر من الإنسان، وأنه غير
مأمون الغلبة لما خفف الله عن البكرين، وشدد على المحصنين.
وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز
وجل، حكماً باقياً لم يُسَخَّ ولا أزيل. فبارك^(٣) الناظر لعباده الذي
لم يشغله عظيم ما في خلقه، ولا يحيف^(٤) قدرته كبير ما في
عوامله عن النظر لحقير ما فيها فهو كما قال عز وجل: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ
لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]. وقال:
﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٥)
[سبأ: ٣].

-
- (١) ورد الحديث في «صحيح البخاري»، وتجده في «صحيح مسلم» - ج ١ -
كتاب الإيمان - الحديث رقم ٨٩/١٤٥ - ص ٩٢.
(٢) الخلاق: الحظ والنصيب من الخير. (الوسيط/خلق).
(٣) هذه قراءة د. عباس تفرّد بها عن بقية الطباعات، وأخذنا بها لوجهاتها
ومناسبتها للسياق. وورد عند مكّي والفاسمي «فترك الناظر».
(٤) لا يحيف قدرته: لا يُنْقِصُ منها.
(٥) لا يعزّب عنه: لا يخفى. وعزّب الشيء يعزّب عزوباً: بُعد وخفي.
(الوسيط/عزّب).
(٦) ورد في نص الآية في ط. التونسية: «... ذرة في الأرض ولا في السماء».
وهو خطأ...

وإِنَّ أَعْظَمَ مَا يَأْتِي بِهِ الْعَبْدُ، هَتْكَ سِتْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ. وَقَدْ جَاءَ فِي حُكْمِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ضَرْبِهِ الرَّجُلَ الَّذِي ضَمَّ صَبِيًّا حَتَّى أُمْنَى، ضَرْبًا كَانَ سَبَبًا لِلْمَنِيَّةِ. وَمِنْ إعْجَابِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِاجْتِهَادِ الْأَمِيرِ الَّذِي ضَرَبَ صَبِيًّا مَكَّنَ رَجُلًا مِنْ تَقْبِيلِهِ حَتَّى أُمْنَى الرَّجُلُ، ضَرَبَهُ إِلَى أَنْ مَاتَ، مَا يُنْسِي شِدَّةَ دَوَاعِي هَذَا الشَّانِ وَأَسْبَابِهِ. وَالتَّزِيدُ فِي الاجْتِهَادِ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَرَاهُ، فَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، يَتَّبِعُهُ عَلَى ذَلِكَ عَالَمٌ مِنَ النَّاسِ^(١). وَأَمَّا الَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ، فَالَّذِي حَدَّثَنَا هَذَا هَمْدَانِيُّ عَنْ الْبَلْخِيِّ عَنِ الْفِرَبْرِيِّ، عَنْ الْبُخَارِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمْرُو أَنَّ بُكَيْرًا حَدَّثَهُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢). وَبِهِ يَقُولُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ النَّسَائِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَأَمَّا فِعْلُ قَوْمِ لُوطٍ فَشَنِيعٌ بِشِيعٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ
الْفَلْحَشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وَقَدْ

(١) فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ «غَالِبُ النَّاسِ».

(٢) الْحَدِيثُ: «لَا يُجْلَدُ...»: وَرَدَ هَذَا الْحَدِيثُ بِلَفْظِ مُشَابِهٍ فِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَهٍ» لِلْإِمَامِ السُّنْدِيِّ - بِتَحْقِيقِ: الشَّيْخِ خَلِيلِ مَأْمُونِ شَيْحَا - دَارِ الْمَعْرِفَةِ - بَيْرُوتَ - ط ١ - ١٩٩٦ - مَج ٣ - كِتَابُ الْحُدُودِ - الْحَدِيثُ رَقْم ١/٢٦٠١ - ص ٢٤٩.

قَذَفَ اللَّهُ فَاعِلِيهِ بِحَجَارَةٍ مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةٍ. وَمَالِكٌ (رَحِمَهُ اللَّهُ) يَرَى عَلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ الرَّجْمَ، أَحْصَيْنَا أَوْ لَمْ يُحْصِنَا. وَاحْتَجَّ بَعْضُ الْمَالِكِيِّينَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي رَجْمِهِ فَاعِلِيهِ بِالْحَجَارَةِ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. فَوَجِبَ بِهَذَا أَنَّهُ مَنْ ظَلَمَ الْآنَ بِمِثْلِ فِعْلِهِمْ قَرَبَتْ مِنْهُ. وَالْخِلَافُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّرِيِّ ^(١) أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْرَقَ فِيهِ بِالنَّارِ. وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى ^(٢) اسْمَ الْمُحْرَقِ فَقَالَ: هُوَ شُجَاعُ بْنُ وَرْقَاءَ الْأَسَدِيِّ، أَحْرَقَهُ بِالنَّارِ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ لِأَنَّهُ يُؤْتَى فِي دُبُرِهِ كَمَا تُؤْتَى الْمَرْأَةُ ^(٣).

وإِنَّ، عَنِ الْمَعَاصِي، لَمَذَاهِبَ لِلْعَقْلِ ^(٤) وَاسِعَةً؛ فَمَا حَرَّمَ اللَّهُ شَيْئاً إِلَّا وَقَدْ عَوَّضَ عِبَادَهُ مِنَ الْحَلَالِ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنَ الْمُحَرَّمِ،

(١) إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّرِيِّ بْنُ سَهْلٍ، أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: النَحْوِيُّ اللَّغَوِيُّ الْبَغْدَادِيُّ الْمَعْرُوفُ. وَلَدَ فِي بَغْدَادَ سَنَةَ (٢٤١هـ). وَلَقِبَ بِالزَّجَّاجِ لِأَنَّهُ كَانَ فِي فِتْنَتِهِ يَخْرُطُ الزَّجَاجَ. تَتَلَمَّذَ عَلَى الْمُبَرِّدِ، وَأَدَّبَ بَعْضَ أَوْلَادِ الْوُزَرَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ، فَجَعَلَهُ أَحَدَهُمْ حِينَ وَلِيَ الْوِزَارَةَ كَاتِباً عَنْده، لَهُ عِدَّةُ كُتُبٍ بَيْنَ مَطْبُوعٍ وَمَخْطُوطٍ أَهْمُهُمَا «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ». كَانَتْ وَفَاتُهُ بِبَغْدَادَ سَنَةَ (٣١١هـ). الْأَعْلَامُ: مج ١/ ص ٤٠.

(٢) مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى التَّمِيمِيُّ بِالْوَلَاءِ، الْبَصْرِيُّ، أَبُو عُبَيْدَةَ النَّحْوِيُّ، مِنْ أُمَّةِ الْعِلْمِ بِالْأَدَبِ وَاللُّغَةِ، وَلَدَ فِي الْبَصْرَةِ سَنَةَ (١١٠هـ)، عُرِفَ بِغَزَاةِ عِلْمِهِ، وَشُعُوبِيَّتِهِ وَبَغْضِهِ الْعَرَبِ، وَبَشَدَةِ نَقْدِهِ لِمَعَاصِرِهِ، وَتَرَكَ كُتُباً كَثِيراً. تَوَفَّى فِي الْبَصْرَةِ سَنَةَ (٢٠٩هـ). الْأَعْلَامُ: مج ٧/ ص ٢٧٢.

(٣) أَوْرَدَ ابْنُ حَزْمٍ الْحَادِثَةَ فِي كِتَابِهِ: «الْمَحَلَّى» وَنَاقَشَهَا، وَذَكَرَ اسْمَ آخَرَ لِلْمُحْرَقِ هُوَ «الْفَجَاءَةُ» أَوْ «الْفَجَاءَةُ». يَنْظُرُ: «الْمَحَلَّى»: دَارُ الْآفَاقِ الْجَدِيدَةِ - بَيْرُوت - دُونَ تَارِيخٍ - ج ١١ - ص ٣٨٠ - ٣٨١.

(٤) قَرَأَهَا د. عَبَّاسُ «لِلْعَاقِلِ» وَهِيَ مُمْكِنَةٌ.

وَأَفْضَلُ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَأَقُولُ فِي النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى عَلَى سَبِيلِ الْوَعْظِ^(١):

[من الطويل]

أَقُولُ لِنَفْسِي: مَا مُبِينٌ كِحَالِكِ
«وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ»^(٢)
صُنِ النَّفْسَ عَمَّا عَابَهَا وَأَرْفُضِ الْهَوَى
فَإِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ بَابِ الْمَهَالِكِ
رَأَيْتُ الْهَوَى سَهْلَ الْمَبَادِي لَذِيذِهَا
وَعُقْبَاهُ مُرُّ الطَّعْمِ ضَنْكُ الْمَسَالِكِ
فَمَا لَذَّةُ الْإِنْسَانِ وَالْمَوْتُ بَعْدَهَا
وَلَوْ عَاشَ ضَعْفِي عُمُرِ نُوحٍ بِنِ لَامِكِ
فَلَا تَتَّبِعِ دَارًا قَلِيلًا لِبَائِهَا
فَقَدْ أَنْذَرْتَنَا بِالْفَنَاءِ الْمُوَاشِكِ
وَمَا تَرْكُهَا إِلَّا إِذَا هِيَ أُمَكْنَتْ
وَكَمْ تَارِكٍ إِضْمَارُهُ غَيْرُ تَارِكٍ
فَمَا تَارِكِ الْأَمَالِ عَجِيًّا جَاذِرًا^(٣)
كَتَارِكِهَا ذَاتِ^(٤) الضُّرُوعِ الْحَوَاشِكِ

(١) جرى اختلاف كبير في رواية هذه القصيدة وألفاظها بين طبقات الطُّوق، وقد رجَّحنا في معظم الأبيات والمواضع ما ورد في تحقيق د. عباس مع الإشارة إلى ما ورد في بقية الطبقات.

(٢) هذا الشطر تضمن لقول الشاعر:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقُ

(٣) في بقية الطبقات: «عُجْبًا جَوَّاذِرًا». والعجِّي: ولد الدابة. والجاذر: مفردها جَوَّذَر: ولد البقرة الوحشية.

(٤) مكِّي: «ذات».

وَمَنْ قَابِلَ الْأَمْرِ ^(١) الَّذِي كَانَ رَاغِبًا
 بِشَهْوَةِ مُشْتَقٍ وَعَقْلٍ مُتَارِكٍ ^(٢)
 لِأُخْرَى عِبَادِ اللَّهِ ^(٣) بِالْفُوزِ عِنْدَهُ
 لَدَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ فَوْقَ الْأَرَائِكِ
 وَمَنْ عَرَفَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ طَالِبٌ
 رَأَى سَفَهَا ^(٤) مَا فِي يَدَيْ كُلِّ مَالِكٍ
 وَمَنْ عَرَفَ الرَّحْمَنَ لَمْ يَعْصِ أَمْرَهُ
 وَلَوْ أَنَّهُ يُعْطَى جَمِيعَ الْمَمَالِكِ
 سَبِيلُ التَّقَى وَالنُّسُكِ خَيْرُ الْمَسَالِكِ
 وَسَلِكُهَا مُسْتَبْصِرٌ ^(٥) خَيْرُ سَالِكِ
 فَمَا فَقَدَ التَّنْغِصَ مَنْ عَاجَ دُونَهَا
 وَلَا طَابَ عَيْشٌ لِامْرِئٍ غَيْرِ نَاسِكٍ ^(٦)
 وَطُوبَى لِأَقْوَامٍ يُؤْمِنُونَ نَحْوَهَا
 بِخَفَّةِ أَرْوَاحٍ وَلَيْنِ عَرَائِكِ
 لَقَدْ فَقَدُوا غِلَّ النُّفُوسِ وَفَضَّلُوا
 بِعِزِّ سَلَاطِينٍ وَأَمْنِ صَعَالِكِ
 فَعَاشُوا كَمَا شَاؤُوا وَمَاتُوا كَمَا اشْتَهَوْا
 وَفَارَزُوا بِدَارِ الْخُلْدِ رَحْبَ الْمُبَارِكِ

(١) مكّي: «وما قابِلُ الأمرِ». والقاسمي: «وما قابِلُ الأمرِ».

(٢) مكّي والقاسمي: «مُتَارِكٍ».

(٣) مكّي: «لأَجْدَى عِبَادِ اللَّهِ». والقاسمي: «لأَجْدَى عِبَادِ اللَّهِ».

(٤) مكّي والقاسمي وسواهما: «سَبْأً».

(٥) في بَقِيَةِ الطَّبَعَاتِ: «مُسْتَبْصِرٌ».

(٦) مكّي: «مَالِكٍ» والقاسمي: «سَالِكٍ».

عَصَوْا طَاعَةَ الْأَجْسَادِ فِي كُلِّ لَذَّةٍ
 بِنُورٍ مُجَلٍّ ^(١) ظُلْمَةً الْغَيِّ هَاتِكِ
 فَلَوْلَا اغْتِدَاءُ ^(٢) الْجِسْمِ أَتَقَنَّتْ أَنَّهُمْ
 يَعِيشُونَ عَيْشًا مِثْلَ عَيْشِ الْمَلَائِكِ
 فَيَا رَبِّ قَدِّمُهُمْ وَزِدْ فِي صَلَاحِهِمْ
 وَصَلِّ عَلَيْهِمْ حَيْثُ حَلُّوا وَبَارِكْ
 وَيَا نَفْسُ جِدِّي لَا تَمَلِّي وَشَمَّرِي
 لِنَيْلِ سُرُورِ الدَّهْرِ فِيمَا هُنَالِكَ
 وَأَنْتِ مَتَى دَمَرْتَ سَعْيِكَ فِي الْهَوَى
 عَلِمْتَ بِأَنَّ الْحَقَّ لَيْسَ كَذَلِكَ
 فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ الشَّرِيعَةَ لِلْوَرَى
 بِأَبْيَنَ مِنْ زُهْرِ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ
 فَيَا نَفْسُ جِدِّي فِي خَلَاصِكَ وَانْفُذِي
 نَفَاذَ السُّيُوفِ الْمُرْهَفَاتِ الْبَوَاتِكِ
 فَلَوْ أَعْمَلَ النَّاسُ التَّفَكُّرَ فِي الَّذِي
 لَهُ خُلِقُوا مَا كَانَ حَيٌّ بِضَاحِكِ

(١) مكِّي: «محلّ ظلمة...». والقاسمي: «بنور محلّ ظلمة...».

(٢) بقية الطبقات: «اعتداد».

٣٠

بابُ فضلِ التَّعَفُّفِ (*)

وَمِنْ أَفْضَلِ مَا يَأْتِيهِ الْإِنْسَانُ فِي حُبِّهِ التَّعَفُّفُ، وَتَرْكُ رُكُوبِ
الْمَعْصِيَةِ وَالْفَاحِشَةِ، وَالْأَيُّ يَرْغَبُ عَنْ مُجَازَاةِ خَالِقِهِ لَهُ بِالنَّعِيمِ فِي دَارِ
الْمُقَامَةِ، وَالْأَيُّ يَعْصِي مَوْلَاهُ الْمُتَفَضِّلَ عَلَيْهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَكَانًا وَأَهْلًا
لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رُسُلَهُ، وَجَعَلَ كَلَامَهُ ثَابِتًا لَدَيْهِ، عِنَايَةً مِنْهُ
بِنَا، وَإِحْسَانًا إِلَيْنَا.

وَإِنَّ مَنْ هَامَ قَلْبُهُ، وَشُغِلَ بَالُهُ، وَاشْتَدَّ شَوْقُهُ، وَعَظُمَ وَجْدُهُ،
ثُمَّ ظَفِرَ فَرَامُ هَوَاهُ أَنْ يَغْلِبَ عَقْلُهُ، وَشَهْوَتُهُ أَنْ تَقْهَرَ دِينَهُ^(١)، ثُمَّ أَقَامَ
الْعَدْلَ لِنَفْسِهِ حِصْنًا، وَعَلِمَ أَنَّهَا النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَذَكَرَهَا
بِعِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفَكَرَ فِي اجْتِرَائِهِ عَلَى خَالِقِهِ وَهُوَ يَرَاهُ، وَحَذَّرَهَا
مِنْ يَوْمِ الْمَعَادِ^(٢)، وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ، الشَّدِيدِ
الْعِقَابِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيِّنَةٍ. وَنَظَرَ بَعِينَ
ضَمِيرِهِ، إِلَى انْفِرَادِهِ عَنْ كُلِّ مُدَافِعٍ بِحَضْرَةِ عَلَامِ الْغُيُوبِ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ

(*) ورد عنوان هذا الباب في ط د. عباس (ص ٢٩٥) وفي فهرس الرسالة
(ص ٣٩٩): «باب فصل التَّعَفُّفِ» (بالصاد) في «فصل» رغم وروده عنده في
مقدمة الرسالة وذكر أبوابها: (ص ٢٩٥) «فضل التعفف»، مما يُرَجَّحُ أنه
خطأ مطبعي.

(١) هذه قراءة عباس، وورد عند مكِّي والقاسمي: «... فرام هواه أن يغلب
عقله وشهوته، وأن يقهر دينه». وما قرأه عباس أصوب.

(٢) الْمَعَادُ: الحياة الآخرة، والمرجع والمصير.

مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الشعراء: ٨٨، ٨٩﴾ ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ
 الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ
 مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل
 عمران: ٣٠] يَوْمَ ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ
 ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]. يَوْمَ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾
 [الكهف: ٤٩] يَوْمَ ﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ
 لِمَنْ يَرَى فَمَا مِنْ طَافٍ وَآثَرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
 وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٤ - ٤١] واليوم
 الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾
 [الإسراء: ١٣، ١٤] عِنْدَهَا يَقُولُ الْعَاصِي: ﴿يَوْلَيْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ
 لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فَكَيْفَ بِمَنْ طَوِيَ
 قَلْبُهُ عَلَى أَحَرٍّ مِنْ جَمْرِ الْغَضَا. وَطَوِيَ كَشْحُهُ^(١) عَلَى أَحَدٍ مِنْ
 السَّيْفِ وَتَجَرَّعَ غُصَصًا أَمْرًا مِنَ الْحَنْظَلِ، وَصَرَفَ نَفْسَهُ كُرْهًا عَمَّا
 طَمِعَتْ فِيهِ، وَتَيَقَّنَتْ بِلُغُوغِهِ، وَتَهَيَّأَتْ لَهُ، وَلَمْ يَحُلْ دُونَهَا حَائِلٌ،
 لَحَرِيٍّ أَنْ يُسَرَّ غَدًا يَوْمَ الْبَعْثِ، وَيَكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فِي دَارِ الْجَزَاءِ
 وَعَالَمِ الْخُلُودِ، وَأَنْ يَأْمَنَ رَوْعَاتِ الْقِيَامَةِ وَهَوْلِ الْمَطْلَعِ، وَأَنْ
 يُعَوِّضَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْقَرْحَةِ الْأَمْنِ يَوْمَ الْحَشْرِ.

حَدَّثَنِي أَبُو مُوسَى هَارُونُ بْنُ مُوسَى الطَّبِيبِ^(٢) قَالَ: «رَأَيْتُ

(١) الْكَشْحُ: مَا بَيْنَ الْخَاصِرَةِ وَالضُلُوعِ. وَيُقَالُ: «طَوَى كَشْحَهُ عَلَى الْأَمْرِ:

أَضْمَرَهُ وَسْتَرَهُ» (الوسيط/ كَشْح).

(٢) هَارُونُ بْنُ مُوسَى الطَّبِيبِ (أَبُو مُوسَى): ذَكَرَهُ ابْنُ جُلْجُلِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي

«طَبَقَاتِ الْأَطْبَاءِ وَالْحُكَمَاءِ» بِاسْمِ (هَارُونِ الْأَشُونِيِّ) وَذَكَرَ بِأَنَّهُ طَبِيبُ خَدَمِ =

شَابًا حَسَنَ الْوَجْهِ مِنْ أَهْلِ قُرْطَبَةَ قَدْ تَعَبَّدَ وَرَفَضَ الدُّنْيَا، وَكَانَ لَهُ أَخٌ فِي اللَّهِ قَدْ سَقَطَتْ بَيْنَهُمَا مَوُونُهُ التَّحْقُظُ، فزارَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَعَزَمَ عَلَى الْمَيْتِ عِنْدَهُ، فَعَرَضَتْ لِصَاحِبِ الْمَنْزِلِ حَاجَةً إِلَى بَعْضِ مَعَارِفِهِ، بِالْبُعْدِ عَنْ مَنْزِلِهِ. فَنَهَضَ لَهَا عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ مُسْرِعًا. وَنَزَلَ الشَّابُّ فِي دَارِهِ مَعَ امْرَأَتِهِ، وَكَانَتْ غَايَةً فِي الْحُسْنِ وَتَرْبًا^(١) لِلضَّيْفِ فِي الصَّبَا، فَأَطَالَ رَبُّ الْمَنْزِلِ الْمُقَامَ إِلَى أَنْ مَشَى الْعَسَسُ^(٢)، وَلَمْ يُمْكِنَهُ الْانْصِرَافُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمَّا عَلِمَتِ الْمَرْأَةُ

= الناصر والمستنصر، وكان من شيوخ الأطباء وخيارهم. إلا أن ابن أبي أصيبعة (ت ٦٨٨هـ) ينقل هذه الترجمة نفسها مع تحريف في نسبته فيذكر «هارون بن موسى الأشبوني» وهو ما يستعده محقق طبقات ابن جليل، ويرجح أن تكون نسبته «الأشبوني». وأشونة مدينة قريبة من قرطبة، وابن جليل يورخ لأطبائها، أما أشبونة فهي بعيدة جداً عن قرطبة. وهي المعروفة اليوم باسم «لشبونة» عاصمة البرتغال. ولا ندري - على وجه الدقة - ما إذا كان ابن حزم قصد بحديثه هذا الطبيب أم غيره، إذ لا نستطيع أن نجزم بأن ابن حزم المولود سنة (٣٨٤هـ) قد قابل هذا الطبيب الذي خدم المستنصر المتوفى سنة (٣٦٦هـ)، أي قبل ولادة ابن حزم بحوالي عشرين عاماً، إلا إذا كان الطبيب المذكور ممن عَمَرُوا طويلاً.

ينظر «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جليل بتحقيق فؤاد السيد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٥ - ص ١١٢. وكذلك «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة - شرح وتحقيق د. نزار رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت - دون تاريخ - ص ٤٩٢.

(١) التَّرب: المماثل في السن، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في المؤنث، وجمعه أتراب (الوسيط/ تَرْب).

(٢) الْعَسَسُ: مفردها العاسُ، وهو من يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة. وكلمة «الْعَسَسُ» تشبه في معناها ما يُسَمَّى اليوم «الشَّرْطَةُ» مِنْ حَفْظَةِ الْأَمْنِ فِي الْبِلَادِ. (الوسيط/ عَسَّ وشرَط).

بَفَوَاتِ الْوَقْتِ، وَأَنَّ زَوْجَهَا لَا يُمَكِّنُهُ الْمَجِيءُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، تَأَقَّتْ نَفْسُهَا إِلَى ذَلِكَ الْفَتَى، فَبَرَزَتْ إِلَيْهِ وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا، وَلَا ثَالِثَ لَهُمَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَمَّ بِهَا، ثُمَّ ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ، وَفَكَّرَ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَوَضَعَ إصْبَعَهُ عَلَى السَّرَاجِ فَتَفَقَّعَ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَفْسُ، ذُوقِي هَذَا، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ! . فَهَالِ الْمَرْأَةُ مَا رَأَتْ، ثُمَّ عَاوَدَتْهُ، فَعَاوَدَتْهُ الشَّهْوَةُ الْمَرْكَبَةُ فِي الْإِنْسَانِ، فَعَادَ إِلَى الْفِعْلَةِ الْأُولَى. فَاثْبَلَجَ الصَّبَاحُ وَسَبَّابَتْهُ قَدْ اضْطَلَمَتْهَا النَّارُ^(١)!! أَفَتَتَنُّ بَلَعٌ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ هَذَا الْمَبْلَعُ، إِلَّا لِفَرْطِ شَهْوَةٍ قَدْ كَلَبَتْ عَلَيْهِ؟ أَوْ تَرَى أَنَّ [الله] تَعَالَى يُضَيِّعُ لَهُ حُسْنَ الْمَقَامِ؟ كَلَّا! إِنَّهُ لَا كَرَمَ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْلَمُ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي امْرَأَةٌ أَثِقُ بِهَا، أَنَّهَا عَلَّقَهَا فَتَى مِثْلَهَا فِي الْحُسْنِ، وَعَلَّقَتْهُ وَشَاعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمَا، فَاجْتَمَعَا يَوْمًا خَالِيَيْنِ، فَقَالَ: هَلُمِّي نَحْقُقْ مَا يُقَالُ فِينَا. فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، لَا كَانَ هَذَا أَبَدًا. وَأَنَا أَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] قَالَتْ: فَمَا مَضَى قَلِيلٌ حَتَّى اجْتَمَعَا فِي حَلَالٍ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي ثِقَّةٌ مِنْ إِخْوَانِي أَنَّهُ خَلَا يَوْمًا بِجَارِيَةٍ، كَانَتْ لَهُ مُفَارِكَةٌ^(٢) فِي الصَّبَا، فَتَعَرَّضَتْ لِبَعْضِ تِلْكَ الْمَعَانِي، فَقَالَ لَهَا:

(١) فِي جَمِيعِ الطَّبَعَاتِ: «اضْطَلَمَتْهَا» وَهِيَ بِمَعْنَى: قَطَعَتْهَا وَاسْتَأْصَلَتْهَا وَأَبَادَتْهَا. فَهَلْ يَكُونُ ابْنُ حَزْمٍ اسْتَحْدَمَ «اضْطَلَمَتْهَا» مِنْ «الْأَصْطِلَاءِ» بِالنَّارِ، وَوَقَعَ شَيْءٌ مِنَ التَّصْحِيفِ؟ . . .

(٢) مُفَارِكَةٌ هُنَا بِمَعْنَى: هَاجِرَةٌ وَكَارِهَةٌ. فَرَكٌ، يُفْرَكُ، فَرَكًا: كَرِهَ وَأَبْغَضَ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي بَغْضَةِ الزَّوْجَيْنِ، فَهُوَ وَهِيَ فَارِكٌ. (الْوَسِيطُ/فَرَكٌ). وَقَرَأَهَا د. عَبَّاسٌ «مُفَارِكًا». وَالْمُسْتَشْرِقُ بَرَشِيهِ: «مُعَادِلَةٌ». وَاقْتَرَحَ د. الْقَاسِمِيُّ: «كَانَتْ لَهُ مُشَارِكَةٌ فِي الصَّبَا» وَ«كَانَتْ لَهُ مَعَهَا مُقَارَبَةٌ فِي الصَّبَا». وَكُلُّهَا تُؤَدِّي مَعَانِيَّ مَشَابِهَةً.

«كَلَّا، إِنَّ مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ فِيمَا مَنَحَنِي مِنْ وَصَالِكَ الَّذِي كَانَ أَقْصَى آمَالِي، أَنْ أَجْتَنِبَ هَوَايَ لِأَمْرِهِ». وَلَعُمْرِي إِنَّ هَذَا لَغَرِيبٌ فِيمَا خَلَا مِنَ الْأَزْمَانِ، فَكَيْفَ فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي قَدْ ذَهَبَ خَيْرُهُ وَآتَى شَرُّهُ؟!

وَمَا أَقْدَرُ فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ - وَهِيَ صَحِيحَةٌ - إِلَّا أَحَدَ وَجْهَيْنِ لَا شَكَّ فِيهِمَا: إِمَّا طُبِعَ قَدْ مَالَ إِلَى غَيْرِ هَذَا الشَّأْنِ، وَاسْتَحْكَمَتْ مَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِ سِوَاهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَا يُجِيبُ دَوَاعِيَ الْغَرْلِ فِي كَلِمَةٍ، وَلَا كَلِمَتَيْنِ، وَلَا فِي يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ، وَلَوْ طَالَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُمْتَحِنِينَ مَا امْتَحِنُوا بِهِ، لَجَادَتْ طِبَاعُهُمْ، وَأَجَابُوا هَاتِفَ الْفِتْنَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَصَمَهُمُ بَانْقِطَاعِ السَّبَبِ الْمُحَرِّكِ، نَظَرًا لَهُمْ، وَعِلْمًا بِمَا فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنَ الْاسْتِعَادَةِ بِهِ مِنَ الْقَبَائِحِ، وَاسْتِدْعَاءِ الرُّشْدِ. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَإِمَّا بَصِيرَةٌ حَضَرَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَخَاطِرٌ تَجَرَّدَ^(١)، انْقَمَعَتْ بِهِ طَوَالِغُ الشَّهْوَةِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ، لَخَيْرٍ، أَرَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِصَاحِبِهِ. جَعَلْنَا اللَّهَ مِمَّنْ يَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ. آمِينَ.

وَحَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ مِضَاءٍ^(٢) عَنْ رِجَالٍ مِنْ

(١) ورد في ط. التونسية: «وِخَاطِرٍ» (ص ٢٢٤) ولا تفسير له إلا الخطأ، فعبارة ابن حزم تقول: «إِمَّا طُبِعَ... وَإِمَّا بَصِيرَةٌ... وَخَاطِرٌ...».

(٢) ورد في ط. التونسية: «محمد بن عمرو»، وأورده عباس «محمد بن عمر». وهكذا وردت ترجمته المقتضية في «جذوة المقتبس»: «محمد بن عمر بن مضاء»، من أهل الأدب، مع إشارة إلى ذكر ابن حزم له. ولا يذهب ظنُّ القارئ إلى أنه ابن مضاء النحوي المعروف صاحب كتاب «الرد على النحاة»، فهذا غيره. الجذوة: ج ١/ ص ١٢٩.

بني مروان ثَقَاتٍ يُسْنِدُونَ الحديثَ إلى أبي العباسِ الوليدِ بنِ غانمٍ،
أنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ الإمامَ عبدَ الرحمنِ بنَ الحَكَمِ غابَ في بعضِ غَزَوَاتِهِ
شُهوراً وَتَقَفَ القَصْرُ^(١) بابنِهِ مُحَمَّدٍ الذي وَلِيَ الخِلافةَ بعدهُ، وَرَتَّبَهُ
في السَّطْحِ وَجَعَلَ مَبِيتَهُ لَيْلاً وَقَعُودَهُ نَهَاراً فيه، وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ في
الخُرُوجِ البَتَّةَ. وَرَتَّبَ مَعَهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ وَزِيْراً مِنَ الوُزَرَاءِ وَفَتًى مِنْ
أكابرِ الْفُتَيَانِ يَبِيتَانِ مَعَهُ في السَّطْحِ. قَالَ أبو العباسِ: «فَأَقَامَ على
ذلكَ مُدَّةً طَوِيلَةً، وَبَعَدَ عَهْدَهُ بِأَهْلِهِ، وَهُوَ في سِنِّ العَشْرِينَ أَوْ
نَحْوِهَا، إِلَى أَنْ وَافَقَ مَبِيتِي في لَيْلَتِي نَوْبَةً فَتًى مِنْ أَكْبَارِ الْفُتَيَانِ،
وَكَانَ صَغِيراً في سِنِّهِ، وَغَايَةً في حُسْنِ وَجْهِهِ». قَالَ أبو العباسِ:
«فَقُلْتُ في نَفْسِي: إِنِّي أَخْشَى اللَّيْلَةَ على مُحَمَّدٍ بنِ عبدِ الرحمنِ
الهِلاكَ، بِمُوَاقَعَةِ المَعْصِيَةِ، وَتَزْيِينِ إبْلِيسَ وَأَتْبَاعِهِ لَهُ». قَالَ: «ثُمَّ
أَخَذْتُ مَضْجَعِي في السَّطْحِ الْخَارِجِ، وَمُحَمَّدٌ في السَّطْحِ الدَّاخِلِ
المُطْلَ على حَرَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالفَتَى في الطَّرَفِ الثَّانِي القَرِيبِ
مِنَ الْمُطْلَعِ^(٢)، فَظَلَلْتُ أَرْقُبُهُ، وَلَا أَغْفُلُ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنِّي قَدْ نِمْتُ،
وَلَا يَشْعُرُ بِاطِّلاَعِي عَلَيْهِ».

قَالَ: «فَلَمَّا مَضَى هَزِيعٌ مِنَ اللَّيْلِ، رَأَيْتُهُ قَدْ قَامَ، وَاسْتَوَى قَاعِداً
سَاعَةً لَطِيفَةً، ثُمَّ تَعَوَّذَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَرَجَعَ إِلَى مَنَامِهِ. ثُمَّ قَامَ بَعْدَ
حِينَ، وَلَبَسَ قَمِيصَهُ وَاسْتَوْفَزَ، ثُمَّ نَزَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَادَ إِلَى مَنَامِهِ.
ثُمَّ قَامَ الثَّالِثَةَ، وَلَبَسَ قَمِيصَهُ وَدَلَّى رِجْلِيهِ مِنَ السَّرِيرِ، وَبَقِيَ كَذَلِكَ

(١) تَقَفَ القَصْرَ بابنِهِ: أَقَامَهُ عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ التَّعْرِيفُ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ
وَابْنِهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَهُ الْخَبَرُ - ص ٦٦ و ٦٧.

(٢) وَتَقَرَّرَ: «المُطْلَعُ»: وَهُوَ مَكَانٌ عَالٍ يَشْرَفُ عَلَى مَا تَحْتَهُ، وَيَتِيحُ لِلْقَائِمِ فِيهِ أَنْ
يَطْلُعَ وَيَنْظُرَ.

ساعة، ثُمَّ نَادَى الْفَتَى بِاسْمِهِ فَأَجَابَهُ، فَقَالَ لَهُ: إِنزِلْ عَنِ السَّطْحِ وَابْقَ فِي الْفَصِيلِ^(١) الَّذِي تَحْتَهُ. فَقَامَ الْفَتَى مُؤْتَمِرًا لَهُ، فَلَمَّا نَزَلَ، قَامَ مُحَمَّدٌ، وَأَعْلَقَ الْبَابَ مِنْ دَاخِلِهِ، وَعَادَ إِلَى سَرِيرِهِ. قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: «فَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ لِلَّهِ فِيهِ مُرَادٌ خَيْرٌ».

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْجَسُورِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُطَرَفٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ مَالِكٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ صَدَقَةً فَأَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»^(٢).

وإني أذكرُ أنني دُعيتُ إلى مجلسٍ، فيه بعضُ مَنْ تَسْتَحْسِنُ الْأَبْصَارَ صُورَتَهُ، وتَأَلَّفَ الْقُلُوبُ أَخْلَاقَهُ، لِلْحَدِيثِ وَالْمُجَالَسَةِ دُونَ مُنْكَرٍ وَلَا مَكْرُوهٍ، فَسَارَعْتُ إِلَيْهِ وَكَانَ هَذَا سَحَرًا. فَبَعْدَ أَنْ صَلَّيْتُ الصُّبْحَ، وَأَخَذْتُ زَيْبِي، طَرَفَنِي فِكْرٌ، فَسَنَحْتُ لِي أُبَيَّاتٍ، وَمَعِيَ رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِي فَقَالَ لِي: «مَا هَذَا الْإِطْرَاقُ؟» فَلَمْ أُجِبْهُ حَتَّى

(١) الفصيل: حائط قصير أقل من الحصن والسور. (الوسيط/فصل). وإن كان له

في معمار الأندلس وصف خاص يقارب الردهة أو المدخل المسقوف.

(٢) ورد الحديث في: «مسند أحمد»: ج ٢/ص ٤٣٦. وتجده في مواضعه من

«صحيح مسلم» و«صحيح البخاري».

أَكْمَلْتُهَا، ثُمَّ كَتَبْتُهَا وَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ، وَأَمْسَكَتُ عَنِ الْمَسِيرِ حَيْثُ كُنْتُ نَوَيْتُ. وَمِنْ الْأَبْيَاتِ:

[من الطويل]

أَرَأَيْكَ حُسْنَ غَيْبِهِ لَكَ تَأْرِيقُ
وَتَبْرِيدُ وَضَلِ سِرُّهُ فَيْكَ تَخْرِيقُ
وَقُرْبُ مَزَارٍ يَقْتَضِي لَكَ فُرْقَةً
وَشَيْكاً وَلَوْلَا الْقُرْبُ لَمْ يَكُ تَفْرِيقُ
وَلَذَّةُ طَعْمٍ مُعْقِبٍ لَكَ عُلْقَمًا
وَصَابًا^(١) وَفَسَحٌ فِي تَضَاعِيفِهِ ضَيْقُ

ولو لم يكن جزاءً، ولا عقاباً، ولا ثوابٌ لَوَجَبَ علينا إِفْنَاءُ الأعمارِ، وإِتْعَابُ الأبدانِ، وإِجْهَادُ الطَّاقَةِ، واسْتِنْفَادُ الوُسْعِ، واسْتِفْرَاغُ القُوَّةِ، فِي شُكْرِ الخَالِقِ الَّذِي ابْتَدَأَنَا بِالنَّعْمِ قَبْلَ اسْتِثْهَالِهَا، وَامْتَنَّنَ عَلَيْنَا بِالْعَقْلِ الَّذِي بِهِ عَرَفْنَاهُ، وَوَهَبَنَا الْحَوَاسَّ وَالْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ وَدَقَائِقَ الصَّنَاعَاتِ، وَصَرَّفَ لَنَا السَّمَوَاتِ جَارِيَةً بِمَنَافِعِهَا، وَدَبَّرَنَا التَّدْبِيرَ الَّذِي لَوْ مَلَكْنَا خَلَقْنَا لَمْ نَهْتَدِ إِلَيْهِ، وَلَا نَظَرْنَا لِأَنْفُسِنَا نَظْرَهُ لَنَا، وَفَضَّلَنَا عَلَى أَكْثَرِ المَخْلُوقَاتِ، وَجَعَلَنَا مُسْتَوْدَعَ كَلَامِهِ وَمُسْتَقَرَّ دِينِهِ، وَخَلَقَ لَنَا الْجَنَّةَ دُونَ أَنْ نَسْتَحِقَّهَا، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لِعِبَادِهِ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا بِأَعْمَالِهِمْ لِتَكُونَ وَاجِبَةً لَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧] وَرَشَدَنَا إِلَى سَبِيلِهَا، وَأَبْصَرْنَا وَجْهَ ظِلِّهَا، وَجَعَلَ غَايَةَ إِحْسَانِهِ إِلَيْنَا، وَامْتِنَانَهُ عَلَيْنَا حَقًّا مِنْ حُقُوقِنَا قَبْلَهُ، وَدِينًا لَازِمًا لَهُ، وَشَكَرْنَا عَلَى مَا أَعْطَانَا مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي رَزَقْنَا قُوَاهَا، وَأَثَابَنَا بِفَضْلِهِ عَلَى تَفَضُّلِهِ.

(١) الصَّابُ: سبق شرحه، وهو شَجَرٌ بالغ المرارة.

هذا كَرَمٌ لا تَهْتَدِي إِلَيْهِ الْعُقُولُ، ولا يُمَكِّنُ أَنْ تُكَيِّفَهُ^(١) الألبابُ. وَمَنْ عَرَفَ رَبَّهُ وَمِقْدَارَ رِضَاهُ وَسُخْطِهِ، هَانَتْ عِنْدَهُ اللَّذَاتُ الذَّاهِبَةُ وَالْحُطَامُ الْفَانِي، فكَيْفَ وَقَدْ أَتَى مِنْ وَعِيدِهِ مَا تَقْشَعِرُّ لِسَمَاعِهِ الْأَجْسَادُ، وَتَذُوبُ لَهُ النُّفُوسُ، وَأُورِدَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِهِ مَا لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْهِ أَمَلٌ، فَأَيْنَ الْمَذْهَبُ عَنْ طَاعَةِ هَذَا الْمَلِكِ الْكَرِيمِ؟ وما الرَّغْبَةُ فِي لَذَّةٍ ذَاهِبَةٍ لَا تَذْهَبُ النَّدَامَةُ عَنْهَا، وَلَا تَفْنَى التَّبَاعَةُ مِنْهَا، وَلَا يَزُولُ الْخِزْيُ عَنْ رَاكِبِهَا؟ وَإِلَى كَمْ هَذَا التَّمَادِي، وَقَدْ أَسْمَعَنَا الْمُنَادِي، وَكَأَنَّ قَدْ حَدَا بِنَا الْحَادِي إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، فِيمَا إِلَى جَنَّةٍ وَإِمَّا إِلَى نَارٍ؟ أَلَا إِنَّ التَّثَبُّطَ^(٢) فِي هَذَا الْمَكَانِ لَهُوَ الضَّلَالُ الْمُبِينُ. وفي ذلك أَقُولُ:

[مِنَ الْمُنْسَرَحِ]

أَفْصَرَ عَنْ لَهْوِهِ وَعَنْ طَرِبِهِ
وَعَفَّ فِي حُبِّهِ وَفِي غَرِبِهِ^(٣)

(١) كذا في جميع الطبعات إلا أن د. عباس أشار في الحاشية إلى احتمال أن يكون صوابها: «تكتنفه» أو «تكتننه» (ص ٣٠٠).

(٢) تَثَبُّطٌ: تَرَيُّتٌ وَتَعَوَّقٌ.

(٣) غَرِبِهِ: كذا عند عباس (ص ٣٠١)، بمعنى ابتعاده. وقرأها: مكّي:

«غَرِبُهُ» وهي تعني: النساء المتحبيبات، ومفردها العَرُوبُ: المرأة المتحبة إلى زوجها، وتجمع على «عُرُب». (الوسيط/عَرِبَ) وقرأها القاسمي «عَرِيَهُ». إلا أن أيّاً من المحققين الثلاثة لم يأت بشرح لغوي يُسَوِّغُ فيه قراءته. وإن رأى د. عباس أنَّ في معاني هذه القصيدة معارضةً لإحدى قصائد أبي تمام، وهي بائيته في مدح محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي التي مطلعها:

إِنْ بُكَاءَ فِي الدَّارِ مِنْ أَرِبِهِ فَشَايَعًا مُغْرَمًا عَلَى طَرِبِهِ
ديوانه: شرح التبريزي وتحقيق محمد عبده عزام: (١/ ٢٦٤).

فليس شَرِبَ المُدَامَ هَمَّتُهُ
ولا اقْتَنَصُ الظَّبَاءِ مِنْ أَرَبِهِ
قد آنَ لِلْقَلْبِ أَنْ يُفَيِّقَ وَأَنْ
يُزِيلَ مَا قَدْ عَلَاهُ مِنْ حُجْبِهِ
أَلِهَاهُ عَمَّا عَهِدَتْ يُعْجِبُهُ
خَيْفَةُ «يَوْمِ تُبْلَى السَّرَائِرُ»^(١) بِهِ
يَا نَفْسُ جِدِّي وَشَمَّرِي وَدَعِي
عَنْكَ اتِّبَاعَ الْهَوَى عَلَى لَعْبِهِ^(٢)
وَسَارِعِي فِي النِّجَاةِ وَاجْتَهِدِي
سَاعِيَةً فِي الْخَلَاصِ مِنْ كُرْبِهِ
عَلِّي أَحْظَى بِالْفَوْزِ فِيهِ وَأَنْ
أَنْجُوَ مِنْ ضَيْقِهِ وَمِنْ لَهْبِهِ
يَا أَيُّهَا اللَّاعِبُ الْمُجْدُّ بِهِ الْـ
دَّهْرُ، أَمَا تَتَّقِي شَبَانَكَ^(٣) بِهِ
كَفَاكَ مِنْ كُلِّ مَا وُعِظْتَ بِهِ
مَا قَدْ أَرَاكَ الزَّمَانُ مِنْ عَجَبِهِ

(١) تضمين للآية التاسعة من سورة الطارق: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ».

(٢) اللَّعْبُ: التعب والإعياء، واللُّغُبُ: بتسكين الغين: الفساد والضعف والحقاقة. (الوسيط/لَعَبٌ).

(٣) كذا عند القاسمي. وقرأها مكي وعباس: «شَبَانَكَ». و: «الشَّبَا»: جمع شَبَاةٍ، وهي من كل شيء حَدَّ طَرَفِهِ. ومنه شَبَاةُ السيف. وشَبَاةُ العَقْرَب: إبرتها. (الوسيط/شبا). و«نُكْبُهُ» من النُّكْبَةِ والنُّكْبِ: المصيبة. واستبعدنا قراءة مكي وعباس «نُكْبُهُ» لَأَنَّ «النُّكْبَ» جمع «نُكْبَةٍ» وهي الكومة من الطعام. ويمكن أن يكون ابن حزم قد استخدمها جمعاً للنكبة بمعنى المصيبة. وهذا تَجَوُّزٌ عهدناه في لغة ابن حزم في مواضع عديدة.

دَعَّ عَنْكَ دَاراً تَفْنَى غَضَارُتُهَا ^(١)
وَمَكْسَباً لَاعِباً بِمُكْتَسِبِهِ ^(٢)
لَمْ يَضْطَرْبْ فِي مَحَلِّهَا أَحَدٌ
إِلَّا نَبَا حَدُّهَا بِمُضْطَرِبِهِ
مَنْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَةٍ
لَوَى وَحَلَ الْفُؤَادَ فِي رَهْبِهِ
مَا مُنْقَضِي الْمُلْكِ مِثْلُ ^(٣) خَالِدِهِ
وَلَا صَحِيحِ الثُّقَى كَمُؤْتَشِبِهِ ^(٤)
وَلَا نَقِيٍّ الْوَرَى كِفَاسِقِهِمْ
وَلَيْسَ صِدْقُ الْكَلَامِ مِنْ كَذِبِهِ
فَلَوْ أَمِنَّا مِنَ الْعِقَابِ وَلَمْ
نَخْشَ مِنَ اللَّهِ مُتَّقَى غَضَبِهِ
وَلَمْ نَخَفْ نَارَهُ الَّتِي خُلِقَتْ
لِكُلِّ جَانِي الْكَلَامِ مُحْتَقِبِهِ ^(٥)
لَكَانَ فَرَضاً، لَزُومٌ طَاعَتِهِ
وَرَدٌّ وَفْدِ الْهَوَى عَلَى عَقِبِهِ

(١) الغضارة: سعة العيش ونعمته.

(٢) مكى: «بِمُكْتَسِبِهِ» بفتح السين. والقاسمي: «بِمُكْتَسِبِهِ» (بكسرها). وعند عباس دون ضبط.

(٣) ضبطها القاسمي «مِثْلُ»، ومكى «مِثْلُ». ولم تُضْبَطْ عند عباس.

(٤) المؤتشب: المختلط غير الصافي. وأشب الأشياء: جمعها وخلطها، وأشب الأمر بينهم: اختلط وفسد. (الوسيط/أشب).

(٥) احتقَبَ خيراً أو شراً: أدخره (الوسيط/حقَبَ).

وَصِحَّةُ الزُّهْدِ فِي الْبَقَاءِ وَأَنْ
يَلْحَقَ تَفْنِيدُنَا بِمُزْتَقِبِهِ
فَقَدْ رَأَيْنَا فِعْلَ الزَّمَانِ بِأَهْـ
لِيهِ ^(١) كَفِعْلِ الشُّوَاطِ فِي حَطْبِهِ ^(٢)
كَمْ مُتْعِبٍ فِي الْإِلَهِ مُهْجَتِهِ
رَاحَتُهُ فِي الْكَرِيهِ مِنْ تَعَبِهِ
وَطَالِبٍ بِاجْتِهَادِهِ زَهَرَ ^(٣) الـ
ذُنْيَا عَدَاهُ الْمَنُونُ ^(٤) عَنْ طَلْبِهِ
وَمُدْرِكٍ مَا ابْتَغَاهُ ذِي جَذَلٍ ^(٥)
حَلَّ بِهِ مَا يَخَافُ مِنْ سَبَبِهِ
وَبَاحِثٍ جَاهِدٍ لِبُغْيَتِهِ
فَإِنَّمَا بَحْثُهُ عَلَى عَطْبِهِ
بَيْنَا تَرَى الْمَرْءَ سَامِيًا مَلِكًا
صَارَ إِلَى السُّفْلِ مِنْ ذُرَى رُتْبِهِ
كَالزَّرْعِ لِلرَّجُلِ فَوْقَهُ عَمَلٌ
إِنْ يَنْمُ حُسْنٌ ^(٦) النُّمُو فِي قَصْبِهِ

(١) في ط . التونسية : « بأهله » . وما ورد في النص أصلح للوزن .

(٢) الشُّوَاطُ : اللهب .

(٣) قرأها مكِّي والقاسمي : « زهرة » . وما أثبتناه بقراءة د . عباس أَصَحُّ وَزَنَّا .

(٤) المنون : الموت .

(٥) الجذل : الفرح والسرور .

(٦) في ط . التونسية : « إن » . وعند مكِّي « أن » ، ولم تثبت الهمزة في ط عباس .

وقرأ مكِّي « حُسْنٌ » والقاسمي : دون ضبط ، وعباس « حُسْنٌ » . وكل تغيير في الضبط يعطي دلالة جديدة في المعنى .

كَمْ قَاطِعِ نَفْسِهِ أَسَى وَشَجَاً
 فِي إِثْرِ جَدٍّ ^(١) يَجِدُ فِي هَرَبِهِ
 أَلَيْسَ فِي ذَاكَ زَاجِرٌ عَجَبٌ
 يَزِيدُ ذَا اللَّبِّ فِي حُلَى أَدْبِهِ
 فَكَيْفَ وَالنَّارُ لِلْمُسِيِّ إِذَا
 عَاجَ عَنِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ عَقِبِهِ
 وَيَوْمَ عَرَضِ الْحِسَابِ يَفْضَحُهُ الـ
 لَّهُ وَيُبْدِي الْخَفِيَّ مِنْ رَيْبِهِ
 مَنْ قَدْ حَبَاهُ الْإِلَهُ رَحْمَتَهُ
 مَوْصُولَةً بِالْمَزِيدِ مِنْ نَشِئِهِ ^(٢)
 فَصَارَ مِنْ جَهْلِهِ يُصَرِّفُهَا ^(٣)
 فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي كُتْبِهِ
 أَلَيْسَ هَذَا أَحْرَى الْعِبَادِ غَدَاً
 بِالْوُقُوعِ فِي وَيْلِهِ وَفِي حَرَبِهِ ^(٤)
 شُكْرًا لِلرَّبِّ لَطِيفٌ قُدْرَتِهِ
 فِينَا كَحَبْلِ الْوَرِيدِ فِي كَثْبِهِ ^(٥)
 رَازِقِ أَهْلِ الزَّمَانِ أَجْمَعِهِمْ
 مَنْ كَانَ مِنْ عَجْمِهِ ^(٦) وَمِنْ عَرَبِهِ

(١) مكي: «جَدٌّ». والقاسمي: «جَدٌّ». ودون ضبط عند عباس.

(٢) النَّشْبُ: المال والعقار، والمعنى يشير إلى نِعَمِ الله على الإنسان.

(٣) في ط. التونسية: «يُصَرِّفُهَا». لا يستقيم معها الوزن.

(٤) الْحَرْبُ: الوَيْلُ والهلاك.

(٥) فِي كَثْبِهِ: فِي قُرْبِهِ وَتَمَكُّنِهِ.

(٦) ضَبَطَتْ عِنْدَ مَكِّي: «عَجْمِهِ» مِمَّا يُخْلُ بِالْوِزْنِ.

وَالْحَمْدُ^(١) لِلَّهِ فِي تَفَضُّلِهِ
 وَقَمْعِهِ لِلزَّمَانِ فِي نُوبِهِ^(٢)
 أَخْدَمَنَا الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَمَنْ
 فِي الْجَوِّ مِنْ مَائِهِ وَمِنْ شُهُبِهِ
 فَاسْمَعْ وَدَعْ مَنْ عَصَاهُ نَاحِيَةً
 لَا يَحْمِلُ الْحِمْلَ^(٣) غَيْرُ مُحْتَطِبِهِ
 وَأَقُولُ أَيْضاً:

[من الطويل]

أَعَارَتْكَ دُنْيَا مُسْتَرِدٍّ مَعَارُهَا
 غَضَارَةٌ عَيْشٍ سَوْفَ يَذْوِي اخْضِرَّارُهَا
 وَهَلْ يَتَمَنَّى الْمُحْكَمُ الرَّأْيِ عَيْشَةً
 وَقَدْ حَانَ مِنْ دُهِمٍ^(٤) الْمَنَايَا مَزَارُهَا
 وَكَيْفَ تَلَذُّ الْعَيْنُ هَجْعَةً سَاعَةٍ
 وَقَدْ طَالَ فِيمَا عَايَنْتَهُ اعْتِبَارُهَا
 وَكَيْفَ تَقَرُّ النَّفْسُ فِي دَارِ نُقْلَةٍ^(٥)
 قَدْ اسْتَيْقَنْتَ أَنْ لَيْسَ فِيهَا قَرَارُهَا
 وَأَتَى لَهَا فِي الْأَرْضِ خَاطِرُ فِكْرَةٍ
 وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيْنَ مَحَارُهَا!

(١) في ط . التونسية : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » .

(٢) النَّوْبُ : جمع نوبة : وهي النازلة والمصيبة . ومثلها : النائبة وجمعها نوائب .
 (الوسيط/ ناب) .

(٣) قرأ القاسمي : « الْحِمْلُ » . ومكي « الْحَمْلُ » . ولم تُضْبَطْ عِنْدَ عَبَّاسٍ .

(٤) مكي : « دَهْمٌ » .

(٥) مكي : « تَقَرُّ النَّفْسُ فِي دَارِ نُقْلَةٍ » .

أليس لها في السَّعي للفوز شاغلٌ
 أما في توقُّعها العذابَ ازدجارها؟
 فخابَتْ نفوسٌ قادها لهوُ ساعةٍ
 إلى حرّ نارٍ ليس يُطفأ أوارها
 لها سائقٌ حادٌ حيثُ مُبادِرٌ
 إلى غيرِ ما أضْحى إليه مدارها
 تُرادُ لأمرٍ وهي تَطْلُبُ غيرَه
 وتَقْصِدُ وجهًا في سِوَاهُ سفارها
 أمسرعةً فيما يسوءُ قيامها
 وقد أيقنتُ أنَّ العذابَ قصارها
 تُعْطِلُ مفروضاً، وتُعْنَى ^(١) بفضلةٍ
 لقد شَفَّها طغيانها واغترارها
 إلى ما لها مِنْهُ البلاءُ، سكونها
 وعمَّالها مِنْهُ التَّجَاحُ، نِفارها
 وتُعْرِضُ عن رَبِّ دَعَاها للرُّشْدِها
 وتتبعُ دُنْيَا، جدَّ عنها فرارها
 فيا أيُّها المَغْرورُ، بادِرْ برَجْعَةٍ
 فليَّله دارٌ ليس تخمُدُ ^(٢) نارها
 ولا تَخَيِّرُ فانيّاً دونَ خالِدٍ
 دليلٌ على محضِ العقولِ، اختيارها
 اتَّعَلَّمُ أنَّ الحقَّ فيما تَرَكْتَهُ
 وتسلُّكٌ سُبُلًا ليس يخفى عوارها؟

(١) قرأها مكي وعباس: «وتُعْنَى بِفَضْلَةٍ». (٢) د. عباس «تُخْمَدُ».

وَتَشْرُكُ بَيْضَاءَ الْمَنَاهِجِ ضِلَّةً^(١)
لِبَهْمَاءٍ يُؤْذِي الرَّجُلَ فِيهَا عِثَارُهَا
تُسَرُّ^(٢) بَلَهْوٍ مُعْقَبٍ بِنْدَامَةٍ
إِذَا مَا انْقَضَى لَا يَنْقُضِي مُسْتَتَارُهَا
وَتَفْنَى اللَّيَالِي وَالْمَسَرَّاتُ كُلُّهَا
وَتَبْقَى تِبَاعَاتُ الدُّنُوبِ وَعَارُهَا
فَهَلْ أَنْتَ يَا مَغْبُونٌ مُسْتَيْقِظٌ؟ فَقَدْ
تَبَيَّنَ مِنْ سِرِّ الْخُطُوبِ اسْتِتَارُهَا
فَعَجَّلْ إِلَى رِضْوَانِ رَبِّكَ وَاجْتَنِبْ
نَوَاهِيَهُ، إِذْ قَدْ تَجَلَّى مَنَارُهَا
يُجِدُّ مَرُورَ^(٣) الدَّهْرِ عَنْكَ بِلَاعِبٍ
وَتُغْرَى بِدُنْيَا سَاءَ فَيْكِ سِرَارُهَا
فَكَمْ أَمَّةٌ قَدْ غَرَّهَا الدَّهْرُ قَبْلَنَا
وَهَاتِيكَ مِنْهَا مُقْفِرَاتُ دِيَارُهَا
تَذَكَّرْ عَلَى مَا قَدْ مَضَى وَاعْتَبِرْ بِهِ
فَإِنَّ الْمَذَكِّيَ لِلْعُقُولِ اعْتِبَارُهَا
تَحَامَى ذَرَاهَا كُلُّ بَاغٍ وَطَالِبٍ
وَكَانَ ضَمَانًا فِي الْأَعَادِي انْتِصَارُهَا
تَوَافَتْ بِبَطْنِ الْأَرْضِ وَانْشَتَّ شَمْلُهَا
وَعَادَ إِلَى ذِي مُلْكِهِ مُسْتَعَارُهَا^(٤)

(١) مكي: «ضِلَّةً». وغير مضبوطة عند عباس.

(٢) مكي: «تُسَرُّ». (٣) مكي: «يُجِدُّ مَرُورَ». وعباس: «يَجِدُّ مَرُورَ».

(٤) مكي والقاسمي: «ذِي مُلْكِهِ اسْتَعَارُهَا». وأخذنا بقراءة عباس لصحة تركيبها

وكم راقِدٍ في غَفْلَةٍ عَنْ مَنِيَّةٍ
 مُشَمَّرَةٍ فِي الْقَصْدِ وَهَوٍ سِعَارُهَا ^(١)
 وَمَظْلَمَةٍ قَدْ نَالَهَا مُتَسَلِّطٌ
 مُدِلٌّ بِأَيْدٍ، عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ثَارُهَا
 أَرَاكَ إِذَا حَاوَلْتَ دُنْيَاكَ سَاعِيًا
 عَلَى أَنَّهَا بَادٍ إِلَيْكَ ارْوَارُهَا
 وَفِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ يُقْعِدُكَ الْوَنَى
 وَتُبْدِي أَنَاةً لَا يَصِحُّ اغْتِذَارُهَا
 تُحَاذِرُ إِخْوَانًا سَتَفَنَى وَتَنْقُضِي
 وَتَنْسَى الَّتِي فَرَضَ عَلَيْكَ حِذَارُهَا
 كَأَنِّي أَرَى مِنْكَ التَّبَرُّمَ ظَاهِرًا
 مُبِينًا إِذَا الْأَقْدَارُ حَلَّ اضْطِرَارُهَا
 هُنَاكَ يَقُولُ الْمَرْءُ مَنْ لِي بِأَعْصُرٍ
 مَضَتْ كَانَ مُلْكًا فِي يَدَيَّ خِيَارُهَا
 تَنَبَّهْ لِيَوْمٍ قَدْ أَظْلَكَ وَرْدُهُ ^(٢)
 عَصِيبٌ يُوَافِي النَّفْسَ فِيهِ اخْتِضَارُهَا
 تَبَرَّأَ فِيهِ مِنْكَ كُلُّ مُخَالِطٍ
 وَأَنْ ^(٣) مِنَ الْأَمَالِ فِيهِ انْهِيَارُهَا
 فَأُودِعْتَ فِي ظُلْمَاءَ ضَنْكِ مَقَرُّهَا
 يَلُوحُ عَلَيْهَا لِلْعُيُونِ اغْبِرَارُهَا

(١) عباس: «شعارها».

(٢) عباس: «وَرْدُهُ» والقاسمي: «وَرْدُهُ»، ولم يضبطها مكِّي.

(٣) مكِّي: «وَأَنْ مِنَ الْأَمَالِ». والقاسمي: «وَحَانَ مِنَ الْأَمَالِ».

تُنَادَى فَلَا تَدْرِي الْمُنَادِي مُفْرَدًا^(١)
 وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجْهِ الْحَيَاةِ خِمَارُهَا
 تُنَادَى^(٢) إِلَى يَوْمٍ شَدِيدٍ مُفْرَعٍ
 وَسَاعَةِ حَشَرٍ لَيْسَ يَخْفَى اسْتِهَارُهَا
 إِذَا حُشِرَتْ فِيهِ الْوُحُوشُ وَجُمِعَتْ
 صَحَائِفُنَا وَانْثَالَ فِيْنَا انْتِشَارُهَا^(٣)
 وَزِينَتِ الْجَنَّاتِ فِيهِ وَأُزْلِفَتْ
 وَأُذْكِي مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ اسْتِعَارُهَا
 وَكُورَتِ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ بِالضُّحَى
 وَأُسْرِعَ مِنْ زُهْرِ النُّجُومِ انْكِدَارُهَا
 لَقَدْ جَلَّ أَمْرٌ كَانَ مِنْهُ انْتِظَامُهَا
 وَقَدْ حَلَّ أَمْرٌ، كَانَ مِنْهُ انْتِشَارُهَا
 وَسُيِّرَتِ الْأَجْبَالُ وَالْأَرْضُ بُدِّلَتْ
 وَقَدْ عُطِّلَتْ مِنْ مَالِكِيهَا عِشَارُهَا
 فِيمَا لِدَارٍ لَيْسَ يَفْنَى نَعِيمُهَا
 وَإِمَّا لِدَارٍ لَا يُفَكُّ إِسَارُهَا
 بِحَضْرَةِ جَبَّارٍ رَفِيقٍ مُعَاقِبٍ
 فَتُخَصَّى الْمَعَاصِي كُبْرُهَا وَصِغَارُهَا
 وَيَنْدُمُ يَوْمَ الْبَعْثِ، جَانِي صِغَارِهَا
 وَتُهْلِكُ أَهْلِيهَا هُنَاكَ كِبَارُهَا

(١) هذه قراءة مكِّي وعباس . وقرأ القاسمي في ط . التونسية : « تنادي فلا تدري المنادي مُفْرَدًا » .

(٢) القاسمي : « تنادي » . (٣) مكِّي : « انتثارها » .

سَتَغْبِطُ أَجْسَادَ وَتَحْيَا نَفُوسَهَا
إِذَا مَا اسْتَوَى إِسْرَارُهَا وَجِهَارُهَا
إِذَا حَفَّهُمْ عَفْوُ الْإِلَهِ وَفَضْلُهُ
وَأَسْكَنَهُمْ دَاراً حَلالاً عَقَارُهَا
سِيلَحَقُّهُمْ أَهْلُ الْفُسُوقِ إِذَا اسْتَوَى
بِحَلْبَةِ سَبْقٍ، طَرْفُهَا ^(١) وَحِمَارُهَا
يَفِرُّ بَنُو الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ الَّتِي
يُظَنُّ عَلَى أَهْلِ الْحُظُوظِ اقْتِصَارُهَا
هِيَ الْأُمُّ خَيْرُ الْبِرِّ فِيهَا عُقُوقُهَا
وَلَيْسَ بِغَيْرِ الْبَذْلِ يُحْمَى ذِمَارُهَا
فَمَا نَالَ مِنْهَا الْحِظَّ إِلَّا مُهِنُهَا
وَمَا الْهُلْكَ إِلَّا قُرْبُهَا وَاعْتِمَارُهَا
تَهَافَّتَ فِيهَا طَامِعٌ بَعْدَ طَامِعٍ
وَقَدْ بَانَ لِلْبِّ الذِّكْيِ اخْتِبَارُهَا
تَطَامَنُ لِعَمْرِ الْحَادِثَاتِ وَلَا تَكُنْ
لَهَا ذَا اعْتِمَارٍ، يَجْتَنِبُكَ ^(٢) غِمَارُهَا
وإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهَا بِمَا تَرَى
فَقَدْ صَحَّ فِي الْعَقْلِ الْجَلِيِّ عِيَارُهَا
رَأَيْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ يَبْغُونَ عُدَّةً
وَلَنَدَّةً نَفْسٍ يُسْتَطَابُ اجْتِرَارُهَا

(١) في ط . التونسية : « طَرْفُهَا » .

(٢) مكِّي : « يجتنبك » .

وَحَلَّلُوا طَرِيقَ الْقَصْدِ فِي مُبْتَغَاهُمْ
لِمَعْقَبَةِ الصَّغَارِ جَمِّ صَغَارُهَا^(١)
وَأَنَّ الَّتِي يَبْغُونَ نَهْجَ بَقِيَّةٍ^(٢)
مَكِينٌ لِطُلَّابِ الْخَلَاصِ اخْتِصَارُهَا
هَلِ الْعِزُّ إِلَّا هِمَّةٌ صَحَّ صَوْنُهَا
إِذَا صَانَ هِمَاتِ الرِّجَالِ انْكِسَارُهَا
وَهَلِ رَابِحٌ إِلَّا امْرُؤٌ مُتَوَكِّلٌ
قَنُوعٌ غَنِيُّ النَّفْسِ، بَادٍ وَقَارُهَا
وَيَلْقَى وَلَاءَهُ^(٣) الْمُلْكُ خَوْفًا وَفِكْرَةً
تَضِيقُ بِهَا ذُرْعًا وَيَفْنَى اضْطِبَارُهَا
عَيَانًا نَرَى هَذَا، وَلَكِنْ سَكْرَةً
أَحَاطَتْ بِنَا مَا إِنْ يُفِيقُ خُمَارُهَا
تَذَبَّرْ: مَنْ^(٤) الْبَانِي عَلَى الْأَرْضِ سَقْفَهَا
وَفِي عِلْمِهِ، مَعْمُورُهَا وَقِفَارُهَا؟
وَمَنْ يُمَسِّكُ الْأَجْرَامَ وَالْأَرْضَ أَمْرُهُ
بِلَا عَمَدٍ^(٥) يُبْنَى عَلَيْهِ قَرَارُهَا؟
وَمَنْ قَدَّرَ التَّذْبِيرَ فِيهَا بِحِكْمَةٍ
فَصَحَّ لَدَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا؟

(١) قرأه مكّي: «لِمُتَبِعِهِ الصَّغَارُ جَمِّ صَغَارُهَا». والقاسمي: «لِمُتَبِعِهِ الصَّغَارُ جَمِّ

صَغَارُهَا». دون ضبط وافي ولا تعليق في أي من الطبقات.

(٢) هذه قراءة عباس. وقرأ مكّي والقاسمي: «نَهْجَ بَقِيَّةٍ».

(٣) في ط. التونسية: «وَلَاءَهُ».

(٤) مكّي: «مَنْ الْبَانِي». ولعله خطأ مطبعي.

(٥) ط. التونسية: «عَمَدٍ».

وَمَنْ فَتَقَ الْأَمْوَاهُ فِي صَفْحٍ ^(١) وَجْهَهَا
فَمِنْهَا يُغْذَى ^(٢) حَبُّهَا وَثِمَارُهَا؟
وَمَنْ صَيَّرَ الْأَلْوَانَ فِي نُورِ نَبْتِهَا
فَأَشْرَقَ فِيهَا وَرَدُّهَا وَبَهَارُهَا؟
فَمِنْهُمْ مَخْضَرٌّ يَرُوقُ بِصَيْصُهُ
وَمِنْهُمْ مَا يَغْشَى اللَّحَاطَ أَحْمَرُهَا
وَمَنْ حَفَرَ الْأَنْهَارَ دُونَ تَكْلُفٍ
فَنَارَ مِنَ الصَّمِّ الصَّلَابِ انْفِجَارُهَا؟
وَمَنْ رَتَّبَ الشَّمْسَ الْمُنِيرَ أَبْيَاضُهَا
غُدُّوْا، وَيَبْدُوْا بِالْعَشِيِّ اصْفَرُّهَا؟
وَمَنْ خَلَقَ الْأَفْلَاكَ فَاُمْتَدَّ جَرِيُّهَا
وَأَحْكَمَهَا حَتَّى اسْتَقَامَ مَدَارُهَا؟
وَمَنْ إِنْ أَلَمَّتْ بِالْعُقُولِ رَزِيَّةٌ
فَلَيْسَ إِلَى حَيٍّ سِوَاهُ افْتِقَارُهَا؟
تَجِدُ كُلَّ هَذَا رَاجِعاً نَحْوَ خَالِقٍ
لَهُ مُلْكُهَا مُنْقَادَةٌ ^(٣) وَائْتِمَارُهَا
أَبَانَ لَنَا الْآيَاتِ فِي أَنْبِيَائِهِ
فَأَمَكْنَ بَعْدَ الْعَجْزِ فِيهَا افْتِدَارُهَا
فَأَنْطَقَ أَفْوَاهُهَا بِالْفَاطِظِ حِكْمَةٍ
وَمَا حَلَّهَا إِنْغَارُهَا وَاتِّغَارُهَا

(١) ط. التونسية: «صَفْحٍ»، وغير مضبوطة عند مكّي.

(٢) عباس: «تَغْذَى» بصيغة الماضي.

(٣) مكّي: «منقادة».

وَأَبْرَزَ مِنْ صَمِّ الْحِجَارَةِ نَاقَةً
 وَأَسْمَعَهُمْ فِي الْحِينِ مِنْهَا حُورَاهَا^(١)
 لِيُوقِنَ أَقْوَامٌ وَتَكْفُرَ عُصْبَةٌ
 أَنَّهَا بِأَسْبَابِ الْهَلَاكِ قُدَّارُهَا^(٢)
 وَشَقَّ لِمُوسَى الْبَحْرَ دُونَ تَكْلَفٍ
 وَبَانَ مِنَ الْأَمْوَاجِ فِيهِ أَنْحِسَارُهَا
 وَسَلَّمَ مِنْ نَارِ الْأَثْنُونِ^(٣) خَلِيلُهُ
 فَلَمْ يُؤْذِهِ إِحْرَاقُهَا وَاحْتِرَارُهَا^(٤)
 وَنَجَّى مِنَ الطُّوفَانِ نُوحًا وَقَدْ هَدَتْ
 بِهِ أُمَّةٌ أَبَدِيَّ الْفُسُوقِ شِرَارُهَا
 وَمَكَّنَ دَاوُدَ بِإَيْدٍ^(٥) ، وَابْنَهُ ،
 فَتَغَسَّيَرُهَا مُلْقَى لَهُ وَبِدَارُهَا^(٦)
 وَذَلَّلَ جَبَّارَ الْبِلَادِ لِأَمْرِهِ
 وَعَلَّمَ^(٧) مِنْ طَيْرِ السَّمَاءِ حُورَاهَا

- (١) هذه قراءة عباس، وعند مكِّي: «حُورَاهَا». والقاسمي: «خُورَاهَا».
- (٢) قرأها عباس: «قُدَّارُهَا» بتوجيه المعنى إلى «قُدَّارِ بْنِ سَالِفٍ عَاقِرِ النَّاقَةِ». ووردت عند مكِّي والقاسمي: «قِدَّارُهَا».
- (٣) انفرد مكِّي بقراءتها: «الْأَثْنُونُ».
- (٤) قرأها مكِّي والقاسمي: «وَاعْتَرَاها». والاحتراز: الالتهاب.
- (٥) في ط. التونسية: «بِإَيْدِهِ» مضافاً من المحقق.
- (٦) هكذا ورد عند مكِّي والقاسمي. وورد في بعض الطبقات: «ويسارها» بدل «بِدَارُهَا» وذلك مقابلةً لـ«تغسيها». إلا أن د. عباس يقرأ: «فتغسيها مُلْقَى لَهُ وَبِدَارُهَا» وهي قراءة خاصة به.
- (٧) مكِّي: «عَلَّمَ». وفي التونسية دون ضبط.

وَفَضَّلَ بِالْقُرْآنِ أُمَّةَ أَحْمَدٍ
 وَمَكَّنَ فِي أَقْصَى الْبِلَادِ مُغَارُهَا
 وَشَقَّ لَهُ بَذَرَ السَّمَاءِ وَخَصَّهُ
 بِآيَاتِ حَقٍّ لَا يَخْلُ مُعَارُهَا ^(١)
 وَأَنْقَذَنَا مِنْ كُفْرٍ أَرْبَابِنَا بِهِ
 وَكَانَ عَلَى قُطْبِ الْهَلَاكِ مَنَارُهَا ^(٢)
 فَمَا بَالُنَا لَا نَتْرُكُ الْجَهْلَ وَبِحَنَّا
 لِنَسْلَمَ مِنْ نَارٍ تَرَامِي شَرَارُهَا؟

(١) كذا بقراءة مكّي والقاسمي . وقرأها عباس : «بآياتِ حَقٍّ لَا يُجِلُّ مُغَارُهَا» .

(٢) قرأها عباس : «مدارها» .

[خاتمة الرسالة]

هنا أعزَّكَ اللهُ انتهى ما تذكَّرتُهُ إيجاباً لك، وتَقَمُّناً^(١) لِمَسَرَّتِكَ، وَوُفُوفاً عِنْدَ أَمْرِكَ. وَلَمْ أَمْتَنِعْ أَنْ أوردَ لك في هذه الرِّسَالَةِ أشياءَ يَذْكُرُهَا الشُّعْرَاءُ، وَيُكْثِرُونَ الْقَوْلَ فِيهَا، مُوفِّيَاتٍ عَلَى وَجْهِهَا، وَمُفْرَدَاتٍ فِي أَبْوَابِهَا، وَمُنْعَمَاتٍ التَّفْسِيرِ، مِثْلَ الْإِفْرَاطِ فِي صِفَةِ الثُّحُولِ، وَتَشْبِيهِ الدُّمُوعِ بِالْأَمْطَارِ وَأَنَّهَا تَرُوي السُّفَّارَ، وَعَدَمِ النَّوْمِ الْبَتَّةَ، وَانْقِطَاعِ الْغِذَاءِ جُمْلَةً، إِلَّا أَنَّهَا أشياءٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَكَذِبٌ لَا وَجْهَ لَهُ^(٢)، وَلِكُلِّ شَيْءٍ حَدٌّ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا. وَالثُّحُولُ قَدْ يَعْظُمُ وَلَوْ صَارَ حَيْثُ يَصِفُونَهُ لَكَانَ فِي قَوَامِ الدَّرَّةِ أَوْ دُونِهَا، وَلَخَرَجَ عَنْ حَدِّ الْمَعْقُولِ. وَالسَّهَرُ قَدْ يَتَّصِلُ لَيْالِي، وَلَكِنْ، لَوْ عَدِمَ الْغِذَاءُ أَسْبُوعَيْنِ لَهَلَكَ. وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ الصَّبْرَ عَنِ النَّوْمِ أَقْلُ مِنَ الصَّبْرِ عَنِ الطَّعَامِ، لِأَنَّ النَّوْمَ غِذَاءُ الرُّوحِ وَالطَّعَامَ غِذَاءُ الْجَسَدِ، وَإِنْ كَانَا يَشْتَرِكَانِ فِي كِلَيْهِمَا، وَلَكِنَّا حَكِينَا عَلَى الْأَغْلَبِ. وَأَمَّا الْمَاءُ فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ مَيْسُورًا الْبَتَاءَ جَارَنَا بِقُرْطُبَةَ يَصْبِرُ عَنِ الْمَاءِ أَسْبُوعَيْنِ فِي حِمَارَةِ الْقَيْظِ، وَيَكْتَفِي بِمَا فِي غِذَائِهِ مِنْ رُطُوبَةٍ. وَحَدَّثَنِي

(١) تَقَمُّناً: تَوَخَّياً وَتَحَرَّياً. وَتَقَمَّنَ مَسَرَّتَهُ: تَوَخَّاهَا.

(٢) تُشَكِّلُ هذه العبارة الطويلة على القارئ للتباعد بين بدايتها ونهايتها، وأبو حزم يقول: «ولم أمتنع أن أورد لك... أشياء... إِلَّا [لأنَّهَا] أشياء لا حقيقة لها، وكذب...» فقد منعه من إيراد تلك الأشياء كونها منافية للحقيقة، وكاذبة...»

القَاضِي أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَحَافٍ^(١) أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ مَنْ كَانَ لَا يَشْرَبُ الْمَاءَ شَهْرًا.

وإنَّما افْتَصَرْتُ في رسالتي على الحَقَائِقِ المَعْلُومَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ وُجُودُ سِوَاهَا أَصْلًا، على أَنِّي قَدْ أوردْتُ مِنْ هَذِهِ الوُجُوهِ المَذْكُورَةِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً يُكْتَفَى بِهَا لَيْلًا أَخْرَجَ عَنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ الشَّعْرِ وَمَذْهَبِهِمْ. وَسَيَرَى كَثِيرٌ مِنْ إِخْوَانِنَا أَخْبَارًا لَهُمْ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ مَكْنِيًّا فِيهَا عَنْ أَسمَائِهِمْ، على ما شَرَطْنَا في ابْتِدَائِهَا.

وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى مِمَّا يَكْتُبُهُ^(٢) الْمَلَكَانِ، وَيُحْصِيهِ الرَّقِيبَانِ، مِنْ هَذَا وَشَبَّهَهُ اسْتِغْفَارَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ، وَلَكِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ اللُّغْوِ الَّذِي لَا يُؤَاخِذُ بِهِ الْمَرْءَ، فَهُوَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ اللَّيْمِ المَعْفُوِّ، وَإِلَّا فَلَيْسَ مِنَ السَّيِّئَاتِ والفَوَاحِشِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ عَلَيْهَا الْعَذَابُ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ مِنَ الْكِبَائِرِ الَّتِي وَرَدَ النَّصُّ فِيهَا.

وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُنَكِّرُ عَلَيَّ بَعْضُ الْمُتَعَصِّبِينَ عَلَيَّ تَأْلِيفِي لِمِثْلِ هَذَا، وَيَقُولُ: «إِنَّهُ خَالَفَ طَرِيقَتَهُ، وَتَجَافَى عَنْ وُجْهِتِهِ». وَمَا أَجَلَ لِأَحَدٍ أَنْ يَظُنَّ فِي غَيْرِ مَا قَصَدْتُهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْجَسُورِ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دَلِيمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَضَّاحٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي

(١) القاضي أبو عبد الرحمن بن جحاف: سبق ذكره - ص ٣٣٣.

(٢) التونسية: «يَكْتُبُ».

الرُّبَيْرِ الْمَكِّي، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْكَعْبِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّهُ أَكْذَبُ الْكَذِبِ»^(١).

وَبِهِ إِلَى مَالِكٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُقْبَرِيِّ، عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢).

وَحَدَّثَنِي صَاحِبِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ الْأَزْدِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَائِذٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَدِيٍّ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ الْفَرَجِ الْإِمَامِ بِمِصْرَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ قَاسِمٍ بْنِ دَحِيمٍ الْمِصْرِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا الْعَلَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّاسِ ثَمَانِي عَشْرَةَ كَلِمَةً مِنَ الْحِكْمَةِ مِنْهَا: «ضَعُ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيكَ مَا يَغْلِبُكَ عَلَيْهِ، وَلَا تَظُنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِي أَمْرِي مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا». فَهَذَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ - أَدَبُ اللَّهِ وَأَدَبُ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَدَبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنِّي لَا أَقُولُ بِالْمُرَاءَةِ وَلَا أَنْسُكَ نُسْكَاً أَعْجَبِيًّا^(٣).

(١) الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ...»: ينظر «مسند الإمام أحمد»: ج ٢/ص ٢٥٤ -

٢٨٧ على التوالي. وثمة مواضع أخرى ورد فيها الحديث بلفظ مقارب.

(٢) الحديث: «من كان يؤمن...» ورد في «صحيح مسلم» - ج ١ - كتاب

الإيمان - باب الحث... ولزوم الصمت - الحديث (رقم ٧٤ - ٧٥) - ص ٦٨.

وتجده أيضاً في «مسند الإمام أحمد»: ج ٢/ص ١٧٤ - ٢٦٤ على التوالي.

(٣) «ذاك رجل نسكاً أعجمياً» و«لقد نسكوا نُسْكَاً أعجمياً» عبارة قيلت في

أناس استنكروا رواية الشعر وكرهوا إنشاده، دليلاً على شدة التزمّت. ينظر

البيان والتبيين للجاحظ: (ج ١/ص ٢٠٢).

وَمَنْ أَدَّى الْفَرَائِضَ الْمَأْمُورَ بِهَا، وَاجْتَنَّبَ الْمَحَارِمَ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا.
وَلَمْ يَنْسَ الْفَضْلَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَقَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِحْسَانِ،
وَدَعْنِي مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَحَسْبِيَ اللَّهُ.

وَالْكَلَامُ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّمَا هُوَ مَعَ خَلَاءِ الذَّرْعِ^(١)،
وَفَرَاغِ الْقَلْبِ. وَإِنَّ حِفْظَ شَيْءٍ وَبَقَاءَ رَسْمٍ، وَتَذَكُّرَ فَائِتٍ،
لِمِثْلِ خَاطِرِي، لَعَجِبْتُ عَلَى مَا مَضَى وَدَهَمَنِي؛ فَأَنْتَ تَعْلَمُ
أَنَّ ذِهْنِي مُتَقَلِّبٌ، وَبَالِي مُهْصَرٌ^(٢) بِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نُبُوِّ
الْدَّيَارِ، وَالْجَلَاءِ عَنِ الْأَوْطَانِ، وَتَغَوُّلِ الزَّمَانِ، وَنَكَبَاتِ
السُّلْطَانِ، وَتَغْيِيرِ الْإِخْوَانِ، وَفَسَادِ الْأَحْوَالِ، وَتَبَدُّلِ الْأَيَّامِ،
وَذَهَابِ الْوَفْرِ، وَالْخُرُوجِ عَنِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ، وَاقْتِطَاعِ
مَكَاسِبِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَالْعُرْبَةِ فِي الْبِلَادِ، وَذَهَابِ
الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَالْفِكْرِ فِي صَيَانَةِ الْأَهْلِ وَالْوُلْدِ، وَالْيَأْسِ
عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى مَوْضِعِ الْأَهْلِ. وَمُدَافَعَةِ الدَّهْرِ، وَانْتِظَارِ
الْأَقْدَارِ، لَا جَعَلَنَا اللَّهُ مِنَ الشَّاكِينَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَأَعَادَنَا إِلَى
أَفْضَلِ مَا عَوَّدَنَا.

وَإِنَّ الَّذِي أَبْقَى لَأَكْثَرُ مِمَّا أَخَذَ، وَالَّذِي تَرَكَ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي
تَحَيَّفَ، وَمَوَاهِبُهُ الْمُحِيطَةُ بِنَا وَنِعْمُهُ الَّتِي غَمَرَتْنا لَا تُحَدُّ. وَلَا يُودَى
شُكْرُهَا، وَالْكُلُّ، مِنْحُهُ وَعَطَايَاهُ، وَلَا حُكْمٌ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا وَنَحْنُ

(١) الذَّرْعُ: الخُلُقُ.

(٢) مهْصَرٌ: هَصَرَ الشَّيْءُ: كَسَرَهُ، وَالْعُصْنَ: عَطَفَهُ وَكَسَرَهُ مِنْ غَيْرِ فَضْلِ.
وَالْمَعْنَى هُنَا عَلَى الْمَجَازِ: انْكَسَارُ خَاطِرِهِ وَانْشِغَالُهُ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ
الْهِمُومِ.

مِنْهُ، وَإِلَيْهِ مُتَقَلِّبُنَا، وَكُلُّ عَارِيَةٍ فَرَاجِعَةٍ إِلَى مُعِيرِهَا. وَلَهُ الْحَمْدُ أَوَّلًا
وَأَخِرًا وَعَوْدًا وَبَدَأً وَأَنَا أَقُولُ:

[من الوافر]

جَعَلْتُ الْيَأْسَ لِي حِصْنًا وَدِرْعًا
فَلَمْ أَلْبَسْ ثِيَابَ الْمُسْتَضَامِ
وَأَكْثَرُ مَنْ جَمِيعِ النَّاسِ عِنْدِي
يَسِيرُ صَائِنِي دُونَ الْأَنَامِ
إِذَا مَا صَحَّ لِي دِينِي وَعِرْضِي
فَلَسْتُ لِمَا تَوَلَّى ذَا اهْتِمَامِ
تَوَلَّى الْأَمْسُ وَالْغَدُ لَسْتُ أُدْرِي
أَأَدْرِكُهُ فَفِي مَاذَا اغْتِمَامِي ^(١)؟
جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنَ الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ الْحَامِدِينَ الذَّاكِرِينَ.
آمِينَ آمِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَالِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا.

(١) ورد عند مكِّي والقاسمي: «ففيما ذا اغتمامي» وهي قراءة تعطي معنى آخر.
وعلاوة الاستفهام في نهاية البيت مضافة مني.

[تعليق ناسخ المخطوطة]

كَمَلَتِ الرِّسَالَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِطُوقِ الْحَمَامَةِ، لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ حَزَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ حَذْفِ أَكْثَرِ أَشْعَارِهَا. وَإِبْقَاءِ الْعُيُونِ مِنْهَا، تَحْسِينًا لَهَا، وَإِظْهَارًا لِمَحَاسِنِهَا، وَتَضْغِيرًا لِحُجْمِهَا، وَتَسْهِيلًا لَوْجَدَانِ الْمَعَانِي الْغَرِيبَةِ مِنْ لَفْظِهَا، بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ، وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ. وَفُرُغَ مِنْ نَسْخِهَا مُسْتَهْلًا رَجَبَ الْفَرْدِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ [= ١٣٣٨م]^(١). وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) هذه إضافة من د. مكّي في طبعته. وكتب القاسمي تعليقاً مماثلاً في الحاشية.

فهرس المحتويات

٥	تصدير
٩	مقدمة
٩	ابن حزم: حياته وشخصيته
١٤	مؤلفات ابن حزم وآثاره
١٨	«طوق الحمامة» موضوعه ومضمونه:
٢٥	طريقته ومنهجه
٢٧	قصة الكتاب وتاريخ تأليفه
٢٩	«طوق الحمامة» وسر التسمية
٣١	منهج الرسالة وخطة التأليف
٣٤	تاريخ المخطوطة وطبعات «الطوق»
٣٦	طبعات «الطوق» العربية:
٤٣	ترجمات «طوق الحمامة»
٤٤	دراسات حول ابن حزم ورسالته
٤٧	عملنا في الكتاب

صَدْرُ الرِّسَالَةِ وَأَبْوَابُهَا وَالْكَلَامُ فِي مَاهِيَةِ الْحُبِّ

٥٢	صَدْرُ الرِّسَالَةِ
٥٩	أبواب الرسالة
٦٣	أبواب الكتاب وفقاً لتسلسلها الآتي
٦٦	١ - الْكَلَامُ فِي مَاهِيَةِ الْحُبِّ
٨٢	٢ - بَابُ عَلَامَاتِ الْحُبِّ
١٠٠	٣ - بَابُ مَنْ أَحَبَّ فِي النَّوْمِ
١٠٢	٤ - بَابُ مَنْ أَحَبَّ بِالْوَصْفِ
١٠٦	٥ - بَابُ مَنْ أَحَبَّ مِنْ نَظَرٍ وَاحِدَةٍ
١١١	٦ - بَابُ مَنْ لَا يُحِبُّ إِلَّا مَعَ الْمُطَوَّلَةِ

- ٧ - بَابُ مَنْ أَحَبَّ صِفَةً لَمْ يَسْتَحْسِنْ بَعْدَهَا غَيْرَهَا مِمَّا يُخَالِفُهَا ... ١١٨
- ٨ - بَابُ التَّعْرِيضِ بِالْقَوْلِ ١٢٥
- ٩ - بَابُ الإِشَارَةِ بِالْعَيْنِ ١٢٨
- ١٠ - بَابُ الْمِرَاسِلَةِ ١٣٢
- ١١ - بَابُ السَّفِيرِ ١٣٥
- ١٢ - بَابُ طَيِّ السَّرِّ ١٣٩
- ١٣ - بَابُ الإِذَاعَةِ ١٤٧
- ١٤ - بَابُ الطَّاعَةِ ١٥٣
- ١٥ - بَابُ الْمُخَالَفَةِ ١٦٢
- ١٦ - بَابُ الْعَاذِلِ ١٦٣
- ١٧ - بَابُ الْمُسَاعَدِ مِنَ الْإِخْوَانِ ١٦٥
- ١٨ - بَابُ الرَّقِيبِ ١٧٠
- ١٩ - بَابُ الْوَاشِيِ ١٧٦
- ٢٠ - بَابُ الْوَصْلِ ١٩٠
- ٢١ - بَابُ الْهَجْرِ ٢٠٧
- ٢٢ - بَابُ الْوَفَاءِ ٢٣٠
- ٢٣ - بَابُ الْغَدْرِ ٢٤٠
- ٢٤ - بَابُ الْبَيْنِ ٢٤٢
- نَصْرُ رِثَاءِ قَرْطَبَةَ لِابْنِ حَزْم ٢٦٧
- ٢٥ - بَابُ الْقَنْوَعِ ٢٧١
- ٢٦ - بَابُ الضَّنَى ٢٨٦
- ٢٧ - بَابُ السُّلُوفِ ٢٩٢
- ٢٨ - بَابُ الْمَوْتِ ٣١٢
- ٢٩ - بَابُ قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ ٣٢٧
- ٣٠ - بَابُ فَضْلِ التَّعَفُّفِ ٣٧٠
- خَاتَمَةُ الرِّسَالَةِ ٣٩٣
- تَعْلِيقُ نَاسِخِ الْمَخْطُوطَةِ ٣٩٨